فريد الفالوجى

جواسيس الموساد العرب

قصة سقوط ٢٥ جاسوساً عربياً للموساد

فؤاد حمودة	هبة سليم	يعقوب جاسم
محمد كامل	توماس المصرى	فيكتور مناحيم
رجب عبد المعطى	عبد الفتاح عوض	عبد الله الشيعى
نبيل النحاس	سمير باسيلى	إبراهام موشيه
شاكر فاخورى	بهجت حمدان	خميس بيومى
	عمر حمودة	
جمال حسنين	زكى حبيب	أحمد ضاهر
السيد محمود	عيزرا خزام	نايف المصطفى
انشراح موسى	ناجى زلخا	سعيد العبد الله

مكتبة مدبولى

جواسيس الموساد العرب

أشهر ٢٥ جاسوساً

الناشر

مكتبة مدبولى

العنوان : ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ ـ **فاكس :** ٥٨٧٢٨٥٤

الكتاب : جواسيس الموساد العرب أشهر ٢٥ جاسوسا

الكاتب : فريد الفالوجى

الجمع التصويرى : مكتب النصر

تليفون : ٧٨٦٣١٩٩

رقم الإيداع : ١٤٤٩٩ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى : 7 - 395 - 208 - 977

الطبعة الأولى : ٢٠٠٣

الغلاف : أحمد صفوت

عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ و ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - مهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣ ـ فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

من ملفات الجاسوسية

فريد الفالوجى

جواسيس الموساد العرب

أشهر ٢٥ جاسوساً

فؤاد حمودة
محمد كامل
رجب عبد المعطى
نبيل النحاس
شاكر فاخورى
جمال حسنين
السيد محمود
انشراح موسى

هبة سليم
توماس المصرى
عبد الفتاح عوض
سمير باسيلى
بهجت حمدان
عمر حمودة
زكى حبيب
عيزرا خزام
ناجى زلخا

يعقوب جاسم
فيكتور مناحيم
عبد الله الشيعى
إبراهيم موشيه
خميس بيومى
أحمد ضاهر
نايف المصطفى
سعيد العبد الله

الناشر
مكتبة مدبولى
2003

تحذير

لا يجوز اقتباس .. أو تحويل مادة هذا الكتاب إلى مسلسل درامى فى الإذاعة أو التليفزيون .. أو استخدامها بأية وسيلة فنية أخرى .. إلا بموافقة كتابية من المؤلف .. وإلا فسيتعرض من يقوم بذلك للمسائلة القانونية ..

فريد الفالوجى

القاهرة – زهراء مدينة نصر

٠١٢٧١١٢٦٦٢

شكر وتقدير

بكل الحب .. أتوجه بالشكر لكل من ساهم ، أو ساعد ، فى إخراج هذا الكتاب إلى النور .. وأخص بالشكر الأصدقاء .. والأساتذة الأفاضل أصحاب الأقلام الحرة الجريئة :

– الأديب والصحفى اللامع الأستاذ / محمد حسن الألفى .

– الصحفى اللامع الأستاذ / هانى صلاح .

– الأستاذ المبدع / بركات على إبراهيم .

– الناقد الأدبى الأستاذ / على عبد الفتاح .

– الأستاذ / عبد الحميد قريطم الكاتب البليغ .

– الأستاذة / ثناء رستم بآخر ساعة .

– الصحفى القدير الأستاذ / سمير حسين .

– الأديب المتميز الأستاذ / نبيل خالد .

– الصحفى القدير الأستاذ / أحمد حسن الشرقاوى .

– الأستاذ الدكتور / سلامة منصور عبد العال .

– الأستاذ الدكتور / محمود ناجى السيسى .

– المسرحى القدير الأستاذ / فوزى عرفه .

– الأساتذة الأفاضل / مصطفى محمد أحمد مصطفى ، عبد العزيز المأذون ، عيد سويلم ، مهندس . هيثم عبد العال ، هانى الغنام ، إيهاب سنجر ، محسن الجمل ، طارق زلط .

جميعًا .. لهم منى جزيل الشكر والامتنان ..

فريد الفالوجى

إهـــداء

إلى هؤلاء الأبطال .. ذلكـم المجهولـون المعلومـون .. الذيـن ينسـون أنفسهم .. ويتذكرون مصر ..

ويشقون لتسعد مصر .. ويفنون لتبقى مصر ..

رجال مخابراتنا الفذذة .. !!

فريد الفالوجى

مقـــدمة

الأديب فريد الفالوجى يفتح ملفات أدب المخابرات والجاسوسية فى القرن العشرين .. وهذا النوع من الأدب بدأ الاهتمام به خلال الحروب وسقوط الإمبراطوريات الكبرى ، وغروب الشمس عن المستعمرات البريطانية ، وحرص الدول الكبرى ان تظل لها السيطرة الفكرية على الشعوب الأخرى ، سواء النامية أو المنافسة لها فى تطور الأسلحة والنظريات العلمية .

إن القضية الآن لم تعد قضية المعلومات أو اكتشاف سر حربى .. أو التفوق فى مجال اختراع ما .. وإنما هى قضية « المعلوماتية » .

وهذا المصطلح قد ظهر فى السنوات الأخيرة من هذا القرن ، ليؤكد لنا أن الشعوب لم تعد فى عزلة ، وأننا لسنا وحدنا فى هذا الكون ..

فما دمنا نحاول استراق السمع .. والتنصت على جيراننا للتفوق الذرى أو المجد الحضارى .. فإن هذه المعلومات والأسرار أصبحت بلا قيمة . فأنت من السهولة أن تلمسها وتراها .. وتنسخها من خلال شبكات الإنترنت عبر الفضائيات الكثيرة فى السماء .

لا ضرورة الآن لعلم « الجاسوسية » والتجسس وتجنيد أشخاص ذوى سمات نفسية ودراية مهنية وعقلية تكنولوجية .. لأن الكمبيوتر أصبح يؤدى دورًا أخطر من ذلك خلال الحرب والسلم .

ولذلك حينما نقرأ تلك القصص المستمدة من أدب الجاسوسية السياسى .. نرى أن الكاتب فريد الفالوجى يهدف إلى عرض نماذج .. ودلالات مقتطفة من حياة سياسية التهمت عقولاً .. ومزقت إنسانية الفرد .. وحولته فى معظم الأحيان إلى آلة بلا حس .. بلا صوت .. بلا نبض .

فالأنظمة السياسية أيًا كانت فى العالم الثالث .. أو الأول .. لم يكن الإنسان فى حد ذاته يشغل اهتمامها على خارطة التسابق النووى والتسلح المعرفى .. والبحث عن خيوط شبكات التجسس وحماية الأمن القومى .. لم تكن تتعامل مع صناعة الجاسوس بأنه فى المقام

الأول مجرد إنسان .. ولكنها تحشوه بالإمكانيات العلمية والعملية وتقذف به فى أرض الهلاك .

وهذه الصورة الآن قد بدات تختلف مع النظام العالمى الجديد ، فربما – فى السنوات القادمة – لن يكون هناك شيء اسْمُهُ « سرى جدًا » .. فالعولمة بما تحمله من قدرات فائقة ستجعل الكرة الأرضية غرفة واحدة أسرارها مكشوفة ، وأفكارها عارية .

ويرى الكاتب فريد الفالوجى من خلال هذه القصص التى يقدمها .. أنها تمثل رموزًا معينة لحقبة من تلك الحقب التى عانت فيها الشعوب وعاشت تكافح وتناضل من أجل بلادها .. ولا سيما القصص الخاصة بالتجسس لحساب المخابرات الإسرائيلية .. فقد كانت تشغلنا ، وأعطينا لها اهتمامًا بالغًا لأننا كنا ولا نزال فى صراع حربى وتكنولوجى مع إسرائيل .

ومن جهة أخرى يزيل الكاتب الستار عن أبشع ممارسات تتفنن فيها وكالات الاستخبارات الأجنبية .. وكيف يتم تجنيد الجواسيس وزرعهم داخل الأراضى الأخرى .

ونرى بعضًا من العلاقات الاجتماعية والوجدانية المشوهة بين هؤلاء الجواسيس يصل إلى أدنى مرتبة حيوانية وبوهيمية .. وقد يرتاع القلب وتتمزق النفس لهذا السقوط الشنيع .

وبمتابعة هذه القصص يمكن أن ندرك كيف تنمو الأفكار .. وتتصارع المذاهب .. وتختلف الاتجاهات بين الأفراد .. للوصول إلى المال والجنس والنفوذ والثراء الفاحش .. بحيث يصبح الإنسان مجرد لعبة فى أيدى الأنظمة .. أو هو فى الحقيقة آلة غير قادرة على الاعتراض أو المناقشة أو حتى إبداء الرأى .

إن أدب الجواسيس أيضًا قد أفاد تاريخنا ، فإنه أضاء الذهن وأثار الوعى القومى ، وأيقظ الحس الوطنى لنتوحد جميعًا فى مواجهة عدو قد أصبح خفيًا الآن .. يتسلل إلينا عبر الكتب والإذاعات المرئية .. وشبكات الاتصال العالمى « الإنترنت » وألعاب الفيديو التى يلهو بها الأطفال ؛ فمازالت تحمل فكرة الرجل الأمريكى « السوبر مان » الذى يقهر الصعب ويسيطر على كل شيء .

ولعل هذه الشبكات هى الجاسوس الحقيقى الآن الذى علينا أن نحاربه .

وقد أجاد الكاتب فريد الفالوجي فى السرد الدرامى لهذه القصص التى تعتبر سجلاً حافلاً بأحداث مرت .. وتعلمنا منها دروسًا فى الوطنية والدفاع عن الوطن ..

ومما جعل هذه القصص تتسم بالتشوق والمتعة الذهنية .. ما أضافه إليها الكاتب بأسلوبه العذب ، والتزامه بالحقائق التاريخية وتأهليها بكل الطرق المتاحة .

وتلك بداية لكشف ما وراء التاريخ .

وكشف الإنسان فى مواقفه المتناقضة .

والانتماء للوطن ..

والقيم العليا ..

والحياة الآمنة .. !!

على عبد الفتاح

(*) الكلمة جاءت فى كتابه : « للحب .. والجمال .. والحرية » عن دار الربيعان للنشر والتوزيع - الكويت - ١٩٩٨ .

مدخـــل

مثيرة جدًا .. قصص الجواسيس والخونة .. فهى تستهوى العقول على اختلاف مداركها .. وثقافاتها .. وتقتحم معها عوالم غريبة .. غامضة .. تضج بعجائب الخلق .. وشذوذ النفوس .

إنه عالم المخابرات والجاسوسية .. ذلك العالم المتوحش الأذرع .. غريم الصفاء .. والعواطف .. الذى لا يقر العلاقات أو الأعراف .. أو يضع وزنًا للمشاعر .. تُسيّجه دائمًا قوانين لا تعرف الرحمة .. أساسها الكتمان والسرية والجرأة .. ووقوده المال والنساء منذ الأزل . وحتى اليوم .. وإلى الأبد .. فهو عالم التناقضات بشتى جوانبها .. الذى يطوى بين أجنحته الأخطبوطية إمبراطوريات وممالك .. ويقيم نظمًا .. ويدحر جيوشًا وأممًا .. ويرسم خرائط سياسية للأطماع والمصالح والنفوذ .

والتجسس فن قديم .. لا يمكن لباحث أن يتكهن بتاريخ ظهوره وبدايته على وجه الدقة .. فقد تواجد منذ خلق الإنسان على وجه الأرض .. حيث بدأ صراع الاستحواذ والهيمنة .. وفرض قانون القوة .. باستخدام شتى الأساليب المتاحة .. وأهمها الجاسوس الذى يرى ويسمع وينقل ويصف .. فقد كان هو الأداة الأولى بلا منازع .

وفى القرن العشرين حدثت طفرة هائلة فى فن التجسس .. قلبت كل النظم القديمة رأسًا على عقب .. فبظهور التليفون والتلغراف ووسائل المواصلات السريعة .. تطورت أجهزة الاستخبارات بما يتناسب وتكنولوجيا التطور التى أذهلت الأدمغة .. للسرعة الفائقة فى نقل الصور والأخبار والمعلومات خلال لحظات .

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) نشطت أجهزة الاستخبارات بعدما تزودت بالخبرة والحنكة .. وشرعت فى تنظيم أقسامها الداخلية للوصول إلى أعلى مرتبة من الكفاءة والإجادة .. ورصدت لذلك ميزانيات ضخمة .. للإنفاق على جيوش من الجواسيس المدربين .. الذين انتشروا فى كل بقاع الأرض .. ولشراء ضعاف النفوس والضمائر

كل هؤلاء يحركهم طابور طويل من الخبراء والعلماء .. تفننوا فى ابتكار وإنتاج أغرب الوسائل للتغلغل .. والتنصت .. وتلقط الأخبار .. ومغافلة الأجهزة المضادة .

ففى تطور لم يسبق له مثيل .. ظهرت آلات التصوير الدقيقة التى بحجم الخاتم .. وكذلك أجهزة اللاسلكى ذات المدى البعيد والفاعلية العالية .. وأجهزة التنصت المعقدة .. وأدوات التمويه والتخفى السرية التى تستحدث أولاً بأول لتخدم أجهزة الاستخبارات .. وتعمل على تفوقها وسلامة عملائها .

تغيرت أيضًا نظريات التجسس .. التى اهتمت قديمًا بالشئون العسكرية فى المقام الأول .. إذ اتسعت دائرة التحليل الاستراتيجى والتسلح .. وشملت الأمور الاقتصادية والاجتماعية والفنية والعلمية والزراعية .. إلخ .. فكلها تشكل قاعدة هامة .. وتصب فى النهاية كمًا هائلاً من المعلومات الحيوية .. تتضح بتحليلها أسرار شائكة تمثل منظومة معلوماتية متكاملة .

وفى النصف الأخير من القرن العشرين .. تطورت أجهزة الاستخبارات فى سباق محموم للتميز والتفوق .. وظهرت طائرات التجسس .. وسفن التجسس .. ثم أقمار التجسس التى أحدثت نقلة أسطورية فى عالم الجاسوسية لدى الدول الكبرى .. استلزمت بالتالى دقة متناهية فى التمويه اتبعتها الدول الأقل تطورًا .. التى لجأت إلى أساليب تمويهية وخداعية تصل إلى حد الإعجاز .. كما حدث فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ على سبيل المثال .

بيد أنه بالرغم من كل تلك الوسائل التكنولوجية المعقدة .. يقول خبراء الاستخبارات إنه لا يمكن الاستغناء عن الجاسوس .. فأجهزة الاستخبارات تتحصل على ٩٠٪ من المعلومات بواسطة التنصت وأقمار التجسس .. وشتى الأجهزة المزروعة ، و ٥٪ عن طريق وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة .. بقيت إذن ٥٪ من المعلومات السرية التى لا يمكن الحصول عليها .. لذلك .. يجند الجواسيس لأجل تلك النسبة المجهولة .. حيث تكمن أدق المعلومات وأخطرها .

وبينما كان الصراع على أشده بين الشرق والغرب .. بين حلف وارسو وحلف شمال الأطلسى .. كان فى الشرق الأوسط أيضًا صراع أشد قوة وحدة وعدائية بين العرب

وإسرائيل[١] .. العرب يريدون دحر إسرائيل التى زرعها الاستعمار فى قلب الوطن العربى .. وإسرائيل تتشبث بالأرض .. وتنتهج سياسة المجازر والعدوان .. وتنتهك كل القوانين والأعراف الدولية فى وقاحة .

العرب كانوا يتسلحون بأسلحة الكتلة الشرقية .. ويزود الغرب إسرائيل بالسلاح ويساندها فى المحافل الدولية .

فاشتعل الصراع .. وتأججت الحروب السرية بين المخابرات العربية والإسرائيلية .. وكانت بلا شك حروب شديدة الدهاء .. موجعة الضربات .. تقودها أدمغة ذكية تخطط .. وتدفع بمئات الجواسيس إلى أتون المعركة .. يتحسسون نقاط الضعف والقوة .. ويحصدون المعلومات حصدًا ..

ونظرًا لظروف الاحتلال الأجنبى والاستعمار الطويل .. نشأت المخابرات العربية حديثًا فى منتصف الخمسينيات .. وفى غضون سنوات لا تذكر .. استطاعت أن تبنى قواعد عملها منذ اللبنة الأولى .. ودربت كوادرها المنتقاة بعناية ومن أكفأ رجالاتها .. وانخرطت فى حرب ضروس مع مخابرات العدو الغاصب .

وبعبقرية فذة .. قامت مخابراتنا بعمليات جريئة لن يغفلها التاريخ .. عمليات طالت مصالح العدو فى الخارج .. وداخل الدولة الصهيونية نفسها .. ووصلت تلك العمليات إلى حد الكفاءة الماهرة والاقتدار .. عندما فجر رجال مخابراتنا البواسل سفن العدو الحربية .. الرابضة فى ميناء « إيلات » الإسرائيلى .. وإغراق المدمرة « إيلات » فى البحر المتوسط قبالة سواحل بورسعيد .. وتفجير الحفار الإسرائيلى فى ميناء « أبيدجان » .. وزرع رأفت الهجان لعشرين عامًا فى تل أبيب .. وتجنيد العديد من ضباط اليهود أنفسهم فى إسرائيل .. أشهرهم الكسندر بولين .. وإسرائيل بيير .. ومردخاى كيدار .. وأولريتش شنيفت .. ومئات العمليات السرية التى لم يكشف عنها النقاب بعد .. كلها عمليات خارقة أربكت الدولة

(١) إسرائيل : أطلقها اليهود على أرض فلسطين المغتصبة .. وإسرائيل هو نبى الله يعقوب عليه السلام وهو ابن إسحق ابن إبراهيم عليهما السلام .. وقد اتخذ اليهود اسم إسرائيل لدولتهم حتى لا يجرؤ المسلمون على ذكره بالإساءة .. لأنهم مأمورون باحترام الأنبياء .. وهدفهم – إذا ما ندد العرب بالاحتلال – أن يظهروا للعالم أن المسلمين لا يمتثلون لله فى احترام أنبيائه .

العبرية .. وزلزلت جهاز مخابراتها الذى روجت الإشاعات حوله .. ونعت بالأسطورة التى لا تقهر ..

إن المخابرات الإسرائيلية .. نموذج غريب من نوعه فى العالم أجمع .. لا يماثله جهاز مخابرات آخر .. شكلاً أو مضمونًا ..

فهى الوحيدة التى قامت قبل قيام الدولة العبرية بنصف قرن من الزمان[١] .

والوحيدة التى بنت دولة من الشتات بالإرهاب والمجازر والأساطير .. إذ ولدت من داخلها عصابة من السفاحين والقتلة واللصوص .. اسمها إسرائيل .

ومنذ وضعت أولى لبنات جهاز المخابرات الإسرائيلى سنة ١٨٩٧ فى بال بسويسرا تفيض قذاراته .. وتثقله سلسلة بشعة من الجرائم التى ارتكبت بحق الفلسطينيين العزل .. بما يؤكد أن إسرائيل ما قامت لها قائمة إلا فوق جثث الأبرياء[٢] .. وأشلاء أطفال دير ياسين وتل حنان وحساس وغيرها ..

---

(١) أنشئ جهاز المخابرات اليهودى بتوصية من المؤتمر اليهودى الأول .. الذى انعقد يوم الأحد ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ فى بال بسويسرا .. وكان جهازًا غير منظم مهمته الرئيسية العمل على تهجير اليهود إلى فلسطين .. وشراء الأراضى بها لتثبيت اليهود المهجرين فى معسكرات ومستوطنات محصنة قوية .. وكانت المستوطنات ما هى إلا بداية الحلم .. فالمستوطنة هى الوطن الأول المصغر .. أى إسرائيل الصغرى .. ومستوطنات وشعب وزراعة واقتصاد وسلاح وجيش يعنى إسرائيل الكبرى .

أما « الموساد » .. فهو بمثابة جهاز المخابرات المركزية .. وتم إنشاؤها عام ١٩٣٧ وأطلق عليه وقتئذ : موساد ليلياه بيث : Mussad Lealiyah Beth أى منظمة الهجرة الثانية .. وكان أول مركز للقيادة فى جنيف ، ثم انتقل إلى استانبول بهدف مساعدة يهود البلقان على الهرب عبر تركيا .. وكان ذلك قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية .. ثم اتجهت مهمة الموساد بعد ذلك إلى تنسيق نشاط الاستخبارات الاستراتيجية والتكتيكية بشكل عام فى الخارج ، ويقع مقر الموساد الرئيسى بشارع الملك شاؤل فى تل أبيب .. داخل ثكنة عسكرية محصنة محاطة بالأشجار العالية والأسوار .. وهى تقوم بالمهام الرسمية وغير المشروعة على حد سواء .

(٢) يقول المفكر اليهودى « موشى مينوحيم » فى كتابه « انحطاط اليهودية » :

« .. لقد ارتكب اليهود جرائم لا تعد ولا تحصى بكامل وعيهم وإرادتهم .. ولابد من محاكمتهم كما حوكم من قبل النازيون .. فلا يمكن أن تنطمس معالمها مهما طال الزمن .. ومهما برعوا فى التستر عليها .. وإخفاء معالمها . » .

لقد أباد اليهود من هذا الشعب ما يزيد على ٢٦٢ ألف شهيد حتى عام ٢٠٠١ .. خلافًا لمائتى ألف جريح .. و ١٦٥ ألف معاق .. ومليونين ونصف من اللاجئين .. وأبيدت أكثر من ٣٨٨ قرية عربية .. واغتيل المئات فى العواصم الأوربية والعربية .

هكذا عملت المخابرات الإسرائيلية على تحقيق الحلم المسعور .. حلم إقامة الدولة على أرض عربية انتزعت انتزاعًا .. بالتآمر والمال والخيانة .. واحتلت خريطة « من النيل إلى الفرات » مساحة كبيرة على أحد جدران (الكنيست) الإسرائيلى .. تُذكّر عصابات اليهود بحلم دولة إسرائيل الكبرى الذى مايزال يراود آمالهم .. فأرض فلسطين المغتصبة ليست بحجم خيالهم .. فقط .. هى نقطة بداية وارتكاز .. يعقبها انطلاق وزحف فى غفلة منا .

وفى كتبهم المقدسة .. زعموا أن نبيهم إسرائيل « يعقوب » سأل إلهه قائلاً :

« لماذا خلقت خلقًا سوى شعبك المختار .. ؟ » . فقال له الرب :

« لتركبوا ظهورهم ، وتمتصوا دماءهم ، وتحرقوا أخضرهم ، وتلوثوا طاهرهم ، وتهدموا عامرهم » . « سفر المكابين الثانى ١٥ - ٢٤ » .

وأصبحت هذه الخرافة المكذوبة على الله .. مبدأ ودينًا عند اليهود .. الذين يفاخرون بأنهم جنس آخر يختلف عن بقية البشر .

وعندما نقرأ توصيات المؤتمر اليهودى العاشر فى سويسرا عام ١٩١٢ .. لا نتعجب كثيرًا .. فالمبادىء اليهودية منذ الأزل تفيض حقارة وخسة للوصول إلى مآربهم .. وكانت أهم توصيات المؤتمر :

- تدعيم النظم اليهودية فى كل بلدان العالم حتى يسهل السيطرة عليها .
- السعى لإضعاف الدول بنقل أسرارها إلى أعدائها .. وبذر بذور الشقاق بين حكامها .. ونقل أنظمتها إلى الإباحية والفوضى .
- اللجوء إلى التملق والتهديد بالمال والنساء .. لإفساد الحكام والسيطرة عليهم .
- إفساد الأخلاق والتهييج للرزيلة وتقوية عبادة المال والجنس .

– ليس من بأس أن نضحي بشرف فتياتنا في سبيل الوطن .. وأن تكون التضحية كفيلة بأن توصل لأحسن النتائج .

والتاريخ القديم يصف لنا باستفاضة .. كيف استغل اليهود الجنس منذ آلاف السنين لنيل مبتغاهم .. وتحقيق أهدافهم الغير شريفة .. ضاربين عرض الحائط بالقيم .. وبكل الفضائل والأعراف .

ففي عام ١٢٥١ قبل الميلاد .. كانت مدينة « أريحا » الفلسطينية مغلقة على اليهود العبرانيين .. وأراد « يشوع بن نون » – نبي اليهود بعد عيسى عليه السلام – غزو المدينة واحتلالها ..

ولما خُبر أن ملك المدينة يهوى النساء .. ولا يستطيع مقاومتهن .. كلف اثنين من أعوانه بالبحث عن فتاة يهودية – ذات جمال وإثارة – لتقوم بهذه المهمة .. فوقع اختيارهما على « راحاب » جميلة الجميلات .. التي استطاعت بالفعل الوصول إلى الملك .. وسيطرت على عقله بفتنتها الطاغية .. وملأت القصر باليهود من أتباعها بحجة قرابتهم لها ..

بهذه الوسيلة .. أمكن إدخال مئات اليهود إلى المدينة .. وتمكنت راحاب من قتل الملك .. ودخل يشوع منتصرًا بواسطة جسد امرأة .. امرأة يفخر بها اليهود .. ويعتبرونها أول جاسوسة يهودية خلعت ملابسها في سبيل هدف « نبيل » لبني جلدتها .

إذن .. ليس بغريب الآن أن يضحي اليهود بشرف بناتهم .. للوصول إلى غاياتهم ..

ولم لا وقد اعترفت كتبهم المقدسة بحالات مقززة من الزنا .. والزنا مع المحارم ..؟؟!

فقد ادعوا أن « ثامار » ابنة « داود » قالت لأخيها عندما أخذ يراودها عن نفسها : قل للملك « والدهما » فإنه لا يمنعني منك (!!) .

ادعوا أيضًا – وهم قتلة الأنبياء والرسل – أن « داود » نفسه – حاشا لله – ارتكب الزنا مع امرأة تدعى « بتشبع » بعد أن أرسل زوجها الضابط « أوريا الحثي » في مهمة مميتة .. (!!) .

وقالوا عن « يهوذا » إنه زنا بزوجة ابنه « شوع » بعدما مات .. فحملت منه «حرامًا» وهو عمها (!!) .

وعن ملكهم « أبيشالوم » قالوا : إنه عندما دخل أورشليم « القدس » وهو منتصر على أبيه الذى قتل فى المعركة .. فوجئ بكثرة حريم والده .. فاستشار « أخيطوفال » بما يفعله بهن .. فأفتى له بالدخول عليهن .. ففعل .. وأفسد فيهن كلهن جهارًا .. (!!) .

نستطيع من هنا أن نستخلص حقيقة مؤكدة .. وهي أن الجنس فى عمل المخابرات الإسرائيلية واجب مقدس .. باعتبار أنه عقيدة موروثة متأصلة .. اعترفت بها كتبهم المقدسة وأقرتها .. فإذا كانت رموزهم العليا قد اعترفت بالزنا .. وزنت هى بنفسها مع المحارم فماذا بعد ذلك .. ؟

إن السقوط الأخلاقي في المجتمع الإسرائيلي الآن .. ما هو إلا امتداد تاريخى لسقوط متوارث صبغ بالشرعية .. وينفى بشدة أكذوبة الشعب المتدين التي يروج لها اليهود .. ويسوق لنا التاريخ كيف أنهم أجادوا مهنة الدعارة فى كل مجتمع حلوا به .. وكيف استغلوا نساءهم أسوأ استغلال ..

فلعهد قريب مضى كان اليهودى في العراق يجلب « الزبائن » لبناته وأخواته .. فكان يجلس أمام داره يغوى العابرين : « ليس أجمل من بناتى .. أيها المحظوظ أقبل .. » .

وفى المغرب كان اليهودى فى « الدار البيضاء » و « أغادير » و « تطوان » أكثر حياء وأدبًا .. إذ كان يبعث بناته إلى دور زبائنه في السر .

أما فى اليمن فيصف لنا التاريخ .. كيف كانت تباع بكارة الفتيات اليهوديات بعدة حزم من « القات » .. إلا أن بكارة مثيلاتهن في ليبيا كانت محددة بـ « مدشار » من العدس والسكر والزيت .. وفى سوريا كان المقابل يصل إلى مقدار ما ينتجه « دونم » جيد من الفستق .

وكان الأمر في فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أسوأ .. فقد كان المقابل قطعة من « الأرض » .. أو شراكة فى بستان أو معصرة للزيوت .

هذه حقائق حفظها لنا التاريخ .. وهى بحاجة إلى التنسيق والجمع والتحقيق .. لتملأ مجلدات تنفى مزاعم اليهود بأنهم متدينون .. فليس هناك دين يبيح للمرأة أن تفتح ساقيها لكل عابر .. ويرخص للرجل أن ينقلب قوادًا يؤجر جسد نسائه .

إنها عقيدة خاصة آمن بها بنو صهيون[1] .. وجبلوا منذ فجر التاريخ على اعتناقها .. فالصهيونى لا يعترف بالشرف فى سبيل نزواته وأطماعه .. وهو إما فاجر قواد أو داعر معتاد .

وليس هناك أصدق مما قاله الزعيم الأمريكى بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠م) - بأن اليهود طفيليات قذرة (مصاصو دماء) Vampires .. وأنهم « أطاحوا بالمستوى الخلقى فى كل أرض حلوا بها » .

In which every Land the Jews have settled they depressed the moral Level .

جاء ذلك فى خطاب يعتبر وثيقة تاريخية .. ألقاه فرانكلين عام ١٧٨٩ عند وضع دستور الولايات المتحدة .

فلا غرابة إذن أن يسلك اليهود ذات السلوك .. بعدما قامت دولتهم فوق أرض مغتصبة .. كان عليهم أن يتمسكوا بها .. ويجاهدوا فى سبيل استقرارهم عليها .. وكان الجنس أحد أهم أدواتهم للوقوف على أسرار المحيطين بهم ونواياهم .. من خلال ضعاف النفوس الذين سقطوا فى شباكهم .. وانقلبوا إلى عبدة للذة .. وعبيد للمال .

والأمر برمته ليس كما نتخيل - مجرد لقاء جسدى بين رجل وامرأة - بل هو أكبر من تصورنا ، وتخيلنا البسيط للحدث . فالجنس ، أقامت له الموساد مدارس وأكاديميات لتدريسه ، ولشرح أحدث وسائل ونظريات السقوط بإغراءات الجسد .

ففعالية أجهزة المخابرات فى العالم تستعين بالساقطات والمنحرفات جنسيًا لخدمة أغراضها حيث يسهل إغراؤهن بالمال ، أو التستر على فضائحهن . أما فى الموساد فلا .. إذ يتم اختيارهن من بين المجندات بجيش الدفاع الإسرائيلى .. أو الموظفات بالأجهزة الأمنية والسفارات ، أو المتطوعات ذوات القدرات الخاصة ، ويقوم على تدريبهن خبراء متخصصون بعد اجتياز اختبارات مطولة تشمل دراسات معقدة عن مستوى الذكاء ، وصفاتهن

---

(١) صهيون : جبل بالقرب من القدس .. والصهيونية حركة من الحركات التى سعى إليها بعض بنى إسرائيل لتضليل العالم .. وليصبح لهم كيان ودولة وكتاب مقدس .. لإضفاء الحماية الشرعية لهم ضد المسلمين والمسيحيين .. وكان أن حرفوا التوراة بما يتناسب مع أهوائهم وأطماعهم وأظهروا ذلك فى كتاب أسموه التلمود وهو الذى يدرسونه اليوم ويتخذونه نبراسًا لهم وحجة فى مواجهة ما جاء بالقرآن والإنجيل .

المعبرة عن نفسها فى مختلف الأمزجة ، وكذا أنماط الطباع ، وسرعة التصرف Attributes والاستجابة . تدرس لهن أيضًا فنون الإغراء وأساليبه ، بالإضافة لعلم النفس ، وعلم الاجتماع وعلم الأمراض النفسية Peyschopathology ومنها طرق الإشباع الجنسى ، ونظريات الجنس فى أعمال السيطرة ، والصدمات العالية للسيطرة والتى توصف بأنها آليات زناد إطلاق النار Trigger واكتشاف مرضى القهر Compulsion الاجتماعى أو السياسى أو الدينى لسهولة التعامل معهم ، وكذا المصابين بإحباطات الشعور بالنقص Deficiency وذوى الميول الجنسية المنحرفة التى لا تقهرها الجماعة Normal hetro sexual coitus إلى جانب التمرينات المعقدة للذاكرة لحفظ المعلومات وتدوينها بعد ذلك ، وتدريبات أكثر تعقيدا فى وسائل الاستدراج والتنكر والتلون وإجادة اللغات .

إنهن نسوة مدربات على التعامل مع نوعية خاصة من البشر ، استرخصت بيع الوطن فى سبيل لذة الجنس . ومن هنا ندرك أنهن نساء آخريات يختلفن عن سائر النساء .

وعنهن يقول « مائير عاميت »[1] : « إن المرأة سلاح هام فى أعمال المخابرات الإسرائيلية .. فهى تمتلك ملكات يفتقر إليها الرجال .. بكل بساطة .. إنها تعرف جيدًا كيف تنصت للكلام .. فحديث الوسادة لا يمثل لها أدنى مشكلة .. ومن الحماقة القول بأن الموساد لم توظف الجنس لمصلحة إسرائيل .. فنحن لدينا نساء متطوعات راجحات العقل .. يدركن الأخطاء المحدقة بالعمل .. فالقضية لا تنحصر فى مضاجعة شخص ما .. إنما دفع الرجل إلى الاعتقاد بأن هذا يتم مقابل ما يتعين أن يقوله .. وكانت « ليلى كاستيل » أسطورة نساء الموساد بحق .. فبعد سنوات من وفاتها عام ١٩٧٠ كان الجميع يتحدثون عن « مواهبها » الاستثنائية .. فقد كانت تتحدث العبرية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والعربية .. وكانت جذابة وذكية .. وجديرة بثقة الموساد .. وكان سلفى « هاريل » يستخدم عقلها وأنوثتها فى « مهمات » خاصة فى أوربا » .

---

(١) الجنرال مائير عاميت : رئيس جهاز الموساد (١٩٦٣ - ١٩٦٧) خلفًا لـ : « أيسير هاريل » .. وهو من مواليد طبريا ١٩٢٦ . تطوع عام ١٩٤٦ فى منظمة الهاجاناة الإرهابية وحارب الجيوش العربية عام ١٩٤٨ وجرح فى جنين .. واستولى مع إحدى الفصائل على إيلات .. وكان قائد معركة الجنوب فى حرب السويس ١٩٥٦ وأصيب برصاص المصريين وظل يعالج بالمستشفى ستة عشر شهرًا فى أمريكا .. بعدها تولى رئاسة مخابرات الجيش (أمان) .. ثم رئاسة الموساد .. وكان له دور بارز فى حرب ١٩٦٧ .. وفى عهده زرع « لوتز » فى مصر ووصلت الطائرة الحربية ميج ٢١ العراقية إلى إسرائيل . بعد ذلك عاش وحيدًا فى مزرعته ولم ينجب أطفالاً .

وفى هذا الكتاب .. اخترت شرائح متباينة لبعض الخونة .. الذين فقدوا نخوتهم .. وتخلوا عن عروبتهم .. فعملوا لصالح الموساد إما عن قصد .. أو لنقص الدافع الوطنى .. أو سعيًا لتحقيق حلم الإثراء .. وربما لجنوح مرضى مُعْوج .. وقد كان الجنس عاملاً مشتركًا فى أغلب الحالات .. وأحد ركائزها الأساسية .. ومن بعده المال .

وبرؤية جديدة .. من خلال منظور قصصى - يمتزج بالوقائع التاريخية - تغلغلت إلى أعماق هؤلاء .. فى محاولة جادة لكشف نوازعهم .. واستبيان صراعاتهم ومعاناتهم .. ومسّ أمراضهم القميئة .. وتعرية قمة حالات خُورهم .

وكذا .. تسليط الضوء على أسباب ومراحل سقوطهم .. واستغراقهم فى جُب الجاسوسية .. تغلفهم نشوة الثقة الكاذبة وأوهام الطمأنينة .. إلى أن تزلزلهم الصدمة .. وأيدى رجال مخابراتنا تقتلعهم من جذور الوهم .. فتعلو صراخاتهم النادمة اللاهثة .. وقد انحشروا فى النفق الضيق المظلم المخيف .. لحظة النهاية المفجعة .

واعترافًا بإنجازاتهم الخارقة .. كان القصد أيضًا إبراز دور رجال مخابراتنا .. فى الحفاظ على منظومة الأمن القومى .. بكشف ألاعيب الموساد ومخططاتها .. وتأمين الوطن ضد عبث العابثين .. فى حروب سرية شرسة .. سلاحها الذكاء والدهاء والمهارة .. وحقائقها أضخم من التخيل .. وأعظم أثرًا فى دهاليز السياسة .. والمعارك .

وإننى إذ أتوجه إليهم .. وقد رفعت على شفتى ابتسامة مبللة برى العرفان لهم .. مبتلة بعبق الانبهار بهم .. تهمس - شفتاى - فى سرها الخفى .. بكلمات تصعد إلى بارئ الكون : أن يهيئ الله من أمرهم رشدا .

والله الموفق والمستعان ..!!

فريد الفالوجى

المنصورة ١٢ سبتمبر ٢٠٠١

الفصل الأول

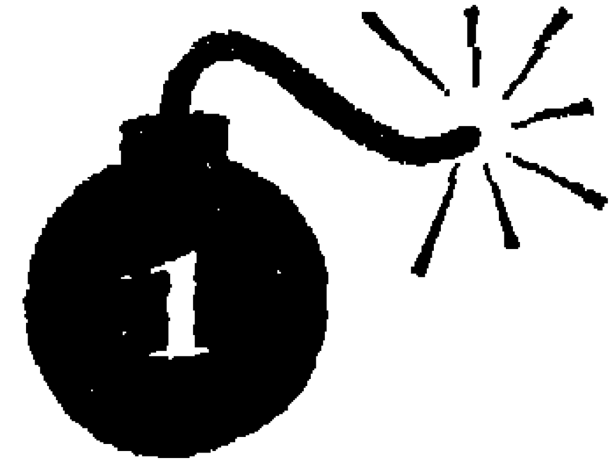
فى مصـــر .. !!

دراسات علمية أجريت مؤخرًا .. كشفت عن نتائج سوف تقلب تفكيرنا رأسًا على عقب .. فقد ظهر أن الخيانة فى الدم .. أحد مكونات الدم .. !!

محمد حسن الألفى

(كتاب : الجسد الخائن)

فؤاد حمودة .. جاسوس الإسكندرية .. !!



الحب يصنع المعجزات ..

عبارة طالما ترددت على الألسنة وعلى الأوراق باهتة المقصد ، وإن كانت تعنى أن الحب يدفع بالمحبين إلى صنع ما لم يخطر ببالهم ليعيش الحب قويًا .. لا ترهبه ضربات الزمن أو عضات الوهن ..

لكن .. هل يدفع الحب بالمحبين أيضًا إلى طريق ضائع .. مظلم وأكثر رعبًا من الرعب نفسه ؟

وهل يقود الحب - أحيانًا - والفقر .. إلى مصيدة الجاسوسية ؟ ..

هذا ما سنراه فى مذكرات جاسوس الإسكندرية (فؤاد حسن على حمودة) الموظف بشركة المضارب .. والذى دخل النفق المظلم - نفق المخابرات والجاسوسية - بسبب حب « نوسة » .. وقاده الحب المدمر إلى النهاية الطبيعية لكل جاسوس خائن .. !!

ضحية عشق نوسة

أفاق على صوت مزلاج باب زنزانته الحديدى فارتعد جسده النحيل ، ونظر باتجاه الباب في رعب لتصطدم عيناه بوجه الشاويش حمدون يطل عليه بملامحه الجامدة وشاربه الكث ، وكأنه تمثال قُد من صخر .

دفع « جراية » الطعام بعيدًا وغاص في خوفه وهو يتأمل بزته الحمراء فانتفض بدنه في رجفة لا إرادية .. ثم انكفأ بوجهه بين ركبتيه يحيطهما بيديه المرتعشتين وأجهش في بكاء مرير، وارتفع نشيجه يشق سكون الزنزانة الضيقة المعتمة ، إنه يموت كل يوم آلاف المرات كلما سمع وقع أقدام تتحرك أو صوت مزلاج يفتح .

كان أمله الأخير ألا يصدق رئيس الجمهورية على حكم المحكمة ولكن خاب أمله وضاع . فلماذا إذن لا ينفذون حكم الإعدام سريعًا ؟ ولم هذا الموت البطىء ؟ أيكون الانتظار عقابًا نفسيًا قبل الشنق ؟

هكذا تساءل فؤاد حمودة وهو حبيس الزنزانة الانفرادية في سجن مزرعة طرة .. وتحسس رقبته للمرة المليون وصرخ بأعلى صوته .. لا .. لا .. لست جاسوسًا لإسرائيل .. أنا ضحية .. أنا ضحية الفقر .. وأخذ يضرب الأرض الباردة وهو يردد في وهن : وضحية حب نوسة ..

وسكنت حركته بعدما استسلم لواقعه ولمصيره .. وتمدد على « البرش » ثم تقلب وتكور متوسدًا إحدى يديه ضاغطًا بالأخرى على أذنه .. فيسمع صوتًا يشبه هدير موج يتعاقب ، وضربات قلبه اللاهثة تدق في اضطراب تعلن عن مدى الخوف الذى سكن بأعماقه .. والرعب الذى يخترق أفكاره ويشتتها .

ارتد إلى الوراء يتذكر بدايته وتسلسل حياته إلى أن صار جاسوسًا لإسرائيل . مدفوعًا بحب نوسة العجيب .. حب دفع بالحبيب إلى حبل المشنقة .

وبعد إعدامه عثروا في زنزانته على لفافة من الأوراق سجل بها قصة حياته بإيجاز أحيانًا .. وبتفصيل مطول أحيانًا أخرى .

إنها قصته مع الحياة .. ومع الحب .. ومع الجاسوسية . يقول فؤاد فى مذكراته التى خلفها وراءه:

... كان والدى موظف بسيط فى الحكومة وأمى لا تعمل ... وكانت الأسرة كبيرة العدد قليلة الدخل والأفواه لا تكف عن المضغ والطلبات ترهق الأب .. فتحيل نهاره إلى سعى وشقاء وليله إلى نوم متقطع وسعال .

كنت الابن الثالث ومن بعدى ثلاثة آخرون . أنهيت تعليمى المتوسط وجلست أنتظر فرصة للعمل . ولم يخطر ببالى أننى كنت أنتظر نقطة البداية التى سأنطلق من خلالها إلى خط النهاية بسرعة البرق . مدفوعًا بقوة لا أستطيع مقاومتها .. ذلك أننى رفعت سماعة التليفون ذات مساء ممل .. فجاء صوتها كالنسيم رقيقًا حنونًا بعث الدفء بأعماقى .. ودار بيننا حديث طويل امتد لقرب الصباح .

كان اسمها نوسة طالبة فى الدبلوم . تسكن فى سبورتنج .. تكررت أحاديثنا التليفونية لعدة أيام متصلة .. فالتهبت حرارة الأسلاك وهى تحمل جرعات الرغبات المتزايدة التى ترسلها نوسة بصوتها الأنثوى المسكر .. وكأنه خمر ينصب رقراقًا خلال سماعة التليفون . ونسيت مع مكالماتها وحدتى برغم الزحام والضجيج فى شقتنا .. واتجهت لكتابة الشعر .. تبدلت حياتى كلها .. إذ أصبحت نوسة هى شاغلى ومشاغلى .. أنام على صوتها وأصحو .. وأحس معها بالمرارة التى تغلفها أحيانًا رغم أنها وحيدة أبويها .. وتقوم أمها على خدمتها وتعاملها كملكة على عرش قلبها .

كانت فتاة مرفهة إلى درجة الجنون رقيقة لا تتصنع .. مثيرة لا تتركنى أهدأ .. أو تخمد نيران رغباتى تجاهها برغم سنها الصغير وقلة خبرتها بالحياة .

لكنها برغم ذلك استطاعت أن تحكم قيدها حول حواسى .. فأدور فى فلكها كالمنوم .. حتى وهى تحاول أن تستدرجنى لأحاديث الجنس كنت أبدو كالأبله .. فأنا لا أعلم شيئًا عنه . إلا أنها تمادت فى استدراجى فتجاوبت معها عبر الأسلاك يشجعنى صوتها الذى يحرك الجبل وهتفت فى نفسى لأرفض وهى تضغط . أرفض وهى تقتل قوتى وتحصد مقاومتى ورفضى بتأوهات يفور لها جسدى كبوتقة تغلى .. ولما فشلت معها أرقتنى الرغبة المحبوسة فتأثرت حالى .. وفوجئت بها تعرض على أن أزورها بمنزلها بعد منتصف الليل . ثم تحول العرض إلى دعوة ملحة .. وضايقها ترددى وخوفى . لقد كان عمها المحامى يسكن فى الشقة العلوية

وهذا الأمر أخافني .. إلا أنها دبرت كل شيء في جرأة مدهشة .. فذهبت إليها بعد منتصف الليل في إحدى الليالي الباردة مدفوعًا برغبتي العنيفة .. وكان هذا أول تدريب لي على عمل الجاسوسية .

وعندما جلست بجوارها على حافة السرير - على بعد خمسة أمتار من حجرة والدها - سألت نفسي : هل حبيبتي مومس تخدعني أم هي مراهقة تحب ؟ وغادرت شقتها لا أصدق أنني نجوت بحياتي من مصير مجهول . وأعترف أنه برغم سعادتي برجولتي .. إلا أنني فقدت أشياء لذيذة كنت لا أريد مسها .. وأهمها أنني فقدت بعض ثقتي بها .. ولكن صديقي حاتم أكد لي أن الحب أعمى .. وأن الفتاة تسلم كل شيء لحبيبها عن قناعة ورضا لأنها تحب .

وبعد عدة أيام دعوتها إلى شقة أختي المسافرة إلى الخارج مع زوجها فجاءت نوسة بسهولة .. وبسهولة أكثر جعلتني أخلع عنها ملابسها دون أن تصدني ولو كذبًا وكأنما هي اعتادت ذلك من قبل .. لكن الذى أذهلني بحق هو أنني فوجئت بها ليست بكرًا ..

صفعتني المفاجأة وتحطمت ثقتي بها وفي كل بنات جنسها وأغمضت عيني عن هذا الخطأ مؤقتًا . لقد كنت أحبها ولذلك تعمدت ألا أذكر هذا الأمر ثانية .. لكنها هاجمتني بعنف واتهمتني بأنني ضيعتها . أخذتها إلى أشهر دكتور في الإسكندرية فلم يصارحني بالحقيقة .. ونسينا الأمر برمته ، وكنت لا أستطيع فراقها أو ابتعادها عني . فلقد صارت في دمي ..!!

افعل شيئًا لأجلي

وتصف لنا مذكرات جاسوس الإسكندرية أدق خلجاته وإحساساته . كتبها في لحظات صدق مع نفسه قبل أن يلتف حبل المشنقة حول رقبته . وكان قد تقدم بالتماس إلى الرئيس أنور السادات يطلب تخفيف حكم الإعدام ولم يصل الرد بعد على التماسه الذى كان هو الأمل الأخير له في إنقاذه .

ولأنه عاش كثيرًا يحلم بتحقيق هذا الأمل .. فقد اتسمت مذكراته بالسرد الدقيق والوصف الرائع لكل جوانب حياته . صفحات بلغت أكثر من مائتي صفحة تحمل مشاعر جاسوس خائن .. اعتقد أن الحب كان السبب الرئيسي في وقوعه في جبّ الجاسوسية العميق المظلم . يقول الجاسوس :

فى زنزانتى الرطبة الضيقة .. أنام يقظًا مع انسحاب الشمس وأصحو مع أول خيوطها . وما بين النوم واليقظة ترتعش حوالىّ كل الصور .. وترهبنى خطوات السجانين طوال الليل .. فأظل أنصت مرعوبًا وهى تقترب فأحس باقتراب الموت .. وتبتعد فأتنهد .. ثم يتملكنى الهلع . وهكذا كنت لا أنام ولا أهدأ .. أتخيل وجه نوسة الرائع وهى بين أحضانى .. أرتشف من أنوثتها لذاذات جميلة .. وأحسو شرابًا مسكرًا ومعتقًا .. وأعيش معها أجمل لحظات عمرى نخوض معًا بحور المتعة .. ونجوب نبحث عن مشتقات أخرى للنشوة تغتال فينا الملل والكآبة .

ولم تكد تمر عدة أشهر .. إلا وخطبت نوسة فجأة وانشغل تليفونها عنى فى المساء ، فجن جنونى وأقسمت أن أفوز بها ولا أتركها لغيرى بعدما أدمنتها .. لكنها كانت تتهرب من لقائى وجنونى .. وتملكنى الشعور القاتم بالهزيمة وأنا أضرب رأسى بيدى وأرتجف غضبًا وأردد : « أيتها المومس الحقيرة .. أحبك .. أحبك بوجهك الطفولى البرىء وصوتك الساحر .. أحبك وأنت تصعدين ورائى إلى الطابق الخامس فى شارع « الجلاء » ترتدين زى المدرسة وتحملين حقيبتك .. وتنشدين ما يكفيك من النشوة لعدة أيام قادمة .. أحبك يا عاهرة كاذبة .. ولن أنسى يوم خطبتك لهذا المغفل الذى نزف عليك مئات الجنيهات كما نزفت أنا معك رجولتى » .

يومها .. طلبت منى والدتى أن أقرأ عليها عدة صفحات من رواية عاطفية .. فجلست أقرأ لا أدرى أى سطور قرأت وقد اختنق صوتى وتلجلج لسانى .. وبكيت بكاء الضائع الذى فقد الطريق والأمان .

ثلاثة أشهر وعادت نوسة ذليلة يغشاها انكسار الهزيمة بعدما فشلت خطبتها .. ولم تمهلنى الوقت لأفكر فاستردتنى سريعًا واحتوتنى من جديد فقلت لها :

– أنا لم أكرهك يومًا .. أحبك وإن كنت عاهرة تستأجر .

– فؤاد – يا فؤادى .. يا حياتى .. اشترنى ولا تبخس الثمن .

– اشتريتك .

– سافر وكافح من أجلى .. سافر إلى أى مكان فى الدنيا وعد بالثمن .

قلت لها :

– لقد عينت فى شركة مضارب الإسكندرية بسبعة عشر جنيهًا .

قالت فى يأس :

– لن نتزوج إذن قبل عشر سنوات .

– أهلك يبالغون فى المهر .

– سافر لعام واحد وسأنتظرك .. سافر .. إنه الحل الوحيد لنا .

– لا أملك مصاريف السفر .. أنت تعرفين كل الظروف .

– ألم تخبرنى أن شقيقتك ستعود عما قريب ؟

– نعم .. أرسلت لنا بأخبار عودتها بعد شهر ونصف .

– اقترض منها مبلغًا وخذ منى هذه الإسورة .

وأضافت وأنفاسها تلهب وجهى :

– افعل شيئًا لأجلى . وسأظل أنتظرك وأنسج ثوب عرسى كما كانت تفعل « بنيلوبى » قديمًا[1] .

فى جوتن نخت

ومنذ تلك اللحظة .. قررت أن أسعى للسفر خارج مصر . كانت الأبواب مغلقة فى وجهى .. وحرب الاستنزاف على أشدها بين مصر وإسرائيل .. وهناك مفاوضات من أجل الهدنة والأمور سيئة وتزداد سوءًا .

عادت شقيقتى من الخارج وعندما طلبت منها قرضًا أحالتنى إلى زوجها الذى تهكم وسخر منى .. وعندما علم والدى عنفنى بشدة .. وأشفقت والدتى على حالى فأعطتنى آخر ما تملكه من حلى فلما قبلت يد شقيقتى مرة أخرى وقلت لها انقذينى من جنونى منحتنى سبعة وعشرين جنيهًا .. ولم تمر عدة أيام إلا وكنت أحمل فى جيبى تذكرة طائرة إلى بون .. وسافرت إلى ألمانيا الغربية يملؤنى إحساس بالمرارة والظلم والضعف .

---

(١) قصة جاءت فى ملحمة الأوديسا لشاعر الإغريق هوميروس .

كانت معى رسالة إلى أحد المعارف فى مدينة دوسلدروف شمال بون .. وعندما التقيت به نظر إلىّ كمن ينظر إلى كلب أجرب .. حتى صديقته الألمانت كانت تسخر منى وتضحك كأنها ترى بلياتشو برغم أننى لا أعرف كيف أكون مضحكًا فأضحك الناس . وكنت قد مررت فى طريقى بمدينة ساحرة اسمها كولون .. فعقدت العزم على العودة إليها وأغامر على أوفق بمفردى ورجعت جنوبًا حتى كولون الواقعة على نهر الراين الخلاب .. فسحرتنى المدينة الأنيقة واستولت على عقلى ..

عثرت على بنسيون رخيص اسمه « فارسبورجر » تديره سيدة بشوش اسمها بيرجيت كلاين كانت تعاملنى بلطف .. وبإنجليزية ركيكة شرحت لها ظروفى ورغبتى فى العثور على عمل فتأثرت لحالى .. وبعد يومين ذهبت إلى مصنع بويات يمتلكه زوج ابنتها بيتر راينهارد يقع على أطراف المدينة .. وبعد عمل متصل ليل نهار لعدة شهور استطعت أن أجمع خمسة آلاف مارك .. فأرسلت خطابى العاشر إلى نوسة أطمئنها . وبرغم إلحاحى فى الرد على رسائلى لم يصلنى منها خطاب واحد .. فانتابنى قلق شديدة ولم أتمكن من مكالمتها تليفونيًا فكتبت إلى صديقى حاتم أطلب منه موافاتى بأخبارها .. وكان الانتظار يقلقنى بل ويفتك بأعصابى .

كانت نوسة رغم الجميلات من حولى هى الأجمل والأرق والأروع ولا تفارق خيالى للحظة وأحلم باليوم الذى يجمعنا .. لذلك .. كنت أعمل بجد وردية ونصفًا وأفترش ورق الكرتون وأنام .. يرفرف خيالها حولى وذكرها يمدنى بالقوة ويمنحنى الصبر .. وتعلمت كيف أحرم نفسى من أبسط الأشياء لأدخر وأعود إليها مرفوع الرأس .. ولما جاءنى الخطاب المنتظر من حاتم ارتعش قلبى لرؤيته .. فما بين سطوره يحدد لى مصيرى واتجاهات حياتى .. وملأنى شعور غامض بالخوف وأنا أفتح الورقة المطوية .. وزلزلتنى المفاجأة التى لم أتوقعها قط : نوسة تزوجت منذ شهرين وانتقلت للإقامة فى « الكنج مريوط » .

لطمتنى العبارة بعنف فأصابنى دوار وأطبقت الجدران على أنفاسى .. وأيقنت أنها ضاعت منى إلى الأبد . وأيقنت أيضًا أنها طراز غريب من النساء من الصعب نسيانه .. وعلى امتداد البصر فى الخيال والواقع لا أرى سوى وجهها الطفولى البرئ ويتجسم أمامى جسدها الأنثوى فأتحسسه :

كان الجليد يتساقط كأنه ندف من القطن الأبيض الناصع فى شهر فبراير ١٩٧٠ والباص يقلنى إلى شارع « كلنجهاوس » مشيت وسط الزحام لا ألوى على شىء ودون قصد

اتجهت إلى شارع « فينشا » .. حيث أضواء الكباريهات تتلألأ متراقصة .. والداعرات يقفن على النواصي يساومن المارة . وما إن عبرت إلى الناصية الأخرى من الشارع متجهًا إلى كباريه « جوتن لخت » الشهير .. قذفت واحدة منهن بنفسها في طريقي فأزحتها بيدى .. ودلفت إلى داخل الكبارية لأول مرة في حياتي . شربت ورقصت وسكرت .. وبدلاً من الذهاب إلى حجرتي في المصنع ، ذهبت إلى بنسيون فارسبورجر .

دهشت السيدة كلاين وطلبت منها ألا تسألني عن أي شيء فسحبتني إلى إحدى الحجرات .. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أقيم للأمور وزنًا ..

تساوت عندي كل المتناقضات وأحاطتني قتامة من اليأس والاهتزاز .. وتفاعلت بداخلي ثورات من الشك والحزن والكآبة .. وصرت زبونًا دائمًا في جوتن لخت ، أمر على محل هورست للملابس فأصحب « كريستينا » للعشاء ثم نسهر ونشرب حتى الثمالة .. هي الأخرى وحيدة مثلي هجرت أسرتها في دار مشتات هربًا من ذكرى حبيب غدر بها . وتركت البنسيون وأقمت معها في غرفتها نتعاطى الجنس كالطعام لننسى أننا خدعنا .

وعندما أنفقت آخر مارك كان معي تأففت كريستينا وتملكها الضجر .. فذهبت إلى المصنع مرة أخرى فلم أجد عملاً هناك حاولت أن أجد فرصة عمل بمكان آخر لكن الظروف كانت كلها ضدى .. فعجزت عن الإنفاق على نفسي .. وطردتني كريستينا من شقتها .. ونبهتني السيدة بيرجيت كلاين صاحبة البنسيون لكثرة ديوني ولما عضني الجوع ذهبت إلى الكبارية أطلب عملاً .. أي عمل .

ولأنني زبون معروف لديهم صعد بي أحدهم إلى الطابق العلوى حيث مكتب المدير الفخم .. استقبلني الرجل بحفاوة بعدما اكتشف أنني مصرى .. وأخبرني أنه زار مصر منذ عدة سنوات وسألني عنها فقلت له بقرف « زى الزفت » .. لقد كنت في حالة نفسية سيئة والجوع ينهش معدتي .. ويطاردني شبح ترحيلي إلى مصر خاوى الوفاض تنوء حقائبي بيأسي وفشلي .. وسألني الرجل مرة ثانية .

- لماذا جئت إلى هنا ؟ « يقصد ألمانيا »

قلت في أسى :

– الفقر والحب ..

وبعد أن سردت عليه قصة حياتي بإيجاز .. أسف لحالي .. وبصوت به رنة الواثق قال :

– بإمكانك أن تصبح مليونيرًا .. المهم أن تكون أكثر ديناميكية وتعاونًا ..

ضحكت في تعجب وسألته :

– مليونيرًا ؟ كيف وفي جيبي أحد عشر ماركًا ونصف ولا أنطق بالدوتش وإنجليزيتي مهترئة .. كيف ؟

ترك جونل هاوزن مقعده خلف المكتب وجلس قبالتي يفرك يديه وقال :

– نشأت مغامرًا شجاعًا أكره الخوف والجبناء .. سنوات قليلة وكنت شريكًا في هذا النادي ثم امتلكته لأنني دست على أشياء كثيرة لكي أحقق طموحاتي .. وأعرف أن الرجل الشرقي عاطفي يخشى المغامرة ومقيد بتقاليد وأعراف .

– سيد هاوزن أنا مستعد لأية مغامرة تنتشلني من الفقر والضياع .

– إذن .. إنس أنك مصري .. مسلم .. وتذكر فقط أنك هنا .. في ألمانيا الغربية .. في أوربا .

– سأنسى .. لا أريد أن أتذكر هذا الماضي اللعين .. أريد أن أكون إنسانًا آخر .

ضغط الرجل على ذر فجاءت فتاة رائعة مثيرة والتفت إلى قائلاً :

– هذه سيلفيا .. من الآن سترافقها في سفرها إلى ألمانيا الشرقية لبعض الأعمال التجارية .

ابتسمت سيلفيا ونظرت إليهما في بلاهة .. وعندما أوشكت على سؤاله عن عملي الجديد أصدر أوامره إلى سيلفيابأن تدفع حساب البنسيون وتصحبني إلى شقتها ..

وقام إلى مكتبه وعد بعض النقود وناولها لي قائلاً :

– هذه لك .. وللعمل حساب آخر .

وبينما كان يسلم نقودًا أخرى لسيلفيا أدركت أن المبلغ ألف مارك .. فدارت الأسئلة في خيالى وتساءلت بيني وبين نفسي :

– « ماذا سأعمل بالضبط » ؟

وقررت أن أغامر وألا أستسلم أبدًا مهما كانت المصاعب .. وألقت على يد سيلفيا تجذبنى فمشيت وراءها .. وبدأت منذ ذلك الحين أولى خطواتى على الطريق المجهول .. والذى فى نهايته كانت تنتظرنى المشنقة .

عيون لا ترى الشمس

وفى شقة سيلفيا الرائعة التى تطل على نهر الراين .. حيث البانوراما تخلب الألباب وتدير الرؤس .. تذوقت أنوثتها العجيبة التى أنستنى نوسة ولهيب حبها .. وبينما كنا عاريين نستريح سألتها :

– سيلفيا ماذا سأعمل معك ؟

أشعلت سيجارة وجذبت نفثًا عميقًا وقالت :

– التهريب .. !!

قلت مستفسرًا وقد تملكنى القلق :

– تهريب .. ؟ تهريب ماذا ؟

وهى تنفث دخانها فى وجهى :

– نحن ندخل الخمور والسجائر والساعات إلى ألمانيا الشرقية مهربة على الحدود .

قمت مسرعًا وارتديت ملابسى وأنا حانق .. واتجهت مباشرة إلى جوتن تخت وصعدت إلى مكتب المدير وتعجب الرجل لرؤيتى وتساءل وهو يهز رأسه :

– ماذا بك ؟

كان صوتى عاليًا فى استنكار وأنا أقول :

– تهريب الخمور والسجائر يا سيدى لن يبنى لى مجدًا أو يرفع من شأنى.. إنه عمل تافه.

– نريد أن نزرع بك الجرأة ثم نوكل إليك الأهم والأكبر .

– لو لم أكن جريئًا ومثابرًا ما جئت إلى هنا لا أملك مالاً أو لغة .. أنا لست سوى فدائى مغامر .

فى لهجة مليئة بالتحدى :

– أتريد أن تثبت لنفسك أنك مغامر ..

فقلت فى الاندفاع الواثق :

– سيد هاوزن أريد أن أؤكد .. نعم أؤكد لكم أننى جرىء لحد المغامرة .. وأريد أن أعمل وأكسب لا أن أخبىء بعض علب السجائر والعصير وأعبر بها كاللص إلى الناحية الأخرى من ألمانيا .

– قلت لك يا فؤاد أن تهريب السلع تمرين لك لا أكثر .

– تمرين على ماذا ؟

لمعت عيناه كعينى ثعلب ماكر وبصوت هامس قال :

– مهمة سرية جريئة ستكسب من ورائها نصف مليون مارك على الأقل .. إنه مبلغ خيالى قد تشترى به حيًا بأكمله فى الإسكندرية هه .. ماذا تقول ؟

جف حلقومى فجأة واحتبس صوتى وأنا أقول :

– اعتبرنى قد تمرنت وأنا الآن جاهز للمهمة الكبرى .. أريد هذا النصف مليون ولو كلفنى ذلك أغلى ما أملك .. وكل ما أملك .

ابتسم هاوزن وأردف :

– أنت لا تملك شيئًا ولكننا نريدك أن تملك .

– أنا طوع أمرك يا سيدى .

تناول الرجل كارتًا صغيرًا وسلمه لى وهو يقول :

– اذهب غدًا إلى هذا العنوان .

وقرأت : السفارة الإسرائيلية بون شارع ...

فرمقته بنظرة غليظة وقد سرت بأوصالى رعشة .. وقلت بصوت أجش :

– وما دخل إسرائيل فى تهريب السلع إلى ألمانيا الأخرى ؟

– فى بون ستعرف كل شيء .. وسيدفعون لك بسخاء إذا تعاونت معهم .

كان الخوف قد بدأ يساورنى وقلت فى تلعثم :

– تريدوننى جاسوسًا إذن ؟

أجابنى بسرعة وكأن رده كان جاهزًا :

– إسرائيل ليست بحاجة إليك لتعمل جاسوسًا .. فأنت لا تملك هذه الموهبة ولست بالشخص المهم الذى تستخلص منه معلومات سرية .

– قبل مغادرتى مصر بوقت قريب قرأت فى الصحف عن جاسوس مصرى عاطل لا يعمل بالحكومة ولم يؤد الخدمة العسكرية فلماذا اختير جاسوسًا وما الفائدة منه ؟

– اسمع .. طالما نحن فى حالة حرب مع العرب – فسوف ينظر إلى نياتنا بالريبة والشك ..

تشققت شرايين عقلى عندما نطقها صريحة .. وأحسست بأننى أترنح وأرتجف .. لكننى استجمعت قواى الخائرة فى صعوبة وسألته :

– أنت إسرائيلى إذن سيد هاوزن ؟

– أنا يهودى ألمانى أحب إسرائيل والعرب وأحلم دائمًا بالوفاق بينهما .

ودخلت سيلفيا مضطربة . نظرت إلى وجهينا تستخلص نتائج اللقاء .. ويبدو أنها فهمت جيدًا أن شيئًا ما قد حدث . فهتفت سريعًا :

– أوه .. أيها المصرى المراوغ ..

وأخرجت منديلها تمسح قطرات العرق على جبهتي .. وكنت لحظتئذ كتائه يبحث عن ملاذ .. يملؤني إحساس غريب أحسه لأول مرة . إنه مزيج من الخوف والطيش واللامبالاة ..

لملمت إرادتي ونزلت معها إلى الصالة فشربنا ورقصنا .. واستيقظت في الصباح لأجدها عارية بجوارى . وجسدها الأفروديتى ينفث حرارة تلسع رجولتى .. لكننى كنت قد فقدت الرغبة تجاهها وسافرت بخيالى إلى بعيد . إلى الإسكندرية . وهجم طوفان من الذكريات والمشاهد فاستسلمت هربًا من توترى واضطرابى . فطفت كالطائر فوق كازينو الشاطىء على الكورنيش وتجولت بداخله .. واتجهت إلى ذات الركن الذى شهد أروع لقاءاتى مع نوسة .. فتحسست الموائد والمقاعد علنى أتنسم عطرها . وعندما اتجهت طائرًا إلى قلعة قايتباى .. مدت سيلفيا يدها تداعب شعرى ولكن هيهات .. لم تخرجنى من رحلتى لمسجد سيدى بشر الذى يطل على البحر من مرتفع .. فلكم جلست على أسواره أتفكر في مستقبلى المجهول وحياتى الخاوية .. وكثيرًا ما عرجت خلف المسجد حيث تقع المقابر فأنشد بعض الرضى والصبر .

ياه . هاهى أشجار التين البرشومى على ساحل العجمى تتناثر على مرتفعات التلال .. وصبيان يرعيان الماعز ويلعبان « السيجا » . طفت أتذكر مراتع طفولتى وصباى .. برائحته الآزوتية يلفح وجهى نسيم البحر رطبًا .. ويطير خيالى إلى محرم بك حيث بيتنا الجميل وضوضاء الباعة الجائلين .. وتوقفت عند يوم سفرى حيث وجه والدتى النورانى والدموع تشق أخدودين على خديها .. وبحنان كبير تقبلنى وتضمنى إلى صدرها بحرارة .. وها هو يقف محزونًا .. لم أر والدى من قبل يبكى .. أشعره العجز عن تحقيق آمالنا بحسرة تنطق بها نبرات صوته الحزينة . وها هى هدير – صغرى شقيقاتى – تخلصت من أحضانها بمعجزة .. كانت تحس بمعاناتى أكثر من شقيقتى الكبرى التى وقفت تقول : دعوه يسافر .. فالسفر يحوله إلى رجل .

ودون وعى .. أزحت يد سيلفيا عن صدرى ونظرت إليها في « زهق » فانتبهت .. ورفعت رأسها قليلاً لتلمح حبات دموع تعرف طريقها جيدًا على وجهى .. وانتابتنى رجفة خفيفة فضمتنى إلى صدرها وقالت :

– علام القلق يا فؤاد ؟ أنت لن تذهب إلى جهنم حتى تضطرب هكذا .

أجبتها بصوت مبحوح مختنق :

– سيلفيا . أنا فقط تذكرت أهلي في مصر .

وهي تضغطني بشدة :

– عما قريب ستعود إليهم ومعك آلاف الماركات .

– ماذا يريدون مني مقابل هذه الثروة .

– أنا لا أفهم في السياسة . لكنهم بلا شك يعملون من أجل السلام وأمن إسرائيل .

– أنا أيضًا لا أحب السياسة ولا أفهمها . وما أذكره أن إسرائيل احتلت سيناء والضفة والجولان .. ولا أعرف بالضبط ماهي الضفة أو الجولان ؟

– أعتقد أنك مصري مقامر . لديك عزيمة المغامر وإصرار العنيد .

– ربما أكون كذلك وإلا ما جئت إلى هنا .

– قلت لي أنك جئت مديونًا .. أليس كذلك ؟

– بلى .. جئت مديونًا .. وكنت أتسول مصاريف السفر ذليلاً . حتى والدي .. كان يعتقد بأنني سأخذله .. ولم يكن يثق فيّ للحظة .

– زوج شقيقتك قلت لي أيضًا أنه آلمك كثيرًا وسخر منك .

– كفى .. كفى سيلفيا .. أريد ألا أتذكره . لقد رفض وداعي في المطار وقال باستخفاف سأذهب لاستقباله بعد عدة أيام قادمًا بفشله .

هجمت على مشاهد الإذلال التي عشتها في الإسكندرية وأنا أبحث عمن يمد لي يده بجنيهات قليلة تعينني في سفري .. فامتلأ قلبي غيظًا وغضبًا .. وسمعت سيلفيا تقول :

– فؤاد .. لا تحرق أعصابك فأنت مقبل على عمل هام يجب أن تستعد له بذهن صاف .

– نعم .. صدقت أيتها الملعونة . وضممتها مداعبًا خصلات شعرها الذهبي الناعم وقبلتها قبلة نارية طويلة وقلت :

– متى سنلتقي بهم في بون ؟

لم ترد عليّ فقد استغرقت قبلتها المجنونة وقتًا طويلاً .. ثم انتصبت جالسة فجأة وأخذت تضرب صدرى بيديها وتصيح :

– من اى أرض أنت أيها الوحش ؟

كانت حرارتها قد ازدادت اشتعالاً .. وتعمدت أن تغرقنى فى مستنقع الجنس ولا أفيق من خمره أبدًا .. أنوثتها أسبغت عليها الخبرة أنوثة أقوى. وبعد أن استرحنا قليلاً أدارت قرص التليفون وتحدثت مع هاوزن .. فلم أستطع فهم حوارهما حتى انتبهت إليها تقول :

– ميعادنا الثامنة مساء اليوم فى بون ؟

نظرت فى ساعة يدى وقلت :

– ٧٥ كيلو مترًا يقطعها الباص فى ساعة تقريبًا حتى بون يجب أن نصل مبكرًا . أريد شراء ملابس جيدة من محلات جونتر الشهيرة .

استسلمت لمصيرى .. وأغمضت عينى عن المخاطر التى تحدق بى .. فقد كنت كالتائه فى الصحراء أكاد أموت عطشًا لو لم أنبش الأرض بأظافرى لأشرب . وأخذت سيلفيا تسقينى جرعة زائدة من الثقة فى نفسى .. وتؤكد على أننى حر ولا سلطان لأحد على إلا المال الذى سوف يتدفق من حيث لا أدرى . وتمادت فى إيهامى بأننى شخصية مرموقة ومهمة حتى خيل إلى أننى رئيس الجمهورية العربية المتحدة . وبيدى حل أزمة الصراع العربى الإسرائيلى فى الشرق الأوسط .

وكر الحية

عندما ركبنا الباص في بون كان نهر الراين عن يسارى ينساب رقراقًا متهاديًا تغطيه أحيانًا أسراب من الطيور البيضاء .. وكانت الخضرة تمتد يمينًا ويسارًا إلى مساحات شاسعة .. فتبدو كبساط رائع تتخلله ألوان الزهور الزاهية فى الربيع . وتظهر البيوت الريفية وسط الحقول بشكلها الجميل يبعث شعورًا بالبهجة والهدوء ..

تذكرت النيل وأرض الدلتا تزهو به وترفل فى أثواب بديعة من ألوان شتى . وتذكرت الريف الفقير فى بلدى وقلت فى نفسى إن الفارق الكبير بينه وبين الريف الألمانى الذى لا يقارن يعود فى الأصل – كما قال هاوزن – إلى حالة الحرب التى سيطرت على مصر . ولولا الحروب لكانت أجمل بقاع الأرض .

هذا الأمر جعلنى لا أنبذ فكرة الاتصال باليهود أو التعاون معهم .. إذ صور لى خيالى أننى قد أساهم فى خلق مجتمع أفضل فى وطنى . اعتقدت أيضًا أننى صاحب رسالة يجب أن أؤديها . ولم أقنع عقلى أننى بالتعاون مع الإسرائيليين صرت جاسوسًا لهم على أهلى ووطنى . ولكن .. تغيرت المفاهيم تمامًا بعد زيارتى لسفارة إسرائيل !! .

فى غرفة رائعة بفندق ماجستيك .. استبدلت ملابسى وتهيأت للقاء المرتقب .. وعند الباب الرئيسى كانت تقف بانتظارنا سيارة أوبل حديثة وقف بجانبها شاب مهذب فتح الباب الخلفى فركبت بجوار سيلفيا وساقاى ترتعشان فى قلق لا إرادى .. واخترقت السيارة شوارع بون تحملنى إلى المجهول . وعندما وقفت أمام مبنى سفارة إسرائيل يعلوها العلم الأبيض ذو النجمة السداسية الزرقاء – نجمة داود – تسمرت قدماى واقشعر بدنى كله .. فجذبتنى سيلفيا إلى الداخل وهى تصيح فى دلال :

– هه .. حبيبى .. ماذا جرى لك ؟

فمشيت وراءها كالمنوم ..

– وفى الطابق الثانى من السفارة .. استقبلتنا فتاة بشوش أزالت ابتسامتها بعض الرعب الذى جثم على صدرى .. وقادتنا إلى غرفة تقع فى نهاية ممر طويل .

كانت غرفة مكتب لا أحد بها .. وعلى الجدار كانت هناك صورة لسيدة عجوز وأخرى لرجل لم يعجبنى منظره . لقد كانت العجوز تبتسم فى خبث بينما هو يزم شفتيه فى تحد وشماتة .

خرجت الفتاة ووضعت سيلفيا ساقًا فوق ساق فأظهرت ثلثى فخذيها وقالت بعدما أشعلت سيجارتها :

– فؤاد .. الأمر ليس سيئًا إلى هذا الحد .. تبدو كأنك تغرق .

– أنا ؟ .. .

نطقتها وكنت فى الحقيقة أرتجف بشدة وتصطك أسنانى فى اضطراب .. ويبدو أن سيلفيا أرادت تهدئتى فقالت بصوت محبب مريح :

– بإمكانك أن تتصرف الآن .. لن يمنعك أحد .

– تفضل .. مستر فؤاد .

هكذا نطقت باسمى الفتاة التى استقبلتنا وقد دخلت وبين يديها صينية تحمل أطباق الحلوى وأكواب الشاى .. وفي أثرها دخل رجل أسمر شرقى الملامح وبعربية فصيحة صاح كأنه يعرفنى منذ أمد :

– أهلاً أهلاً فؤاد .. كيف حالك ؟

صافحنى بحرارة وهو يقول :

– أنا مصرى مثلك .. إسكندراني .. واسمى إبراهيم يعقوب .. أرجو أن تعتبر نفسك في بيتك هنا .

تمتمت ببضع كلمات غير مفهومة فابتسم ورمق سيلفيا بنظرة سريعة فقامت على الفور وقالت لى :

– سأعود حالاً .

وبينما كان يعد ويرتب بعض أوراقه كنت أطرقع أصابعى وبدأ التوتر جليًا على وجهى . ولم يتركنى إبراهيم كثيرًا إذا التفت إلى كلية وقال :

– حدثنى عنك هاوزن كثيرًا . أما سيلفيا فقالت عنك قصائدًا .

ثم أضاف :

– ماذا كنت تعمل في كولون ؟

– في مصنع راينهارد للبويات .

– كم كان راتبك تقريبًا ؟

– كنت أوفر ألف مارك من بقية راتبى .

– أتريد أن نلف وندور أم نتحدث صراحة حتى نختصر المسافة والوقت ؟

– أنا لا أفهم شيئًا .

– فؤاد .. أنت شاب ذكي وتعرف كيف تستغل المواقف لصالحك . وأنا أعرف أنك تمر بظروف سيئة فى مصر وهنا أيضًا . هاوزن قال لى صراحة إنك مغامر عنيد .. رفضت العمل معه فى تهريب السلع إلى ألمانيا الشرقية لأنك أردت عملاً أهم وأكبر .. وبالتالى عائدًا ماديًا يتناسب وأحلامك وطموحاتك . أليست هذه حقيقة ؟

– بلى .

– إذن .. عليك أن تعلم جيدًا أنه برغم التوتر فى الشرق الأوسط والصراع المرير ما بين إسرائيل والدول العربية .. فليس معنى وجودك هنا أننا نريدك جاسوسًا .. لا .. نحن لا نريدك أن تخون بلدك .. فأنا شخصيًا لا أريد أن أتعامل مع الخونة .. ويبدو أن هاوزن كذب عليك كثيرًا عندما أكد على أنك قد تكسب نصف مليون مارك بتعاملك معنا .. نعم .. كذب هاوزن فهذا مبلغ تافه .. ولأنك مغامر تبحث عن المال والمجد .. فقد تكسب مليون مارك فى لحظة خاطفة .. إن النقود ليست بذات قيمة عندنا . نحن فقط نحب المجتهدين .. ونعطى بسخاء وبدون حساب إذا ما تأكد لدينا أنك مخلص فى تعاونك معنا .

قلت له وأنا أتلعثم ولا أستطيع جمع شتات فكرى :

– أنا مستعد للتعاون معكم على ألا أصاب بضرر أو ..

– لا .. لا .. لن يؤدى ذلك إلى إلحاق أى ضرر بك .. مطلقًا .. نحن نريدك صديقًا ونسعى وبشدة للمحافظة على أصدقائنا فى أى موقع وفى أى مكان .

قلت وقد تجرأت لفتح مجالات حوار مختلفة :

– ماذا إذن تريدون منى ؟

– نريد أن نتعرف عليك أكثر .

ولعدة ساعات سألنى إبراهيم عشرات الأسئلة عن أهلى وأقاربى وأصدقائى .. وعن الإسكندرية والحى الذى أسكن به . وسلمنى ملفًا به عدة ورقات طلب منى أن أكتب سجل حياتى وأجيب عن الأسئلة المكتوبة باللغة العربية . وجاءنى بخريطة كبيرة للإسكندرية علقها على الحائط وطلب منى أن أحدد موقع منزلى .. ثم علق خريطة أخرى لميناء الإسكندرية وطلب منى أن أحدد له بعض المواقع ففعلت .

جس النبض

خرجت من السفارة الإسرائيلية منهك القوى وكأنني كنت أحارب في معركة شرسة . كنت أبحث عن سريرى لأرتمى عليه . وتوقعت أن أجد سيلفيا تنتظرنى بالحجرة لكنها لم تكن موجودة . فاستغرقت فى نوم طويل وأفقت في الصباح أنتظر اتصالاً من سيلفيا أو إبراهيم فلم يحدث .

لقد طلب منى إبراهيم أن أظل بالفندق ولا أغادر بون حتى يتصل بى .. ومرت على خمسة أيام طويلة دون أن يتصل بى أحد . وكلما طلبت هاوزن فى كولون لا أجده . وفجأة طرق الباب أحد موظفي الفندق وأخبرنى أنه موظف بالحسابات .. وبدماثة خلق أخبرنى أننى مدين للفندق بمبلغ ١٦٠٠ مارك ويجب الإسراع فى السداد .

ارتديت ملابسى وركبت سيارة إلى السفارة الإسرائيلية .. ولكن موظفة الاستعلامات أتت من الداخل وبيدها مظروف بداخله مائتا مارك وقالت إن إبراهيم فى مهمة وسيعود خلال أيام .

وعدت إلى الفندق لأحصى المبلغ كله الذى أملكه فوجدته يقل عن الخمسمائة مارك .. وقلت فى نفسى .. لابد أن أتصرف وأسدد الفندق وإلا فستقبض على الشرطة . وتعجبت .. ذلك أن سيلفيا أكدت لى أننى لن أدفع حساب الفندق . فماذا حدث إذن ؟ وأين سيلفيا هى الأخرى ؟

استلقيت على سريرى أفكر فى هذا المأزق وفى آلاف الماركات والدولارات التى وعدت بها .. واضطربت لسوء موقفى بسبب قلة النقود معى .. لكننى لازمت الفندق ولم أغادره انتظارًا لاتصال إبراهيم أو سيلفيا . وبعدما فقدت الأمل فيهما جاءتنى مكالمة من السفارة الإسرائيلة تطلب منى أن أذهب إليها حالاً .

وهناك تعرفت على أبو علمون الذى اعتذر لسفر إبراهيم المفاجىء .. واصطحبنى إلى غرفة بها صفوف من المقاعد .. ولما أطفأ الأنوار وأدار آلة عرض شاهدت أنواعًا مختلفة من الدبابات والمدرعات والسيارات المجنزرة . وشرع أبو علمون فى تلقينى كيفية التمييز بينها

وعندما سألته لماذا ؟ أجابني بأن هذا هو صميم عملي الذي سيكون في ميناء الإسكندرية وسألني بحزم :

– ألست مغامرًا يبحث عن النقود ؟

أجبت في ذعر :

– بلى ..

ولكن .. قاطعني بحسم :

– نحن نريد أن نمنع الحرب بين مصر وإسرائيل . والشرق الأوسط الآن منطقة ملغومة وسوف ندفع لك مليون مارك – فورًا – إذا عرفنا بواسطتك أن مصر ستحارب .

– وكيف سأعرف ؟

– من السهل جدًا أن تعرف ذلك .. فإن تدفق الأسلحة من الاتحاد السوفييتي إلى مصر لدليل قوى على نية الحرب عند المصريين ، كذلك حركة تنقلات وحدات الجيش المصرى .. وما عليك إلا أن تكون عينًا لنا وأذنًا . عينًا على ميناء الإسكندرية الذى يستقبل السفن المحملة بالأسلحة والمعدات .. وأذنًا لنا نسمع بها ما يدور سرًا في الجيش المصرى ..

كان جسدى يرتعش وحل اضطراب شديد بأعضائى .. الآن .. الآن فقط عرفت مهمتى بالضبط .

استغرق أبو علمون في الحديث الذى كان « يطعمه » بالإغراءات المادية .. وبالخير الذى سينصب فوق رأسى بتعاونى معهم .. ويتعمد أن يذكرنى كل لحظة بظروفى المعيشية الصعبة .. وبأننى لست فى محطة باص ولكن في سفارة إسرائيل .

.. كانت نبرة التهديد واضحة ومخيفة تحمل خلفها الموت والدمار .. وتعقبها نبرة مغلفة بالوعود البراقة .. فحوصرت .. ورفعت الراية البيضاء فى النهاية .. دون أن أحسب حسابًا لمصير أسود ينتظرنى .. فقد ملئت ثقة بأننى فى مأمن كامل معهم .

العملاق الذى مات

أعاد أبو علمون تشغيل آلة العرض الـ ١٦ مليمترًا .. وأخذ يشرح لى الكثير عن الأسلحة المختلفة والمعدات العسكرية .. وبقيت طوال اليوم فى السفارة الإسرائيلية أتدرب على تحديد أنواع المعدات وموديلاتها .

وعندما عدت إلى الفندق – قامت «كاتيا» التى رافقتنى من السفارة ، بدفع المتأخرات . وصعدت معى إلى غرفتى وقالت لى أنها ستصاحبنى إلى سهرة خاصة ستعجبنى .

أبدلت ملابسى وخرجت معها تقود سيارتها وهى تغنى أغنية لأم كلثوم فصرخت بها :

– أنت فلسطينية ؟

نظرت إلى ثم استمرت تردد مقاطع الأغنية وتخترق شوارع بون .. حتى وصلنا إلى شارع تصطف على رصيفيه أشجار البونسيانا التى تغطيها الزهور الوردية البديعة وقالت كاتيا :

– أنا مغربية من كازا بلانكا وأضافت قبلما نغادر السيارة :

– ستقضى هنا سهرة العمر ..

دلفنا إلى فيلا من طابقين بلا حراسة .. وعندما اجتزنا الحديقة سمعت ضحكات نسائية تدور وانفتح الباب عن رجال ونساء لا أعرفهم ولا يعرفوننى .. لكن بعضهم أومأ تحية لكاتيا .. وبعد دقائق جاءتنى زجاجات الخمور أنتقى منها ما أريد .. ودارت عجلة المجون وصاح البعض فى اندهاش وهم يرون فتاة صغيرة شقراء .. لا تتعدى التاسعة عشرة .. ترقص وتخلع ملابسها قطعة .. وراء قطعة وكلما تخلصت من واحدة تزداد أصوات الهمهمات .. وظلت لدقائق عارية الصدر ترقص بورقة التوت الصغيرة ثم تخلصت منها أيضًا والآهات تعلو . وظهر شاب على البيست احتضن الفتاة العارية وأخذا يرقصان فى خلاعة .. وتخلص الشاب أيضًا من ملابسه ومارس الجنس بحرية أمام الحضور .

عدت إلى حجرتي لأستعد للقاء المرتقب مع إبراهيم فأخبرتني كاتيا أنني سأنتقل إلى إحدى الشقق لاستكمال الدورة المكثفة ، وفي الشقة الجديدة على أطراف المدينة جاء إبراهيم .. وبدأ امتحانه لي بأن أطلعني على صور لبعض المعدات وطلب مني التمييز بينها .. ودربني على ذلك كثيرًا ، ثم أفاض في شرح كيفية اصطياد المعلومات العسكرية .

وفي شبه معسكر مغلق أقمت في الشقة مع كاتيا . معظم النهار في دورات تدريبية مكثفة .. أما الليل فهو ملك كاتيا نمضيه معًا في شرب الخمر وتعاطي الجنس وننام آخر الليل سكارى .

وبعد أسبوعين تقريبًا كنت قد تعلمت الكثير ، ودربت على كيفية الحصول على ما أريد من معلومات من العسكريين . وتعلمت الكتابة على الورق المشبع بالمواد الكيماوية وذلك بكتابة خطاب عادي .. ثم أستخدم الكربون المعد للكتابة السرية لأكتب الرسالة المطلوبة بين السطور .. ثم أمرر الرسالة على بخار براد الشاي لثلاث دقائق .. فتتلاشى آثار الضغط ويصبح شكلها كالرسالة العادية بعد وضعها بين صفحات كتاب كبير لعدة دقائق .

كانت هذه هي طريقة الكتابة السرية التي دربت عليها وأجدتها عدة مرات . وهكذا أصبحت جاسوسًا لإسرائيل دون أن أقاوم .. أو أسعى في محاولة لأن أقاوم . ولم أستطع أن أتراجع . فلقد أغرقوني بالنقود والخمر والنساء الفاتنات .. وأحاطوني بكل الإغراءات فسقطت ولم أفق .

لكن بعد عدة أيام .. وفي أواخر سبتمبر ١٩٧٠ .. حدثت كارثة زلزلتني .. إذ شاهدت في التليفزيون مشاهد عن مصر . وعندما دققت كثيرًا – عرفت أن جمال عبد الناصر قد مات ..

صرخت دون وعي .. وجاءت كاتيا مسرعة من الحمام وأغلقت التليفزيون وعندما قفزت لأفتحه وأنا ألعنها حاولت منعي . فلم أشعر إلا ويدي تنهال ضربًا على وجهها .. وظللت أضربها وهي تصرخ .. ولما اشتد ضربي لها فتحت باب الشقة وخرجت هاربة من جنوني .. وبعد نصف الساعة فوجئت بإبراهيم أمامي .. يصوب مسدسه نحوي ومن خلفه كان هناك اثنان لا أعرفهما .. يحملان رشاشات « عوزي » الأوتوماتيكية . وكان الغضب يطفح على وجههم جميعًا .. وأدركت أنها لحظة النهاية .. !!

كيف يصنع الجواسيس ..؟

كنت منكفئًا على وجهي أبكي بصوت مرتفع .. تحاصرني انفعالات شتى وأنا أتخيل مدى حقارتي ووضاعتي . وامتدت نحوي يد إبراهيم – ضابط المخابرات الإسرائيلي – في محاولة لتهدئتي .. فصرخت في وجهه أن يدعني وشأني . وانفجرت باكيًا كأنما أبكي أبي . وملأني شعور غريب .. شعور بالضعف والانكسار والوحدة . واجتاحني إحساس بالضياع . وقال إبراهيم :

– نحن نقّدر أحزانك .. لقد كان ناصر عظيمًا ..

وأردف بفخر :

– هناك اتصالات دولية لإرسال وفد إسرائيلي للتعزية .. إنه زعيم عربي لن تنجب مصر مثله .. لقد استشهد وهو يكافح لاحتواء أزمة الفلسطينيين في الأردن ..

علا بكائي ولم أستطع كتمان موجات الشجن وسمعت إبراهيم يقول في التليفون :

– أرسلوا « هيمبل » حالاً ومعه أدواته .

– ....

– يفضل ذلك .. وعلى وجه السرعة . إنها ستساعدنا كثيرًا .

دقائق وجاء الدكتور هيمبل .. نظر في وجهي سريعًا وهو يضع حقيبته على السرير .. وفتحها باهتمام وأخرج سماعته الطبية .. ولما اقترب مني دفعته بقوة فسقط على الأرض وحاولت الهرب من الحجرة .. لكن إبراهيم وحارسيه كانوا قد تمكنوا مني .. وأسرع هيمبل وملأ السرنجة بسائل أصفر .. وبينما كنت أصرخ وأحاول الإفلات كانوا يشلون حركتي .. وحقنني هيمبل في الوريد ورأيت بعدها خيالات أشباح تلف حولي .

وعندما أفقت لمحت وجهها الجميل يبتسم . ويدها الرقيقة تداعب شعيرات صدري فلم أكن أتصور أنها هي بلحمها وشحمها وعندما نطقت باسمها صاحت وهي تحتضنني :

– حبيبي .. حبيبي ..!!

نظرت حولى فلم أجد سواها .. ورمقتها بنظرة عتاب فقبلتنى قبلة سريعة ملأى بالحنان وقالت :

– جئت لأجلك حالاً من إسرائيل .. ولن أتركك وحدك أبدًا .

احتوتنى سيلفيا بحنانها .. ومهدت الطريق لأبو علمون الذى جاءنى منتفخ الأوداج يبدو كديك شركسى .. وبعد أن جلس قليلاً ربت على كتفى وقال :

– فؤاد .. بوفاة ناصر سنكون أكثر احتياجًا إليك .. فالأمور فى مصر غير واضحة الآن . لقد كنا نعرف قدرات ناصر جيدًا ولكن بمجىء آخر .. ستكون هناك شكوك فى نياته .. وعلى ذلك فاحتمالات الحرب مع مصر قائمة . وعلينا أن نتعاون معًا لنحبط الصدام المسلح ونعمل على إفشاله .

وبعد انصراف أبو علمون جاء إبراهيم بخطوة الواثق وقال لى :

– إنها فرصة العمر بالنسبة إليك .. ويجب أن تنتهزها وإلا ضاعت منك إلى الأبد .. إنها لحظة رائعة يا فؤاد عندما نخبرك أنك حصلت على مليون مارك ألمانى .. لابد أن تتحرك فهناك من ينتظر هذه الفرصة التي منحناها لك .

وقبل أن ينصرف ناولنى مظروفًا بداخله ألفا مارك .

كانت سيلفيا – عميلة الموساد – لا تكف عن ترديد حكايات عجيبة عن المخابرات الإسرائيلية تكاد تكون أساطير من نسج الخيال . وكيف تحمى الموساد رجالها وعملاءها فى كل أرجاء المعمورة .

ولم تمر سوى أربعة أيام وعاد إبراهيم ليكمل الدورة التدريبية .. وجرى تدريبى على استعمال الشفرة بالراديو .. وكان على أن أستقبل إشارات معينة على إحدى الموجات فأقوم بمطابقتها على كتاب الشفرة . وسلمنى أيضًا جهاز راديو خاص وقمت بحل التمارين عدة مرات .. حتى تأكد نجاحى تمامًا فى استقبال الرسائل وترجمتها .

بعد ذلك دربنى على استعمال الميكروفيلم فى تلقى المعلومات أو إرسالها . فضابط المخابرات يكتب أوامره على صفحة فولسكاب .. ثم يقوم بتصغيرها عدة مرات حتى تصل إلى حجم رأس الدبوس . وعندما أتسلمها فورًا أقوم بتكبيرها إلى حجمها الأصلى وقراءة

الأوامر .. وإرسال المعلومات إلى مكاتب وفروع الموساد فى العواصم الأوروبية بذات الأسلوب .

وبعد عدة أيام لازمنى خلالها إبراهيم معظم ساعات النهار استطاع أن يشرح لى أساليب التخفى والتمويه والهرب من المراقبة وإخفاء أدوات التجسس .. وكذلك طرق « جلب » المعلومات من المصادر العسكرية .. وتتبع حركة تنقلات وحدات الجيش .. وكان الأهم .. مراقبة ميناء الإسكندرية حيث تتدفق من خلاله الأسلحة السوفييتية والشرقية إلى مصر .. خاصة بعدما حصلت على دورة سابقة فى التمييز بين أنواع الأسلحة والمعدات .

وبعد هذا النجاح المثير أعاد إبراهيم حكاية المليون مارك .. ثم وعدنى بـ ٥٠ ألف دولار أمريكى إذا أفشيت سر أى عميل للمخابرات المصرية داخل إسرائيل ويقبض عليه فعلاً . وعندما استفسرت عن هذا الأمر وقلت لإبراهيم :

– كيف لى أن أعرف جواسيس مصر فى إسرائيل ؟

أجابنى بثقة زائدة :

– من خلال معارفك الذين لهم علاقات بأفراد من القوات المسلحة .. أو من ضباط الجيش أنفسهم . فالمصرى دائمًا يتباهى بأنه يحمل معلومات خطيرة مما يعطى انطباعًا بأهميته .

فقلت له على الفور :

– مستحيل أن تصل الدردشة العادية لدرجة البوح بأسرار كهذه .

– سأقوم بتعليمك كيفية إدارة الحوار مع أشخاص مهمين .. وعليك أن تسعى لخلق صداقات جديدة مع أشخاص فى مواقع حساسة للحصول منهم على معلومات . أية معلومات لابد أن تكتبها لنا . وعليك أن تفهم جيدًا أن هؤلاء الذين يشغلون مناصب مهمة لديهم اتصالات بآخرين فى مواقع أهم . وأثناء جلسات اللهو والمرح .. « يفضفض » كل واحد بما لديه من معلومات وأسرار .. وتصبح أدق المعلومات العسكرية مادة سهلة التداول ، وعليك حينئذ أن تدير الحوار ببراعة .. كما سأعلمك استخلاص ما هو أكثر مما قيل .

وفى دورة أخيرة لإدارة حوار مع شخصية مهمة .. أخذ إبراهيم يعلمنى كيف أثير الطرف الآخر وأجعله ينطق ويبوح بكل ماهو سر لديه .. وذلك بعدة طرق منها أن أذكر له معلومات خاطئة فيصححها لى .. وإذا كان ضابطًا فى الجيش .. أتعمد تذكيره بهزيمة الجيش

أمام حفنة من جنود إسرائيل .. فيندفع ثائرًا ويقول ما عنده من أسرار الاستحكامات والتدريبات .. والأسلحة الحديثة التي وصلت ويتدربون عليها .. وأيضًا دور الخبراء السوفييت في إدارة بعض النواحي الفنية في الجيش المصري .

وفي النهاية – طمأنني ضابط المخابرات الإسرائيلي أنني أصبحت جاهزًا للعمل في مصر بما لدى من خبرة ودراية كبيرة بعد هذه الدورات التدريبية المكثفة . وأخبرني بأن راتبي الشهري ابتداء من الآن هو ٣٠٠ دولار أمريكي عدا المبالغ الأخرى التي ستخصص لي بعد كل خطاب أرسله إليهم به معلومات مفيدة . وقال إبراهيم أن بإمكاني الحصول على ألف دولار شهريًا – بخلاف الراتب – .. وهذا يتوقف على أهمية المعلومات التي أرسلها لهم « مع العلم أن مرتب الموظف خريج الجامعة كان لا يزيد عن ١٨ جنيهًا » . وطلب مني الاستعداد للعودة إلى مصر .. وإيهام أهلي وأصحابي بأنني كنت أعمل في تجارة السيارات في ألمانيا .. حتى لا تثير النقود الكثيرة التي معي أية شبهة .

وقبل أن يتركني لقضاء عدة أيام مع سيلفيا قبل سفري إلى مصر .. منحني ألف مارك وأعدت سيلفيا برنامج رحلة ممتعة إلى الجنوب الألماني حيث بحيرة كونستانس الواقعة على الحدود مع سويسرا والنمسا .. وأمضينا عدة أيام في « فريدر كسهافن » وتجولنا حتى وصلنا إلى حيث انتهى نهر الدانوب الشهير ومرورًا بمدينة فريبورج في الغابة السوداء .

وفي شتو تجارت نزلنا بفندق « برات » واشتريت بعض الهدايا .. وركبت الطائرة مودعًا سيلفيا إلى روما ومن روما إلى القاهرة .

نوسة .. التي أطلت

كان أفراد أسرتي في انتظاري والسعادة تملأ وجوههم وهم يرون أعداد الحقائب التي معي محملة بالهدايا .

وفي الإسكندرية كان أول ما خطر ببالي الاتصال بنوسة .. فذهبت سريعًا إلى صديقي حاتم ورجوته أن يطلعني على أخبارها .. وعندما تبين لي أنه لا يعرف أكثر مما ذكره لي في رسالته قررت نسيانها .. والعمل فورًا فيما جئت من أجله .

بدأت أبحث عن صداقات جديدة وأوطد علاقاتي ببعض الموظفين في ميناء الإسكندرية .. وكنت أسجل المعلومات التي أحصل عليها أولاً بأول وأرسلها في الحال إلى العنوان الذي طلبوا مني مكاتبتهم عليه في لندن « مستر طومبسون ص. ب ٣٢٩ » ..وكانت رسائلي

لا تحوى معلومات عسكرية فقط .. بل حوت أخبارًا اقتصادية عن رسو عدد من السفن العملاقة تحمل بداخلها آلاف الأطنان من الحبوب أو السكر .

كانت حركة الميناء من وارد وصادر تقريبًا مرسلة إليهم في لندن .. وأصبح العمل بالنسبة لى بعد مرور عدة أشهر من أسهل ما يمكن . فعلاقاتي تعددت وتشعبت .. وتجيئني المعلومات دون جهد يذكر من خلال الأحاديث العادية التي لم تكن تحمل ما يدل على اهتمامي .

وذات يوم فى نوفمبر ١٩٧١ جاءتنى رسالة غريبة بواسطة الراديو .. كانت الرسالة تحمل تحذيرًا واضحًا .. ومخيفًا فى ذات الوقت :

– « لا تقرأ في الصحف المصرية – مطلقًا – أية أخبار تتعلق بالقاء القبض على جواسيس لإسرائيل . هذا أمر وعليك تنفيذه » .

انزعجت كثيرًا لهذه الرسالة التى لفتت انتباهى وأثارت قلقى .. ودفعتنى رغمًا عنى لقراءة كل الصحف المصرية صباح كل يوم ، حتى قرأت خبرًا عن سقوط جاسوس مصرى يعمل لصالح إسرائيل .. فاضطربت حياتي وامتنعت عن الخروج من المنزل لعدة أيام .

كانت الرسالة تأتينى عن طريق الراديو – مكررة – حتى بعدما قرأت الخبر – فيحل الرعب بى وتهرب المغامرة .. وكانت أية أصوات أقدام تصعد السلم تصيب أطرافى بالشلل . فكتبت رسالة تحمل ما أشعر به وتترجم معاناتي .. وفوجئت بالرد يصلنى سريعًا بالراديو يطلب منى السفر إلى لندن فى أسرع وقت . وبينما كنت أعد حقيبتي .. دق جرس التليفون وكانت على الطرف الآخر .. نوسة !!

مرت ساعة واحدة وكنت أجلس فى أحد أركان كافيتريا فندق فلسطين . وكان اللقاء مدهشًا .. وظل كفها الصغير بين كفى لفترة طويلة . وعندما همست باسمى طلبت منها ألا تتكلم .. أردت فقط أن انظر لوجهها الذى حرمت منه لمدة عامين .. ومن داخلى كنت أرقص طربًا وأجريت مقارنة سريعة بينها وبين سيلفيا وكريستينا وكاتيا وغيرهن .. إنها أجمل منهن جميعًا .. بل تكفى ابتسامتها لتبدل مذاق حياتى وتضفى عليها البهجة .. إن مذاقها لعجيب .. عجيب والجنس معها له طعم ونكهة لا يوجدان فى أية امرأة أخرى قط .

وفى آخر يناير ١٩٧٢ كنت فى لندن .. وكان فى استقبالى ضابط المخابرات الإسرائيلية المسئول عنى – إبراهيم يعقوب – وبصحبته ضابط آخر اسمه « بوب » فى السفارة الإسرائيلية فى لندن . وطلبا منى أن أهدأ وألا أتوتر لهذا الحد ..

وقالا لي : إذا كانت الصحف المصرية قد نشرت أخبارًا عن إلقاء القبض على جاسوس يعمل لصالح الموساد .. فهذا ليس سوى دعاية مضادة .. وأسلوب تخويف لجواسيسهم في مصر .. ومثل هذه الشائعات معروفة لديهم وأسلوب قديم تستخدمه أجهزة المخابرات كل مدة .

لم أهدأ رغم ما قالاه لي .. فرأى إبراهيم أن يوكل إلى عملاً آخر في لندن . وكان عملي منصبًا على التعرف إلى المصريين الموجودين في لندن أو القادمين الجدد .. لعلي أنجح في تجنيد أحدهم وأتقاضى مكافأة ضخمة .. ووجد إبراهيم أنني بحاجة إلى تمرين فأخذني إلى إحدى الشقق .. وجرى تدريبي على العمل الجديد في اصطياد مصري يصلح جاسوسًا لإسرائيل .

وبعد دورة مكثفة من إبراهيم .. جاء بوب هو الآخر لتدريبي على كيفية العيش في لندن .. وتقصي أماكن تجمع المصريين كالفنادق والمقاهي والمطاعم المختلفة . وكانت لندن حينئذ تستقبل مئات الشباب من مصر بدعوى الدراسة أو السياحة أو العلاج .

وفشلت في مهمتي .. فظروف النكسة كانت مختلفة وغالبية المصريين الذين يسافرون إلى لندن كانوا على درجة من الوعي والثقة في النظام السياسي الجديد .. خاصة بعد تصفية مراكز القوى وانشغال الرأي العام بوعود الرئيس السادات . ولكن في مصر كانت مساحة الوعي السياسي تختلف .

أدرك بوب بحاسته كضابط مخابرات أنني لم أنجح في لندن . ولأنني أيضًا أدركت ذلك بعد أن فشلت كل محاولاتي في الإيقاع بمصري واحد .. فقد عرضت على بوب أن أسافر إلى مصر فالمجال هناك أفضل بالنسبة لي . وبعد عدة أيام وصل إبراهيم من بون ووافق دون تردد على عودتي إلى مصر .. وأعطاني راتبي المتراكم بخلاف مكافآتي وكانت ٤٥٠٠ دولار .

ولكنني بعدما عرفت قيمتي لديهم .. وبأن الموساد لا تبخل على جواسيسها .. اعترضت قائلاً إن المكافأة هزيلة جدًا . وأن قيمة المعلومات التي قمت بإرسالها تزيد عن هذا المبلغ كثيرًا . ووصفني إبراهيم بأنني أصبحت لحوحًا .. فطلبت منه زيادة المبلغ إلى ٧٠٠٠ دولار .. وإضافة مبلغ آخر قدره ٥٠٠٠ دولار كمقدم إيجار شقة أستطيع من خلالها أن أمارس عملي في التجسس بحرية .. وقد كان .

النفس الخامس

عدت إلى الإسكندرية بأكثر من ١٩٠٠٠ دولار .. مبلغ كبير لا شك في ذلك . واستأجرت شقة في شارع خالد بن الوليد في ميامي . وقررت أن أستغل نشاطي التجسسي لجمع أكبر عائد مادي ممكن .

لقد عشت حياتي السابقة محرومًا تلسعني رغبة الاحتياج والعوز .. لذلك .. كنت أضع تقييمًا لكل معلومة أرسلها إليهم وأحسب مستحقاتي وأغالي في الثمن . ثمن أعصابي التي تحترق كل لحظة .. وعمري الذي أضعه رهن أتفه معلومة أدونها ..

استمرأت طعم الخيانة شيئًا فشيئًا .. وبعدما بعت أمن وطني وأهلي ، لم أجد غضاضة في أن أخون رجلاً آخر لا أعرفه .. لكنه امتلك ما عجزت عن امتلاكه .. فإنني الآن أصبحت قادرًا على امتلاك أشياء ليست في حوزتي وأهمها نوسة .. التي جاءتني جريًا تفند لي أسباب زواجها .. فلم أهتم .. (!!) لقد عانقتني في شقة ميامي بمجرد أن فتحت حقيبة هداياها العامرة . وبعد دقائق .. فتحت باب حجرة النوم ونادتني من الداخل .. وعندما دخلت عليها كانت بلا شيء .. أي شيء .. بلا حياء أو خوف أو .. ملابس ... إنها أيضًا تدفع الثمن مثلي تمامًا . لا .. إنها تخون زوجها أما أنا .. فأخون وطني كله .. !!

تحولت الشقة إلى وكر للخيانة .. وللملذات ، خمر .. وحشيش .. ونساء ساقطات .. ورجال ربطتني بهم صداقات مفتعلة . وعندما كان ينشط مفعول الخمر والنساء .. لا تدري العقول ماذا تقول ؟!! .

هكذا كانت الأيام تجري سريعًا .. والمعلومات تتدفق في سلاسة .. والثمن أقبضه أنا كما أريد .. وبالسعر الذي أحدده .. !!

في تلك الأثناء .. لم تكن المخابرات المصرية غافلة عما يحدث في شقة ميامي التي ذاع صيتها .. وفاحت منها رائحة الخيانة تعلن عن الجرم صراحة .

واختارت المخابرات المصرية أحد مرشديها الذي يعمل موظفًا بشركة الملاحة البحرية – واسمه ممدوح – ليقتحم هذا الوكر ويرصد ما به . فكان ينقل مشاهداته إلى العميد حسن واصف – المسئول عن مكتب المخابرات في الإسكندرية – وفي نفس الوقت وضع تليفون فؤاد تحت المراقبة .. وبذلك أصبح الجاسوس تحت سيطرة جهاز المخابرات وتحركاته مرصودة تمامًا دون أن يعرف .

ويكمل الجاسوس سرد قصة الإيقاع به قائلاً :

– جاءتني بطريق الراديو رسالة تطلب مني السفر إلى روما لمقابلة دانيال .. وهو ضابط المخابرات الإسرائيلي في السفارة الإسرائيلية هناك .. وبالفعل .. أعددت الكثير من التقارير والمعلومات التي حصلت عليها وسافرت بها إلى روما .. وكان اللقاء مثيرًا للغاية .. إذ كان الضابط سخيًا جدًا ومنحني ما طلبته من مقابل بل وزاد عليه ألفًا وخمسمائة دولار .. وعدت إلى مصر بالثروة التي حصلت عليها مقابل بضع معلومات استقيها من أفواه « المساطيل » وأشتريها أحيانًا بالهدايا .

وبعد عودتي بحوالي أسبوع واحد .. كانت نوسة عندي بالشقة تتسلم هداياها وتسلمني جسدها الرائع ، فنمت مرهقًا بعدما سجلت بعض المعلومات التي وصلتني على ورقة وضعتها بجانب السرير ولم أقم بكتابتها بالطريقة السرية التي دربت عليها .

وعند الفجر .. دق جرس الباب دقات خفيفة فظننتني أحلم . واستيقظت فجأة على يد تهزني فشلني الذعر .. لأجد الحجرة كلها قد زرعت برجال لا أعرفهم .

تناول أحدهم الورقة المسودة وفتشوا الشقة جيدًا .. وعثروا على كل الأدلة والأدوات التي تؤكد أنني جاسوس .. خائن .

اصطحبوني إلى القاهرة وأخضعت لتحقيق مطول لعدة أيام .. واكتشفت أنني كم كنت واهمًا .. فتصرفاتي كلها كانت مكشوفة .. وحركاتي مرصودة .. وخطاباتي مقروءة .. حتى زيارتي إلى روما ولقاءاتي كانت بالصوت والصورة لدى المخابرات المصرية .

اعترفت في الحال بكل شيء دون إكراه .. فالأدلة كانت كلها ضدي ولا تترك لي المجال لكي أنكر .. ووجهت إلى النيابة العسكرية اتهاماتها الآتية :

– السعي لدى دولة معادية « إسرائيل » لمعاونتها في عملياتها الحربية .

– الحصول على مقابل مادي بقصد ارتكاب عمل ضار بالمصلحة القومية وهو إفشاء أسرار البلاد .

– الحصول على أسـرار الدفاع عن البلاد وتسليمها لدولة أجنبية معادية وهي إسرائيل .

لقد اعترفت بكل شيء وبرغم الاحتقار الذى أشعر به تجاه نفسي .. إلا أنني أعترف صراحة بأن حبي لتلك المومس – نوسة – هو الذى دفعني للخيانة .. خيانة وطني !!

انتهت مذكرات الجاسوس فؤاد حمودة .. ولكن . ماذا حدث له بعد ذلك ؟

تشكلت محكمة عسكرية عليا لمحاكمته . وبعد عدة جلسات أصدرت حكمها بإعدامه شنقًا .. وصدّق رئيس الجمهورية على الحكم وأحيل للتنفيذ في سجن الاستئناف بالقاهرة .

وفي صباح السابع عشر من يناير ١٩٧٣ .. كان يوم تنفيذ الحكم .. حيث سيق المتهم إلى غرفة الشنق .. يجرجره جنديان .. ويصرخ قائلاً : أنا بريء .. بريء .. ثم يصرخ ثانية : إعدموها معايا .. اعدموا نوسة .. اعدموها .

« وقف إمام السجن ومأمور التنفيذ وعشماوى في انتظار وصول الخائن من زنزانته .. ولكن محاميه اقتحم المكان فجأة .. وبيده وثيقة رسمية تفيد ان موكله « مجنون » وهو غير مسئول عن تصرفاته .. ويطالب بوقف تنفيذ الحكم كما ينص القانون . وبهذه الحيلة .. أفلت الخائن من الإعدام لمدة أسبوعين فقط .. فقد رفضت المحكمة الاستشكال القانوني الذى تقدم به المحامي .. وسيق المتهم مرة ثانية إلى غرفة الإعدام حيث أعدت المشنقة لاستقباله . وقام مأمور التنفيذ العميد بدر الدين الماحي بسؤاله عن آخر طلب له في حياته .. فطلب سيجارة .. وأشعلها له المأمور وحبل المشنقة حول عنقه . وبعد أن سحب النفس الخامس .. انفتحت فجأة طاقة جهنم تحت قدميه . وتدلى جسده العفن الذى تبرأ منه أهله .. كما تبرأت منه ديدان الأرض .

محمد كامل .. ماريو إيجتسيانو .. !!



هناك مساحة ضيقة ما بين الطموح والجنون .. !!

وبقدر ما لدى الإنسان من رغبة شرسة في تحقيق أحلامه .. فقد تعميه تطلعاته أحيانًا عن معالم الطريق . ويتحول لمخلوق مبصر يتحسس الخطى دونما توقع لفاجآت القدر .. وجنوح العقل .. وصراعات البقاء .

وبرغم كم الحذر الذى يتحلى به مخالفو نواميس الأسوياء .. إلا أن الحقائق كلها والثوابت .. تؤكد بأن هناك نهايات مفجعة ومأساوية لهؤلاء لم تخطر على بال قط .. ولكنها دون شك .. غضبة الطبيعة .. وثأر العدل على كل عابث شرير .. فالنفس البشرية لازالت تمثل لغزًا محيرًا .. عجزت العقول عن تفسير بعض جوانبها ..

لذلك ... فنحن لا نندهش أمام تقلبات البشر وانحراف الأمزجة والسلوك .. تلك هى النفس البشرية .. لغز الألغاز .. سرها لا يعلمه إلا خالقها سبحانه وتعالى !!

بداية لا بد منها

سؤال محير مازلنا نبحث عن إجابته .. ونقلب بين الصفحات لعلنا نعثر على تعليل منطقى يحل هذا اللغز الشائك .. لماذا الإسكندرية ؟

عشرات من الجواسيس الخونة أنجبتهم المدينة الجميلة فعاشوا تحت سمائها واستنشقوا نسائمها وتمددوا على شواطئها الباسمة وبذرت بداخلهم فجأة بذور الخيانة .. فمدت جذورها تقتلع الحب الخصيب وتغتال خلايا الانتماء ؟؟ ..

لماذا .. ؟!!!

عشرات الملفات من حولى عن جواسيس الإسكندرية .. كلما قرأت سطورها توجتنى الدهشة ولا أجد إجابة شافية عما يدور بخلدى من تساؤلات . فالاسكندرية تختلف كثيرًا عن كل مدن مصر .. وتتميز عنها بتنوع مصادر الرزق ووفرتها .. سواء أكانت مشروعات إنمائية وصناعية مصرية .. أو شركات أجنبية متعددة كلها خلقت مهنًا جديدة فتحت مجالات أوسع للاسترزاق والتعيش . ولا يمكننا بأى حال أن نقارن بينها وبين مدينة العريش مثلاً .. التى برغم احتلالها عام ١٩٦٧ ومعاناة أهلها من جراء تحكم المحتل وتضييق منابع الرزق .. إلا أن جواسيسها الذين عملوا لصالح العدو - اضطروا - بسبب الضغوط المادية والمعنوية إلى السقوط .. تدفعهم مشاكل لا قبل لهم بها .

هؤلاء الجواسيس يقل عددهم كثيرًا عن جواسيس الإسكندرية .. بل إن جواسيس العريش لم ينفذ حكم الإعدام إلا فى قلة منهم أشهرهم على الإطلاق إبراهيم شاهين زوج انشراح موسى .. بينما نجد ملفات الجاسوسية فى الإسكندرية تحف بعشرات القضايا التى انتهت غالبيتها بإعدام الخونة .. فتتفوق بذلك عن سائر مدن مصر بما فيها القاهرة . وهذا أمر يدعونا للبحث عن جذور الجاسوسية فى الإسكندرية .. وعمقها داخل البنية الاجتماعية التى اختلت بعد النكسة عام ١٩٦٧ .. وأيضًا نتيجة لعدم مواكبة ركب حضارة أشرقت علاماته .. ودوت بيارقة لتهرب أحاجى التخلف وأسانيده .

وفى هذا الفصل نكتب عن جاسوس الإسكندرية « ماريو » أو « محمد إبراهيم فهمى كامل » الذى يعد من أشهر عملاء إسرائيل فى مصر الذين يتم تجنيدهم بسهولة يكاد العقل لا يستوعبها أو يصدقها . وأيضًا كانت قصة سقوطه فى قبضة مخابراتنا أكثر سهولة .. أما نهايته البشعة فلم يكن ليصدقها هو أو يتخيل خطوطها السوداء ..

جذور متآكلة

منذ تفتحت عيناه على ضجيج الحياة فى حى محرم بك المزدحم ذاب عشقًا فى جرس الترام .. الذى كلما ملأ أذنيه خرج إلى الشرفة يبتسم فى انبهار وحيرة .. فنشأت بينه – منذ طفولته – وبين الترام قصة غرام دفعته للهرب من مدرسته .. والسعى وراءه راكبًا لجميع خطوطه المختلفة ومحطاته .

ولم يدم هذا الحب كثيرًا إذ اندفع فجأة نحو السيارات فالتصق حبًا بها .. والتحم عقله وقلبه الصغير بموتور السيارة مستغرقًا وقته كله .. حتى أخفق فى دراسته الابتدائية .. وأسرعت به خطاه إلى أول ورشة لميكانيكا السيارات يمتلكها إيطالى يدعى الخواجة «روبرتو» الذى اكتشف هذا الحب الجارف بين الولد والموتور فعلمه كيف يتفاعل معه ؟! ويفهمه ويستوعبه . ولم تكد تمضى عدة أشهر فقط إلا وكان محمد أشهر صبى ميكانيكى فى ورشة الخواجة روبرتو .

كانت السيارات تقف موازية للرصيف بجوار الورشة بأعداد كبيرة .. تنتظر أنامل محمد الذهبية وهى تداعب الآلة المعدنية الصماء .. وتمر بين أجزائها فى تناغم عجيب فتعمل بكفاءة ويتحسن صوت « نبض » الموتور .. ويزداد الصبى شهرة كل يوم . ورغم محاولات البعض استدراجه واستثمار خبرته وشهرته فى عمل ورشة « مناصفة » بعيدًا عن روبرتو ، إلا أن الصبى رفض أن يتركه .. وكان تواضعه الشديد مثار إعجاب أصحاب السيارات الذين أجبروا على أن يتعاملوا معه كرجل لا كصبى فى الخامسة عشرة من عمره . وكثيرًا ما كان ينزعج عندما كان يخرج إلى الكورنيش مع أقرانه بسبب توقف السيارات ودعوة أصحابها له ليركب حتى منزله ، فكبرت لدى الصبى روح الرجولة وارتسمت خطوطها المبكرة حيث كان مبعثها حبه الشديد للعمل والجدية والتفكير الطويل .

وبعد عدة سنوات كانت الأحوال والصور قد تغيرت .

صار الصبى شابًا يافعًا خبيرًا بميكانيكا السيارات . تعلم اللغة الإيطالية من خلال الخواجة روبرتو والإيطاليين المترددين على الورشة وأصبح يجيد التعبير بها كأهلها .. فأطلق عليه اسم « ماريو » .

وعندما لسعته نظرات الإعجاب من « وجيدة » .. دق قلبه بعنف وانتبه لموعد مرورها أمام الورشة حين عودتها من المدرسة . فواعدها والتقى بها ولم يطل به الأمر كثيرًا .. إذ تقدم لأسرتها وتزوجها بعدما اقنعتهم رجولته وسمعته الحميدة وشقته الجميلة فى محرم بك .

ثمانية أعوام من زواجه وكانت النقود التى يكسبها تستثمر فى ورشة جديدة أقامها بمفرده . ومنذ استقل فى عمله أخذ منه العمل معظم وقته وفكره حتى تعرف على فتاة قاهرية كانت تصطاف مع أهلها بالإسكندرية وأقنعها بالزواج .. ولأنها كانت ابنة أسرة ثرية فقد اشترى لها شقة فى الدقى بالقاهرة وأثثها .. وأقام مع عروسه « تغريد » لبعض الوقت ثم عاد إلى الإسكندرية مستغرقًا فى عمله متنقلاً ما بين وجيدة وتغريد ينفق هنا وهناك . وعندما توقف ذات يوم على الطريق الصحراوى بالقرب من الرست هاوس بجوار سيارة معطلة .. أعجبته صاحبة السيارة ودار بينهما حوار قصير .. على أثره ركبت معه السيدة الرائعة إلى القاهرة .. وفى الطريق عرف أنها راقصة مشهورة فى شارع الهرم .. فسهر معها فى الكباريهات وتنقل معها هنا وهناك .. ثم جرجرته معها إلى شقتها .. واعترف ماريو أن هذه الراقصة كانت أول من دفعه والخطوة الأولى نحو حبل المشنقة .. يقول فى اعترافاته التفصيلية :

الجسد ينادى

فى تلك الليلة شربت كثيرًا وكلما رأيت جسد الراقصة المثير يرتعش أمام الزبائن ترتعش فى جسدى خلجات الرغبة ، وبعدما انتهت من فقراتها الراقصة فى أربعة كباريهات .. عدنا إلى شقتها فى المهندسين وبدلاً من أن أنام أو أذهب لشقتى حيث تنتظرنى تغريد .. وجدتنى أطوق خصرها بشدة وأطلب منها أن ترقص لى وحدى ، فأبدلت ملابسها وعادت لى بلباس الرقص الشفاف الذى سلب عقلى وأفقدنى الصواب .

وذهبت إلى تغريد التى وجدتها تشتاق إلى جيوبى قبلما تشتاق إلى .. فافتعلت مشاجرة معها وعدت ثانية إلى الراقصة التى استقبلتنى فرحة .. ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أكاد أفارقها أو أبتعد عنها لأواصل عملى فى الورشة .

لقد استعنت ببعض الصبية الذين دربتهم على القيام بالعمل بـدلاً مني .. فكنـت أتغيب لعدة أيام في القاهرة وأعود لأجمع ما ينتظرني من مال لديهم .. وسرعان ما أرجع لأنفقه على الداعرات والراقصات .. ونساء يبعن بناتهن ورجال يبيعون لحم زوجـاتهم مـن أجـل جنيهـات قليلة .

ولأن للفلوس مفعول السـحر فقد كنت أعـامل كملـك .. لأنني أصرف ببذخ على من يحطن بي مـن فتيـات ونسـاء أشبعنني تدلـلاً .. وصورنـي كـأنني الرجـل الأول لديهـن .. فأطلقت يدي ومددتهـا إلى مدخراتي في البنـك شيئًا فشيئًا حتى أصبـح رصيـدي صفـرًا .. وتحولت الورشة إلى خرابة بعدما سرق الصبيان أدواتها وهرب منها الزبائن .

حاولت أن أثوب إلى رشدي وكان الوقت قد فات ، وخسـرت سـمعتي بعدمـا خسـرت نفسي .. وأصبحت مصاريف وجيدة وتغريد تمثل عبئًا قاسيًا على نفسي وأنا الذي لـم يعضني الجوع أو تثقلني الحاجة من قبـل .. فتأملت حالي وقـررت أن أخطو خطـوة سريعة إلى الأمـام وإلا ... فالمستقبل المجهول ينتظرني والفقر يسعى ورائي بشراسة ولا أستطيع مجابهته .

تشاو .. تشاو .. تشاو ..

استخرجت جواز سفر وحصلت على عناوين لبعض زبائني القدامي في إيطاليا وركبت السفينة الإيطالية « ماركو » إلى نابولي .. وبعدما رأيت أضواء الميناء تتلألأ على صفحـة المياه صحت بأعلى صوتي تشاو .. تشاو نابولي .

وفي بنسيون قديم حقير وقفت أمام صاحبه العجوز أسأله هـل زرت مصـر مـن قبـل .؟ فقال الرجل لا .. ضحكت وقلت له إنني رأيتك في الإسكندرية منذ سنوات فجاءتني زوجته تسبقها حمم من الشتائم قائلة :

– ماذا تريد أيها المصري من زوجي ؟ أتظن أنـك فهلـوي ؟ انتبه لنفسـك وإلا .. ففي نابولي يقولون : إذا كان المصري يسرق الكحل مـن العين .. فنحـن نسـرق اللبن من فنجـان الشاي . وكان استقبالاً سيئًا في أول أيامي في إيطاليا .

في اليوم التالي حاولت أن أتعرف على السوق وبالأخص اماكن بيع قطع الغيار المستعملة .. ولكن صديقًا إيطاليًا توصلت إليه أخبرني أن في « ميلانو » أكبر أسواق إيطاليـا للسـيارات القديمة والمستعملة .. وثمنها يعادل نصف الثمن في نابولي . فاتجهت شـمالاً إلى رومـا وقطعت

مئات الكيلو مترات بالقطار السريع حتى ميلانو .. وبالفعل كانت الأسعار هناك أقل من نصفها فى نابولى . والتقيت فى ميلانو بأحد زبائنى القدامى الذى سهل لى مهمتى .. ولفت انتباهى إلى أماكن بيع منتجات خان الخليلى فى ميلانو بأسعار عالية .

ابتعت طلباتى من قطع غيار سيارات الفيات ١٢٥ غير المتوافرة فى السوق المصرية وعدت إلى الإسكندرية وخرجت من الجمرك بما معى من بضائع بواسطة زبائنى الذين يعملون فى الدائرة الجمركية .. وقمت ببيع قطع الغيار بأضعاف ثمنها وذهبت إلى خان الخليلى واشتريت بعضًا من بضائعه وسافرت مرة ثانية إلى إيطاليا .. واعتدت أن أنزل بنسيون « بياتريتشى » فى روما ثم اتجه إلى ميلانو لعدة أيام .. أنجز خلالها مهمتى وأعود ثانية إلى روما ونابولى ثم إلى الإسكندرية .

اعتدت السفر كثيرًا وبدأت الأموال تتدفق بين أصابعى من جديد .. واتسعت علاقاتى بإيطاليين جدد بالإضافة للأصدقاء القدامى الذين يكنون لى كل الود .

وفى ذات مرة وبينما كنت فى خان الخليلى أنتقى بعض المعروضات التى أوصانى صديق إيطالى بشرائها .. سألتنى فتاة تبيع فى محل صغير عما أريده .. وساعدتنى فى شراء بضائع جيدة بسعر رخيص وتكررت مرات الذهاب للشراء بواسطتها ولما عرفت أننى أسافر إلى إيطاليا بصفة مستمرة عرضت على أن تسافر معى ذات مرة .. لتشترى سيارة فيات مستعملة لتشغيلها تاكسيًا فى القاهرة . وأطمأنت « زينب » وهذا هو اسمها - عندما أخبرتها أننى أعمل ميكانيكيًا وأقوم بالإتجار فى قطع الغيار . وتركتها لتجمع المبلغ المطلوب ثم أرسل لها من إيطاليا لأنتظرها هناك .

أراد أصدقائى الإيطاليين أن أظل بينهم وأمارس عملاً ثابتًا أحصل بمقتضاه على إقامة فى إيطاليا . وقد كان .. إذ سرعان ما وجدوا لى عملاً فى شركة « راواتيكس » .. وبعدما حصلت على تصريح عمل وإقامة .. لم تتوقف رحلاتى إلى الإسكندرية .. فالمكسب كان يشجع على السفر بصفة مستمرة لكى أعرف احتياجات سوق قطع غيار السيارات فى مصر .. والذى كان يمتصها بسرعة فائقة .

وفى إحدى هذه السفريات وبينما كنت فى مطار روما تقابلت بالصدفة مع صديق إيطالى قديم - يهودى - كانت بيننا « عشرة » طويلة واسمه « ليون لابى » فتبادلنا العناوين ، وبعد عدة أيام جاءتنى مكالمة تليفونية منه وتواعدنا للقاء فى مطعم مشهور فى ميلانو .

أشفق « لابى » كثيرًا على حالى بعدما شرحت له ظروفى وتعثراتى المالية وزواجى من امرأتين ..

وسألته أن يتدبر صفقة تجارية كبيرة أجنى من ورائها أموالاً طائلة .. فضحك « لابى » وقبل أن يقوم لينصرف ضربنى على ظهر يدى وقال لى :

« لا تقلق ماريو .. غدًا سأجد لك حلاً ، لا تقلق أبدًا » .

القتيل

فى اليوم التالى وفي الثامنة مساء كنت أطرق باب شقته .. ففتحت الباب فتاة بجسدها شبه العارى .. بدت وكأن فتنة نساء العالم سكنت بجسدها .. دعتنى للدخول فمشيت وراءها إلى الصالون .. أتقد نارًا لمرأى أردافها تهتز داخل شورت ساخن مثير يلتصق بلحمها .. وكم وددت لو هجمت عليها لأنال ولو قبلة واحدة من شفاهها النارية المنفرجة فى إثارة لا يقاومها بشر . طلبت منى أن أنتظر « لابى » الذى سيتأخر قليلاً ثم خرجت وجاءتنى ببعض الحلوى وجلست قبالتى فزلزلت رجولتى .

ولما وضعت ساقًا فوق ساق كدت أجن وتمنيت أن .. أن أتذوق هذا الجسد الأفروديتى الملتهب ولو كان فى ذلك قتلى .. لست أعرف ماذا حدث لى بالضبط .. ؟ فقد كان جسدى يغلى ورغبتى تثور وعقلى آثر أن يهرب ويطير إلى مكان بعيد . فقمت من مكانى ملوعًا واتجهت إلى حيث تجلس .. قرأت الفتاة فى عينى ما أنوى فوجمت وسكنت ذاهلة .. وعندما شددتها من يدها وقفت وحاولت أن تتراجع فلم أمنحها الفرصة للهرب .. وجذبتها بقوة إلى صدرى وصرخت لا تدرى ماذا تفعل .. وبينما كنت أمتص رحيق شفتيها فى جوع مجنون .. خالجنى شعور أكيد بأننى لم أتذوق امرأة قط قبل اليوم .

دفعتنى بقوة وخرجت من الحجرة تجرى فجريت خلفها وقلت لها بصوت يلهث :

– أنت المرأة الوحيدة على سطح الأرض .

فقالت وهى ترتجف فى هلع :

– ماذا تريد ؟ سأقذف بنفسى من النافذة لو لمستنى .

قلت وأنا لازلت ألهث :

– امرأة مثلك لا تقاوم .. أبدًا .. أريد فقط أن أقبلك .. لا تخافي .. و

صرخت بصوت عالٍ :

– ابتعد عني أيها الحيوان الغبي .

وفي قفزة واحدة كنت أمامها .. فاستدارت لتجري فكنت أسرع منها .. وعندما احتويتها بين ذراعي صرخت بقوة أكثر .. فكانت لطمة مني على وجهها أدعى إلى إسكاتها .. ودون وعي نزعت عنها ملابسها ولم أجد منها مقاومة بعد ذلك .. ولم يدر بخلدي لحظتئذ هل خضعت لي خوفًا أم تلذذًا ؟

حملتها بعد ذلك إلى الحمام وغادرت الشقة دون أن أعرف اسمها أو من هي .. وعندما اتصل «لابي» ليعتذر عن تأخره .. لم يذكر لي بما يدل على أنه عرف بما حدث داخل شقته . وبالتالي لم أسأله أنا عمن تكون هذه الفتاة . وتواعدنا على اللقاء بمكتبه .

وصباح اليوم التالي ذهبت إلى العنوان وفوجئت بنجمة داود السداسية على الباب .. ولوحة نحاسية مكتوب عليها بالإيطالية : القنصلية الإسرائيلية .

المصيدة

وقفت مرتبكًا للحظات أمام الباب المغلق .. ثم نزلت عدة درجات من السلم وأخرجت علبة سجائري وأشعلت سيجارة .. وعندئذ سمعت وقع خطوات نسائية بمدخل السلم فانتظرت مترددًا .. وعندما رأيت الفتاة القادمة كدت اسقط على الأرض

كانت هي بنفسها الفتاة التي واقعتها في شقة « لابي » لكن ابتسامتها حين رأتني مسحت عني مظاهر القلق وهي تقول :

– بونجورنو .

فرددت تحيتها بينما كانت يدها تسحبني لأصعد درجات السلم ولازالت ابتسامتها تغطي وجهها وقالت في دلال الأنثى المحبب :

– أنا لم أخبر سنيور لابى بما حدث منك ...

قلت فى ثقة الرجل :

– لماذا ؟ ألم تهددينى بالانتحار من النافذة ؟

بهمس كأنه النسيم يشدو :

– أيها الفرعونى الشرس أذهلتنى جرأتك ولم تترك لى عقلاً لأفكر .. حتى أننى كنت أحلم بعدها بـ « أونالترا فولتا » . لكنك هربت !!

قلت لها :

– ياليتنى فهمت ذلك .

– وانفتح الباب وهى تقول :

– هل ترفض دعوتى على فنجان من القهوة الإيطالية ؟

ووجدت نفسى فى صالة القنصلية الإسرائيلية والفتاة لازالت تسحبنى وتفتح باب حجرة داخلية لأجد « لابى » فجأة أمامي . قام ليستقبلنى بعاصفة من الهتاف :

– ميو أميتشو .. ماريو .. أهلاً بك فى مكتبك .

وهللت الفتاة قائلة :

– تصور .. تصور سنيور لابى أنه لم يسألنى عن اسمى ؟

قهقه لابى واهتز كرشه المترهل وهو يقول بصوت جهورى :

– شكرية .. شكرية بالمصرى سنيور ماريو تعنى : جراتسيللا

واستمر فى قهقهته العالية وصرخت الفتاة باندهاش :

– أيكون لاسمى معنى بالعربية ؟ اشرحه لى من فضلك سنيور ماريو .

وكانت تضحك فى رقة وهى تردد :

– شوك .. ريا .. شوك .. ريا . جراتسيللا شوك .. ريا .

ولم يتركنى لابى أقف هكذا مندهشًا فقال للفتاة :

– أسرعى بفنجانين من الـ « كافى » أيتها الكافيتييرا جراتسيللا .

واستعرض لابى فى الحديث عن ذكرياته بالإسكندرية قبل أن يغادرها إلى روما فى منتصف الخمسينيات .. وأفاض فى مدح جمالها وشوارعها ومتنزهاتها .. ثم تهدج صوته شجنًا وهو يتذكر مراتع صباه وطال حديثنا وامتد لأكثر من ساعتين بينما كانت سكرتيرته الساحرة جراتسيللا لا تكف عن المزاح معى وهى تردد :

– شوك . ريا .. سنيوريتا شوك .. ريا ..

وعندما سألتنى أين أقيم فذكرت لها اسم الفندق الذى أنزل به .. فقالت وكأنها لا تسكن ميلانو :

– لم أسمع عن هذا الفندق من قبل

رد لابى قائلاً :

– إنه فندق قديم غير معروف فى الحى التاسع « الشعبى »

قالت فى تأفف :

– أوه .. كيف تقيم فى فندق كهذا ؟

قال لابى موجهًا كلامه إليها :

– خذيه إلى فندق « ريتزو » وانتظرانى هناك بعد ساعتين من الآن .

وربت لابى على كتفى فى ود وهو يؤكد لى أنه يحتاجنى لأمر هام جدًا لن أندم عليه وسأربح من ورائه الكثير .

ليوباردو .. ماريو

وركبت السيارة إلى جوار جراتسيللا فانطلقت تغنى أغنية « بالوردو بيلفا »أى « أيها الوحش الضارى » وفجأة توقفت عن الغناء وسألتنى :

– هل تكسب كثيرًا من تجارتك يا ماريو ؟

قلت لها :

– بالطبع أكسب .. وإلا .. ما كنت أعدت الكرة بعد ذلك مرات كثيرة .

– كم تكسب شهريًا على وجه التقريب ؟

– حوالى ستمائة دولار .

قالت في صوت مشوب بالحسرة :

– وهل هذا المبلغ يكفى لأن تعيش ؟ إن لابى يشفق لحالك كثيرًا سنيور ماريو .

– سنيور لابى صديقى منذ سنوات طويلة .. وأنا أقدر له ذلك .

– إنه دائمًا يحدثنى عن الإسكندرية . له هناك تراث ضخم من الذكريات..!!

وفى فندق ريتز .. صعدنا إلى الطابق الثانى حيث حجزت لى جراتسيللا جناحًا رائعًا .. وبينما أرتب بعض أوراقى فوجئت بها تقف أمامى فى دلال وبإصبعها تشير لى قائلة :

– « أونالترا فولتا » أيها المصرى وهذه المرة « للإيطاليا نيتا » .. «محبة الوطن الإيطالى» وغرست أظافرها بجسدى بينما كنت أرتشف عبير أنوثتها وأتذوق طعمها الساحر وكانت لا تكف عن الهتاف :

– ليوباردو .. ليوباردو . ماريو إيجتسيانو .

وعندما جاء لابى كان من الواضح أننا كنا فى معركة شعواء التهينا منها توًا .. أخرج من جيبه مظروفًا به خمسمائة دولار وقال لى إنه سيمر على صباح الغد ..

وأوصانى أن أنام مبكرًا لكى أكون نقى الذهن .

وأنصرفا بينما تملكتنى الأفكار حيرى .. ، ترى ماذا يريد منى ؟ وما دخلى أنا فيما يريده لابى ؟؟

وفي العاشرة والنصف صباحًا جاء ومعه شخص آخر يتحدث العربية كأهلها اسمه « إبراهيم » .. قال عنه لابي إنه خبير إسرائيلي يعمل في شعبة مكافحة الشيوعية في البلاد العربية .

رحب إبراهيم بماريو وقال له بلغة جادة مفعمة بالثقة :

– إسرائيل لا تريد منك شيئًا قد يضرك . فنحن نحارب الشيوعية ولسنا نريدك أن تخون وطنك .. مطلقًا .. نحن لا نفكر في هذا الأمر ألبتة . وكل المطلوب منك .. أن تمدنا بمعلومات قد تفيدنا عن نشاط الشيوعيين في مصر وانتشار الشيوعية وخطرها على المنطقة .

وأردف ضابط المخابرات الإسرائيلي :

– كل ذلك لقاء ٥٠٠ دولار راتبًا شهريًا لك .

وعندما أوضحت له أنني لا أفهم شيئًا عن الشيوعية أو الاشتراكية . وأنني أريد فقط أن أعيش في سلام . ذكرني لابي بأحوالي السيئة بالإسكندرية والتي أدت إلى تشتتي هكذا بعدما كنت ذا سمعة حسنة في السوق .

واعتقدت أنني يجب ألا أرفض هذا العرض .. فهي فرصة عظيمة يجب استغلالها في وسط هذا الخضم المتلاطم من الفوضى التي لازمتني منذ أمد .. وتهدد استقرار حياتي .

ولادة جاسوس

تركاه مع جراتسيللا – التي جاءت بشوشة الوجه طاغية الفتنة – على أن يعودا إليه ثانية في المساء .. وكانت مهمة الفتاة محددة .. ومعروفة .. وهي ألا تتركه ليتفكر في الأمر بمفرده .. لقد سحبوها في المساء وتركوه ليعيش قلق الانتظار والترقب .. وفي الصباح تركوها له لتقتل تردده وتشل إرادته .

إنها إحدى ألاعيب الموساد التي نجحت كثيرًا من قبل وأتت بثمارها .. فنساء الموساد إحدى الدعامات الهامة للسيطرة على الفرائس وقهر مقاومتها .. وهن نساء مدربات جيدًا وبمهارة لمثل تلك المهام .. إذ يخضعن لبرامج تدريبية معقدة تشتمل على دراسة السلوك والأفعال والتحليل النفسي .. ويدرسن أيضًا أثر الجنس على الأفراد الذين أتوا من مجتمعات محافظة منغلقة .. وأولئك الذين يمرون بظروف مالية سيئة ويحلمون بالثراء .

هكذا نجحت مهمة فتاة الموساد الناعمة في إخضاع ماريو .. ورسم صورة رائعة لحياته إذا ما تعاون معهم .. حيث ينتظره المال الوفير .. ومحيط من المتعة بلا حدود .

ولما جاء لابي وزميله في المساء .. كان ماريو بلا عقل أو إرادة .. بل كان قد تحول إلى مخلوق مفكك الأوصال لا يميز بين الحق والباطل .. يسرح خياله في عالم لا نهائي من الآمال والطموح ..

لذلك .. بادرهما بإعلان موافقته على التعاون معهما .. بشرط ألا يمس أمنه أو تهدد حياته في مصر .

بالطبع .. أكدا له بأن ما سيقوم به من عمل بعيد بالمرة عن ملاحقة السلطات .. فالشيوعية داء تجد السلطات المصرية لاستئصاله .. وتسعى لمقاومته بكل السبل . وطالما كانت مهامه بعيدة عن الأمور العسكرية التي يعاقب عليها القانون المصري فلا خوف أو قلق . وأخذا يبرران له شرعية مهمته لأنها تخدم مصر في المقام الأول .

بمثل تلك الأكاذيب وغيرها ابتلع ماريو « الطعم » .. وانساق مندفعًا للتعاون مع الموساد .. وإن كانت قد أثيرت بنفسه الشكوك والمخاوف من مغبة الانقياد .. لكنه على أية حال كان يتغابى .. وجاهد قدر استطاعته ليقنع نفسه بأنه لا يخون وطنه .. وبأنه محظوظ بسبب المال الوفير الذي سيتحصل عليه .. ووجوده بين أحضان أنثى لا تشبهها امرأة على الأرض .

وبعد أيام قضاها في اغتراف اللذاذات وعب النشوة .. جاءه إسرائيلي آخر اسمه « الفوارحي » .. وهو ضابط فني بجهاز الموساد .. مهمته تدريب ماريو على مبادىء فن الجاسوسية .. وتتمثل في كيفية عقد الصداقات وكسب ود الغرباء .. وحرفية إدارة الحوار وبديهيات المناقشة .. وأساليب إثارة المحاور لإخراج ما لديه من معلومات وأسرار .

بعد ذلك فوجىء ماريو بمدربه يتطرق به إلى مواضع أكثر حساسية .. وكان لوجود جراتسيللا الأثر الشديد .. فقد ساعدت على « تليينه » .. وتسكين مقاومته بكل أسلحة الإغراء والإثارة .. مستغلة العاطفة أعظم استغلال لإخضاعه لبرنامج التدريب المكثف .. الذي جاوز حدود عقل الجاسوس المبتدىء ومداركه .. عندما تطرق المدرب للنواحي العسكرية والأسلحة .. وطرق إطلاق الشائعات والنكات السياسية .

تحير عقل ماريو .. وعندما أراد أن يسأل عن العلاقة بين الشيوعية وبين أخبار الجيش المصرى .. أجابته جراتسيللا بجرعة طازجة من معسول جسدها البض وأنوثتها الطاغية فلم يعد يسأل عن شيء .

كان ماريو قد اقترب من الأربعين ومازال شبابه القوى بحاجة إلى أنثى ترويه وتشبعه .. وبخبرة العميلة المدربة أدركت نهمه الشديد لتعاطى الجنس دون إحساس بالشبع . هى الأخرى استلذت جرأة الرجل الشرقى وعنف فحولته .. فأعطته بقدر ما أخذت .. وكان عطاؤها يزيد يومًا بعد يوم كلما تقدم فى استيعاب الدورات المكثفة على يد خبراء الموساد .. وكأن جسدها هو المكافأة بعد كل درس فما أشبه حاله بأسد السيرك الذى يمنحه مدربه قطعة من اللحم بعد كل فقرة يؤديها .

عدة شهور كان يقبض خلالها راتبه من الموساد ويقوم باصطياد المصريين الذين يتوافدون إلى إيطاليا لشراء السيارات . فكان يقوم بمساعدتهم ويستغل أفضل الظروف « للدردشة » وتبادل الأحاديث السياسية التى يكتبها فى شكل تقارير ويسلمها إلى رجال الموساد .. وعندما أجاد اللعبة .. أجادوا هم أيضًا استغلاله . إذ طلبوا منه بعدما وثقوا به أن يبحث عمن يستطيع تجنيده من المصريين للعمل معهم .

ولأن جراتسيللا كانت معشوقته التى لا تفارقه – والتى توجه أفكاره وتدير له عمله التجسسى – فقد شجعته بأسلوبها الخاص على تجنيد من يراه مناسبًا مقابل عدة آلاف من الدولارات مكافأة له .

وبينما كانت جراتسيللا تتقلب فى حضن العاشق المدله .. قام ماريو فجأة وطبع قبلة سريعة على شفتيها وغادر الفراش إلى حجرة المكتب . وأمسك بالقلم ليكتب رسالة إلى فتاة خان الخليلى .. زينب .. يدعوها للسفر إلى إيطاليا لشراء السيارة . وكان قد أعد لها خطة جهنمية لتجنيدها فى روما .

الحصار فى روما

عندما تسلمت زينب الرسالة الوافدة من إيطاليا . لم تكن تصدق أن يهتم بها هذا العابر المجهول إلى هذا الحد .

كانت قد نسيته بعدما مرت عدة أشهر منذ التقت به فى خان الخليلى حيث تعمل بائعة فى محل للأنتيكات والتحف . وبعدما تردد عليها عدة مرات عرضت عليه السفر معه

إلى إيطاليا لتشترى سيارة لتشغيلها أجرة فى القاهرة .. فوعدها بأن يساعدها ثم اختفى فجأة ولم يعد يذهب إليها .. حتى جاءتها رسالته تحمل طابع البريد الإيطالى وعنوانه وتليفونه هناك .

أسرعت زينب بالخطاب إلى خالها الذى يتولى أمرها بعد وفاة والديها ، ولكنه عارض الفكرة وعندما رأى منها إصرارًا رضخ للأمر ووافقها ..

سنوات وزينب تحلم بالسفر إلى الخارج للعمل . لقد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها ولم ترتبط بعد بعلاقات عاطفية تعوق أحلامها . لذلك تفوقت فى دراستها بكلية الآداب جامعة عين شمس وعشقت اللغة الإنجليزية عشقًا كبيرًا .. والتحقت بعد الجامعة بالعمل فى خان الخليلى بالقرب من بيتها فى شارع المعز لدين الله بحى الجمالية .. حيث مسجد الحسين ورائحة التاريخ تعبق المكان وتنتشر على مساحة واسعة من الحى القديم العريق .

حجزت زينب تذكرة الطائرة ذهابًا وإيابًا على طائرة مصر للطيران .. وبحقيبتها كل ما لديها من مال وفرته لمثل هذه الفرصة . وفى مطار روما كان ماريو بانتظارها يملؤه الشوق لأول الضحايا الذين سيجندهم للعمل لصالح المخابرات الإسرائيلية .

وعندما رأته كانت كمن عثر على شيء ثمين . إذ صدمتها اللغة الإيطالية التى لا تعرف منها حرفًا واحدًا .. وسرت كثيرًا عندما وجدت ماريو يتحدث بها « كالطليان » أصحاب البلد . اصطحبها إلى فندق رخيص فى روما ثم تركها لتستريح وذهب هو إلى مسكنه ليرتب خطة تجنيدها التى رسم خطوطها عدة مرات ..

وفى الصباح ذهب إلى الفندق حيث كانت الفتاة تنتظره فأخذها فى جولة رائعة بسيارته لمتنزهات روما وأماكنها السياحية . ثم ذهب بها فى اليوم التالى إلى أماكن بيع السيارات المستعملة .. معتمدًا أن يرفع لها أسعار السيارات مستغلاً جهلها باللغة الإيطالية .. واعتمادها عليه أولاً وأخيرًا .

وتعمد أيضًا أن تطول مدة إقامتها فى روما للبحث عن فرصة شراء سيارة أفضل وأرخص وأقنعها بشراء فيات ١٢٥ دفعت فيها معظم ما تملكه من مال .. وما تبقى معها كان يكفى بالكاد مصاريف الشحن إلى الإسكندرية .

وصدمت الفتاة بعدما تبين لها أن فاتورة الفندق امتصت النصيب الأكبر من نقودها .. ولم تعد تملك مصاريف الشحن كاملة . لقد خدعها ماريو عندما ذكر لها أرقامًا تقل بكثير عن الحقيقة عند شحن السيارة .

صيد الغزلان

تركها ماريو لعدة أيام دون أن يتصل بها بحجة أنه كان فى ميلانو . وبكت زينب فى حرقة وهى تحكى له عن حالها .. وكيف أنها لم تعد تملك أية أموال لتعود إلى مصر بالسيارة الواقفة أمام الفندق ومتوسلة رجته أن يساعدها فوعدها بذلك .

ومرت ثلاثة أيام أخرى كانت زينب قد باعت حليها ولم تتبق معها سوى ساعة يدها الجوفيال التى لا تساوى شيئًا يذكر .

حاصرها ماريو جيدًا وأفقدها التفكير واستعمل معها أسلوب « صيد الغزلان » بأن أغلق أمامها كل الطرق .. وترك لها فتحة ضيقة لتنفذ منها إلى شبكته لتقع فيها ولا تخرج . وظهر لها فجأة بعد غياب عدة أيام معتذرًا بشدة .. واصطحبها للعشاء بأحد المطاعم الراقية .. وبعد أن جلسا عزفت الموسيقى مقطوعة إيطالية شهيرة عنوانها « مولتى جراتسى ميو أميتشو » أى « شكرًا جزيلاً يا صديقى » فقالت زينب لماريو :

– طلبت منك قرضًا أرده إليك فى مصر فلم تجبنى :

اعتدل ماريو فى مقعده وقال بسرعة :

– نعم .. نعم .. لا مشكلة إذن .. بعد غد سأتولى شحن سيارتك إلى الإسكندرية .

– ولِمَ بعد غد ؟

– مشغول أنا غدًا .. ولا أملك وقتًا مطلقًا « قالها ماريو وتعمد ألاّ ينظر لوجهها » .

– لقد وعدتنى أن تدبر لى عملاً هنا فى روما. فإن ذلك سيعفيك من إقراضى أية أموال .

– ماذا تقولين ؟ ألم أخبرك أننى أبحث بالفعل عن عمل مناسب لك ؟

– أنت تقول « قالتها زينب مليئة بالحسرة والإحساس بالندم »

فما كان من ماريو إلا أن أجاب :

– عمومًا .. بعد غد ستكون سيارتك على ظهر السفينة . أفهمت ؟

وفى تلك اللحظة .. اقترب منها رجل وسيم تعدى الخمسين بقليل وقال بالإنجليزية بأدب جم :

– أتسمحان لى بأن أطلب من إدارة المطعم إغلاق جهاز التكييف الحار حتى لا نصاب جميعًا بالبرد عند الخروج ؟

ردت زينب فى حماس بالغ ممزوج بالعرفان :

– تفضل .. وشكرًا يا سيدى

أردف الرجل قائلاً :

– معذرة .. هل أنت تونسية ؟

أجابته بأن لكنتها تدل على ذلك وضحكت وقالت فى افتخار :

– أنا من الجمهورية العربية المتحدة . من القاهرة .

هتف الرجل سعيدًا :

– أوه .. ناسر .. ياله من زعيم عبقرى .

وفى حركة مسرحية سريعة مد الرجل يده إلى محفظته .. وأخرج منها صورة لعبد الناصر يشرب من « القلة » ويجلس على الأرض بجوار صلاح سالم وأردف قائلاً :

– تمنيت أن أراه وأصافحه ذات يوم . فهل يتحقق لى ذلك ؟

– تعال إلى القاهرة يا سيدى وأعتقد أن ذلك ليس بالشىء الصعب .

هكذا قالت زينب بفخر ، وهى تتكلم الإنجليزية بطلاقة .. ، وتكلم ماريو يخاطب الرجل بالإيطالية :

– أنتم تكرهون ناصر فى الغرب .. وفى الشرق تتوقف الحياة تمامًا حينما يتكلم .. تناقض غريب .

أجاب الرجل في بشاشة :

– نعم يا سيد ... ؟

– ماريو .. ماريو إيجتسيانو « ماريو المصرى » .

– نعم .. نعم سنيور ماريو هذه حقيقة لا ننكرها .. فمنذ أزمة القناة والغرب لا ينسى ذلك لناصر أبدًا .

واعترضت زينب على حوارهما بالإيطالية فقال لها ماريو إن لغته الإنجليزية ضعيفة جدًا .. وجاءت فاتورة الحساب ففوجئت زينب بالرجل الغريب يصر على دفعها .. وعندما تمسك ماريو برأيه قال الرجل :

– إذن .. هلا قبلتما دعوتى على العشاء غدًا ؟

أجاب ماريو موافقًا بينما تحرجت زينب ثم فاجأهما ماريو بإعلان اعتذاره لارتباطه طوال الغد .. فأبدى الرجل الأنيق تفهمه ونظر إلى زينب فتراجعت الكلمات على لسانها .. عندها لم يمهلها وقتًا طويلاً لتفكر وقال موجهًا حديثه إليها إنه سيلتقى بها فى الثامنة مساء الغد فى مطعم « فريسكو » .. فقالت زينب فى اضطراب « بعدما نظر إليها ماريو موافقًا » إنها لا تعرف الأماكن جيدًا . وبدأ الرجل سيلاً من الأسئلة عن جوانب حياتها فأجابته زينب بحسن نية وأخيرًا قال لها فى دبلوماسية شديدة تدل على خبرة عالية فى إدارة حوار :

– لقاء الغد ستترتب عليه أشياء كثيرة مهمة لكلينا .. !!

وبعد انتهاء السهرة صحبهما بسيارته الفارهة وأنزل زينب أمام فندقها وانصرف .. وقضت هى وقتًا طويلاً تفكر فيما يقصده بعبارته الأخيرة . وماذا سيترتب عليها من أشياء مهمة ؟؟

وفى مساء اليوم التالى كان فى انتظارها بردهة الفندق كما اتفقا بالأمس .. وأخذها فى جولة ليلية بنوادى روما وشوارعها ثم دلفا معًا إلى مطعم فريسكو الشهير .. حيث الأنواع الغريبة من الأسماك والمحار وكائنات بحرية مدهشة .

كان الرجل قد التمس مكانًا هادئًا فى ركن بعيد وتوقعت زينب بأنه من زبائن المطعم المعروفين ، للاحترام الجم الذى قوبل به . ولكنه انتشلها من حيرتها وقال لها بحرارة :

– آنسة زينب .. منذ الأمس وأنا فى حيرة شديدة .. وكما تعلمين فأنا رجل أعمال بريطانى معروف .. والذى لا تعرفينه أننى انفصلت عن شريك لى منذ مدة قصيرة .. وكنت أنوى توسيع أعمالى فى لندن لكن أشار على البعض باستثمار مشاريع إنمائية فى جنوب أفريقيا .. وقمت بالفعل بالسفر إلى جوهانسبرج وزيارة كيب تاون وحصلت على بعض تقارير اقتصادية لتساعدنى فى اتخاذ قرارى . حتى كان لقاء الأمس الذى سبب لى حيرة شديدة . فبرغم حبى لناصر إلا أننى لم أفكر من قبل فى السفر إلى القاهرة لدراسة السوق المصرية وإقامة بعض مشروعاتى بها .

وتنهد الرجل فيما يشبه إحساسًا بالندم وأردف :

– إننى الآن – وبإصرار وثقة – أريد اقتحام السوق العربية من خلال مصر . ومن خلالك أنت .

قالت له زينب فى دهشة :

– من خلالى أنا ؟

– نعم .. فأنت مصرية وجامعية طموحة .. تملكين اللغة العربية والإنجليزية والثقافة .. ويمكننى الاعتماد عليك فى إعداد تقرير اقتصادى عن أحوال مصر الاقتصادية ومشاكل التنمية بها ومعوقات السوق . ومن خلال هذا التقرير سأقرر ما إذا كنت أستطيع إقامة مشاريع إنمائية فى مصر من عدمه . ولذلك فهذا الأمر مهم بالنسبة لى ولك .. لأنك ستكونين مديرة لفرع القاهرة وتملكين حق اتخاذ قرارات لصالح مؤسستنا .

حلم اليتيم

انفرجت أسارير زينب وهللت بشرًا وسعادة لهذا الخير المنهمر الذى أغدق عليها فجأة .

كانت تجلس أمامه ولا تملك بحقيبة يدها سوى ستة وعشرين دولارًا وبضع ليرات إيطالية لا تكفى ليوم آخر فى روما .. وأغرورقت عيناها بدموع الفرح عندما فاجأها قائلاً :

– ومنذ اليوم سيكون راتبك ثلاثمائة دولار شهريًا .

صرخت بأعماقها لا تصدق أن غيمة النحس قد انقشعت .. وأن الحياة عادت لتضحك من جديد .. لقد مرت بها سنوات من الجوع والحرمان والحاجة .. وكلما ارتقت درجة من درجات الأمل انزلقت إلى الوهم وأحلام الخيال . الآن جاءت أحلام الواقع لتزيح أمامها الأوهام فتتراجع القهقري .

كانت تبدو من قبل وكأنها تغرق في لجج من ماء ذى قوام . الآن تطير في سماوات من الصفو اللذيذ . أخيرًا تحقق الحلم الذى طال انتظار اليتيم له . حلم ليس بالمستحيل ولكنه كان المستحيل نفسه .

يا الله .

قالتها زينب وهى تتنهد فتغسل صدرها الصغير من تراكمات اليأس وخيوط الرجاء .

أوصلها الرجل إلى الفندق بعدما منحها ٦٠٠ دولار مرتب شهرين ودفع عنها حساب الفندق . وفوجئت زينب بماريو يسرع بشحن سيارتها ودفع مصاريفها ويودعها بالمطار .

وفى مقعدها بالطائرة أغمضت عينيها وجلست تفكر فى أمر ماريو . لقد أخبرته بأمر الرجل فأظهر موافقته . وبرغم كونه تاجرًا لم يأخذ منها مصاريف الشحن .. بل ألح عليها كثيرًا لكى تأخذ منه مائة دولار فى المطار . وسلمها حقيبة هدايا بها علبة ماكياج كاملة وزجاجتا بارفان وحزام جلدى أنيق .

تشككت زينب فى هذه الأمور وأخذت من جديد تستعرض شريط ما مر بها فى روما . وتذكرت الدورة الإرشادية التى حضرتها فى أحد مدرجات جامعة القاهرة قبل سفرها بأيام . كان المحاضر يشرح أساليب الموساد فى اصطياد المصريين فى الخارج . ولأن ماريو مصرى مثلها ومجريات الأمور كلها كانت شبه طبيعية .. فقد طردت وساوسها التى تضخمت إلى حين .. وقررت أمرًا فى نفسها .

وفى مطار القاهرة انتحت بأحد الضباط جانبًا وسألته سؤالاً واحدًا . وفى اليوم التالى .. كانت تستقل سيارة صحبتها إلى مقر جهاز المخابرات المصرية .. قالت كل شىء بدقة وسردت تفاصيل رحلتها إلى إيطاليا وكيف خدعها ماريو لتنفق كل ما لديها من نقود . وحكت ظروفها النفسية السيئة التى مرت بها وكيفية تقرب رجل الأعمال البريطانى منها فى تلك الظروف . وكيف شحن ماريو سيارتها إلى الإسكندرية على نفقاته .. وهو التاجر الذى يسعى للكسب ..؟ بل إنه عرض عليها مائة دولار أخرى . ولماذا لم يعطها رجل الأعمال عنوانه

في بريطانيا لتراسله وتبعث إليه بالتقارير التي طلبها ؟ لقد أخبرها أن ماريو سيسافر إلى القاهرة عما قريب وعليها أن تسلمه التقرير الاقتصادي الوافر الذي ستعده عن مصر .

وتذكرت زينب أيضًا كيف أن ماريو طلب منها في المطار أن تهتم جيدًا بالعمل الذي أوكل إليها ولا تهمله . وعندما سألته هل لديك عنوان مكتب رجل الأعمال ؟!! أجاب بنعم في حين أنه من المنطقي أن يكون معها عنوانه . لقد سلمها ٦٠٠ دولار هي بلا شك لقاء قبولها التجسس على وطنها .

صراع العقول

وفوجئت زينب بما لم تتوقعه على الإطلاق .. صور عديدة لها مع ماريو .. قال ضابط المخابرات المصرى أن المخابرات العربية على علم بأمره .. وتراقب تحركاته وتنتظر دليل إدانته. وقال لها أيضًا :

– إن إسرائيل منذ قيامها في عام ١٩٤٨ وهي تسعى بشتى السبل لمعرفة كل ما يجرى في البلاد العربية من نمو اقتصادى وتسلح وما لديها من قوات وعتاد .. ولذلك لجأت لشراء ضعاف النفوس والضمائر وجعلتهم يعملون لحسابها .. وينظمون شبكات التجسس المتعددة في العواصم العربية .. حتى إذا كشفت واحدة تقوم الأخرى مكانها وتتابع نشاط جواسيسها . وتنفق إسرائيل الملايين على هذه الشبكات للصرف عليها .

وأن السبب الرئيسي لسقوط بعض الأفراد في مصيدة المخابرات الإسرائيلية هو ضعف الحالة المادية . وبالإضافة إلى الأموال الطائلة التي تنفقها الموساد على عملائها .. فإنها تغرقهم أيضًا في بحور الرغبة وتشبع فيهم نزواتهم .. وبذلك تتم لها السيطرة عليهم .

لذا ... فقد أعلنت المخابرات المصرية في يناير عام ١٩٦٨ بأنها ستساعد كل من تورط مع العدو .. ووقع في فخ الجاسوسية بالإغراء أو بالتهديد . وأنها على استعداد للتغاضي عن كل ما أقدم عليه أى مواطن عربى .. إذا ما تقدم بالإبلاغ عن تورطه مع الموساد مهما كان منغمسًا في التجسس .. وذلك لتفويت الفرصة على المخابرات الإسرائيلية .

ووعد الزعيم جمال عبد الناصر صراحة بحماية كل من تورط بالتجسس لأى سبب . وقد أسفرت هذه الخطة عن تقدم سبعة مصريين إلى جهاز المخابرات المصرية يعترفون بتورطهم ويشرحون ظروف سقوطهم .

وأضاف الضابط .

- لقد تكلمنا مع ماريو عدة مرات من قبل .. وأفهمناه بطريقة غير مباشرة بأننا على استعداد لمساعدة المتورطين دون أن يعاقبوا . لكن يبدو أنه استلذ أموال الموساد . وسيسقط على يديك يا زينب لأننا سنحصل على دليل إدانته من خلالك .

ووضعت المخابرات المصرية خطة محكمة لاصطياد ماريو ..

وفي أول اتصال هاتفى من روما بعد أيام من وصولها .. أخبرته زينب بأنها مشغولة « بترجمة الكتاب » - وهو مصطلح سبق لهما أن اتفقا عليه - وعندما سألها عن المدة التى تكفى لإنجاز « الترجمة » لأنه ينوى المجىء لمصر بعد يومين طلبت منه - حسب الخطة - أن يتأخر عدة أيام حتى تنجز العمل .

اطمأن ماريو وصديقه لردود زينب .. وقنعا بأنها منهمكة فى إعداد التقرير .. فلو أن هناك شيء ما يرتب فى الخفاء لما ترددت فى إيهامه بأنها أنجزت ما طلب منها ..

وفى مكالمة أخرى بعدها بثمانية أيام .. زفت إليه النبأ الذى ينتظره .. وينتظره أيضًا رجال الموساد فى روما .. وعلى ذلك أكد لها بأنه سيصل إلى القاهرة عما قريب .

أريفاديتشى

كانت زينب قد كتبت التقرير الاقتصادى المفصل بيدها بعدما أعدته المخابرات المصرية من عدة صفحات .. ومساء اليوم نفسه رصد رجال المخابرات المصرية فى روما عميل الموساد وهو يقوم بحجز تذكرة طيران إلى القاهرة لليوم التالى .. وظلت عيونهم تحاصره حتى وهو بكرسيه على طائرة مصر للطيران ..

وفى مطار القاهرة تبعته العيون اليقظة إلى أن استقل تاكسيًا لوسط المدينة حيث نزل بأحد الفنادق المطلة على الجامع الأزهر .. وأخذ يناور ويأتى بأساليب بدائية فى مراقبة المحل الذى تعمل به زينب .. ومتابعتها إلى منزلها بعد انتهاء العمل .

هكذا استمر به الحال ثلاثة أيام متواصلة .. وبعدما أحس بالاطمئنان .. طرق باب شقتها وهو يتلفت حواليه فى حذر .. وما إن رأته حتى صاحت مهللة .. وقادته إلى غرفة الضيوف

المتواضعة .. ولما قدمت له التقرير انفرجت أساريره وأخذ يقلب صفحاته العشرة فى إعجاب بالغ وهو يصيح :

– أوه .. مدهش .. تقرير رائع .. تفوقت على نفسك يا زينب !!

– لقد بذلت مجهودًا مضنيًا .

– يبدو ذلك بالفعل ولكن .. هذا الجهد سيكون له ثمن .

– لقد تسلمت ستمائة دولار .

– هذا راتبك لشهرين .. وهناك مكافأة عن كل عمل أو تكليف أو تقرير يكتب !!

– إننى جد سعيدة بالعمل لدى بريطانى يقدر كفاءتى . سأعمل بإخلاص لأوكد له أننى عند حسن ظنه .

– هو بنفسه توسم فيك ذلك . وأرسل لك معى مائتى دولار مكافأة .

وفى حركة استعراضية وقف ماريو فى منتصف الغرفة فاتحًا ذراعيه ويقول :

– انفتحت لك « طاقة القدر » وما عليك سوى أن تفرحى .. جدًا أيتها العبقرية .

– أشكرك على هذا الإطراء الرائع . لكن .. قل لى .. ما هى الخطوة القادمة ؟

واثقًا من نفسه ومن سقوط زينب قال :

– سأمكث بمصر عدة أيام ثم أسافر إلى روما وستكونين معى على نفس الطائرة .

قالت زينب فى لهفة « مفتعلة » :

– إلى روما مرة ثانية .. يالى من محظوظة .

ثم أضافت :

– ستصل السفينة خلال أيام وبعدما أتسلم السيارة سأسافر معك .. لكن .. ترى لماذا يريدنى هكذا بسرعة ؟

بمكر شديد وبلغة العارف بالأمور قال وهو يمسح شفتيه بلسانه :

– لكى تشرحى تفاصيل هذا التقرير المدهش إلى الرجل الذى ينتظرك ويعلق عليك أمالاً كثيرة .

– ألا تستطيع أنت القيام بهذه المهمة نيابة عنى ؟

– لا .. لا يا زينب .. أنا لا أفهم هذه الأمور مثلك .. ثم إنك لن تصرفى مليمًا واحدًا من جيبك .. فتذكرة الطائرة ذهابًا وإيابًا ستصرف لك فضلاً عن مصاريف الفندق والجيب .. إننى لا يجب أن أذكرك بأنك موظفة لدى مؤسسة إنمائية بريطانية كبرى .. صح ؟؟

– أوكى .. ماريو .

– إلى اللقاء إذن ..

ووضع التقرير فى حقيبته وخرج من شقتها وهو يردد :

– أريفاديرتشى .. أريفاديرتشى أونالترا فولتا « إلى اللقاء مرة أخرى » .

سقوط خائن

وبعد اللقاء المسجل بالصوت والصورة . اتجه الخائن إلى شارع نوال بالدقى حيث شقة زوجته تغريد . فمكث معها يومًا واحدًا وحمل كاميرته الخاصة التى تسلمها من الموساد وركب إلى الإسكندرية بالطريق الزراعى .. يصور المنشآت الجديدة التى تقوم على جانبى الطريق .. ويراقب أية تحركات لمركبات عسكرية أو شاحنات تحمل المدرعات .. وأمضى مع زوجته وجيدة عدة ساعات ثم عاد إلى القاهرة مرة ثانية بالطريق الصحراوى .. وكرر ماريو هذا السيناريو لمدة أسبوع بشكل متصل ..

كان إخلاصه للموساد قويًا كعقيدة الإنسان أو إيمانه بمبدأ ما .. فآلاف الدولارات التى حصل عليها من الموساد بدلت دماءه وخلايا مصريته وأعمته عن عروبته .. وجعلت منه كائنًا فاقد الهوية والشعور .. بل كان لأموال إسرائيل الحرام فعل السحر فى قلبه وزعزعة ثوابت إسلامه . فلقد نسى أن اسمه محمد إبراهيم فهمى كامل .. مسلم .. من مصر .. وأن ماريو ليس اسمه الحقيقى الذى ينادى به . وفى إيطاليا كثيرًا ما مر على مساجد روما – دون قصد – فكان يتعجب ويتساءل: ماذا يعنى الدين والأنبياء والرسل؟ إن الدين هو « البنكنوت » ..

وعندما اتصلت به معشوقته جراتسيللا – عميلة الموساد – تستقصى أخباره وأخبار ضحيته زينب أجابها بأن كل شيء على ما يرام . وحدد لها ميعاد سفره إلى إيطاليا . وبعدما أنهت زينب إجراءات الإفراج الجمركي عن سيارتها .. استعدت « هكذا ادعت لـه » للسفر معه .. فأخبرها بموعد الطائرة وأنه سيمر عليها ليصحبها إلى المطار .

وقبل السفر بعدة ساعات كان ماريو قد أعد أدواته .. وخبأ الأفلام التي صورها بجيوب سرية داخل حقائبه ونزع البطانة الداخلية لها وأخفى التقارير السرية التي أعدها بنفسه .. ثم أعاد إلصاقها مرة ثانية بإحكام فبدت كما كانت من قبل . ومن بين تلك التقارير كان تقرير زينب الذى كان لدى المخابرات المصرية صورة منه .

وبينما كان ماريو يغادر منزله بالدقي في طريقه إلى زينب ثم إلى المطار .. فوجيء بلفيف من الأشخاص يستوقفونه .. وأقتيد إلى مبنى المخابرات وأمام المحقق أنكر خيانته لكن الأفلام والتقارير التي ضبطت كانت خير دليل على سقوطه في وكر الجاسوسية .. فاعترف مذهولاً بعمالته للموساد .. وأمام المحكمة العسكرية وجهت إليه الجرائم الآتية :

– الحصول على أسرار عسكرية بصورة غير مشروعة وإفشاؤها إلى المخابرات الإسرائيلية .

– الحصول على مبلغ « ٧ آلاف دولار » مقابل إفشاء الأسرار لدولة معادية « إسرائيل » .

– التخابر مع العدو لمعاونته في الإضرار بمصر في العمليات الحربية .

– تحريض مواطنة مصرية على ارتكابها التخابر .. والحصول على أسرار هامة بقصد إفشائها للعدو .

وبرئاسة العميد أسعد محمود إسماعيل وعضوية المقدم فاروق خليفة والمقدم أحمد جمال غلاب بحضور ممثل النيابة العسكرية والمقدم عز الدين رياض صدر الحكم في مايو ١٩٧٠ بإعدام ماريو شنقاً بعد أن كرر الخائن اعترافه بالتجسس على وطنه .. وبيعه لأسراره العسكرية

مقابل سبعة آلاف دولار . وصدق رئيس الجمهورية على الحكم لعدم وجود ما يستدعى الرحمة بالجاسوس .

لم تنس المخابرات المصرية الدور الكبير الذى لعبته زينب للإيقاع بالخائن ماريو واصطياده إلى حيث غرفة الإعدام ومشنقة عشماوى فى أحد سجون القاهرة .

وكانت زينب بالفعل – أول مصرية – تصطاد جاسوسًا محترفًا فى روما ... لإعدامه فى القاهرة .!!

رجب عبد المعطى .. هل انتحر قبل إعدامه ..؟



جواسيس الإسكندرية ... حفلت بالكثيرين منهم ملفات المخابرات والجاسوسية .. وكانت ظاهرة لافتة ومحيرة ألقت ظلالاً من الدهشة حول تباين ظروف سقوطهم فى مصيدة الموساد .. ويمثل كل جاسوس منهم حالة مختلفة عن الآخر . فبعضهم كان بمقدوره ألا يسقط .. ولكن النفوس الوضيعة والضعيفة .. والطمع ، والنمو المبكر لبذور الخيانة ، أمور معقدة لا ترتبط مباشرة بقيم أو مفاهيم أو شرف ، فهناك مردودات أخرى وترسبات تتفاعل وتنسجم وتصنع فى النهاية جاسوسًا .. ويظل سؤالنا يتردد :

لماذا كثر جواسيس الإسكندرية ؟

المضطهد المطارد

فى الأول من أكتوبر ١٩٣٧ .. امتلأ منزل الحاج عبد المعطى بلفيف من الأهل والأصدقاء جاءوا يباركون مقدم مولوده الأول « رجب » . ولأن الحاج عبد المعطى تاجر مشهور فى حى القبارى بالإسكندرية فقد انهالت عليه الهدايا من حيث لا يدرى . فالمولود جاء بعد انتظار طويل ملىء بالقلق والصبر والترقب . وتجارب لا حصر لها مع الأطباء والأدوية . وفى شهر رجب – جاء رجب .

وبعد عدة أشهر حمل الرجل وزوجته أمتعتهما وحطا الرحال بأطهر أرض ورفعا أيديهما عند الكعبة يطلبان من الخالق جل شأنه أن يبارك لهما فى رجب ويشكرانه على « عطيته » . وشب الوحيد نبتًا طريًا يأكل بملعقة من ذهب كما يقولون .. فقد وفر له أبوه كل أسباب الرغد ، وجعل منه شابًا خنوعًا مدللاً كان مدعاة لأن يخفق إخفاقًا ذريعًا فى الحصول على الثانوية العامة .. ومع عدة محاولات أثمرت جميعها عن خيبة أمل للأب اغتر الابن وأوهم نفسه بأن له من العقل ما لم يملكه غيره .. ويستطيع – بدون شهادات – أن يصبح رجل أعمال مشهورًا ينافس عمالقة السوق والميناء .. ووسوس له الشيطان أنه فقط بحاجة إلى فرصة يثبت من خلالها أنه عبقرى زمانه الملهم .

حاول الحاج عبد المعطى إفاقة ابنه من سكرة الغرور وإعادته إلى طريق الصواب ففشل . إذ سيطرت على رجب عبقرية كاذبة نشأت من فراغ العقل والثقافة . وصار يحلم ليل نهار بشركة رجب للخدمات البحرية .

ولما امتنع والده عن إمداده بالمال اللازم حتى يتحصن بالخبرة .. مضطرًا وافق رجب على العمل فى وظيفة كاتب حسابات بميناء الإسكندرية .. إرضاء لوالده . واستغرق فى عمله الجديد حتى توسعت مداركه واستوعب الكثير من الخبرة بعد الاحتكاك الفعلى فى الحياة .

وبعد ثلاث سنوات من العمل فى الميناء .. لم ينس حلمه الكبير ففاتح أباه .. وهذه المرة كان عنده إصرار عنيد على ألا يرجع . فلما عارضه والده بشدة غادر المنزل غاضبًا .. وتحت ضغوط الأهل والأصدقاء .. رضخ الأب أخيرًا أمام رغبة ابنه وأمده بعدة آلاف من الجنيهات وهو على ثقة من فشله وخسارته . وغمره للمرة المليون إحساس بندم شديد لأنه دلل ابنه

وفتح له منذ الصغر خزينة أمواله يسحب منها كيفما يشاء .. وتمنى بينه وبين نفسه لو أن الزمن عاد به إلى الوراء فيقوم على تربيته بالشكل الصحيح .. وينشئه فتى معتمدًا على ذاته فيشب رجلاً يعرف قيمة العلم والقرش .. ويدرك جيدًا أن للحياة ألف وجه ووجهًا .. ولكن .. فات الوقت وحسم الأمر .. !!

من ناحية أخرى كان رجب يدرك ما يدور بعقل والده ، وأراد أن يؤكد له كذب ظنه واعتقاده .. فتوسع في أعماله دون خبرة كافية بمنحنيات السوق وتقلباته . وكانت النتيجة المؤكدة خسارة جسيمة منى بها وفشلاً ما بعده فشل .. وديونًا تزاحمت بأرقامها دفاتره .

وجاءت نكسة يونيو ١٩٦٧ وتعم حالة كساد ازدادت معها الأمور سوءًا ، وحاول رجب باستماتة أن يقاوم التيار القوى فخارت قواه وغرق في ديونه .. وقام بتصفية الشركة وحزم حقائبه ووجد نفسه على ظهر مركب يشق مياه البحر إلى ميناء « بيريه » في اليونان .

نزل بنسيون « بروتاجوراس »[(١)] وحاول جاهدًا أن يعثر على عمل لكنه باء بالإخفاق .. فلجأ إلى بحار يونانى يدعى « زاكوس » ربطتهما معًا إحدى سهرات الإسكندرية .. وكذب عليه مدعيًا أنه ينجز إحدى صفقاته التجارية واستولى منه على خمسمائة دراخمة وهرب إلى « أثينا » العاصمة حيث ضاقت به المدينة الساحلية الساحرة . ووجد في أثينا أن الحياة بها أكثر ضجيجًا وحركة .

وفي بنسيون « زفيروس »[(٢)] جلس يفكر فيما وصل إليه من حال سيئة : لقد مر به شهر تقريبًا ولم يعثر على عمل بعد . إنه الآن عاطل ينفق ليعيش .. وعما قريب ستنفد دراخماته فماذا سيعمل ؟ هل ضاقت به الحياة أيضًا في أثينا ؟

مئات من المصريين جاءوا إلى اليونان يعملون في أى شيء وكل شيء .. لكنه يبحث عن عمل من نوع آخر يتناسب وعبقريته . وكثيرًا ما حدث نفسه قائلاً « لا أحد يفهمنى في هذا العالم » .. لقد صور له خياله أنه مضطهد .. ومعظم عباقرة العالم اضطهدوا أيضًا قبله .. وها هو يواجه قوى الاضطهاد التى تطارده أينما حل وعليه بالصبر حتى يكتسب له النجاح .

---

(١) بروتاجوراس « ٤٩٠ – ٤٢٠ ق.م » .. فيلسوف يونانى مشهور .

(٢) زفيروس ZEPHYRUS إله الرياح الغربية في الميثولوجيا الإغريقية .

وبينما هو يتجول فى شارع « سوفوكليس »[1] .. التقى بشاب مصرى من برديس جنوبى سوهاج يعمل فى مصنع للعصائر .. عرض عليه أن يعمل معه فى قسم التغليف لكنه أبى بشدة أن يعمل بوظيفة تافهة كهذه .. واستعرض له سيرة حياته السابقة فى مصر .. فما كان من الشاب الصعيدى إلى أن نصحه بالعودة إلى الإسكندرية لكى لا يقع فريسة سهلة فى قبضة المخابرات الإسرائيلية .. التى تتصيد الشباب المصرى العاطل فى اليونان وتغريه بالعمل معها مقابل مبالغ كبيرة . وسخر رجب فى داخله من نصيحة الشاب له بالعودة .. فقد كان والده يعانى الأمرين من حجم الديون التى خلفها له ومن مطاردة الدائنين فى المتجر كل يوم .

المال والحسان

تزاحمت الأفكار فى رأسه وغمرته إحساسات اليأس من صلاح أمره فى أثينا .. والخوف من العودة يجر أذيال الخيبة والفشل .. وداهمه شعور بالضآلة وقال لنفسه « لن أيأس .. لن أستسلم أبدًا مهما حدث » .

أيقظته دقات الباب من أفكاره . وكان الطارق موظف حسابات البنسيون . فطلب منه إمهاله عدة أيام .. وما كانت جيوبه تحوى سوى دراخمات قليلة لا تكفى لأسبوع واحد إلا بالكاد .

هرب منه النوم واختنق صدره واهتزت أمامه الرؤى وعندما تذكر مقولة الشاب الصعيدى « المخابرات الإسرائيلة تدفع الكثير » قال لنفسه « لن أخسر أكثر مما خسرت » وأمسك بالقلم ليكتب :

السيد المبجل / سفير دولة إسرائيل فى أثينا .

أنا موظف مصرى أقيم فى بنسيون زفيروس . ضاقت بى الدنيا وظلمتنى فى الإسكندرية وفى أثينا. قال لى البعض إنكم تمدون يد المساعدة لكل من يلجأ إليكم وأنتم الملجأ الأخير لى . فأرجو أن أنال عطفكم واهتمامكم .

رجب عبد المعطى

أثينا ١٩٦٧/١٢/٢٧

---

(١) سوفوكليس SOPHOCLES « ٤٩٦ = ٤٠٦ ق. م » من أعظم كتاب التراجيديا اليونانيين .. وصاحب مأساة أوديب .

ولم تكد تمر ثلاثة أيام – حتى فوجىء بمندوب من السفارة الإسرائيلية ينتظره فـي صالـة الاستقبال .. فاصطحبه إلى السفارة وهناك قابلوه بود وقالوا له :

– وصلتنا رسالتك ولم نفهم منها ماذا تريد بالضبط ؟

– أجاب بصوت يغلفه الرجاء :

– أريد أن أعمل فى أثينا .

سلمهم جواز سفره وتركوه ثلاث ساعات بمفرده .. ثم جاءوا له باستمارة من عدة صفحات .. تحمل اسم السفارة وشعار دولة إسرائيل ..وطلبوا منه أن يملأها ويكتب سيرة حياته وأسماء أصدقائه وأقاربه ووظائفهم .

وبعدما تبين لهم أنه أمضى ثلاث سنوات فى العمل داخل ميناء الإسكندرية .. طلبوا منه أن يكتب تقريرًا مفصلاً عن الميناء وأهميته الاقتصادية والعسكرية ففعل . واستعرض ما لديه من مظاهر « العبقرية » الفذة فى شرح كل شىء عن الميناء بتفصيل مطول .. فأذهلتهم المعلومات التى كتبها عن الميناء .. وأدرك ضابط الموساد الذى شرع فى استجوابه بأنه وقع على كنز ثمين عليه أن يعمل على استثماره و « حلْب » ما لديه من معلومات .

وفى الحال سددوا حسابات البنسيون كافة ونقلوه إلى فندق « أورفيوس » .. وهو ابن ربة الفن الإغريقية .. وأعطوه مائتى دولار أمريكى وتركوه عدة أيام يمر نهاره وهو يغط فى سبات عميق .. وفى الليل يتذوق طعم السهر فى حانات وكباريهات أثينا المتحررة .. ويصاحب أجمل فتياتها وداعراتها فى شارع « ارستيديس » الشهير . وعندما نفدت نقوده تمامًا ود لو عاد إليه مندوب السفارة الإسرائيلية ببعض المال ليكمل مسيرة اللهو والسكر .

وحدث ما توقعه وجاءه المندوب بمائتى دولار أخرى .. فاستغرق فى مجونه وتمنى لو استطاع أن يفعل أى شىء فى سبيل أن يحيا حياة مرفهة فى أثينا .

أغرقته المخابرات الإسرائيلية بالمال حتى اطمأن إلى رجالها .. وكلما نفدت نقوده ذهب بنفسه لمقابلة أبو إبراهيم فى السفارة الإسرائيلية يعرض عليه خدمات مقابل الدولارات التى يأخذها . فيؤجل ضابط الموساد الحديث فى هذا الأمر لوقت آخر .. وينصرف رجسب بالنقود فيرتع بين الحسان عاريات الظهر والنهود هو بينهن يختال اختيالاً .

إن المال والنساء أهم أسلحة أجهزة المخابرات . بل هما الأساس الذى تبنى عليه عملية صنع جاسوس أو اصطياد عميل . وأجهزة المخابرات ليست بالسذاجة التى تجعلها تنفق الملايين لاصطياد ضعاف النفوس والخونة الذين يسهل شراؤهم بالمال والفساد .. ولذلك أقامت فروعًا لها ومكاتب فى الخارج تحمل أسماء شركات وهمية لا نشاط حقيقى لها سوى البحث عن الخونة . ويعمل بهذه الفروع ضباط مخابرات على أعلى مستوى من الخبرة والكفاءة .. وتخول لهم سلطات واسعة .. وتحت أيديهم مئات الآلاف من الدولارات .. وطابور طويل من السكرتارية والمساعدين الأكفاء .. بخلاف أجمل الفتيات اللاتى اخترن الطريق الصعب وخطون خطوات طويلة من الخبرة والحنكة . فهن يعرفن عملهن جيدًا ويبدعن فيه وطريقهن إلى الإبداع يبدأ وينتهى بالجسد . إنه السلاح السحرى الذى يقتل مقاومة الهدف .. ويحرك فيه غريزته المجنونة التى تحيله إلى إنسان بلا عقل أو إرادة .

والمخابرات الإسرائيلية – الموساد – تفوقت كثيرًا فى هذه الأمور .. وأصبحت أكثر أجهزة المخابرات خبرة فى استخدام لغة الجسد .. تلك اللغة التى يفهمها الجميع ولا تحتاج إلى مترجم أو قواميس تفسر مفرداتها .. ولكن الذى لا يعرفه أحد .. أن الخونة الذين يسقطون فى براثن الموساد .. يتحولون فى لحظة ما إلى مجرد بهائم تدور فى الساقية .. تطاردهم سياط الأوامر والطلبات التى لا تنتهى أبدًا . وأنها بقدر ما تدفع تريد المقابل أضعاف ما دفعته . وعندما يجف معين عميلها تنبذه[1] كالكلب الأجرب وتلقى به فى زوايا الذل والنسيان .. وتعامله كخائن باع وطنه وأهله ولا قيمة لإنسان فقد انتماءه . وسلك كل المسالك نحو المال واللذة .

(١) هناك حالات عديدة لذلك .. أهمها الجاسوس السويسرى المهندس فرانكيشت .. الذى أمد الموساد بلوحات تصاميم الطائرة الفرنسية ميراج ٣ .. ثم عومل بتجاهل عندما خرج من السجن .
هناك أيضًا الجاسوسة المصرية انشراح موسى التى أنقذها السادات من الإعدام .. وسافرت بأولادها إلى تل أبيب حيث تعيش الآن فى عزلة وتجاهل .

فى المصيدة

لم يدرك رجب عبد المعطى هذه الحقائق بل اندفع بكل ثقله باتجاه المخابرات الإسرائيلية .. وصادق الكثير من ضباطها فى أثينا ظنًا منه أنهم سينقذونه من شبح الإفلاس الذى تعلق بتلابيبه ولا يود مفارقته . ورحب كثيرًا بضابط الموساد – أبو إبراهيم – الذى فوجيء به يزوره فى حجرته بالفندق الفخم .. ويحدثه طويلاً عن أزمة الشرق الأوسط والوضع المتفجر فى المنطقة بسبب الحروب مع العرب .. وحقهم فى أن يعيشوا فوق أرض الميعاد فى سلام وأمان .. وأنهم ليسوا شعبًا يحب سفك الدماء بل أمة مشردة ضعيفة تسعى إلى العيش فى هدوء بلا حروب أو صراعات .

واستعرض أبو إبراهيم فى سرد أساطير وأحاجى اللص الذى يبرر مشروعية سرقاته . ثم سأل رجب فجأة :

● هل ترحب بالعمل معنا لصالح السلام ؟

والابتسامة تملأ وجهه ..

– بالطبع .. ولكن .. أى عمل بالتحديد ؟

أخرج ضابط الموساد الخبير أربع ورقات ذات المائة دولار ودسها فى يد رجب وهو يقول :

● أنت كثير الأسئلة .. هل تعتقد أننا نريدك سفيرًا لنا فى مصر ؟ .

– إذن .. ما هو المطلوب منى ؟

● ألا تسأل كثيرًا لكى لا أغضب منك .. عليك فقط أن تعرف أننا أصدقاء .. وأن لكل حديث أوان .

هز رجب رأسه علامة على الرضوخ والطاعة ولحقه أبو إبراهيم بسؤال ذا مغزى :

● هل لك صديقة فى أثينا ؟

أجابه على استحياء :

– هجرتنى فتاة تدعى الكسيميندرا لأننى لا أعرف اللغة اليونانية وقد ضاقت بإنجليزيتى الركيكة .

● أوه .. أتقصد تلك الفتاة التى يملأ النمش وجهها ؟ دعك منها وسوف أعرفك بفتاة رائعة تتحدث بالعربية وستكون معك ليل نهار فى أثينا .

تهلل وجهه وارتفع حاجباه دهشة وقال :

- أين هى ؟ أريدها حالاً ..

● ستكون إلى جوارك فى الطائرة أثناء رجوعك من تل أبيب .

بهت رجب ووقف فجأة كالملسوع وقال بصوت متلعثم :

- تل أبيب ؟

● نعم ..!!

بسرعة قالها ضابط الموساد بلغة الواثق ، وأضاف كأنه يأمره بتنفيذ قراره الذى لا رجعة فيه :

● ستسافر إسرائيل بعد عدة أيام . وفي الغد عليك أن تحضر اجتماعًا مهمًا فى السفارة لمناقشة خطوات تنفيذ هذا الأمر فهل عندك اعتراض ؟

هربت الكلمات وغاصت في قرار عميق .. وأجاب رجب الذى بدا كالأبله لا يضبط خلجاته :

- لا .. لا .. أنا لا أعترض .. إنها مفاجأة لى .

● عندما كتبنا تقريرًا عنك وأرسلناه إلى إسرائيل .. طلبوا منا أن نأخذك فى رحلة سريعة إلى هناك ليتعرفوا عليك أولاً . وثانيًا هناك مفاجأة سارة تنتظرك . وثالثًا : لتختار صديقتك بنفسك من بين أجمل فتياتنا وتصحبها معك إلى أثينا .

سكت رجب ولاحقه أبو إبراهيم :

● المخابرات الإسرائيلية إذا أعطت فهى سخية بلا حدود . وإذا غضبت ومنعت فطوفان من الهلاك قادم . وثق يا رجب أننا ودودون معك إلى أقصى درجة .. أعطيناك أكثر من ألف وخمسمائة دولار حتى الآن ولم نطلب منك أدنى شيء . ألا يدل هذا على كرم منا أيها المكار ؟ .

وربت كتف رجب الغارق فى ذهوله وهو يقول فى لغة ظاهرها الثقة وباطنها التهديد والبطش :

● عليك ألا تضيع هذه الفرصة .. انتهزها .. واركب قارب النجاة تنج بنفسك من الطوفان والهلاك .

وعندما قام ضابط الموساد منصرفًا لم يستغرق رجب في التفكير كثيرًا . لقد ثبتت لديه النية واتخذ قراره .. ولم يذهب إلى سريره لينام بل خرج ينزف دولارات الموساد على الخمر وجسد داعرة صحبها إلى شقتها وهو يمنى نفسه بالجارية الإسرائيلية التي ستكون تحت إمرته . وفي الصباح الباكر كان يقف أمام باب سفارة إسرائيل تعلوه سحابة انكسار وبعينيه بريق خنوع ديّوث باع لحمه لمزايد !!

استغرق الاجتماع به نحو الساعة .. كانوا أربعة من ضباط الموساد في أثينا وخامسًا جاء من فيينا كان يبدو أنه أكبرهم دراية بالتعامل مع الخونة وتطويع الجواسيس . طلب من رجب أن يرسم له خريطة الميناء في الإسكندرية وأين يقع مكتبه بالضبط ؟!! وفوجيء رجب بماكيت مصغر للميناء دخل به موظفان ووضعاه على منضدة تتوسط الحجرة ..

أخذ رجب يشرح بتفصيل أكثر معلوماته عن الميناء . بل ويحدد أماكن مخازن التشوين التجارية .. ورصيف الميناء الذي يستقبل السفن الحربية السوفيتية .. وسفن الشحن التي تجيء بالأسلحة المختلفة من ميناء أوديسا السوفييتي على البحر الأسود .. ومخازن تشوين السلاح المؤقته .. وبوابات التفتيش والمداخل والمخارج .

وهكذا استمر يشرح لهم أسرار الميناء الحيوي ، ولم يتركوا أدق التفاصيل إلا وسألوه عنها ثم طلبوا منه الانصراف والعودة صباح اليوم التالي ومعه أربع صور فوتوغرافية وجواز سفره . وبعد أن سلمهم الصور تسلم منهم وثيقة سفر إسرائيلية ذكر بها أنه إسرائيلي من تل أبيب واسمه « دافيد ماشول » .. تسلم كذلك تذكرة سفر بالدرجة السياحية – أثينا تل أبيب أثينا على شركة العال الإسرائيلية .. وأوصله مندوب من السفارة إلى المطار وتأكد من صعوده إلى الطائرة المتجهة إلى إسرائيل .

وعندما جلس رجب في مقعده بالطائرة كان جسده يرتجف بشدة .. وتشوشت أفكاره للدرجة التي أصبح فيها كالمخمور الذي فقد تركيزه واتزانه .. وسرعان ما استعاد ثقته بنفسه وهو يرسم في خياله أحلام الثراء الذي ينتظره .. ووجه الفتاة المليحة التي سيختارها في إسرائيل .. وخطرت بباله فجأة فتاة من بورسعيد اسمها مايسة كانت قد هاجرت مع أهلها إلى المنصورة وتعرف عليها في إحدى الحفلات العائلية وأحبها بسرعة إيقاع عجيبة وافترقا أيضًا بلا وداع . لماذا خطرت بباله في تلك اللحظة بالذات ؟ ضحك بصوت مسموع فرمقته سيدة تجلس بالقرب منه بنظرة تعجب وابتسمت .. وأغمض عينيه ثم نام .. واستيقظ والطائرة تحوم فوق مطار بن جوريون تنتظر الإذن بالهبوط .

اليهودى الجديد

وعلى سلم الطائرة صافحه ثلاثة رجال .. ثم أدخلوه سيارة مسدلة الستائر كانت تنتظر أسفل جناح الطائرة .. سلكت به اتجاهًا آخر بعيدًا عن بوابة خروج الركاب والجوازات .. ووجد نفسه فى شوارع تل أبيب لا يصدق عينيه ..

وفى بيت يشبه الثكنة العسكرية على أطراف تل أبيب أدخلوه إحدى الشقق المخصصة لأمثاله من الخونة .. حيث كانت تنتظرهم بها فتاة رشيقة صافحته بحرارة .. ورحبت به بالعربية فسره ذلك كثيرًا وقالوا له إن « زهرة » ستظل على خدمته طوال إقامته فى الشقة .

وتركوه ليستريح بضع ساعات وعادوا إليه ثانية فصحبهم لمبنى المخابرات الإسرائيلية فى شارع الملك شاؤل بوسط المدينة .. وكان فى استقباله عدد كبير من كبار رجال الموساد . ولعدة ساعات أخضع لتحقيق واستجواب تفصيلى لكل ما كتبه عن ميناء الإسكندرية .

كان الاجتماع مغلقًا على الضباط المختصين والمحللين الذين أدركوا ميوله للنزعة العسكرية .. وكان ذلك واضحًا جدًا من خلال إجاباته الحاسمة .. التى تشبه إجابة عسكرى مدعومة بلغة عسكرية بحتة .. وتغلفها تفاصيل استراتيجية دقيقة لا ينتبه إليها الرجل المدنى الذى لم يجند بالقوات المسلحة .

وفى ختام الاجتماع أعد له حفل استقبال كبير فى إحدى القاعات بالمبنى .. حضره عدد أكبر من ضباط الموساد ورؤساء الأقسام .. وتم منح رجب عبد المعطى رتبة « رائد » فى المخابرات الإسرائيلية ، ولم يضيعوا وقتهم كثيرًا فى مظاهر الترحيب .. إذ أعدوه لدورة مكثفة بدأها أحد الضباط بمحاضرة طويلة عن « ذراع إسرائيل الطويلة » .. وأنها تجعل العدو يرتجف رعبًا ، وتمنح الإسرائيليين القدرة على النوم فى هدوء . وأن الموساد نجحت فى حل الكثير من مشاكل الدولة اليهودية وهى على استعداد للقيام بمهام أخرى .

.. وأن عمليات الموساد ليست على درجة أقل أهمية .. بل هى أساس شهرتها .

وجاء ضابط آخر كانت مهمته تدريبية فنية تتعلق باستخدام الشفرة والاستقبال بواسطة موجات خاصة بالراديو .. وبعد أيام أجاد رجب استقبال الرسائل المشفرة وترجمتها بسرعة وكان عليه اجتياز دورة أخرى مهمة .. وجاءته هذه المرة ضابطة شابة تتحدث العربية بطلاقة

شرعت في تدريبه على كيفية استخدام الحبر السرى في الكتابة وقراءة الرسائل المرسلة إليه بالحبر السرى أيضًا .. وكذلك استعمال شفرة خاصة للمراسلة لا يكتشفها أحد .

استمرت برامج الدورة التدريبية المكثفة خمسة عشر يومًا كانت عصيبة ومرهقة . وبعد أن اجتاز الاختبارات بنجاح مذهل .. رافقته زهرة إلى منتجع خاص آمن يقع على بحيرة طبرية .. وهناك إذاقته من لدائن أنوثتها ما حار فيه العقل وأذهل الشعور . قالتها له صراحة إنها هدية له لاجتيازه الاختبارات وتعاونه مع المخابرات الإسرائيلية بإخلاص .. بل وأكدت له أنها عبدة له يفعل بها ما يشاء .. وعندما صارحها بأنه يستريح إليها ويود لو صاحبته إلى أثينا وعدته بأن تعرض طلبه على رؤسائها .. ..

وفي تل أبيب أخبره الضابط المسئول بأنه سيعود إلى الإسكندرية مرة أخرى ليعاود نشاطه السابق في شركة رجب للخدمات البحرية . وأنهم سوف يمدونه بالأموال اللازمة لإحياء شركته وتجديدها .. ولكي يتم تنفيذ ذلك عليه أن يمكث عدة أشهر في أثينا .. ويشيع بين المصريين العائدين إلى مصر بأنه يمارس أنشطة تجارية رابحة جدًا في أثينا .. ويجب عليه أن يتأكد من وصول هذه الأقاويل إلى مصر وإلى أهله بالذات .

لقد تمكنوا خلال تلك المدة من تدريبه على كيفية إعداد التقارير وتلخيص الجمل واختصار عدد الكلمات . هذه الدورة المكثفة زرعت بداخله إيمانًا حقيقيًا واهمًا بأنه صاحب رسالة مهمة أوكلت إليه . وبرغم أنهم بثوا لديه الثقة في مناعة المخابرات الإسرائيلية ضد كشف عملائها في الدول العربية .. واستماتتها في استردادهم حال القبض عليهم ، إلا أنه أحس بالتعاطف معهم بعد عدة محاضرات عن تاريخ اليهود .. واضطهادهم على مر الأحقاب والعصور .. ومحاولات إبادتهم التي أسفرت عن تشريدهم ومقتل الملايين منهم .. وكانت آخر المحاولات تلك التي قام بها أدولف هتلر الذي أقام معسكرات لتجميع اليهود .. ثم حرقهم في محارق خاصة لاستئصال كل يهود أوروبا .. وهكذا حشوه بأكاذيبهم المضللة لكسب عطفه .

وعندما عاد رجب إلى أثينا برفقته زهرة .. كان بداخله إصرار غريب على التعاون مع الموساد لحماية إسرائيل وأمن إسرائيل .. من التهديد العربي الدائم والذي يدعو إليه جمال عبد الناصر .. وإصراره على إلقاء اليهود في البحر ليتخلص منهم .. وترسب بداخله اعتقاد بأن عبد الناصر ما هو إلا هتلر جديد جاء ليبيد اليهود الذين يدافعون عن أمنهم .. وحقهم في أن يعيشوا في سلام .

النجاح الزائف

غادر رجب مطار بن جوريون في تل أبيب في طريقه إلى أثينا ترافقه « زهـرة » .. جميلة الجميلات والعبدة التي تحدثه بلغته وبلغة الجسد الناطقة .

لم تكن مهمتها إفراغ ثورات رجولته المشتعلة دائمًا بقدر ما كـانت رقيبة على سلوكه وتصرفاته .. وتمتحن إخلاصه للمخابرات الإسرائيلية بين آن وآخر . وكلما حاولت تصيد أخطائه وجدته أكثر منها إخلاصًا لليهودية .. وإيمانًا بحق الإسرائيليين في القدس وسائر أرض فلسطين .

إنها تواجدت بجواره لتدفعه بقوة إلى عشقها والذوبان فيها . فكلما ازداد عشقًا لها .. أخلص لإسرائيل .. وتفانى في خدمتها .

استأجرت له المخابرات الإسرائيلية إحدى الشقق الصغيرة في حي دميتير الهادى .. وهيأت له من أسباب العيش والرخاء والإمتاع الكثير .. لتجعله لصيقًا بهم يدور في فلكهم لا يستطيع فكاكًا . وعلموه كيف يتعامل مع المصريين الوافدين إلى اليونان للسياحة أو للبحث عن عمل . فالذين جاءوا للسياحة خصص لهم بعض الوقت وصحبهم للمزارات السياحية والأسواق والمتاحف .. وأفاض في خدماته إليهم وحمّلهم الهدايا إلى أهله بالإسكندرية تأكيدًا على تيسر أحواله وظروفه المالية في الخارج . وبدون توصية كانت صور حياته المختلفة تنقل إلى والده من خلال المصريين العائدين إلى مصر .

صور وجوانب مشرقة رسمتها المخابرات الإسرائيلية بإحكام شديد .. وأضفت عليها هالة من النجاحات أثلجت صدر أبيه بعدما فقد الأمل في ابنه . وأرسل رجب خطاباته واضعًا في إسهاب عمله في إحدى الشركات الكبرى .. التي استوعبت مواهبه واكتشفت فيه عبقرية فذة دفعت بها إلى الأمام بعد تعثر طويل .. فارتقى في وظيفته واحتل مكانة مهمة في بلاد الإغريق . وأكد ذلك للأب كل من حملوا إليه هدايا ابنه الرقيقة له ولوالدته ولأصحابه . وضمت خطاباته صورًا فوتوغرافية مختلفة في مكتبه وفي مسكنه .. وفي إحدى رحلاته إلى جزر بحر إيجه حيث الشاطىء يموج بالحسناوات يرتدين البكيني .. ويطاردن شبح الملل بالرقص واللهو .

لكل هذه المظاهر المزيفة .. صدق الأهل بالإسكندرية ما تبوأه رجب من نجاح .. فأرسل إليه والده يرجوه أن يعود إلى وطنه مرة ثانية ليعاود نشاطه من جديد .. وليؤكد نجاحاته على أرض وطنه بعدما صقلت شخصيته .. ودرج على القيام بمهام صعبة أوصلته إلى القمة .. فاستمهله رجب بعض الوقت ، وانشغل بالسعي مع المصريين القادمين بحثًا عن عمل في أثينا . فكان يصحبهم – بترتيب دقيق من الموساد – إلى الشركات البحرية في بيريه .. وإلى شركات تجارية أخرى في أثينا .. على أمل أن يسقط من بينهم شاب آخر في براثن المخابرات الإسرائيلية .

لأجل ذلك اختلط العميل الخائن بالمصريين المقيمين باليونان ووطد علاقاته بهم .. وتعددت خدماته ومواقفه تجاه كل من يلجأ إليه فأحبه الشباب المصري هناك .. ووجدوا فيه صورة المصري الشهم النبيل .. في حين أنه كان يدير حوارات سياسية معهم .. ويسجل تقارير مطولة تحمل بين سطورها خسة نيَّاتة القذرة في خدمة جهاز مخابرات العدو .. فبدا كما لو كان قد اندرج لسنوات طويلة في صفوف أكاديمية الجواسيس في إسرائيل .. وأعيد مرانه وتدريبه في أثينا على استخدام الحس الأمني والملاحظة والتمويه والخداع . وهذه كلها أمور أسهب في شرحها « فيكتور أوستروفسكي » في كتابه : « الموساد » حيث بيَّن لنا كيفية صنع جاسوس محترف في إسرائيل بواسطة أمهر الخبراء .. وأحدث دراسات علوم المخابرات والجاسوسية في العالم .

فقبل أن يخرج الجاسوس من مخبئه ليمارس وظيفته يخضع لبرنامج مكثف لابد له أن يجتازه بنجاح وهو عن « خداع المراقبة » .. ويدرك جيدًا إذا ما كان قد « ألقى بظلاله » أم لا .. ومن النافذة يستطيع أن يرى الشخص الذي يقتفي أثره .. وكيف تابعه ؟ وعندما يلقى الجاسوس الظل وخاصة عند الخروج من فندق – مكتب – متجر . سيجري بسرعة لمدة خمس دقائق .. ويسير بعدها في خط متعرج إلى أحد المباني ويبحث عن نقطة مراقبة ليراقب . وهذه الطريقة ستعطي الجاسوس الفرصة ليعرف أسلوب المراقبة .. وعليه حينئذ أن يمتنع عن إثارة أية شبهات أو إتمام عمل .. ويركب وسيلة مواصلات إلى مكان آخر بالمدينة خلاف الذي كان يقصده .

هكذا تدرب الجواسيس وأيقنوا أن هذا التصرف يتعلق بتكتيك السلامة الذي يجب أن يتبعه كل جاسوس . خاصة إذا كانت ظروف عمله معرضة لبعض الشكوك .

واتبعت الموساد أيضًا مع رجب ذات النظرية التي شرحها « ديفيد تليينى » فى كتابه : « فرق الرصد » عن كيفية الإثارة التى تتولد لدى الجواسيس والعملاء الصغار من ذوى « الميول المظهرية » .. وقد كان الخائن رجب يعشق اللكنة العسكرية فى الحديث .. والمرافعات العسكرية فى الوصف ولو لم يلتحق بالقوات المسلحة .. وعندما لاحظ خبراء الموساد هذا الاتجاه منحوه رتبة رائد فى الجيش الإسرائيلى إشباعًا لغروره .

عودة الظافر

لم تكن زهرة فتاة فراش للجواسيس الجدد بل إنها عميلة مدربة أخضعت فكريًا ومعنويًا وجسديًا لخدمة الموساد . عميلة تؤدى عملاً مهمًا وأساسيًا لصالح إسرائيل . وجسدها أحد أركان هذا العمل الأساسية .

إنها تستغل جسدها فى تطويع الجواسيس وربطهم بها .. حيث درست وتعلمت أن لكل رجل عادات وميولاً .. خاصة تظهر جلية عندما يتجرد من ملابسه أمام امرأة عارية . قد تكون ميوله سوية أو شاذة .. لا يهم .. فإن لديها القدرة على احتواء كل أنواع الرجال وإشباعهم وتأكيد رجولتهم وتضخيم فحولتهم . إن الجنس بالنسبة إليها عمل مهم ، وترتقى من خلاله وظيفيًا ومهنيًا إذا ما أبدعت فيه مع الخونة الذين يجرى إعدادهم ، وتنال شهادات شكر وتقدير بعد تطويعهم .

ولذا .. لم يكن وجود زهرة على مسرح الحدث عملاً ثانويًا يحسب على جهاز المخابرات الإسرائيلى . إنه جزء مكمل لتعمية العميل عن الحقائق والثوابت .. وإخضاعه بتصويره فى أوضاع شاذة تظهر مدى ضعفه .. وخلق دفء عاطفى يزيل غمامة الخوف التى قد تؤثر فى إقدام العميل فينشط ويبدع ويقوم بعمله خير قيام .

مر عام ونيف ولم يزل رجب فى أثينا فى حضن المخابرات الإسرائيلية يترقب موعد رجوعه إلى الإسكندرية . وعندما اعتقد أنه هيأ « الجو » لعودته .. تحدث مع أبو إبراهيم ضابط الموساد فى السفارة الإسرائيلية الذى أمهله عدة أيام ليكتسب بذلك لى رؤسائه .. ولما جاءت الموافقة .. أشاع رجب خبر عزمه على العودة إلى مصر غانمًا بالآف الدولارات التى جمعها من « أعماله الناجحة » فى اليونان . وعندما أشار عليه البعض بإكمال مسيرة النجاح دون العودة – مؤقتًا – إلى مصر .. تملكته نعرة الوطنية المزيفة .. وأقسم ألا يحرم وطنه من

خبرته وعبقريته التى يشهد بهما الأجانب . وأقيم حفل وداع صغير فى أحد الفنادق حضره بعض المصريين الذين صادقهم هناك .. وبعد نهاية السهرة حمل حقائبه وتوجه إلى المطار فى طريقه إلى القاهرة .

كان الجو قائظًا فى سبتمبر ١٩٧٠ والإسكندرية لازالت تموج بعشرات الآلاف من المصطافين .. الذين هربوا من لسعة القيظ وحرقة الوهج إلى الشواطئ الممتدة الجميلة . وفى شقة الحاج عبد المعطى كانت جموع أخرى من البشر تتوافد لتهنئ الرجل بسلامة وصول ابنه الوحيد من اليونان .

كان الرجل أسعد الناس على سطح الأرض .. وجهه يتهلل بشرًا وسحنته تضحك خطوطها ويرقص قلبه طربًا . والخائن لا يستحى وهو يحكى عن عبقرية مزعومة .. ويختلق أقاصيص الوهم التى لقنته إياها مخابرات العدو .. فأفاض فى الحديث والوصف وأضفى على نفسه بطولات وبطولات .

وبعدما استقر به المقام عدة أيام . اصطحب مهندس الديكور إلى مكتبه القديم حيث كانت لافتة « شركة رجب للخدمات البحرية » قد ضربتها الشمس وتشققت قشرة خشبها . وبالداخل كان العنكبوت قد نسج خيوطه فخيمت على كل شئ وبدا المكتب كمقبرة مهجورة .

وبينما كان المهندس يشرح له تصورات وتخيلات الشقة بعد تجديدها .. حدث زلزال هز أعماق مصر كلها وضرب فيها الأمل والأمان .. وزحفت جموع الشعوب العربية لهول الصدمة عندما أعلن موت جمال عبد الناصر .

العميل رقم ١٠٤١

امتلأت الشوارع بفيضان من البشر كالطوفان يجرف أمامه هدأة الحياة وغفلة الزمن . زحف من الأحياء يغلى ، وكتل ملتصقة من الحناجر تصرخ فى هلع وبكاء مرير يمزق القلوب .. وشروخ بدت فى الوجوه بفعل الدموع . وتوقفت الحياة ومادت موازين العقل فلا عقل يصدق أن الزعيم رحل .

ودون أن يدرى .. بكى رجب ، وكان لا يدرى أيبكى ناصر الأمل ؟! أم يبكى بذور الخيانة التى تعملقت بداخله وعظمت فروعها ؟ .

وود للحظات لو أن أقدام الباكين الحائرين داسته . لكنه سرعان ما استعظم ذاته وأبى ألا يضعف . بل سطر أولى رسائله ، وكانت هذه الرسالة هى الخطوة العملية الأولى فى عالم الجاسوسية .. ردًا على رسالة وصلته بطريق الراديو تطلب منه مراقبة حركة ميناء الإسكندرية وعما إذا كانت أسلحة سوفييتية تتدفق على مصر بعد موت زعيمها الأول أم لا ؟ وكانت الرسالة كالتالى :

(رقم ٢) سطور كتبت باللغة العربية بالحبر السرى بين سطور الرسالة .

(رقم ١) سطور كتبت باللغة الإنجليزية .

الإسكندرية ١٩٧٠/١/٢٤

صديقى العزيز باولو :

١ – خط عادى : وصلتنى رسالتكم العزيزة إلى قلبى وكم سررت بها .

٢ – حبر سرى : لازالت أعمال التجديدات فى مكتبى جارية وبالرغم من .

١ – خط عادى : وتعجبت من فعل الزمن يفرق دائمًا بين الأصدقاء .

٢ – حبر سرى : ذلك أقوم بعملى وأراقب الميناء جيدًا .

١ – خط عادى : والمحبين ، ولكنك يا صديقى مهما باعدت المسافات بيننا .

٢ – حبر سرى : ومنذ صباح الأمس وأنا أراقب سفينة سوفييتية ضخمة .

١ – خط عادى : تسكن بأعماق قلبى فالأيام الجميلة التى قضيتها معك .

٢ – حبر سرى : ترسو على الرصيف وحولها حراسة مشددة . السفينة .

١ – خط عادى : فى جزر كيكلاديس . لا أستطيع مهما حييت أن .

٢ – حبر سرى : اسمها ستالينجراد ، وقال لى زميل قديم بالميناء :

١ – خط عادى : أنسى طعم حلاوتها وروعتها والصور التى التقطت

٢ – حبر سرى : إن السفن السوفييتية تتردد بكثافة هذه الأيام .

١ – خط عادى : لنا هناك تكاد تنطق بمدى شوقى إلى تجديد هذه .

٢ – حبر سرى : على الإسكندرية ونادرًا ما تظل الأرصفة خالية منها .

١ – خط عادى : الذكريات الجميلة فى جزر بحر إيجه وشوارع ومقاه .

٢ – حبر سرى : وعلمت أن بعضها تنزل حمولتها بالليل فقط بواسطة .

١ – خط عادى : ومتاجر أثينا الساحرة . إن قلبى يرقص طربًا .

٢ – حبر سرى : الأضواء الكاشفة . ومنذ أسبوع بالضبط نزل .

١ – خط عادى : كلما مرت ببالى هذه الأيام الجميلة .

٢ – حبر سرى : عدد كبير من الجنود والخبراء السوفييت .

١ – خط عادى : عزيزى باولو : أرجو أن ترسل لى صورة ابنتك .

٢ – حبر سرى : في ذات الوقت الذى تفرغ فيه سفن مصرية أخرى .

١ – خط عادى : الجميلة بياتريتشى التى لم يسعدنى الحظ برؤيتها .

٢ – حبر سرى : حمولاتها من القمح المستورد من استراليا ومن .

١ – خط عادى : خلال زيارتكم القصيرة لليونان . وسوف أحاول .

٢ – حبر سرى: البرازيل .. وشاهدت عددًا كبيرًا من الشاحنات العسكرية.

١ – خط عادى : فى القريب أن أزوركم فى إيطاليا وأرى مدينتكم .

٢ – حبر سرى : تنقل صناديق خشبية ضخمة بعضها مغطى بغطاء .

١ – خط عادى : الرائعة – تريستا – التى تعشقونها . ومن جانبكم .

٢ – حبر سرى : أزرق أو كاكى وتتجه إلى طريق الإسكندرية .

١ – خط عادى : لا تدخروا وسعًا فى التفكير بجدية فى زيارتى .

٢ – حبر سرى : القاهرة الصحراوى ، وأنزلت سفينتان حمولتهما .

١ – خط عادى : مع احتفالات الكريسماس حيث المناخ هنا فى .

٢ – حبر سرى : من الخشب الزان من أسبانيا ورومانيا وتعطلت بالأمس .

١ - خط عادى : مصر أكثر من رائع ، وبالأخص فى صعيد مصر حيث .

٢ - حبر سرى : شاحنة على الطريق محملة بأجولة السكر المستورد .

١ - خط عادى : آثار أجدادى الفراعنة تفوح منها رائحة التاريخ .

٢ - حبر سرى : من الاتحاد السوفييتى وسأوافيكم بمشاهداتى .

١ - خط عادى : تحياتى لكم وتمنياتى بالسعادة الدائمة .

٢ - حبر سرى : أولاً بأول ، وسوف أنتظر رسائلكم .

١ - خط عادى : رجب .

٢ - حبر سرى : رقم / ١٠٤١ .

★★★

تحت الميكروسكوب

ومع إطلالة الأيام الأولى فى عام فى عام ١٩٧١ كان رجب قد انتهى من تشطيب مكتبه .. ولبس حلة جديدة من بهاء تتفق ورونق أعمال الديكورات الفخمة .. التى تدل على ذوقه الأوروبى ويساره ..

افتتح المكتب جمع غفير من الأهل والأصدقاء ، وملأت إعلانات الدعاية بالعربية والإنجليزية صفحات الأهرام تعلن عن ميلاد شركة خدمات بحرية متميزة .. قادرة على تحمل مسئوليات الشحن والتفريغ وما يخصهما من إجراءات مع الجهات المختصة .

وساعدته المخابرات الإسرائيلية كثيرًا ليحصل على ثقة بعض الشركات البحرية العالمية ليصبح وكيلاً لها فى الإسكندرية .. وتحول مكتبه إلى خلية نحل اضطر معها إلى الاستعانة بعدد كبير من الموظفين والسكرتارية ، وازدحم المكتب بالزوار وذوى المصالح ، وازدادت الخطابات الواردة إليه من الشركات الملاحية ومن رؤسائه فى أثينا يغذونه بالمعلومات .. ويلقون أوامرهم وتوجيهاتهم ويدفعونه ليكبر أكثر وأكثر . فازدهرت أعماله بسبب التوكيلات العالمية التى حصل عليها ، وصار اسمه مشهورًا ودخوله إلى الميناء بالتصاريح الممنوحة أمرًا سهلاً وقويت علاقاته بالموظفين وبالمديرين .

ولأنه يعمل في " المهنة " فقد كان سؤاله عن أحوال الميناء يومًا بيوم أمرًا عاديًا لا يثير ريبة ولا شكوكًا في نياته .. وهذا هو ما كانت تقصده المخابرات الإسرائيلية .. أي زرع جاسوس داخل ميناء الإسكندرية يرصد كل أسراره وأوضاعه دون أن يشك فيه أحد . ومرت الشهور تلو الشهور وهو لا يزال يرتقي سلم النجاح والشهرة ، ولم ينس أفضال اليهود عليه للحظة واحدة .

إنهم أولى أمره الذين ثبتوا قدميه على طريق النجاح ، وهم الذين تسعى مصر ومن خلفها جميع الدول العربية للإضرار بهم رغم قلتهم ومحدودية أرضهم ومواردهم .

لقد أكدوا له أنهم لا يريدون حروبًا مع العرب .. فهم يدافعون عن رقعة صغيرة من الأرض يعيش عليها أطفالهم وضعافهم . وكلما شن أنور السادات هجماته من خلال خطبه السياسية .. كان رجب يرتعد خوفًا من حماس وعوده بأن هذا العام هو عام «الحسم» لتدمير إسرائيل .. وكثرت الرسائل إلى رجب بطريق البريد والراديو .. وتعددت رسائله أيضًا إلى « أصدقائه » .

وانحبس النفس في رئتيه هلعًا يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وجنودنا البواسل يعبرون الهزيمة ويدكون خط بارليف الحصين ويكتبون النصر غاليًا بدمائهم .

وعندما كانت مصر – بل والأقطار العربية كلها تزغرد للنصر .. كان رجب يبكي في مكتبه وينتفض جسده خوفًا وشفقة على شعب إسرائيل الذي يقتله العرب بلا رحمة مجتمعين . وكثرت في تلك الأثناء زياراته للميناء يستقصي الأخبار ويستقي المعلومات بجرأة ، دون أن يلفت انتباه أحد ، لكثرة أسئلته عن السفن الراسية بالميناء وفي الغاطس تنتظر الدخول .

لفتت رسائله المتعددة إلى أثينا وروما انتباه ضابط المخابرات المصري المكلف بمراقبة البريد الصادر إلى خارج مصر والوارد إليها . واكتشف أمر الرسائل المشفرة . وقام جهاز المخابرات المصرية بمراقبة بريد رجب عبد المعطي .. وجرى الكشف عن كل رسائله وصورت وأعيد إغلاق الرسائل بدقة متناهية .. لكي تكون دليل إدانة ضده أمام النيابة وعند محاكمته .

وبينما كان الجو السياسي مشحونًا بحماس النصر ، وبدأت الخريطة السياسية للمنطقة تتشكل من جديد .. نشط رجب في رصد حركة الميناء لمستمرة وأرسل الرسالة التالية إلى صديقه « الوهمي » ديميتريوس في اليونان :

الإسكندرية ٢٧ /١١/١٩٧٤ .

عزيزى ديمتريوس .

١ – خط عادى : تهنئتى القلبية بمناسبة عيد ميلادك السعيد ، ولعلك .

٢ – حبر سرى : سفن شحن متعددة من جنسيات مختلفة تدخل .

١ – خط عادى : الآن فى أحسن حال بعد الوعكة الصحية التى أصبتم .

٢ – حبر سرى : الميناء لتفرغ حمولتها من المواد التموينية بكثرة .

١ – خط عادى : بها منذ ثلاثة أسابيع . فكيف حالكم الآن ؟!!

٢ – حبر سرى : أيضًا تأكدت من وصول سفينة تشيكوسلوفاكية .

١ – خط عادى : أحوالى على أحسن ما يرام ، وأنوى إجراء بعض .

٢ – حبر سرى : تحمل معدات عسكرية فى صناديق يصعب الاقتراب .

١ – خط عادى : أعمال الديكورات الحديثة بمكتبى ، على ذلك .

٢ – حبر سرى : منها بسبب الحراسة المشددة ، ولازالت .

١ – خط عادى : فسأتغيب لمدة أسبوعين على الأكثر على شاطىء .

٢ – حبر سرى : سفن عربية من الجزائر وليبيا تنزل حمولتها .

١ – خط عادى : البحر الأحمر ريثما ينتهى مكتب الديكور من عمله

٢ – حبر سرى : من البطاطين والمواد الطبية وسفينة عملاقة .

١ – خط عادى : ولسوف أعاود بعد ذلك نشاطى بشكل أفضل .

٢ – حبر سرى : تحمل علم بنما اسمها « ليليها مر »(١) محملة بحوالى .

١ – خط عادى : بعد هذه الإجازة التى أتشوق إليها لأتمكن .

---

(١) ليليهامر: مدينة نرويجية حدثت بها سنة ١٩٧٣ مطاردة شهيرة بين الموساد والبطل الفلسطينى على حسن سلامة قائد القوة ١٧ وأحد مخططى مذبحة ميونيخ عام ١٩٧١ التى قتل فيها ١١ رياضيًا إسرائيليًا ..

٢ – حبر سرى : ٢٠٠ جرار زراعى ومعدات زراعية وميكانيكية .

١ – خط عادى : من صيد السمك بعيدًا عن زحام العمل والتوتر .

٢ – حبر سرى : مختلفة وسفينة سوفيتية تحمل معدات توليد .

١ – خط عادى : المستمر من جراء المشكلات المتوقعة .

٢ – حبر سرى : كهرباء ضخمة وآلاف من الإطارات .

١ – خط عادى : تهنئتى لك مرة أخرى وتحياتى وأشواقى .

٢ – حبر سرى : الكاوتشوك مقاسات مختلفة وموتورات .

١ – خط عادى : رجب .

٢ – حبر سرى : رقم / ١٠٤١ ..

قتلته ظنونه

.. وأخيرًا .. بعد أن جمعت المخابرات العامة المصرية كل الأدلة التى تدينه .. توجهت قوة من رجال المخابرات صباح ١٣ يناير ١٩٧٥ إلى مكتبه .. اعتقد رجب أنهم « زبائن شغل » ولكن .. حينما أخبره قائد القوة بأنه ضابط مخابرات .. لم يستطع رجب أن يقف .. ظل ساكنًا على كرسيه تتحرك ركبتاه لا إراديًا ، واصطكت أسنانه فجأة ، وزاغت عيناه فى هلع لا حدود له .

ومن قبيل الصدف العجيبة أن رجل البريد جاء برسالة من المخابرات الإسرائيلية – مرسلة من الداخل – أثناء وجود المخابرات فى مكتبه حيث طلبوا منه حلها .. ووضعوا أمامه كتاب الشفرة الذى عثروا عليه فى درج سرى بالمكتب مع كل أدوات التجسس المزود بها .

لم يستطع رجب استيعاب الأمر على حقيقته . فقد كانت نظرات ذهوله تدل على مدى الرعب الذى أصابه .. إنهم أفهموه فى تل أبيب وفى أثينا أن المخابرات الإسرائيلية لم يحدث لها أن فشلت مرة واحدة فى مهامها .. ولكن الفشل يأتى دائمًا من العميل الذى قد يهمل

تكتيكات الأمان التي يجب عليه أن يلتزم بها ولا يهملها أبدًا . فجهاز المخابرات الإسرائيلي – حسبما أقنعوه – أفضل أجهزة المخابرات في العالم .

ابتسم رجب في سخرية عندما تذكر ادعاءاتهم الباطلة ، وبينما كانت قافلة السيارات تنطلق به إلى القاهرة – كانت المخابرات الإسرائيلية ترسل بالراديو رسالتها الدورية إلى عميلها :

« ننتظر ردك على الرسالة الأخيرة التي وصلتك .. لا تتأخر ، واستعد للسفر خلال شهر مارس إلى أثينا » .

وفي مبنى المخابرات المصرية جرى استجوابه فاعترف تفصيليًا – وهو مذهول – بقصة سقوطه في مصيدة المخابرات الإسرائيلية .. وعقدت له محكمة عسكرية وجهت إليه التهم الآتية :

– باع نفسه ووطنه للعدو مقابل المنفعة المادية .

– أمد العدو بمعلومات عسكرية واقتصادية تضر بأمن الدولة ومصلحة البلاد.

– ارتضى لنفسه أن يحمل اسمًا يهوديًا وجواز سفر يهوديًا ورتبة عسكرية يهودية .

– التخابر مع دولة معادية « إسرائيل » بقصد الإضرار بالعمليات الحربية لمصر .

– التخابر مع دولة أجنبية معادية لتسليمها سرًا من أسرار الدفاع عن البلاد .

وحكمت المحكمة بالإعدام شنقًا .. وصدق المفتي ورئيس الجمهورية على الحكم . وأثناء انتظار التنفيذ .. شعر الخائن بعظم جرمه وفداحة مسلكه . وعامله المجرمون والقتلة في السجن معاملة سيئة ، وكادوا أن يفتكوا به عدة مرات كلما سنحت لهم فرصة لقائه . وأنزوى الخائن يجتر ذكرياته فتتقلص عضلات جسده .. ومضت عليه عدة أسابيع . ذاق خلالها مرارة الحسرة والذل والمهانة .. ونحتت بدنه عضات الندم .. حتى عثر عليه ذات يوم ملقى على الأرض بزنزانته وسط بركة من الدم المتجلط .. وقد عثر على إحدى عدستي نظارته منزوعة ومهشمة .. وتبين أن هناك ثمة قطع غائر بيدة اليُسرى طال شريانه .

ترى .. هل أصابه مس من العقل وأدرك فداحة جرمه فانتحر ؟

أم أنه استشعر الفارق الشاسع ما بين الرفاهية والحبس ؟

أو ربما ظن أن الموساد ستنقذه لا محالة فقتلته ظنونه ؟

لا أحد يعرف ..

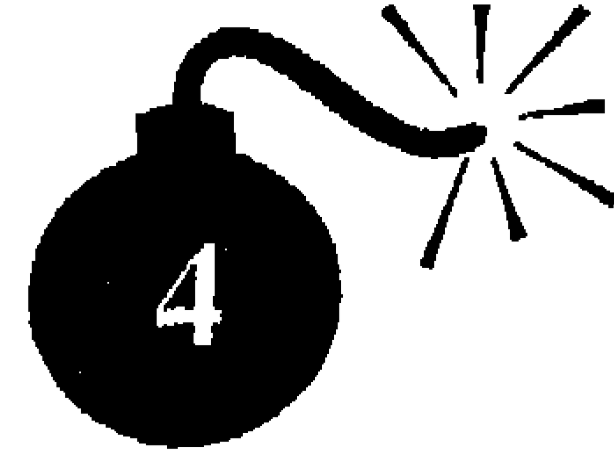
لكنه حتمًا أفاق بعدما خسر الكثير ..

خسر نفسه وأهله ووطنه .. وكل شيء ..

كل شيء ضاع ..

لكن اسمه سيظل دائمًا بقائمة الخونة .. أولئك الذين باعوا عروبتهم بثمن بخس .. ولن يغفلهم التاريخ على مر الأحقاب .. !!

نبيل النحاس .. ورحلة الموت الجميل ..!!



أشرس جواسيس إسرائيل في مصر ، ظل يمارس تجسسه وخيانته في الظل لمدة « ١٣ عامًا » متتالية ، بعيدًا عن أعين جهاز المخابرات المصرية ، وعند سقوطه .. أصيبت المخابرات الإسرائيلية بلطمة شديدة أفقدتها توازنها . فقد تزامن سقوطه مع سقوط جواسيس آخرين اكتشف أمرهم ، وفقدت الموساد بذلك مصدرًا حيويًا من مصادرها في مصر ، الذين أمدوها بمعلومات غاية في الأهمية طوال هذه السنوات بلا تعب أو كلل .

فقد كانت الجاسوسية عند نبيل النحاس قد وصلت إلى درجة الصقل والاحتراف ، بعدما تعدت مراحلها الابتدائية الأولى ، وتحولت مهنة التجسس عنده إلى أستاذية في التخفي والتمويه والبحث عن مصادر المعلومات . ووصلت درجة الثقة في معلوماته عند جهاز الموساد لمدى شاسع من الجدية والتأكيد .

جونايدا روتى

حوت التحقيقات التى أجريت مع العديد من الخونة بمعرفة المخابرات العربية .. سواء فى مصر أو فى سوريا أو العراق أسرارًا مذهلة عن كيفية انتقاء الجواسيس .. فمراكز المخابرات الإسرائيلية بكافة فروعها - شأنها كشأن كافة أجهزة المخابرات الأخرى - تتخذ من النظرية القائلة بأن لدى كل إنسان نقطة ضعف .. ولكل إنسان ثمن .. نقطة انطلاق للتنقيب عن ضعاف النفوس واصطيادهم .. وتخضع عملية الإيقاع بهم والسيطرة عليهم لخطوات معقدة وشائكة .

من هذا المنطلق .. أجاد رجال الموساد استخدام هذه النظرية باتساع .. دون اعتبارات للشرف أو للفضيلة .. وأخذوا يطرقون كل السبل لتجنيد عملاء لها فى كل مكان . فمن كان يبحث عن المال وجد ضالته لديهم .. ومن كان يسعى وراء نزواته وشهوته قذفوا إليه بأجمل نسائهم .. ومن ضاقت به الحياة فى بلده أمنوا له عملاً وهميًا يقوده فى النهاية إلى مصيدة الجاسوسية . دون أن يدرى .

فالملاحظ .. أن « العميل » فى الغالب لا يعرف أنه أصبح « عميلاً » فى بداية تجنيده .. بل يكتشف ذلك بنفسه بعد انغماسه فى التجسس .. وتكون شباك الجاسوسية قد كبلته وأطبقت عليه .. ولم تعد لديه أية وسيلة للفكاك .

حينئذ .. كالآلة الصماء يضطر إلى العمل دون إدراك للعواقب ..

والمثير فى الأمر .. أن هناك بعض الجواسيس الذين سقطوا فى قبضة المخابرات العربية كانوا يجهلون أنهم عملاء لإسرائيل .. وتبين لهم ذلك فقط عندما ووجهوا بالحقائق والأدلة التى تدينهم وتؤكد تورطهم .. ومن خلال اعترافات بعضهم - فتحى رزق، محمد أحمد حسن، جان ليون توماس ، فؤاد محرم ، سمير باسيلى ... إلخ - نجد حقائق مثيرة عن كيفية اصطيادهم وتجنيدهم .. حيث يستخدم صائدوا الجواسيس كل أسلحة التأثير النفسى والمغريات المختلفة لإذابة تركيزهم واحتوائهم .. فلكل صيد « طعم » خاص به يلقى إليه .. ومن خلال قصص الجواسيس التى بين أيدينا نجد أن بينها تشابهًا كبيرًا .. ولا تكاد تختلف إحداها عن الأخرى إلا من ناحية تنوع الأسماء والأماكن والمواقف . ذلك أن صائدى

الجواسيس فى المخابرات الإسرائيلية لهم ميزة عجيبة وصفة واحدة .. وهى أن لكل منهم أنف كلب الصيد الذى يدرك مكان الفريسة بالشم ويحدد مكانها بدقة .. إلى جانب رادار حساس فى أذنيه .. يضاف إلى ذلك « الكرم » الذى يصل لدرجة البذخ أحيانًا .. وإتقان شديد للغة العربية وعادات شعوبها .

هذه الصفات مجتمعة تؤمن للصياد أن يكتشف مكامن الضعف فى الفريسة .. التى تكون على وشك الإفلاس .. أو قد تكون مصابة بانحراف جنسى .. أو تحلم بعلاقات حميمة مع ملكات الفتنة والأنوثة .

هذا ما حدث بالضبط مع الجاسوس « نبيل النحاس » الذى عبد الشهوة فأغرقته .. وأرقته .. وبسببها كان اصطياده سهلاً .. بسيطًا .. وما أسهل تصيد عشاق الجنس وعبدة اللذة .

تمتد جذور أسرته إلى « حاصبيا » فى محافظة لبنان الجنوبية وتقع على نهر الحاصبانى .. وبعد سنوات طويلة انتقلت الأسرة إلى « كفر شيما » بمنطقة الشويفات جنوبى بيروت .. ومن هناك أتت إلى مصر وأقام والده بالسويس ، وتزوج من فتاة مصرية أنجبت له « نبيل » عام ١٩٣٦ .

كان الطفل يحمل ملامح والده الشامى الأشقر وعذوبة أمه المصرية .. وتميز منذ الصغر بذكاء شديد يفوق أقرانه .. فتنبأ له الجميع بمستقبل مضمون ونجاح أكيد ..

وتلاحقت السنون سراعًا ونجح نبيل النحاس فى الثانوية العامة والتحق بجامعة القاهرة طالبًا بكلية التجارة .. وبخطوات واثقة شق طريقه نحو الحياة العملية بعد تخرجه متفوقًا .. تراوده طموحات لا حدود لها ..

ولم يطل به الانتظار طويلاً .. إذ سرعان ما عمل سكرتيرًا فى منظمة الشعوب الأفرو آسيوية التى كان يرأسها الأديب يوسف السباعى .. وكان عمله كتابة محاضر الجلسات والمؤتمرات على الآلة الكاتبة .

ومن خلال وظيفته وموقعه .. توسعت علاقاته وتشعبت .. وتبلورت شخصيته الجديدة التى نضجت مع ملاحة ورجولة تلفت انتباه الحسان .. وتجعل منه مأملاً لهن .. فأحطنه بدلالهن ليقطف منهن من يشاء ..

وبمرور الشهور استشعر نبيل النحاس ضآلة راتبه الذى تعدى المائة جنيه .. فى ذات الوقت الذى كان فيه راتب زميله فى مكان آخر لا يتعدى الخمسة عشر جنيهًا فى ذلك الوقت عام ١٩٥٩ .. فعمله المرموق كان يتطلب مظهرًا حسنًا وملابس أنيقة تتناسب ومكانته .. إلى جانب حاجته للإنفاق على معيشته وعلى علاقاته النسائية وملذاته .. خاصة .. وقد ارتبط بعلاقة حميمة بفتاة أفريقية من كوناكرى فى غينيا .. فانجرف معها إلى محيطات المتعة يجدف بلا كلل .

كان اسمها « جونايدا روتى » .. خيزرانية القوام أبنوسية اللون رائعة الخلقة .. تعمل مراسلة صحفية لعدة صحف أفريقية وعالمية .

استطاعت جونايدا أن تمتلك عقله وتنسيه أية امرأة سواها .. فأغدق عليها بالهدايا حتى تعثرت أحواله المالية .. فوجد الحل لديها لإنقاذه من تعثره عندما عرضت عليه أن يطلب أجازة من عمله بالمنظمة .. والانضمام إلى إحدى وكالات الأنباء العالمية كمراسل مقابل راتب كبير مغر ..

وكانت أولى المهام التى أوكلت إليه السفر إلى منطقة الصحراء المغربية « ريودى أورو » ومن « فيلاشيزنيروس » و « العيون » يستطيع أن ينقل أخبار الصراع السرى الدائر بين المملكة المغربية وموريتانيا .. صراع النفوذ على المنطقة المحصورة بينهما .

كانت سعادته بالمهمة الجديدة عظيمة .. حيث ستتاح له فرصة اللحاق بالساحرة الأفريقية – جونايدا – التى سبقته إلى كوناكرى .. وطار النحاس إلى الدار البيضاء تحفة أحلام المغامرة والثقة فى الغد .

الطريق المختصر

هناك – فى الدار البيضاء – كانت بانتظاره مفاجأة بدلت مجرى حياته كلها .. إذ تعرف إليه فى بهو الفندق رجل مغربى .. يهودى .. عرف منه وجهته .. فعرض عليه مساعدته لدخول ريودى أورو عن طريق أعوان له فى « سيدى أفنى » أقصى جنوب المغرب .. وكيفية اجتياز « وادى درعة » للوصول إلى الحدود .

سر نبيل النحاس للصدفة الجميلة التى ما توقعها .. واحتفاء بالمراسل الصحفى الوسيم .. أعد له المضيف وليمة غداء بمنزله فى « أزمور » الساحرة .. التى تقع على نهر « أم الربيع » وتشرف على ساحل المحيط الأطلنطى .

وفي منزل تحيطه الحدائق والزهور في بانوراما طبيعية رائعة .. كانت تنتظره المفاجأة .. إنها « مليكة » اليهودية المغربية التي تستحوذ على جمال فتان لم تره عين من قبل ..

كانت في الواحدة والعشرين من عمرها .. إذا خطت .. تحركت الفتنة وترجرجت تحت ثيابها .. وإذا تأودت .. أغرقت الدنيا بهاء وحسنًا .. وإذا تحدثت .. تموجت الأنغام مسكرى على شفتيها .. وأربكت حدود العقل وأركانه .

أذهل جمالها المراسل الصحفي الجديد فنسى مهمته في الجنوب .. وذابت جونايدا إلى القاع أمام سحر مليكة .. فقد أفقدته « حسناء أزمور » الوعي والرشاد .. وطيرت عقله إلى سفوح المتعة .. فأقبل يلعق عناقيد الفتنة بين يديها .. ويتعبد متنشيًا في محرابها مسلوب القرار .. فعندما يخوض الجسد بحار النشوة .. يغوص متلذذًا بالغرق لا يرجو خلاصًا من الموت الجميل .

الأيام تمر وفتانا نسي مهمته .. وقبع كطفل غرير بين أحضان مليكة التي أحكمت شباكها حوله وسيطرت على مجامع حواسه .. وحولته إلى خادم يلبي طائعًا رغباتها .. وينقاد لرأيها .. دون أن يشك ولو للحظة في كونها يهودية تسعى لاصطياده في خطة محبوكة ماهرة أعدتها جونايدا سلفًا في القاهرة .

وبعدما فرغت جيوبه .. أفاق على موقفه السيء بلا نقود في بلاد الغربة .. وتمنى لو أنه كان يملك الملايين ليظل إلى جانب مليكة لا يفارقها أبدًا ..

ولما قرأت فتاته أفكاره .. طمأنته .. وعرضت عليه السفر معها إلى باريس حيث الحرية والعمل والثراء .. وبلا وعي وافقها .. ورافقها إلى عاصمة النور والجمال ومأوى الجواسيس .. وهناك لم يفق أو ينتبه إلى حقيقة وجوده بين فكي كماشة ستؤلمه عضاتها حتمًا ذات يوم .. ولما أيقنت أنه سقط في براثنها بلا قوة تؤازره وتدفعه لمقاومتها .. نبهته – بالتلميح – إلى ضرورة إدراك حقيقة لابد أن يعيها .. وهي أنها يهودية تدين بالولاء لإسرائيل حتى وإن كانت مغربية المولد .. ولغتها عربية فرنسية ..

وعندما استقرأ المراسل الصحفي مستقبله معها .. كانت الصورة أمامه مهتزة .. إذ خلقت منه أصابع مليكة الناعمة طفلاً لا يعي .. وأبلهًا لا يقرر .. وأعمى لا يرى تحت قدميه .

أقام معها في شقة رائعة .. وكانت تنفق عليه وتعده بتوفير فرصة عمل له من خلال أصدقائها في باريس .. واستدعت من أعماقه كل جوانب ضعفه وجنونه .. واستدرجته للحديث في السياسة فأفاض بغزارة ..

وأسر إليها بما لديه من معلومات عن المنظمة الأفرو آسيوية .. وعن أشخاص بعينهم يمثلون رموزًا هامة في المجتمع الدولي .. وحدثها عن علاقاته بكبار المسئولين في مصر .. وكانت كل تلك الأحاديث مسجلة بالصوت والصورة .. إلى جانب تسجيلات أخرى أثناء استعراضه لفحولته عاريًا بين أحضان عميلة الموساد .

كان « باسكينر » ضابط الموساد يراقب كل شيء .. ويدرس شخصية نبيل النحاس باستفاضة .. ولما حانت الفرصة المناسبة .. عرفته مليكة بفتاها .. وقدمته إليه على أنه رجل أعمال إسرائيلي يدير شركة كبرى للشحن الجوى تمتد فروعها في كل القارات .. وكان رد الفعل عند المراسل الصحفي يكاد يكون طبيعيًا .. فهو يسعى إلى المال أينما وجد .. وسواء تحصل عليه من يهودى أو هندوسي فلا فرق .. المهم هو الكم .

استخلص الضابط المحنك حقيقة مؤداها أن الشاب المصرى يريد المال ومليكة معًا .. فتولى أمره .. وتعهده ليصنع منه جاسوسًا ملمًا بفنون الجاسوسية .. وكانت المناقشات بينهما تبدو طبيعية لا غبار عليها .. ثم تطرق باسكينر شيئًا فشيئًا إلى هويته .. وموقف العرب من إسرائيل .. واتجاهات الدبلوماسية العربية إزاء الوجود الإسرائيلي في المنطقة ..

في أحاديثه أيضًا تطرق إلى عمليات الموساد الخارقة في البلاد العربية .. وكيف أنها تدفع بسخاء إلى عملائها .. وتحرص على حمايتهم إذا انكشف أحدهم .. ولوَّح – من بعيد – عن التسجيلات الصوتية والأفلام التي بحوزتهم .. والأسرار التي تحويها هذه الشرائط ، وأنها قد تهلك أصحابها إذا ما وقعت في أيدى المخابرات العربية .

لم يكن نبيل النحاس غبيًا بالدرجة التي تجعله يجهل ما يرمى إلى باسكينر .. أو يتجاهله .. إذ استوعب نواياه ومقصده .. وكان تعليقه الوحيد أنه شخصيًا يتعاطف مع إسرائيل .. وإن تعاطفه هذا عن قناعة تبلورت من خلال قراءاته في تاريخ اليهود .

بذلك .. اختصر نبيل النحاس الطريق الطويل أمام باسكينر .. وخطا أولى خطواته الفعلية على درب الخيانة .. والخسة .

أبقى باسكينر مليكة إلى جوار الجاسوس الجديد .. فوجودها مهم للغاية في تلك المرحلة الأولى من الإعداد والتدريب .. ذلك لأن خضوعه كان مرهونًا بوجودها .. إلى جانب آلاف الدولارات التي ملأت جيوبه فأسكرته .. وأنسته عروبته .. فقد كانت تمنحه النعيم ليلاً بينما يدربه باسكينر وزملاؤه نهارًا ..

كانت أولى دروس الخيانة هي كيفية استدراج ذوي المراكز الحساسة للحديث في أمور يصعب تناولها .. وتتعلق بأسرار الدولة .. واستغلال حفلات الخمر والجنس في الوصول إلى أسرار غاية في الأهمية .. إلى جانب ضرورة تزويد الموساد بنسخة طبق الأصل من محاضر مؤتمرات المنظمة الأفرو آسيوية التي سيعود لعمله بها من جديد ..

علموه أيضًا كيفية قراءة التقارير والأوراق بالمقلوب على مكاتب المسئولين الكبار عند زياراته لهم .. واختزان الصور والرسوم والمعلومات التي يطلع عليها بذاكرته .. ثم يقوم بتسجيلها كتابة بعد ذلك .. وكيفية مراقبة المواقع العسكرية على الطريق ما بين القاهرة والسويس وكتابة تقارير وافية عن مشاهداته وإن كانت تافهة .. ويقوم بإرسالها — بواسطة الحبر السري — إلى أحد العناوين في باريس — مقر الموساد المختص بجواسيس الشرق الأوسط — الذي يقوم بتجميع الأخبار والتقارير التي تفد إليه من قبرص وأثينا وبروكسل وروما فيرسلها بدوره إلى تل أبيب .

أهلاً بك في وطنك

ابتدأ النشاط التجسسي الفعلي لنبيل النحاس في منتصف عام ١٩٦٠ .. فقد عاد إلى عمله بالمنظمة .. وكانت وظيفته ساتر طبيعي يختفي خلفه .. ولا يثير أية شبهات من حوله ..

واستطاع من خلال علاقاته الهامة استخلاص معلومات لا يتوقف سيلها .. كانت تصل إلى المخابرات الإسرائيلية أولاً بأول .. وبالتالي .. يتحصل على مقابل مادي ضخم يتسلمه في القاهرة بطرق ملتوية عديدة ..

وبعد عامين تقريبًا .. استدعي إلى باريس في مهمة عاجلة .. حيث كان بانتظاره باسكينر .. الذي عهد به إلى ضابط إسرائيلي آخر استطاع تدريبه على كيفية ترويج الإشاعات .. والتأثير سلبيًا على الرأي العام من خلال تجمعات الأوساط المختلفة في مصر ،

ولقنه الكثير من أساليب الحرب النفسية والتأثير السيكولوجي ، اعتمادًا على لباقته ومقدرته الفذة على الإقناع ، إلى جانب ترسيخ فكرة الخوف من الإسرائيليين لدى المحيطين به ، واستبيان آرائهم تجاه العدو وقدرات الجيوش العربية على مواجهته .

وبعد مرور عدة سنوات – كان نبيل النحاس من أنشط جواسيس إسرائيل في مصر . لقد نسي مليكة ، ولم يعد يعرف لها وجهًا بعدما أدت مهمتها خير قيام . بينما انشغل هو بجمع أموال الموساد التي هيأت له فرص التعرف بالكثيرات غيرها ، فالأموال طائلة والوثائق الهامة تقيم ، والنساء على كل الألوان .

وفي مرحلة أخرى من مراحل صناعة الجواسيس المحترفين – أعد له برنامج تدريبي أكثر خطورة في بيروت ، إذ تم إخضاعه لدورة تدريبية بواسطة خبير متفجرات عميل للموساد ، لتعلم كيفية صنع المتفجرات ، وتفخيخ الرسائل والطرود والتخفي والتمويه والهرب والتنكر .

لقد أرادوا أن يخلقوا منه جاسوسًا فاعلاً وخبيرًا في الأعمال الإرهابية والتدمير في مصر. وكان الخائن أشد قابلية للتشكل والتمحور وتنفيذ مخططات العدو ولو بقتل الأبرياء ، بعدما فرت من أعماقه دلائل العروبة ، وسرت بشرايينه دماء تحوى كرات الخيانة بكل الصور .

لذلك .. تعاون بإخلاص مع الموساد في تهديد الخبراء الألمان ، الذين يعملون في المصانع الحربية المصرية لإنتاج الصواريخ والأسلحة المتطورة .. بتوجيه الرسائل المتفجرة إلى بعضهم ، بالاشتراك ضمنًا مع « يوهان وولفجانج لوتز » عميل الموساد الشهير في القاهرة الذى ألقى القبض عليه في فبراير ١٩٦٥ ولم يجر إعدامه .

وبرغم عدم اكتشاف أمره – إلا أن نبيل النحاس لم يتوقف بعد سقوط لوتز ، واحتل مرتبة الصدارة لدى المخابرات الإسرائيلية في المنطقة . وقام بدور حيوى في نقل أسرار عسكرية وحيوية إلى إسرائيل قبل نكسة يونيو ١٩٦٧ .. ساعدت العدو على اجتياح الأراضى المصرية واحتلال سيناء . وأعتبر نبيل النحاس نجاح إسرائيل في هزيمة العرب نتاج تعاونه معهم وإمدادهم بوثائق خطيرة وتقارير تشكل الصورة الواقعية للعسكرية المصرية .

وفي عام ١٩٦٨ أفرجت مصر عن « لوتز » في صفقة مع إسرائيل للإفراج عن عدد كبير من أسرى الحرب لديها . وأحس نبيل بالزهو ، فالصفقة منحته قدرًا هائلاً من الثقة في مخابرات إسرائيل التي لا تترك جواسيسها وعملاءها نهبًا للقلق ، إذ تسعى لمبادلتهم وبأى

ثمن حماية للجواسيس الآخرين الذين يعملون في الخفاء ، ويتملكهم الرعب عند سقوط أحدهم في قبضة المخابرات العربية .

لقد اطمأن أخيرًا على مستقبله في حالة سقوطه ، فسوف تتم مبادلته هو الآخر ليعيش بقية حياته في إحدى الفيلات الرائعة بإسرائيل ، ينعم بالأمن وبالأموال الكثيرة .

هذا الهاجس الذى عاشه ، جعل منه خائنًا خطيرًا لا يتورع عن بيع أى شيء ذى أهمية لإسرائيل .. وكانت زيارته إلى تل أبيب حلمًا يراوده ، وأملاً ينشده . لقد أراد أن يرى إسرائيل من الداخل ويتجول بين مدنها ويتخير لنفسه بيتًا مناسبًا قد يسكنه ذات يوم .. وأعدوا له برنامجًا مشحونًا ينتظره قبل زيارته لإسرائيل بعدة أسابيع ، وأثناء تواجده في أثينا .. كانت خطة سفره قد اكتملت .

ففي غفلة عن الأنظار اختفى نبيل فجأة من فندق « بوزايدون » .. وفي المطار كان ثمة رجل أشقر تغطى وجهه نظارة سوداء ، ويرتدى معطفًا ترتفع ياقته لتخفي بقية وجهه ، يحمل جواز سفر إسرائيليًا باسم « شاؤول ياريف » ولا يتحدث مع أحد . خطواته الواثقة قادته إلى السيارة التى أقلته حتى طائرة العال الإسرائيلية الرابضة على الممر ، وعن قرب كان يتبعه رجل آخر لا يبدو أنه يعرفه .. إنه باسكينر ضابط الموساد الذى خلق منه جاسوسًا محترفًا ، وفي مطار بن جوريون كانت تنتظره سيارة ليموزين سوداء ذات ستائر ، سرعان ما دلف إليها .. فأقلته إلى مكان لا يعرفه سوى قلة من ضباط الموساد الذين استقبلوه بحفاوة بالغة .

وفي مكتب « زيفى زامير » رئيس الموساد الجديد كان اللقاء أكثر حرارة ، إذ ترك زامير مكتبه وجلس قبالته يتأمل وجهه العربى الصديق ، وعرض عليه خدمات الموساد فاختار الخائن أولاً أن يلتقى بالسيدة جولدا مائير ، فصحبه إلى هناك حيث اصطف أكثر من خمسة وعشرين جنرالاً إسرائيليًا لتحيته ، واحتضنه أحدهم قائلاً له « أهلاً بك في وطنك إسرائيل » وصافحته جولدا مائير بحرارة ، وأمرت بتلبية كل مطالبه ولو كانت مستحيلة . وقالت لزامير : « شكرًا على هديتك الرائعة التى جلبتها لإسرائيل » وعلق الخائن قائلاً .

– « لم أكن أحلم قبل اليوم بأكثر مما أنا فيه الآن . أشعر أننى بين أهلى ، ويكفينى هذا الشعور سيدتى » .

وأمرت له رئيسة الوزراء بمكافأة خاصة قدرها خمسة وعشرين ألف دولار من مكتبها ، بخلاف ما سيحصل عليه من أموال الموساد ..

وفي الفيلا التي نزل بها كانت هناك مفاجأة مدهشة .. إنها مليكة .. أجمل النساء اللاتي أسكرنه ، والعميلة المحترفة التي أوقعت به صيدًا سهلاً في شرك الجاسوسية لصالح الموساد . فجددت معه ذكرى الأيام الخوالي .. وأغدقت عليه من نبع أنوثتها شلالات من المتعة تمنحها له هذه المرة ليس بقصد تجنيده كما حدث في المغرب ، بل لتكافئه على إخلاصه لإسرائيل .

لم تكن هناك فروق بين إحساس المتعة في الحالتين . فمليكة أنثى مدربة تعرف كيف تغرقه في بحورها .. وكلما أرادت انتشاله جذبها مرات ومرات . فما أحلى الغرق في بحور فاتنة مثيرة ، وما ألذه من موت جميل !!

ستة عشرة يومًا بين ربوع إسرائيل زائرًا عزيزًا ، عاد بعدها نبيل النحاس إلى أثينا بآلاف الدولارات التي كوفىء بها من إسرائيل .. والتي زادته شراهة في الخيانة ، وعبقرية في جلب المعلومات ..

فالمنطقة العربية تغلي كبركان على وشك الفوران والثورة .. والشعب العربي هديره مطالبًا بالثأر يصم الآذان ، وحالة ترقب في إسرائيل وانتظار لصحوة المارد العربي .. الذى سقط يتلوى يبغي الوقوف والصمود .

بكاء الذليل

كانت المهمة بالنسبة لنبيل أشد صعوبة برغم سنوات الخيانة والخبرة ، وبرغم احتضان مصر له لم يحفظ لها الجميل بعدما تعهدته طفلاً ، ونشأته صبيًا ، وعلمته شابًا ، ونخرت الخيانة عظامه كالسوس يسعى لا علاج له سوى الهلاك والفناء . فبادر على الفور في استكشاف النوايا تجاه إسرائيل ، ونشط في جمع أدق المعلومات عن تسليح الجيش ، والمعدات الحديثة التي تصل سرًا من الاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية ، وانغمس في ملذاته بصحبة فتيات الليل ، يجلب لهن بعض ذوى المناصب والعارفين بالأمور العسكرية .

ومن خلال حفلات المجون كانت المعلومات تتناثر هنا وهناك ، فيلتقطها بعقل واع يقظ ويدونها ، ويبعث بها في الحال إلى مكتب الموساد في جنيف .

وعندما تلقى رسالة مشفرة من رؤسائه تطلب منه معلومات مركزة عن حركة ميناء الإسكندرية . لم يتأخر في تنفيذ الأمر ، وأسرع إلى الإسكندرية للقاء صديق له يعمل في شركة تمارس نشاطات بحرية ، وأغدق عليه بالهدايا الثمينة .. فانتبه صديقه لذلك وتساءل مع نفسه « لماذا » ؟ وادعى جهله بأمور تجرى بالميناء الحيوى .. فوجد إلحاحًا من الخائن يطلب منه تزويده بما يخفى عنه .. بحجة عمله كمراسل لوكالة أنباء دولية .

لم يكن نبيل يدرك مطلقًا أن صديقه قد انتابته الشكوك .. فبادر على الفور بإبلاغ المخابرات المصرية ووضع العميل تحت المراقبة الشديدة .

وبعد نصر أكتوبر ١٩٧٣ صدم الخائن لهزيمة إسرائيل . وفي روما عنفه ضابط الموساد واتهمه بالإهمال الجسيم الذى أدى لهزيمتهم الساحقة أمام العرب . وأقسم له الخائن أنه لم يقصر ، ولكن الضابط كان ثائرًا ولم يستطع أن يخفى انفعاله وغضبه .

تخوف نبيل من فكرة الاستغناء عن خدماته للموساد .. لذلك عاد إلى مصر في الرابع عشر من نوفمبر ١٩٧٣ حانقًا ، وبداخله تصميم قوى على « تعويض » هزيمة إسرائيل ، وتملكه بالفعل اعتقاد بأنه أهمل في عمله ولم يكن دقيقًا في نقل نوايا المصريين .. وبنشاط مجنون أخذ يبحث عن مصادر لمعلومات وإجابات يحمل أسئلتها . وفي غمرة جنون البحث .. كانت المخابرات المصرية تلاصقه كظله وتريد ضبطه متلبسًا بالتجسس .

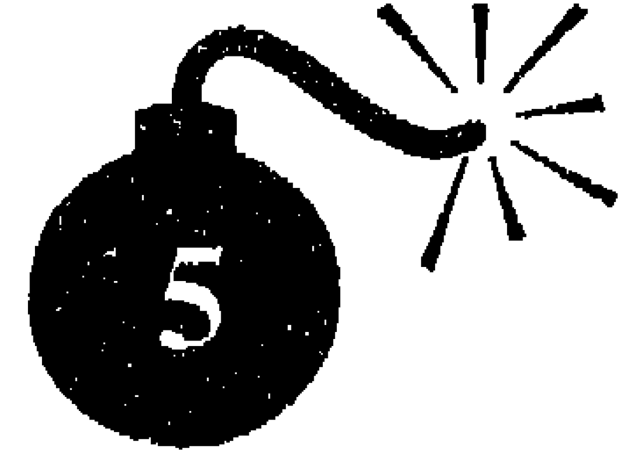
وفي ٢٤ نوفمبر ١٩٧٣ – بعد عشرة أيام من عودته من روما – اقتحمت المخابرات المصرية شقته في القاهرة ، وضبطت أدوات التجسس كاملة ، فلم يستطع الإنكار وانهار باكيًا أمام المحققين .. وأدلى باعترافات تفصيلية ملأت مئات الصفحات ، وهو لا يصدق أنه سقط بعد ١٣ عامًا كاملة في مهنة التجسس التي أجادها واحترفها . وقدم إلى المحكمة العسكرية وظل لآخر لحظة ينتظر المفاجأة .. مفاجأة مبادلته والعودة إلى « وطنه إسرائيل » .

لكن خاب ظنه وقتل أمله .. فالجيش المصرى كان هو الغالب المنتصر في أكتوبر ١٩٧٣ .. والأسرى كانوا هذه المرة جنودًا إسرائيليين ، وليس هناك أمل لمبادلته على الإطلاق .

لقد كانت إسرائيل في محنة ما بعدها محنة . ولا وقت هناك للتفكير في إنقاذ خائن باع وطنه رخيصًا ، بحفنة من الدولارات ، وبآهات غانية تتلوى بين أحضانه ..

وكمثل جواسيس خونة آخرين اكتشف أمرهم .. أنكرت إسرائيل معرفتها به ، وتجاهلته ليموت ذليلاً لا ينفعه بكاء الندم . أو تقيه أموال الموساد من حبل المشنقة ..!!

شاكر فاخورى .. الجاسوس الذى قتلته نزوة ..!!



قليلون جدًا .. أولئك الخونة الذين أسلموا قيادهم .. برغبتهم .. إلى مخابرات دولة معادية من أجل شهوة المال .. والتاريخ الطويل الحافل بالصراع بين المخابرات العربية والمخابرات الإسرائيلة ، يحفظ لنا تفاصيل هذه القصص القليلة جدًا ، التى يطرق أبطالها أبواب السفارات الإسرائيلية فى الخارج ، ويعرضون « خدماتهم » ويكتبون بأيديهم وثيقة خيانتهم للوطن دون رغبة فى الانتقام من نظام ، أو تعويض لخسائر معنوية ، اللهم فقط - الحصول على المال الحرام بأسلوب سهل ، دون أن يحسبوا حسابًا لعيون المخابرات العربية التى ترصد ولا تنام .

وكان شاكر فاخورى ، أحد هؤلاء الخونة الشواذ الذين قتلتهم النزوة .. !!!

أساطير الوهم

.. فى أعقاب نكسة يونيو ١٩٦٧ .. اشتد نزف الجرح العربى .. وخيمت قتامة قاسية وعم إحساس مرير بالمهانة . ولم تستطع وسائل الدعاية والإعلام العربية التغلب على سطوة هذا الشعور لفترةو طويلة .

فإسرائيل لم تكف عن اختراق حاجز الصوت بقاذفاتها كل يوم فى السماء العربية ، دون رادع يوقفها .. وكأنما هى فى رحلة ترفيهية آمنة ، فتسخر بذلك من أجهزة الدفاع ، ومن قوات العرب التى اندحرت لاهثة أمام ضربات اليهود الفجائية . وتؤكد للعالم أن ادعاءات القوة العربية ضرب من الوهم والخيال .

وفى سكرة الصدمة القاتلة .. أصيبت الأمة العربية بصدمة أخرى يومى ٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧ وصفها فى مذكراته الفريق أول محمد فوزى قائلاً :

(الإحساس بالضياع النفسى يملأنى طوال إقامتى بمقر القيادة العامة للقوات المسلحة بمدينة نصر . طوال هذين اليومين كانت مصر بلا قيادة فالقيادة السياسية غير قائمة بإعلان جمال عبد الناصر عن قرار التنحى ، والقيادة العسكرية العليا أيضًا غير موجودة باعتزال المشير عبد الحكيم عامر وشمس بدران فى منزليهما ، بالإضافة إلى قادة أفرع القوات المسلحة الرئيسية الذين قدموا استقالاتهم) .

هذا هو الجو النفسى المحزن الذى خلفته الهزيمة .. التى أجبرت العرب على تنكيس اعلامهم حدادًا على قتل الكرامة والعزة والكبرياء .

وفى خضم هذه المأساة .. كانت إسرائيل على جانب آخر تراقب مراحل سقوط العرب .. وتعلن بغطرسة استحالة قيامهم ثانية .. ولو حدث .. وقاموا .. فقيام مريض أشل يجر أعضاءه زاحفًا .

ومن هنا ... نشطت المخابرات الإسرائيلية وأعدت العدة جيدًا لمراقبة الجسد العربى الصريع ومحاولات النهوض من جديد .

لذا .. فقد بثت العيون والجواسيس والأجهزة .. ترصد وتحلل وتحسب .. وتتوقع ما ستنبىء عنه الخطوة القادمة . وكان رأى خبراء المخابرات الإسرائيلية الذى لم يحيدوا عنه .. أن هذه الضربة التى أفقدت العرب قوتهم وتوازنهم .. بل وصوابهم .. لابد لها من رد فعل حتمى سيتأكد حدوثه فى لحظة ما .

وهكذا لم يجلس رجال الموساد فى انتظار الضربة المفاجئة .. بل عملوا على كشف تحركات واستعدادات العرب العسكرية والدبلوماسية للتكهن بنواياهم التى يضمرونها . وكان لابد من تلافى الضربة القادمة .. بالعمل على عدة محاور استراتيجية .. أهمها الإسراع بالبرنامج النووى الإسرائيلى لإرهاب العرب .. وإخضاعهم بالتخويف .. وإحباط عزيمتهم بالدعاية التى تصورهم كأنهم الأساطير . وكذلك بالعمل على تزويد الجيش اليهودى بأحدث مبتكرات تكنولوجيا السلاح العالمية .. لإظهار التفوق الكبير على جيوش عربية لا تستوعب السلاح الحديث . وأيضًا .. تنشيط الأقسام المختلفة فى جهاز الاستخبارات الإسرائيلى بما يضمن الحصول على أدق الأسرار – العسكرية والاقتصادية والصناعية – من خلال شبكات متعددة من العملاء والجواسيس المهرة .. الذين زرعوا فى غالبية المدن العربية ، ينقلون لتل أبيب كل مشاهداتهم وتقاريرهم .

لذا .. فلا عجب إن لاحظنا كثرة أعداد الخونة الذين سقطوا فى مصيدة الجاسوسية الإسرائيلية بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .. فى ذات الوقت الذى نشطت فيه المخابرات العربية للكشف عن هؤلاء الخونة الذين توالى سقوطهم وشنقهم . وكان من أبرزهم – شاكر فاخورى – الذى سعى بنفسه للدخول إلى وكر الجواسيس طمعًا فى المال .. !

كلهم جون .. وروبرت

نشأ شاكر فاخورى نشأة أولاد الأثرياء . فهو لم يعرف يومًا طعم الفقر .. ولم يذق مرارته .. وبرغم ذلك ظهرت بوادر الفشل فى حياته أثناء دراسته الابتدائية فكان تعثره الدراسى يرهق بال أهله ويحيرهم .

وفى المرحلة الإعدادية وصم فى محيطه بالفاشل .. وأحاطته حكايات تداولتها الألسنة عن سرقاته المتعددة لأموال والده .. وتخوف الأقارب من يده الطويلة حين زيارته لهم .

وبعدما ضج أهله وصرخوا من تصرفاته الطائشة الغبية .. ألحقوه بمعهد مهنى فى روض الفرج .. فخرج منه كأنه لم يدخله .. واستدعى لتأدية الخدمة العسكرية فتهللت أسارير أسرته التى نكبت به .. ولحق بها الأذى من سلوكه المعوج .

وما إن أمضى مدة تجنيده فى الدفاع الجوى .. حتى وجد نفسه بلا عمل .. ونظرات الحيرة والقلق تنهش جلده ممن يحيطون به . فحمل حقيبته المليئة بالفشل وسافر إلى الكويت .. وعمل بإحدى الشركات الأجنبية فى جزيرة فيلكه الواقعة بمدخل خليج الكويت .

كانت إقامته فى كرافان معدنى صغير مع فنى أمريكى فرصة له .. ليتقرب من خلاله إلى إدارة الشركة الأجنبية .. التى رأت عدة مرات الاستغناء عنه لافتقاره إلى الخبرة الفنية .. وكان رفيق مسكنه - جون باليدر - مكلفًا بتدريبه على أعمال اللحام (ضغط عالى) لذلك .. كاد شاكر أن يقبل قدمى جون .. عندما أخطأ خطأ فنيًا من شأنه إحداث أضرار جسيمة بأحد الأجهزة الدقيقة . لكن جون تدارك الخطأ سريعًا ثم صفعه على وجهه وبصق عليه .. فانفجر الرعب فى وجه شاكر خوفًا من تقرير جون .. الذى بسببه سيطرد فورًا من الشركة ويعود إلى مصر بفشله .

وحاول جاهدًا استمالة جون والاعتذار له . لكن جون ظل لأكثر من ساعتين يكتب تقريره المفصل .. وبعدما فشلت محاولات شاكر .. بكى فى ضعف فقام جون إليه وقال له :

- أستطيع أن أمزق تقريرى عنك ولكن فى حالة واحدة فقط .

فى ضراعة نظر شاكر إليه قائلاً :

- لن أنس لك ذلك أبدًا مستر جون .. ماذا تريد منى ؟

اتجه جون إلى مفتاح الإضاءة وأطفأ أنوار الكرافان .. وسمع شاكر حفيف ثياب تخلع وأنفاس تتلاحق .. فارتعش وانكمش فى مكانه وقد ولت جرأته .

التصق به جون وقال له فى صراحة :

- لكى تستمر فى العمل لابد وأن تستجيب لى . لقد ألحقت تحت إمرتى بعد فشلك فى عدة أقسام أخرى . وعدم رضائى عنك معناه الطرد . هيا .. هيا قرر الآن وفورًا .. !!!

وعندما لم يلق جون ردًا .. امتدت يده تتحسس شاكر الذى تفصد منه العرق .. وارتعدت « مفاصله » وألجمه الخجل والخوف .

لم يطل الموقف المخزى كثيرًا .. إذ قام شاكر « بالمطلوب » واستراح إليه جون .. وكتب فيه القتارير الكاذبة التى حسنت من وضعه أمام إدارة الشركة .. وجعلته يشعر بالأمن فى جزيرة فيلكة إلى حين .

لقد اشترى برجولته سكوت جون عن أخطائه فى العمل ولم يكن ليتخيل أن يقوده الخوف من الطرد إلى هذا الفعل الشائن .. وحاول أن ينسى ما حدث معتقدًا أن جون سيتركه لحاله .. ولكن خاب اعتقاده وتكرر الأمر فى اليوم التالى أيضًا .. وازدادت مطالب الشاذ الأمريكى يومًا بعد يوم .. بل وحدثت كارثة جديدة وضعت شاكر فى مفترق طرق وخيار صعب يكاد يقضى عليه .

جاءه جون بمهندس قبرصى يدعى « روبرت هوب » يشغل وظيفة كبيرة فى الشركة .. وطلب منه أن « يتعامل » معه بحرية .. ووجد شاكر نفسه مطالب بتلبية شذوذهما دون اعتراض .. بل أسفرت علاقته بالمهندس روبرت عن إحساسه بمهانة ما بعدها مهانة . إذ فوجىء به يريد « مبادلة المواقع » فتأفف شاكر ثائرًا ورفض أن يقوم بدور الأنثى حتى ولو خسر عمره . فزجره روبرت وتهدده بالرفت من الشركة التى رفعت من راتبه كثيرًا بتوصيات دائمة منه ومن جون . ولم تمر عدة أيام حتى استدعاه مدير شئون العاملين وأخبره بنبأ الاستغناء عنه ، وواجه شاكر المفاجأة بخوار واهن وحاول أن يشرح للمسئولين بالشركة حقيقة الأمر .. لكن صمتهم أخافه .. وكانت اللامبالاة إجابة للتساؤلات التى بعقله .. فكل الأمريكان بالشركة كانوا جون .. وروبرت . وبعد خمسة أشهر من العمل فى الجزيرة حمل حقائبه ولكن إلى بيروت لا إلى القاهرة .

بنات لبنان

كانت بيروت فى تلك الفترة تموج بالفن وبالانفتاح وبالحياة . إنها تختلف كلية عن سائر العواصم العربية بما فيها عواصم دول المغرب العربى المتحررة . فهى أكثر تحررًا وتحضرًا . وصفعه إعلان غريب جدًا فى إحدى المجلات البيروتية لكازينو مشهور .. يعلن عن وجود « كبائن » خاصة للزبائن .. لقضاء أوقات « الراحة » بعيدًا عن عيون المتطفلين . فترك حقائبه بحجرته بنسيون « دعلون » بشارع بعلبك .. واستقل أول سيارة صادفته إلى الكازينو .

هناك وجد ضالته . فتيات شبه عاريات يتبخترن فى دلال قدودهن ممشوقة وضحكاتهن كأنها أغنيات تصدح فى ليل لبنان .

اقتربت منه إحداهن فأغرقته بعطرها وجمالها فى بحور من الأحلام والسحر .. وأغدقت عليه بدلالها فيضًا من الرغبات تفاعلت بأعماقه .. وقد تشوقت رجولته لطعم أنثى .. وجسد أنثى .. وصوت أنثى ناعم كالنسيم .. بعدما مقت رائحة البترول وجسدى جون وروبرت .. وكره تأوهات الذكر . وبعد تعارف سريع سحبته إلى إحدى الكبائن التى تعمل بنظام « التايمر » .

غرق شاكر بين أحضان الحسان فى بيروت مستهلكًا مدخراته التى وفرها فى الكويت .. فالضياع الذى توج حياته كان مدعاة لأن يحس بالخواء وينزلق إلى حالك فى اندفاع غير محسوب .. وثمالة تغشاه بلا روية .. وتصادف أن تعرف على فتاة اسمها « أوفيليا » قالت له أنها يوغسلافية وإن كانت أمها من حلب .

كانت أوفيليا ذات جمال يسبى العقول .. وأنوثة طاغية تربك عمليات الفكر .. وتسرى بجسدها البض دماء حارة تزيد من لسعات الرغبة . صادقته الفتاة ودارت به نهارًا بين جبال لبنان .. وليلاً بمواخيرها حتى نفدت نقوده . فتركته إلى قبرص حيث تعمل فى « لارنكا » بإحدى شركات التجارة الدولية . ومن هناك اتصلت تليفونيًا به .. وأطلعته على صعوبة عثوره على عمل فى قبرص وهو لازال ببيروت .. فسافر إليها وأخذت تطوف معه أنحاء المدينة بحثًا عن عمل له وباءت محاولاتهما بالفشل . فقالت له مازحه : « ليس لك إلا اللجوء لسفارة إسرائيل فى نيقوسيا » .

اندهش شاكر لعبارتها وفوجىء بها تخبره بأن سفارة إسرائيل بالفعل ستحل مشكلته .. كما حدث مع آخرين أغلقت فى وجوههم أبواب الرزق فى قبرص . فرتبت لهم أعمالاً مختلفة تتفق وميولهم ، تأكيدًا لنوايا إسرائيل الحسنة تجاه العرب . وعندما قال لها فى استغراب :

هل يعد هذا السلوك خيانة لمصر ؟

ضحكت عميلة الموساد وقالت فى دلال :

أيها المغفل .. أنت خدمت فى القوات الجوية فى مصر . ولو أنك ذكرت ذلك للعاملين فى سفارة إسرائيل فسيحملونك على أعناقهم .. لأنهم يريدون أصدقاء لهم فى مصر على دراية بأوضاع الجيش . ولكنك لا تصلح لأن تكون جاسوسًا أيها « الأبله » .

وضحك شاكر وقال لها :

ولماذا لا أكون جاسوسًا ؟ إنني فشلت في كل حياتي ولم افلح في أى عمل قط .

وفي بنسيون « جونايكا » تمدد شاكر على ظهره .. وسلط عينيه إلى نقطة وهمية بسقف الغرفة وقال لنفسه :

« نعم .. أنا إنسان فاشل .. منذ صغرى وتطاردني الخيبة تلو الخيبة . حظى العاثر أوقعنى في شرك الشواذ الأمريكيين في الكويت .. وطردت من العمل لأننى رفضت أن أمثل دور المرأة مع روبرت القذر . كنت أرحب بكوني « الرجل » والآن .. الآن ياليني وافقت على أن ألعب « الدورين » معًا طالما وافقت على الاشتراك في تلك المهزلة .. وها أنا أعيش على « إعانة » من أوفيليا بعدما أبيعها رجولتي كل ليلة .. إعانة ؟ ياليتها تكفى مصروفي هنا .. إنها تمنحني بمقدار ما أنفقه لأعيش بالكاد . حتى رجولتي شح نبعها وجف معينها أمام هذا النزف المستمر » .

وقفز شاكر من فراشه يضمر أمرًا .. وسحب حقيبته من الدولاب وأفرغ بها ملابسه .. وغادر لارنكا إلى الشمال حيث نيقوسيا العاصمة .

من فوره قصد مبنى السفارة الإسرائيلية .. وعلى الباب الرئيسى تقدم إلى موظف الاستعلامات وسأله عن ضابط المخابرات في السفارة . دهش الموظف وطلب منه إبراز جواز سفره ليتأكد من جنسيته . ورفع سماعة التليفون ولم تمض عدة دقائق إلا وكان بمكتب الضابط المسئول الذى سأله عما يريد بالضبط . فقال له شاكر أنه مر في حياته بظروف صعبة .. وعاني كثيرًا من جراء حظه السيء الذى صادفه في مصر والكويت .. وأنه الآن لا يملك ثمن تذكرة العودة إلى مصر ويريد أن « يبيع » لإسرائيل معلومات عسكرية هامة قد تحتاجها . وفي ذات الوقت إنه على استعداد للعمل معهم في المستقبل لإمدادهم بما يحتاجونه من معلومات عن مصر .. بالمقابل . بل وحدد شاكر نوعية المعلومات التى يستطيع إمدادهم بها بالتفصيل .. وهى معلومات تتعلق بالقوات الجوية التى خدم بين صفوفها لمدة طويلة .

أصيب الضابط بالدهشة وتركه يكتب بخط يده كل ما عنده من بيانات ومعلومات واستغرق شاكر في الكتابة ستة ساعات استطاع أن يكتب خلالها اثنتى عشرة صفحة فولسكاب تضمنت كل ما لديه . فطلب منه الضابط أن ينتظر بفندق واطسون حتى يستدعيه .

احتضان خائن

لازم شاكر حجرته بالفندق لمدة خمسة أيام .. اشتعلت بداخله أثناءها كل أنواع الظنون. وكان لبقائه بمفرده طوال هذه الأيام الخمسة سبب لا يعلمه بالطبع .. فالمخابرات الإسرائيلية لكى تدعم مدى صدق العميل الجديد .. تبحث فى حياة العميل وشخصيته وتاريخ حياته .. ويترك العميل لفترة ما يقطع فيها الاتصال به .. وتتم فى هذه الفترة أعمال التحريات والمراقبة والتحليل للتأكد من صدق النوايا .. وعندما استدعوه غمرته سعادة كبيرة .. وأسرع إلى السفارة الإسرائيلية فاستقبله ضابط آخر اسمه « هيدار » وهو الضابط المسئول عن التجسس فى « الجمهورية العربية المتحدة » .

استعرض معه هيدار تفاصيل ما جاء بتقريره . ولعدة ساعات أخرى خضع شاكر لامتحان صعب من الضابط الإسرائيلى الذى تعامل معه بلطف شديد وقال له « مرحبًا بك فى سفارة بلد صديق » وعليك أن تعلم جيدًا أن الفن العسكرى والسياسى .. يستقى قوته من المعلومات التى يوفرها جهاز المخابرات الفعال فى شتى الميادين فى زمن الحرب أو السلم .

فالمعلومات المستقاة من قبل دوائر المخابرات هى أهم ما يعتمد عليه واضعو السياسة .. والقادة العسكريون فى كل دولة . تلك الخطط التى تكفل وتؤمن المفاجأة وإرباك العدو فى المجالين العسكرى والسياسى . .

ومن أهم نجاحات رجال المخابرات .. ورود المعلومات فى الوقت المناسب .. وبالقدر الكافى قبل بداية الالتحام . وقياسا عليه .. فإسرائيل لا يمكن لها أن تخطط لأى عملية دفاعية مع العرب .. إلا إذا تجمعت لديها كل المعلومات المطلوبة عن الدول العربية عامة .. والدول المجاورة لها خاصة .

وأضاف « هيدار » بأن القسم الخاص بالدول العربية فى المخابرات الإسرائيلية .. قد انتهج مناهج عديدة .. وطبق وسائل مختلفة لتحقيق انتصار دائم على العرب . وما حدث فى يونيو ١٩٦٧ هو نتاج المعلومات الغزيرة .. التى تجمعت وتسربت من البلاد العربية عن طريق عملاء إسرائيل المخلصين .

وأشاد هيدار بدور هؤلاء العملاء موضحًا لشاكر صراحة أن إسرائيل دولة مزروعة فى قلب الوطن العربى .. نتيجة لإرث قديم فى أراضى فلسطين .. وأن المخابرات الإسرائيلية

لا تترك عملاءها نهبًا للمخاوف وللمخاطر .. بل تضحي بالكثير من أجلهم وتعمل جاهدة على استردادهم بشتى السبل .. ولا تبخل عليهم بشيء طالما هم مخلصون لإسرائيل محبون لها .

وأكد ضابط المخابرات المحنك .. أن الكثيرون يعتقدون بطريق الخطأ أن إسرائيل إنما تهدف فقط إلى الحصول على معلومات عسكرية لها اتصال مباشر بالعمليات القتالية . ولكن المعركة العسكرية تعتمد على نواح كثيرة جدًا لا تقل أهمية عن القوات . بل لها الأثر الفعال على كفاءتها مثل قدرة الدولة على الصناعة .. وتوافر الطاقة الإنتاجية . والحالة الاقتصادية العامة للدولة . والحالة التموينية والاحتياطي العام والمخزون السلعي .. ومدى تماسك الجبهة الداخلية وصمودها .. وقدرة الدولة ومدى استعدادها لظروف الحرب .

كانت الظروف النفسية السيئة مضافًا إليها الحاجة الماسة إلى المال سببًا مهمًا في جلوس شاكر فاخوري أمام ضابط المخابرات الإسرائيلي .. فقد جلس أمامه لأوقات طويلة وعلى مدار أيام عدة كتلميذ ينتبه لإرشادات أستاذه .. وبرأسه تدور عشرات الأسئلة حول معاناته .. والمشكلات التي يمر بها ..

ووسوس له الشيطان أن إسرائيل تعرف كل شيء عن مصر .. وأن المعلومات التي قدمها لن تقدم أو تؤخر .. إنها مجرد معلومات عامة هامشية لا تحمل ضررًا ما لأمن وطنه .. أو تدينه أمام الجهات الأمنية إذا ما انكشف أمره .

وظلت تلك الأوهام تسيطر عليه حتى استحالت إلى حقيقة .. يؤكدها ما كان يلقيه عليه هيدار بثقة .. واطمئنان .

لقد كانت جل أمانيه أن يخرج من بوتقة الفقر .. ويعيش بمصر آمنًا معيشيًا لا يسأل أحد أو يمر بضائقة مالية ترهق باله .

وأمام رغبته الملحة في الإثراء السريع المريح .. ونقص الدافع الوطني .. إضافة إلى الإغراءات الخيالية التي صبت في أذنيه صبًا .. وتملكت منه .. وافق على أن يكون صديقًا للعدو .. أمينًا في إمداده بكل ما يطلب منه من معلومات أو مهام . هكذا دخل شاكر برجليه

وكر الجاسوسية راضيًا قانعًا .. غير عابئ بالعواقب أو نهاية الطريق المظلم الحالك .. ووجدها رجال الموساد فرصة لا تعوض جاءتهم بلا تعب .. فاستغلوها وأجادوا تلقينه فنون اللعبة الخطرة .. وكانوا قانعين بأن من رضى باللعب من الثعابين فحتمًا - سيلدغ شر لدغة .

استوعب العميل الجديد مهامه التجسسية جيدًا .. وامتلأت جيوبه الخاوية بأموال الموساد القذرة . وحمل حقائبه إلى القاهرة لمدة شهر .. وعاد ثانية إلى قبرص وأبلغ الضابط المسئول بالسفارة الإسرائيلية بنتائج رحلته السريعة .

إخلاص جاسوس

كتب شاكر فى تقريره أنه لم يضيع وقتًا فى القاهرة . بل شرع فى الحال فى ممارسة عمله بصدق .. وكون صداقات عديدة مع رجال ونساء من فئات مختلفة من رواد الملاهى والبارات . وأهم صداقاته كانت مع ضابط مصرى يدعى (م . ش . أ) تعرف عليه بأحد الفنادق . وأغدق عليه بكثير من الهدايا دون سؤاله عن أى شيء حتى لا يثير مخاوفه .

وكان التقرير الذى سلمه شاكر لضابط الموساد متخمًا بالمعلومات التى أذهلت الضابط .. فأرسله بدوره إلى تل أبيب .. وجاءت الأوامر العاجلة بضرورة سفر شاكر لإسرائيل .

وتأكيدًا لإخلاصه للموساد وافق شاكر بدون مناقشة ، وتسلم جواز سفر إسرائيلى باسم (موشى إبراهام) .. وطار بطائرة العال الإسرائيلية إلى مطار (اللد) .. ليجد الضابط هيدار بانتظاره .. وكانت إقامته بتل أبيب فى إحدى الشقق المعدة لأمثاله من الخونة .. وهى فى العادة مجهزة بأحدث ميكروفونات التنصت والكاميرات الدقيقة .

وكعادة المخابرات الإسرائيلة لكى يضمنوا السيطرة على الجواسيس .. صوروه عاريًا مع مديرة المنزل .. وهى فتاة فى الثانية والعشرين خمرية اللون قالت له إن جذورها عربية . وأقامت معه الفتاة إقامة كاملة لخدمته ولراحته .

وفى مبنى المخابرات الإسرائيلية . اجتمع به عدة ضباط وخبراء ناقشوا معه التقرير المفصل الذى سلمه فى قبرص ، وكان بينهم الضابط هيدار .. وضابط آخر اسمه أبو يوسف .. وآخر مسئول عن التجسس فى لبنان . وبعد مناقشات طويلة ، قال له كبير الخبراء :

– « لقد سعيت إلينا بنفسك في قبرص . والآن .. نريد أن نتأكد من إخلاصك للموساد .. وأنك لست ضابط مخابرات مصرى مدسوس علينا . وهذا ليس ببعيد على المخابرات المصرية التى زرعت خبراء لها في جهازنا مرات عديدة » .

صرخ شاكر محتجًا ، وأكد لهم أنه لا يعرف أين يقع مبنى المخابرات المصرية . وأنه بالفعل ذهب بنفسه إلى سفارتهم في قبرص .. رغبة منه في إثبات أهميته ووجوده بعدما أحاطه الفشل من كل جانب .. وأيضًا ليحصل على أموال كثيرة تعينه على مجابهة أهله ومعارفه في مصر . قال هيدار :

– « أنت هنا في تل أبيب لتثبت لنا ذلك ، ولكي نعمل معًا بأمان .. فسنفحصك بواسطة « جهاز كشف الكذب » .

ولم يحتج شاكر هذه المرة .. بل أبدى رغبة جادة في تأكيد « إخلاصه » لهم بكل الطرق التى يرونها .

وأخضع بالفعل للفحص بواسطة الجهاز الأمريكي .. الذى أكد صدق خيانته لوطنه وانتمائه للموساد قلبًا وعقلاً .

عند ذلك .. ابتدأ تدريبه على أيدى أمهر ضباط المخابرات .. الذين صنعوا منه جاسوسًا خبيرًا بفنون التصوير ، وتشفير الرسائل ، والكتابة بالحبر السرى ، ومسح الأراضى « الطبوغرافيا » وكيفية التعرف على الأسلحة الحربية برية وبحرية وجوية ، وتحديد قدرة تسلحها وطاقتها ومداها المجدى ، وأعطى عنوانًا في روما ليبعث برسائله المشفرة .

ومن المعروف أن المخابرات الإسرائيلية تخصص لكل جاسوس يعمل لحسابها شفرة خاصة به .. باستخدام « رواية » عربية معروفة أو أجنبية متداولة .. تكون أساسًا للإشارات الرمزية المتبادلة بينه وبين المخابرات الإسرائيلية .. ويجرى تبديل هذه الرموز بين آن وآخر .

أيضًا تحدد المخابرات الإسرائيلية نوعية الحبر السرى لكل جاسوس ، فلكل حبر سرى ميزات خاصة تؤكد أن مسطر الرسالة هو العميل لنفسه المسلم إليه الحبر .

خريج الموساد فى القاهرة

بعدما حصل شاكر فاخورى على دورات فن التجسس .. عاد ثانية إلى نيقوسيا ثم إلى القاهرة .. وبدأ فى الحال فى جمع معلومات وافية عن الجيش المصرى والقوات الجوية بالذات .. وكذلك عن النشاط السوفييتى فى مصر والخبراء العسكريين السوفييت ، والأحوال عامة بعد غارات إسرائيل المستمرة على ضواحى القاهرة ، وكان يستقى معلوماته من أفواه العامة من الناس .. على المقاهى وفى المواصلات العامة والنوادى الليلية فى شارع الهرم .. حيث ترتادها كافة المستويات .

أما المعلومات العسكرية وأخبار الاستعدادات الحربية . ونشاط الخبراء السوفييت فكان يحصل عليها من العسكريين الذين يمتون إليه بصلة القرابة أو الجيرة . وأيضًا من خلال الضابط (م . ش . أ) الذى حمل إليه بعض الهدايا من قبرص على سبيل الذكرى .

لقد ركز شاكر كثيرًا على هذا الضابط الذى استجاب له بسرعة .. وتبسط معه فى الحديث وسرد الأخبار مما استتبع ملازمته لفترة طويلة طوال وجوده بالقاهرة ، وعمل على منحه الدعوات المجانية للحفلات .. وبعض الهدايا الذهبية الثمينة فى المناسبات المختلفة ، والتى لا تتناسب وحجم علاقتهما .

كل ذلك أدى إلى تخوف الضابط المصرى من سلوك الشاب ، فبادر على الفور بإبلاغ جهاز المخابرات بشكوكه .. ونقل إلى المسئولين بالجهاز كل ما دار بينه وبين الشاب من أحاديث وما تسلمه منه من هدايا مختلفة .

ثم عمل الترتيبات الأمنية اللازمة .. وكان هناك حرص زائد على ضبطه ومعه أدلة إدانته .. وطلبوا من الضابط منه أن يتظاهر بصداقته ، وألا يجعله يشك فى نواياه .. وأن يطلعهم أولاً بأول على مجريات الأمور .

وبعدما اعتقد شاكر أنه اشترى الضابط المصرى بهداياه .. انتهز فرصة مروره بضائقة مالية « مفتعلة » ، وعرض عليه إمداده ببعض المال .

وحسب الخطة وافق على طلب شاكر بجلب بعض الوثائق العسكرية .. بحجة الاطلاع على استعدادات الجيش للحرب ، ولبس الخائن ثياب الوطنى المخلص الذى يحلم بيوم الثأر من إسرائيل ، وبأن رؤية هذه الوثائق وشروحه عليها تسعده كثيرًا .. وتشعره بمدى قوة الجيش

المصرى ، خاصة والطيران الإسرائيلي . قد بدأ يتساقط كالعصافير بعد اكتمال حائط الصواريخ ، ولم تعد لديه الشجاعة على اختراق المجال الجوى المصرى . وأمده الضابط بمعرفة جهاز المخابرات ببعض الوثائق ، ولما تضخمت لدى شاكر الوثائق المعدة سلفًا حملها سريعًا إلى نيقوسيا ، وامتلأت جيوبه عن آخرها بأموال الموساد ، فعاد بها إلى القاهرة يحمل رغبة الموساد فى تجنيد الضابط المصرى ، وكل مهمته منحصرة فى إقناعه بالسفر إلى قبرص لعلاج ابنته . وهناك .. سيتولى رجال الموساد اصطياده بالسيطرة عليه بتصويره عاريًا مع عميلة إسرائيلية ، ويمنحه آلاف الجنيهات .

عندما عرض شاكر على الضابط فكرة السفر إلى قبرص .. تظاهر بالموافقة ، وأخذ يماطله وفقًا لطلب المخابرات متحججًا بدراسة الطلب فى قيادة الجيش ، حيث كانت طلبات السفر خارج مصر تخضع لظروف عدة بالنسبة للضباط .

ولما طالت مدة الانتظار ، أراد شاكر أن يذهب بالضابط إلى قبرص مجندًا .. وترتفع بذلك مكانته فى جهاز الموساد .. وبالتالى يتعاظم رصيده المالى .. فمنح الضابط مبلغًا كبيرًا لقاء بعض الخرائط العسكرية ، موضحًا عليها مواقع صواريخ « سام ٦ » ، وكذلك المواقع التبادلية ، وخرائط أخرى تبين محطات الرادار الهيكلية والصواريخ ، وأيضًا خطط السوفييت لحماية المواقع الحيوية ، وخطط اصطياد الطيران الإسرائيلى المتسلل إلى العمق المصرى .

بل إن الخائن الذى اعتقد بالفعل أنه اشترى الضابط .. طلب منه تصوير مواقع عسكرية، وإمداده بوثائق عن الخطط الدفاعية والهجومية العسكرية والأسلحة الحديثة ، واستأجر الجاسوس الخائن شقة جديدة من أموال الموساد ، خصصها للقاءاته مع الضابط و « تخزين » المستندات والخرائط بها .

وبعد عدة سفرات إلى قبرص بالمعلومات التى سربتها المخابرات المصرية إليه لينقلها إلى الموساد .. يعود شاكر بالأموال الطائلة ، ينفق منها على ملذاته ، ويشترى الهدايا للضابط ولأسرته .

وذات مساء عاد مخمورًا من سهرة فسق ، وعندما امتدت يده بالمفتاح إلى كالون الشقة ، فوجىء بالباب ينفتح فجأة .. ويقف بالداخل عدة أشخاص كانوا بانتظاره ويترقبون مجيئه ..

جذبه أحدهم إلى الداخل ، وعلى المكتب رأى الأوراق التى جمعها .. خرائط .. ووثائق .. وتقارير كتبها بخط يده ، وصور لبعض المواقع العسكرية ، وعدة أفلام خام لم يجر تحميضها ..

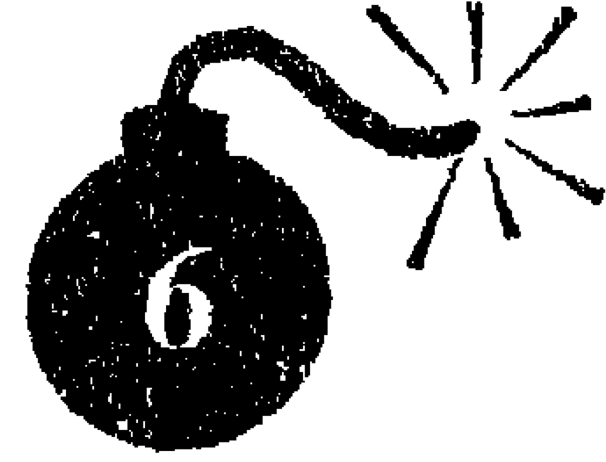
وبينما كانت الأيدى تمسك به ، ويتجه الركب إلى حيث ينتظره مصيره الذى خطه بنفسه .. أحس باندفاع بوله الدافىء بين ساقيه .. وقال لمرافقيه :

إلى أين ستأخذوننى ؟

فقال أحدهم :

لتدفع ثمن خيانتك .. هذه الأرض التى تبولت عليها الآن رعبًا .. منحتك الأمن والأمان فبعتها .. بعتها لأقذر كلاب الأرض نجاسة وخسة .. فتعال إلى مصيرك المحتوم حيث لن ينقذك أحد من حبل المشنقة .. !

جمال حسنين .. الجاسوس الذى مات مرتين ..!!



ليس ضروريًا أن يكون الجاسوس ملمًا بالنواحى العسكرية ، أو يملك خبرة فنية فى تخصص ما ، أو ذو علم غزير يستفيد من ورائه العدو .

فالجاسوسية الحديثة لا تشترط وجود أىٍّ من هذه الصفات لدى الجاسوس . كل ما فى الأمر ، أن يكون منزوع الانتماء .. فقيد الضمير . يسعى بين أهله ومواطنيه كالحية الرقطاء تتربص بالفريسة .

لكن .. ماذا بعد السقوط وقضاء ربع قرن بين جدران السجون ؟ هل تغيرت الحية وتبدلت ؟ لا أحد يعرف .. ولم يكتب أبدًا أى صحفى فى مصر عن حياة جاسوس خارج السجن .. لا أحد يعرف !!

السلاح الرابع

منذ ثلاث سنوات تقريبًا .. أفرج عن الجاسوس جمال حسنين بعد أن أمضى ٢٥ عامًا خلف جدران سجن المزرعة فى أبو زعبل . حيث لا يزال بين جدرانه عدد من الخونة الذين جندتهم المخابرات الإسرائيلية للتجسس على مصر .

لا ندرى كيف يمضى هؤلاء الخونة مدة عقوبتهم طوال هذه السنوات .. كما لا ندرى هل لسعتهم أوجاع الندم .. أم أنهم فقدوا الإحساس بعظم جرمهم فى حق الوطن ؟ وهل كلهم هكذا ، أم أن هناك بعضهم أفاقوا إلى رشدهم بعد فوات الأوان ؟

ولكن .. كيف سيواجهون الحياة فى المجتمع بعد ربع قرن فى الزنزانة ؟ وكيف يستقبلهم المجتمع والأسرة بعد الإفراج عنهم ؟

لا أحد يستطيع التكهن بما فى نفوس هؤلاء الخونة ، ولم يسبق لصحفى أن أجرى حوار مع جاسوس قضى مدة عقوبته ليصف لنا حاله بالضبط .

وعلى كل حال .. بقدر ما يهمنا البحث عن سلوك خائن منح حريته يهمنا أيضًا البحث فى الأسباب التى أدت إلى سقوطه فى شباك الجاسوسية ودراستها .

فلكل جاسوس خائن ظروف اجتماعية ونفسية مختلفة قادته إلى مستنقع الخيانة ، ولكل جاسوس وسيلة اتبعتها الموساد معه .. ونقطة ضعف أسقطته حتى أذنيه .. ليصير جاسوسًا .. لا يدخر وسعًا فى إطلاع العدو على أسرار بلده . وتنفيذ أوامره فى التخريب والتدمير وبث الإشاعات المغرضة .

ولازالت الدراسات الجادة تبحث فى الصراعات والمعارك .. التى تشتعل فى نفوس هؤلاء الخونة .. وارتطامهم بالمشاكل التى تدمر فيهم خلايا الوعى وإدراك النتائج .. فيسقطون صيدًا سهلاً فى يد الأعداء .. ويكونون له عيونًا تنقل إليه ما لا يراه أو يفهمه .

إنها الخيانة .. داء قذر قد يصيب بعض الذين يطمعون فى مال .. أو جسد أنثى .. أو منصب فقده فى وطنه .

بل يصاب بالخيانة بعض أناس لا يلتفتون إلى تلك الأشياء مطلقًا .. كأن يسيطر عليهم هاجس غريب .. يصور لهم الأعداء بصورة مغايرة تدعو إلى الشفقة أو المؤازرة .

لكن هناك حقيقة لا يجب أن تفوتنا وهي أن الجاسوسية – برغم ما ينشر عنها من دراسات كل يوم – إنما هي « أمر » سرى يغلفه الصمت ويحيطه الكتمان . وما يكتنفها من غموض هو محاولة لإخفاء وجه الجاسوسية ونشاط العاملين فيها .

ولأن الجاسوسية هي « السلاح الرابع » كما يطلقون عليها – بعد سلاح الطيران والبحرية والقوات الجوية – فهي أولاً وأخيرًا تعتمد على عقول ماهرة تبني الحقائق .. وتحلل المعلومات وتستخلص النتائج وتضع الخطط ، وتصنع ما لا يتخيله عقل أو منطق من خداع وحرب خفية أسلحتها الذكاء ، والشيفرة ، والرموز ، وأجهزة الإرسال اللاسلكي ، وآلات التصوير .. هذا إلى جانب العامل البشرى .. واللجوء لشتى السبل من إغراء أو تهديد أو إرهاب و خلافه لتجنيد الجواسيس .

لذلك .. أصبحت الجاسوسية هي الأداة الأساسية في تحديد السياسات الدبلوماسية للدولة الحديثة . وكذلك هي « المستشار الخفى » لرؤساء الجمهوريات والحكومات عند اتخاذ القرارات المصيرية .

وبالرغم من اختلاف جاسوس اليوم عن جاسوس الأمس .. وتطوير التكنولوجيا الحديثة والتقاط الصورالجوية بواسطة أقمار وطائرات التجسس ، إلا أن الوسائل « البشرية » لا يمكن إهمالها أو الاستغناء عنها ، وستظل الجاسوسية أبد الدهر تعتمد على العملاء والجواسيس ، مهما قيل عن احتلال الأجهزة والوسائل التكتيكية التي تلاشت أمامها حجب الأسرار وخفاياها .

بل إن فكرة تجنيد الجواسيس بالإغراء أو بالمال أو بالفضيحة والتهديد أصبحت فكرة قديمة وعقيمة . والجديد هو استغلال ثقافة ومعتقدات البعض .. الذين يتفقون في أهدافهم وآرائهم أو نظرتهم إلى الحياة مع مثيلاتها في جهاز المخابرات الذى يجندهم .. إنهم جواسيس الفكر الأيديولوجي ومدعو التحضر والثقافات .

وحتى الآن .. هناك من أمثال هؤلاء الكثيرين .. الذين سعوا بأنفسهم لدى جهاز المخابرات الذى يتوافق مع افكارهم لتجنيدهم .. دون النظر إلى أى مطالب أو حاجات . وأقربهم إلى الذاكرة الآن .. الجاسوسة هبة سليم التى انخرطت فى سلك الجاسوسية دون حاجة إلى مال أو رغبة تود تحقيقها ، بل تجسست لأنها آمنت بأن إسرائيل قوة لا يمكن هزيمتها، وكانت ترفض مرارًا آلاف الدولارات التى هى مقابل للمعلومات « الدسمة » التى أمدتها بها .

ولأنها تصورت أن تجسسها واجب فكان من الطبيعى أن تكون أكثر « إخلاصًا » و « أمانة » فى نقل المعلومات . بل إنها تطوعت وأسلمت جسدها وبكارتها طواعية إلى ضابط الجيش المصرى « فاروق الفقى » من أجل الحصول على معلومات منه . يا الله .. إنه عالم عجيب وغريب ، مليء بالأسرار والغموض . عالم يقبض على قوة الحياة والموت .. !!

رحلة الأمل

ومعارك الجاسوسية بين العرب وإسرائيل مستمرة ولازالت برغم حالة السلم .. ولن تتوقف مطلقًا طالما هناك أرض أغتصبت بالقوة .. وشعب أجبر على هجر أرضه أو يدفن بها حيًا .

ولأن إسرائيل هى الدولة المغتصبة .. صاحبة التاريخ الأسود الطويل المليء بالمذابح والإرهاب .. فهى تخشى يقظة العرب وصحوتهم ذات يوم .

ولذا .. أطلقت جواسيسها داخل الوطن العربى .. يجمعون لها أسرارنا العسكرية وشتى المعلومات التى تتعلق بالنشاط الاقتصادى أو الصناعى . وتنوعت ألوان الجاسوسية الإسرائيلية .. فالجاسوس لم يعد مجرد شخص يتقصى المعلومات ويلتقط صورًا لأماكن حيوية .. بل أصبح مكلفًا ببث الفوضى والإشاعات المغرضة وإثارة القلق فى الشارع العربى .

أما عن الجاسوس جمال حسنين الذى أفرج عنه منذ قليل بعد ٢٥ عامًا وراء القضبان .. فقصته مع التجسس مثيرة ومادة شيقة للتناول . وعظة للشباب الذى يسافر إلى أوربا بحثًا عن عمل بعدما ضاقت به السبل وأغلقت دونه أبواب الأمل .

ولد جمال في ٢٩ أكتوبر ١٩٤١ بالقاهرة لأسرة موظف صغير في وارة الشئون الاجتماعية يعول سبعة أفراد . دخل مرحلة التعليم الابتدائي وشق طريقه في التعليم .. متعثرًا. وتمكن عام ١٩٦٢ من الحصول على دبلوم في المساحة .. وعين فورًا في مصلحة المساحة بالقاهرة .. وكان راتبه الصغير يشعره بأنة قزم تافه .

لذلك سعى للحصول على دبلوم المعهد الأوليمبي بالإسكندرية في محاولة للارتقاء بوضعه الوظيفي ، وأمكن له بالفعل الحصول على دبلوم المعهد عام ١٩٦٨ .. وكانت مصر حينئذ في حالة يرثى لها .. وتسعى للنهوض من عثرة النكسة وتنظيم صفوفها من جديد استعدادًا للثأر من العدو الإسرائيلي .

في ذلك الوقت لم يكن جمال حسنين بعيدًا عن نبض الجماهير .. والإحساس بالمهانة لهزيمة الجيش واحتلال أرض عربية أخرى . وحنق كثيرًا على القيادة العسكرية .. وكثيرًا ما كان يجادل أصحابه ويثور لأنه لم يلتحق بالقوات المسلحة بسبب « الفلات فوت » اللعين . وكظم غيظه وأحلامه وحبس طموحه بداخله إلى أن تحين اللحظة المناسبة للتحرك .

ولكن الوقت يجرى و « سماح » تنضج وتفور أنوثتها ولا يزال كما هو بلا حركة .. وخطابها عرفوا الطريق لبيتها فتملكه الرعب لمجرد أن تخيل خطبتها لآخر . ولما أضناه الأرق وهده الفكر .. صارح والده بحبه للفتاة ورغبته في الزواج منها .. فقال له « عليك أن تدبر حالك » .

أسرع الشاب العاشق إلى أسرة فتاته يطلب يدها .. فاشترطوا عليه ما يعجز عن تحقيقه .. ولكنه في سبيل الفوز بها قرر المغامرة وتملكته فكرة السفر إلى بيروت للعمل .

كانت بيروت وقتئذ قبلة الباحثين عن الرزق الوفير وتتعدد بها مصادر الرزق لكل من سعى . وتقدم جمال حسنين بطلب للحصول على أجازة من عمله بدون راتب « كان راتبه ١٦ جنيهًا » فسمح له بأجازة ستة أشهر . وقبل أن يغادر الإسكندرية إلى بيروت بحرًا .. أخضع لدورة توعية تثقيفية مع غيره من الراغبين في السفر خارج مصر لأول مرة . والمحاضرون بالطبع ضباط في جهازى المخابرات العامة والمخابرات الحربية . وكان هذا النظام معمول به في ذلك الوقت نظرًا لاكتشاف العديد من الجواسيس والذى تبين أن غالبيتهم وقعوا في براثن الموساد بعد إغرائهم بالمال والنساء . وفي قرارة نفسه .. سخر جمال حسنين من ضعاف النفوس الذين سقطوا في شباك التجسس واحتقرهم . وانتبه جيدًا للطرق المختلفة التى يصفها الضابط المحاضر للإيقاع بالشباب المصرى في الخارج .

بداية الطريق

وفى السفينة إلى بيروت تمدد على سطحها يتأمل وجه حبيبته فتخيله ماثلاً أمامه على صفحة المياه الممتدة .. والتى لا نهاية لها . ولم تكن يده تمتد كثيرًا إلى محفظته الجلدية التى تحوى صورتين لسماح الجميلة . فوجهها الرائع النقاء بكل بهائه محفور فى فؤاده وموشم على خلاياه .

كان يمنى نفسه بعمل مربح فى بيروت، أى عمل ، لا يهم . إنها حرب عليه أن يخوضها ليفوز بالحبيبة .

وأيقظه من تخيلاته وأفكاره شاب سورى يعمل فى التجارة ما بين بيروت والإسكندرية . وتناول الحديث بينهما نواح عديدة .. ولما سأله جمال عن إمكانية العمل فى بيروت أفاده بأن لبنان سوق مفتوح للعمل .. وفرص الكسب به متوفرة إذا ما ذهب إلى مقهى فاروق .. وبمجرد أن غادر السفينة تلقفه الزحام وصافحته الوجوه بتجاهل .. وقادته قدماه إلى حى المزرعة جنوبى الميناء .. وفى بنسيون رخيص وضع الرحال وذهب إلى مقهى فاروق أشهر المقاهى هناك .. حيث بالإمكان العثور على صاحب عمل ، فالمقهى يعرفه كل المصريين فى بيروت ويرتادونه ويتواعدون على اللقيا به . لذا فهو يموج بالوجوه المصرية المرهقة التى تغربت من أجل الحصول على المال .

ومرت الأيام وجمال حسنين ينفق من الجنيهات القليلة التى حولها إلى ليرات لبنانية . ولم تظهر فى الأفق بشائر خير أو تبدو بارقة من أمل . حاول كثيرًا ففشل .. وقبل أن تنفد نقوده حمل حقيبته خائبًا وعاد إلى القاهرة .. تعشش الكآبة بأعماقه ويحس بالقهر يطحن أعصابه .

استقبلته سماح فرحة بعودته بعد ثلاثة أشهر من الغربة .. وحاولت إقناعه بالعمل فى إحدى الشركات بعد الظهر لإنجاز المطلوب منه للزواج .. لكنه كان دائم الشكوى وسب الحال وغير قانع بالمقسوم له . وبات يحلم من جديد بالسفر إلى اليونان .. إنها الحلم الكبير الذى سيتحقق .. وفشل رحلة بيروت لن يتكرر .

لقد ثبت لديه أن لا مناص من الخروج من أزمته إلا بالسفر . وعقد العزم على الاستماتة هذه المرة . وعندما رفض الإنصات لمعارضة سماح .. تركته يائسة يفعل ما يريد . ولما تقدم

للعمل بطلب أجازة أخرى .. رفض طلبه .. فقدم استقالته على الفور . وركب سفينة قبرصية إلى ميناء بيريه لا يملك سوى مائتى دولار أمريكى وعدة جمل بالإنجليزية .

ولأن بيريه أشهر موانيء اليونان ففرص العمل بإحدى الشركات البحرية متوفرة . هكذا قيل له فى القاهرة . وأظلمت الدنيا فى وجهه بعد ما تأكد من كذب المقولة . وكلما يمر به يوم بدون عمل .. تضطرب أعصابه ويختنق صدره ويقترب من حافة الجنون .

وفى خضم معاناته يلتقى بشاب مغربى يدعى سمعان ويشكو حاله .. فيطمئنه بأنه سيسعى من أجل توفير عمل له . وظل يعده يومًا بعد يوم إلى أن فرغت جيوبه حتى من كسور الدراخمة . فأقنعه سمعان ببيع جواز سفره والإبلاغ عن فقده فوافق جمال حسنين .. واصطحبه المغربى إلى القنصلية الإسرائيلية فى بيريه .. بحجة وجود صديق له هناك سيشترى منه جواز السفر .. وقد يدبر له عملاً فى أحد الفنادق . وبسذاجة شديدة ذهب معه ليلتقى داخل القنصلية الإسرائيلية بأحد ضباط الموساد الذى يعده بإيجاد عمل له خلال أيام .. وطلب منه أن يجيب على الأسئلة المكتوبة فى استمارة التعارف عن حياته وأسرته وأصدقائه ووظائفهم وعناوينهم ليتمكن من توفير فرصة عمل مناسبة له . وتفاوض معه بخصوص جواز السفر فاشتراه بمائتى دولار .. بعد ذلك اصطحبه سعفان إلى فندق « ايسخيلوس » الشهير وحجز له غرفة رائعة تخوف جمال حسنين من سعرها المرتفع لكن عميل الموساد طمأنه بأنه ضيف على القنصلية الإسرائيلية .. التى لا تدخر وسعًا فى مساعدة الشباب العربى بقصد إبراز الصورة الحقيقية للإسرائيليين التى يعمل الإعلام العربى على تشويهها .

السقوط السهل

وبعدما خلا جمال إلى نفسه تساءل عما يدور حوله ، وتذكر الدورة الإرشادية التى تلقاها فى مصر قبل سفره .. وما قيل له عن أساليب المخابرات الإسرائيلية المختلفة فى استقطاب المصريين بالخارج .. والحيل المموهة الذكية – التى تبدو بريئة – لجرهم إلى التعاون معهم .. بدعوى العمل على مساعدتهم .. وبشعارات زائفة رنانة يعملون على إزالة حاجز الخوف من التعامل معهم .. وما كان قصدهم فى النهاية إلا الإيقاع بضعاف النفوس الذين تواجههم ظروف صعبة فى الخارج .

وقطع تفكيره اتصال من شخص لا يعرفه اسمه « يوسف » أبلغه بأنه مكلف بإيجاد عمل له .

فرح جمال كثيرًا بذلك الضيف البشوش ودار بينهما حديث يغلفه الود عن الحياة والدين والطبيعة وتربية الكلاب .. ثم تطرق يوسف إلى مشكلة الشرق الأوسط ، والسلام الذى يجب أن يسود المنطقة .. وحقوق الجار التى أوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما عرف منه أن له علاقة خطبة بفتاة فى مصر وأطلع على صورتها .. ضحك ضابط الموساد من تواضع ملامحها وقال له :

إنك فى اليونان فلماذا لا تستمتع كما يحلو لك ؟

وأخذه إلى سهرة لم يصادفها من قبل . وعلى الباب الخارجى للنادى الليلى وقفت سيدة عجوز تمسك بعدسة نظارة ذات عين واحدة تستقبل الزوار بحفاوة كبيرة .. وعندما رأت جمال حسنين هتفت فى سعادة قائلة :

« أوه أيها المخلص .. ألا زلت تتذكرنى ؟! » .

وهى تنظر باندهاش إلى الضابط :

« إنه زبون قديم عندى » . ضحك جمال بينما يدلف من الباب الداخلى وهو يقسم بأنه لم ير المرأة من قبل .

وبعد سهرة جميلة عاد جمال إلى حجرته ترافقه فتاة لعوب استطاعت على مدى يومين أن تستنزف دولاراته .. وتركته خاوى الوفاض فى بلاد الغربة . يطوف ضباط المخابرات الإسرائيلية من حوله ويخططون لاصطياده .

وفى قمة محنته ذهب إليه بالفندق شخص آخر اسمه إبراهيم .. وذكر له بأنه صديق يوسف وأنه قرأ استمارة بياناته ومعجب جدًا به .

كان إبراهيم ضابط مخابرات ماهر .. استطاع التعرف على نقطة الضعف التى يعانى منها جمال .. فركز عليها جيدًا .. واستغل جهله بالسياسة والتاريخ وأخذ يلقى على مسامعه الأكاذيب والمفتريات عن مشكلة اليهود .. وفى خلال اللقاء المسجل بينهما ، واستطاع أن ينتزع منه اعترافًا ضمنيًا بحق اليهود فى فلسطين .. ثم أخذ يضغط على مشكلة الأزمة

الاقتصادية التي تعاني مصر منها .. بدليل تواجده في اليونان بحثًا عن عمل ليتمكن من الزواج ، وأرجع الضابط هذه الأزمة إلى حالة التأهب الدائم للحرب التي تدمر خطط مصر للتنمية .

ولأنه أحمق غرير .. اقتنع جمال حسنين بآراء الضابط الذى شحنه نفسيًا ومعنويًا .. ووصل به إلى المدى المطلوب فى الاندفاع والتهور وسب النظام فى مصر وانتقاد الحياة بها .

كان الطرق على الحديد الساخن أسهل الطرق لتشكيله.. وأمام حالة الضعف التى وصل إليها جمال فلا مال لديه ولا حصانة من وطنية .. بالإضافة إلى كلمات متناثرة فهم منها أن له صورًا عارية مع الفتاة الداعرة .. أمور كلها هيأت مناخًا مناسبًا لتجنيده . خاصة بعدما أقنعه ضابط الموساد بأن الجاسوس الذى يسقط فى أيدى المخابرات المصرية .. لابد لهم من مبادلته فى صفقة سرية بواسطة الصليب الأحمر الدولى أو الدول الصديقة . وعدد له أسماء كثيرة لجواسيس مصريين تمت مبادلتهم .. ويعيشون فى إسرائيل فى فيلات فاخرة ، وجرى سحب أسرهم من مصر تباعًا . هكذا كانوا يقنعونه ويضيقون عليه الخناق فيجد صعوبة فى التفكير أو الفرار . وسقط جمال حسنين فى قبضة الموساد .

وفى شقة مجهزة بكل أدوات الرفاهية .. أقام الخائن برفقة ضابط الموساد ليتعاطى شراب الخيانة وليتعلم مبادىء الجاسوسية .

ولأنه لم يلتحق بالقوات المسلحة فقد دربوه على كيفية تمييز الأسلحة المختلفة بواسطة عرض أفلام عسكرية وأسلحة .. وعقد اختبارات له لبيان مدى استيعابه .

ولكونه يعمل فى مصلحة المساحة ، فقد كانت لديه خبرة كبيرة فى وصف المبانى والمنشآت ورسم الخرائط المساحية ، وتقدير المسافات والارتفاعات ، وبالتالى رسم الأشكال المختلفة وكل مظاهر الحياة التى تصادفه .

ولم تكد تمر أربعة أسابيع إلا وأنهى جمال حسنين الدورة التدريبية ببراعة .. وتخرج من تحت يد ضابط الموساد جاسوسًا خبيرًا ، وخائنًا مخلصًا لإسرائيل .

الرسالة الوحيدة

كان – ضابط الموساد – إبراهيم هو المسئول عن تلميذه النجيب . وعلى عاتقه تقع مسئولية توجيهه ومتابعته . ويلزم لذلك ربط علاقة إنسانية قوية بينه وبين الجاسوس .

وفى أمسية سمر لاحظ شروده وقلقه ، وحاول جاهدًا مساعدته حتى لا تتوقف مراحل خيانته ، فصارحه جمال بمدى تعلقه الشديد بسماح ، وخوفه من عودته خاويًا فتضيع منه . فطمأنه إبراهيم وأمده بألف دولار مكافأة ، فضلاً عن راتب شهرى قدره مائتى دولار ، ومكافأة أخرى « ٥٠ » دولارًا عن كل رسالة تحمل معلومات قيمة يرسل بها إلى روما لاسم « كاستالا يوستالى » ص . ب . ١١٧ .

وأمضى الخائن التعس فى بيريه أربعة أشهر حتى لا يثير الشكوك بالأموال التى معه ، ثم أعد حقيبته وسافر بالطائرة إلى القاهرة يحمل فستان الزفاف لعروسه هدية من المخابرات الإسرائيلية .

كان عجولاً جدًا .. إذ لم ينتظر حتى تزف إليه حبيبته ، بل شرع فى الحال فى كتابة رسالة عاجلة – بدون حبر سرى – إلى صديقه الوهمى يوستالى .. يخبره فيها بوصوله سالمًا وزواجه قريبًا .

وبعدها عمد إلى زيارة أقاربه وأصدقائه من عسكريين ومدنيين وسؤالهم عن أحوال الجيش والحرب .. وكان يسجل كل ما يصل إليه فى مفكرة خاصة حتى جمع بعض المعلومات التى اعتبرها مهمة لإسرائيل .. وأغلق عليه حجرته وسطر – للمرة الأولى – رسالة بالحبر السرى .. حوت ما جمعه من معلومات وأرسل بها إلى روما . وادعى أنه يحمل رسائل من أصدقاء فى اليونان إلى ذويهم فى الإسكندرية ودمياط والمنصورة ومرسى مطروح . وقام بزيارة لهذه المدن لعله يصادف ما يثير انتباهه من تحركات عسكرية .. أو تنقلات للأسلحة بواسطة القطارات أو سيارات النقل العملاقة .

كانت مصر فى تلك الأثناء .. نوفمبر ١٩٧٢ .. تعيش أوقاتًا عصيبة بسبب حالة اللاسلم واللاحرب التى هيمنت على الطقس العام . وهناك حالة من القلق والتذمر تسود الشارع المصرى يأسًا من خطب الرئيس السادات التى لا تحمل أية نية للرد على الصلف الإسرائيلى المستفز ، بل تفيض بالوعود الكاذبة بالحرب مما خلق شعورًا بالإحباط لدى الشعب.

وكانت المخابرات الإسرائيلية ترسل بجواسيسها الخونة .. لاستقصاء حالة الشعب والجيش .. ففى تلك المرحلة الحرجة كان الغليان العربى على أشده . خاصة وأن عمليات المقاومة الفلسطينية اتخذت مسارًا آخر فى مواجهة إسرائيل .. بعدما تقاعست دول المواجهة عن الإقدام على ضربها . .

لذلك .. فقد كثفت إسرائيل من نشاطها التجسسى داخل الأراضى المصرية .. لعلمها أن مصر هى زعيمة العرب وكبرى دول المواجهة التى حتمًا ستثأر وتسترد سيناء .

ويقابل هذا التكثيف التجسسى جهدًا متزايدًا من المخابرات الحربية والمخابرات العامة المصرية .. لضبط إيقاع الأمن فى الداخل والخارج .. فسقط عدد كبير من جواسيس ما قبل أكتوبر ١٩٧٣ .. وكان من بينهم جمال حسنين الذى أرسل رسالته الوحيدة إلى مكتب الموساد فى روما .

فبواسطة رجل المخابرات الذكى الذى يعمل رقيبًا على البريد .. اكتشف الكتابة بالحبر السرى فى الرسالة .. وتبدأ على الفور مطاردة شرسة بين المخابرات المصرية والجاسوس فى معركة سرية لا يشعر بها أحد .. وسباق محموم مع الزمن من أجل إلقاء القبض عليه .

وفى فترة وجيزة جدًا .. سقط الخائن فى الكمين الذى نصب له مساء يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٧٢ أثناء نومه فى هدوء .. يتنفس هواء مصر النقى ويملأ معدته طعامها وخيرها . ومن بين الأدلة الدامغة على تجسسه لصالح الموساد ضبطت المفكرة التى سجل بها معلومات جديدة قام بجمعها ، وتقريرًا عن زيارته لبعض المدن ، ورسالة انتهى من كتابتها بالحبر السرى كان ينوى إرسالها إلى روما فى الصباح .

اصطحبوه إلى مبنى المخابرات لاستجوابه ، واعترف مذهولاً بكل شىء فى الحال . وأقر بأن حصيلة المعلومات التى جمعها كانت من معارفه وأقربائه .. الذين كانوا يتحدثون أمامه بما يعرفونه من معلومات .. وهم على ثقة به ولا يتصورون أن بينهم جاسوسًا ينقل ما يتفوهون به إلى إسرائيل .

وأثناء محاكمته أخبروه بأن سماح زفت لآخر وسافر بها إلى الكويت ، فسرت بشرايينه مرارة شديدة لا تعادل إحساسه بمرارة جرمه وخسة مسلكه .

وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .. أى ٢٥ عامًا .. بين جدران السجن ليلاً وفى تكسير الحجارة نهارًا . فلولا ظروفه التى مر بها قبل وأثناء تجنيده .. وقصر تجسسه على رسالة واحدة تحوى معلومات تافهة لكان نصيبه الإعدام .

ومنذ فترة قليلة مضت .. انتهت مدة عقوبته .. وخرج من أبى زعبل وعمره يقارب الستين عامًا .. مطأطأ الرأس منكس الهامة .

ترى .. هل كان أهله فى استقباله على باب السجن كما نرى فى الأفلام المصرية ؟ أم أن والديه توفاهما الله غاضبين عليه ، وانشغل إخوته فى أعمالهم ونسوا أن لهم أخًا – جاسوسًا – باعهم ذات يوم عندما باع وطنه .

فماذا حدث إذن ؟ وأين سيعيش هذا الخائن بيننا ؟ وهل لازالت عنده الجرأة لكى ينتسب إلى هذا الوطن ، ويقر بأنه مصرى مات مرتين . مرة داخل السجن وأخرى خارجه عندما يجتر تاريخه .. !!

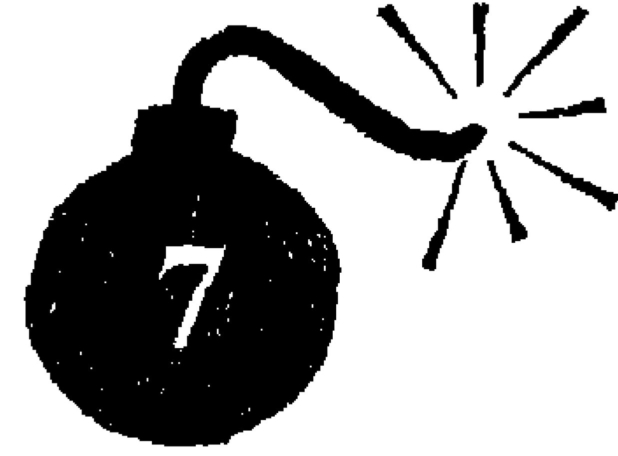
أسئلة كثيرة بحاجة إلى إجابات مطولة .. ولكن فى النهاية لابد لنا ألا ننسى أن النفس البشرية لازالت تمثل لغزًا غامضًا لم يكتشف بعد . ولا ينبغى أن نتعجب من تقلبات المشاعر والأحاسيس والنخوة .

ذلك إن عالم المخابرات والجاسوسية ..

عالم لا تحكمه العواطف والعلاقات ولا يعرف الرحمة أو المشاعر ..

عالم مسعور لا يهب الصفاء ..

السيد محمود .. علّم أخوه التجسس .. فاحترف ..!!



عالم المخابرات والجاسوسية عجيب كل العجب . إنه بالفعل يفتقد العواطف .. ولا تصنف أبدًا تحت سمائه . حتى وإن بدت المشاعر مشتعلة متاججة - فهى زائفة فى مضمونها ، ووجودها فقط لخدمة الموقف ثم تنتهى إلى أفول .

لقد كتبنا عن سمير باسيلى أول جاسوس فى العالم يجند أباه . وكتبنا عن إبراهيم شاهين ابن سيناء الذى جند زوجته انشراح وأولاده الثلاثة .

وفى هذا الفصل نكتب عن جاسوس آخر من جواسيس الإسكندرية ، استغل شقيقه المجند بالقوات المسلحة ، وجنده ليحصل من وراء معلوماته العسكرية على مال وفير .

كلها قصص تؤكد أن علاقات الدم والرحم ومشاعر الحب - تتوه بين غمام عالم الجاسوسية الغامض .. وتمحى .. فى لحظة يغيب فيها العقل .. ويغتال الانتماء .. !!!

الصدمة الفجائية

بالرغم من التنسيق الاستخبارى الأمريكى الصهيونى الذى وصل إلى أعلى المستويات .. فقد جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ لتثبت عجز المخابرات الإسرائيلية والأمريكية وهزيمتهما معًا إزاء هذه الحرب المفاجئة . فقد طار زيفى زامير رئيس الموساد (كما طار من قبله مائير عميت قبل حرب يونيو ١٩٦٧) إلى كل من أوروبا وأمريكا بمهمة سرية .. ليحاول التحقق من المعلومات التى وردت إليهم قبل حرب أكتوبر باستعدادات العرب للهجوم على إسرائيل .

وفى صباح السادس من أكتوبر بعث ببرقية محمومة من نيويورك إلى جولدا مائير رئيس وزراء إسرائيل تقول : « إن الحرب ستبدأ اليوم » . وكان الأوان قد فات . وكانت مفاجأة الحرب التى منيت بها إسرائيل ، نتيجة « الفكرة » الخاطئة التى يتمسك بها القيادة الإسرائيليون ، والمستندة إلى أن الحرب لن تقع بسبب عجز العرب عن القيام باتخاذ قرار الهجوم ضدهم .

لقد كانت هذه « الفكرة » متأصلة الجذور فى أذهان العسكريين الإسرائيليين ، حتى أن الجنرال « إلياهو زعيرا » - الذى كان يشغل منصب رئيس الاستخبارات العسكرية - ذهب فى ظهر ذلك اليوم إلى مؤتمر صحفى فى تل أبيب وهو مطمئن إلى حقيقة « الفكرة » .

وعندما تكلم بهدوء وثقة إلى الصحفيين قائلاً : « لن تقع الحرب » . اقتحم المكان ضابط برتبة ميجر ودفع ببرقية إلى الجنرال زعيرا فى غرفة المؤتمر الصحفى ، وعندما قرأها هذا ، خرج من الغرفة ولم ينبس ببنت شفة ، ولم يعد مرة أخرى ..

وأدرك الصحفيون الحقيقة على الفور ، فقد وقعت الحرب ، وفى جمع أرجاء تل أبيب .. أخذت صفارات الإنذار ترسل صيحاتها .

هذا التقييم الغير صحيح للمعلومات التى تجمعت لدى المخابرات الإسرائيلية . والتى وصلتها قبل الحرب بمدة كافية وتتعلق بالحشود المصرية والسورية ، أكد على تقصير المخابرات الإسرائيلية فى تحليل النوايا العربية .. والاستعدادات العسكرية التى سارت بخطوات دقيقة وسرية للغاية ، وخدعت أجهزة المخابرات الصهيونية والأمريكية ، بما يدل على جهل هذه

الأجهزة بمؤشرات الحروب والأزمات .. مما أدى إلى تقويض نظرية الأمن الإسرائيلى القائمة على قوة جهاز مخابراتها ، وعلى عنصر إنجاح الطيران فى تنفيذ الضربة الوقائية وإفشال الاستعدادات العربية .

وبعد توقف الحرب ، عمدت الحكومة الإسرائيلية إلى التحقيق فى كارثة يوم الغفران وشكلت لجنة « إغرانات » لتحديد موضع الخلل والتقصير .. وقد رأت اللجنة أن الاستخبارات العسكرية هى المسئولة عن تقييم نوايا وقدرات القوات العربية .. وأشارت إلى أربعة مسئولين بها غير مرغوب فيهم ويفضل تسريحهم .. كان على رأسهم باطيع إلياهو زعيرا رئيس المخابرات العسكرية .

ولذلك . نشطت أجهزة المخابرات الإسرائيلية المختلفة .. وعملت على تلافى هذا الخطأ المدمر الذى راح ضحية له آلاف الجنود والضباط ، وسبب الذعر فى كل أرجاء إسرائيل . وقررت ألا تترك معلومة ، ولو تافهة صغيرة ، إلا وحللتها وتأكدت من صحة ما جاء بها .. وذلك من خلال تجنيد طابور طويل من العملاء والجواسيس فى كل البلاد العربية .. يمدون إسرائيل بجسر متصل من المعلومات السرية يوميًا ، فتستطيع بذلك تدارك أية كوارث أخرى قبل وقوعها . وكان لابد من القيام بعدة انتصارات هامة .. تعيد الثقة إلى هذا الجهاز الذى أثبت فشله فى التنبؤ بحرب أكتوبر .

وعلى هذا الأساس .. صعَّدت قيادة جديدة لأجهزة المخابرات الإسرائيلية ، تتعطش لإثبات جدارتها ومقدرتها ، وأخذت على نفسها أمر حماية إسرائيل من الخطر الداهم المحيط بها . ورصدت ملايين الدولارات تحت تصرف هذه الأجهزة . وكان للموساد الإسرائيلى نصيب أكبر منها لتجنيد العملاء والجواسيس ، وشراء ضعاف النفوس فى كل مكان .

ولم تعد المخابرات الإسرائيلية تلقى بالاً للعناصر التى تعيش على هامش الحياة ، بل سعت لتجنيد البارزين فى المجتمع . ومن ذوى المراكز الدقيقة الهامة . إذ لم يعد عمل الجواسيس مقصورًا على الإنصات إلى ثرثرات سكير فى حفل كوكتيل .. أو تخاريف جاهل بالأمور يدعى المعرفة بكل شىء ، وإنما أصبحت مهمة الجاسوس تتعلق إلى حد بعيد بالحصول على الوثائق السرية وتصويرها .. وإعادتها إلى مكانها الذى أخذت منه .. ومن ثم إرسال ما صوره إلى مركز اتصاله .

وأيقنت المخابرات الإسرائيلة أن المعلومات المجموعة .. سواء بالوسائل البشرية أو التكتيكية ، لا تكتسب قيمتها الكاملة .. إلا بعد الدراسة والتحليل والتركيب والاستقراء من قبل خبراء أخصائيين على مستوى عال من العلم والخبرة .

وبسبب الخوف من « مفاجآت » العرب الغير سارة – أطلقت إسرائيل جواسيسها داخل البلاد العربية ، يجمعون لها الأسرار العسكرية والصناعية .. وكل ما يتصل بأمور الحياة اليومية بما فيها أرقام هواتف وعناوين المسئولين .

وهذا ليس عبثًا من جانب العدو ، إنما هو عمل مخابراتى أصيل ، وتخريبى يؤدى إلى نتائج خطيرة فيما لو أتيح استعمال هذه المعلومات .. فعملاء إسرائيل السريين لا يتورعون عن ارتكاب أية جريمة مهما كانت حقارتها لتحقيق أهدافهم ومهامهم .

ويبدو أن المخابرات العربية قد تفهمت بحق تغير أسلوب جهاز المخابرات الإسرائيلى .. خاصة بعد تجديد دماء رؤسائه ومديرى أقسامه المختلفة .. والحرص على اصطياد الخونة العرب فى كل مكان .. ودفعهم إلى بلادهم بعد دورات تدريبية ينشطون بها مداركهم .. ويوقظون لديهم الحاسة الأمنية .. ويزرعون بداخلهم الولاء لإسرائيل بإغراءات المال والجنس ، وبالتهديد أحيانًا كثيرة .

لذلك .. فقد كان على المخابرات العربية أن تنشط هى الأخرى لتواجه هذا النشاط المضاد . وكان أن أعلن مسئول كبير فى المخابرات المصرية فى ١٩٧٤/١٠/١٠ بأن أى مواطن مصرى تورط تحت أى ظروف مع جهاز المخابرات الإسرائيلى ، فإنه فى حالة التبليغ عن ذلك فور وصوله إلى البلاد أو لأى سفارة من سفارات مصر .. فسوف يعفى نهائيًا من أية مسئولية جنائية .. ولا توجه له أى تهمة مهما كانت درجة تورطه .

وأضاف المسئول : إن المخابرات المصرية تعلم الأساليب التى تتبعها المخابرات الإسرائيلية .. والظروف التى يقع تحتها المواطن مرغمًا ، مما يغفر له ما وقع فيه مادام قد قام بالإبلاغ خدمة لوطنه .

وفى نهاية البيان .. أعلن المسئول الكبير نبأ القبض على جاسوسين شقيقين يقومان بالتجسس لصالح المخابرات الإسرائيلية .. وأنهما بين أيدى المحققين لاستجوابهما .. وسوف يحالان للمحكمة المختصة فور انتهاء التحقيق .

فلنفتح ملف القضية ونقرأ ما به .

دراسة الحالة

فى الثانى عشر من مارس ١٩٢٩ ولد « السيد محمد محمود محمد » بالإسكندرية لأسرة ثرية يعمل معظم أفرادها فى « البحر » . وانصرف السيد عن دراسته مبكرًا ولم يحصل على الشهادة الإعدادية ، فكان شغفه بالبحر أعظم من فصل المدرسة لديه .

لذا .. فقد أثمر هذا الحب لكل ما هو « بحرى » عن خبير بالشئون البحرية يشهد له الجميع بذلك . وكان عمله فى ميناء الإسكندرية قد أتاح له - من خلال عائلته - الارتباط بصداقات عديدة بالعاملين بالميناء ، ومعرفة أدق التفاصيل عنه .

وفى الثانية والعشرين من عمره .. أحب ابنة صديق للأسرة يعمل فى الميناء أيضًا . وتزوج من « إخلاص » وعاشت معه فى شقة رائعة بمنطقة سيدى جابر .

ومرت به الأعوام وهو يكبر بين أصحاب المهنة وتتسع علاقاته واتصالاته . وينجح فى عمله إلى مدى بعيد . فاستثمر هذا النجاح وامتلك ٤٠٪ من الباخرة التجارية اللبنانية « م . باهى » . وترك العمل على الشاطىء لينتقل إلى عمق البحر ، إذ عمل مساعدًا للقبطان .. وبدأ يبتعد كثيرًا عن الإسكندرية فى رحلاته إلى موانىء العالم .. فازداد إلمامًا بعلوم البحر والطقس .. وامتلأت جيوبه بالمال فاستثمره هذه المرة فى الزواج من فتاة صغيرة رائعة الجمال .. كان قد التقى بها فى المعمورة ورآها « غادة » حسناء تمرح على الشاطىء كأنها عروس البحر .

لقد كلفه الزواج منها مبالغ طائلة أرهقت ميزانيته . وتورط بسببها حتى اضطربت أحواله المادية أكثر بعدما احتاجت الباخرة لـ « عمرة » كاملة ، كان عليه أن يدفع ٤٠٪ من تكلفتها ، فقد كانت بينهم وبين شركة التأمين مشاكل طائلة أدت إلى تعسرهم ماليًا .

وأمام أزمته الطاحنة .. اضطر السيد محمود إلى « رهن » نسبة من نصيبه فى الباخرة ، وكان منذ تلك الفترة قد دخل بكل قوة إلى دائرة الإفلاس التى تضيق حوله وتعتصره .

كان السيد محمود قد قارب الأربعين من عمره ، وسيم أنيق المظهر ، خبير بالأمور البحرية .. وأعلى خبرة بشئون النساء وأنواع الخمور .. وكان لا ييأس إذا ما صدته امرأة أو تجاهلته فتاة جميلة . فهو يملك من وسائل اجتذابها ما يحير العقول ، يساعده على ذلك لسان زلف رقيق ، وعينان بريقهما عجيب كل العجب يسهل له مسعاه ، وكانت علاقاته النسائية

متعددة برغم زواجه من اثنتين .. ولا يكف عن إثبات ذاته أمام الفتيات الصغيرات اللاتى ينجذبن سريعًا لطلاوة حديثه وجرأته . ولقدرته الفائقة على احتوائهن .

كان أيضًا يستغل المال فى شراء النساء بالهدايا القيمة التى يجلبها من الخارج كلما عاد محملاً بها .. فى وقت كانت الأسواق المحلية تفتقر إلى البضائع المستوردة التى تلقى إقبالاً شديدًا خاصة حوائج النساء .

كل ذلك ساعد بطريقة أو بأخرى على تعدد علاقاته النسائية ومفاخرته بذلك أمام أصدقائه الذين طالما حسدوه لحظه الواسع من الجنس اللطيف .

هذه المغامرات .. خلافًا لليالى الأنس والفرفشة .. التى كان يقيمها فى شقة خاصة فى سبورتنج .. كانت تستنزف منه أموالاً كثيرة أيضًا ، وأدت إلى ابتعاده – مؤقتًا – عن هوايته فى تصيد النساء .. التى أرهقت مدخراته وإن كانت قد قضت عليها بالفعل .

وأثناء توقف الباخرة للإصلاح بميناء نابولى الإيطالى .. ذهب السيد محمود إلى روما .. وبالمصادفة قابله هناك صديق قديم من يهود الإسكندرية اسمه فيتورا .. قال له إنه يعمل ضابطًا إداريًا فى شركة السفن التجارية الإيطالية .

وعلى مدار جلسات طويلة بينهما .. استعرضا مراحل حياتيهما الماضية والحاضرة . وشكا له فيتورا شوقه الشديد لزيارة الإسكندرية .. فدعاه السيد محمود لزيارته هناك وهو على ثقة بأنه لن يلبى دعوته .. لكن خاب ظنه عندما فوجىء به يزوره بالإسكندرية .

وخلال هذه الزيارة الغير متوقعة .. تكشف لفيتورا أمر صاحبه ومدى معاناته .. بسبب أزمته المادية الحرجة التى تنغص عليه حياته ، وتتهدد مستقبله كله . خاصة وهو صاحب بيتين وزوجتين .. وحجم المصروفات يزداد كل يوم يمر . وصارحه السيد بمدى يأسه من صلاح حاله والسفينة قد فتحت فاها ولا تريد إغلاقه ، وأنه أخيرًا باع نصيبه بالديون التى تراكمت عليه وتضخمت . وطلب من صديقه اليهودى راجيًا أن يبحث له عن عمل فى أى مكان من العالم .

وبعد تفكير .. أخبره فيتورا أنه سيعمل على تقديمه لصديق إنجليزى يعمل صحفيًا فى منظمة « حلف شمال الأطلسى » ويقيم فى أمستردام بهولندا .

وعندما سأله السيد عن نوع العمل الذى قد يقوم به مع صديقه الصحفى ، أخبره فيتورا أن مجال الصحافة ليس له حدود . لأنه يتدخل فى شتى المجالات وليس قاصرًا على معلومات بعينها .

ولما أكد له أن الصحافة الأجنبية تدفع كثيرًا .. تهلل السيد محمود فرحًا .. وطلب بإلحاح من فيتورا أن يسعى عند صديقه الإنجليزى . وأنه مستعد للتعامل معه كمراسل صحفى بالشكل الذى يرضاه .

وفى اليوم التالى ادعى فيتورا أنه اتصل بصديقه فى أمستردام وعرض عليه الأمر ، فوافق وطلب موافاته بعدة تقارير اقتصادية وتجارية وسياسية .. مع التركيز على ميناء الإسكندرية وكتابة بيانات شاملة عنه وعن الحركة التجارية والملاحية والتسويقية من خلاله .

فرح السيد محمود كثيرًا واستغرق عدة أيام فى كتابة التقارير بعدما زار الميناء الحيوى .. للاستعانة بصداقاته هناك فى الحصول على إجابات وافرة على العديد من التساؤلات .. ثم حزم حقيبته وسافر برفقة صديقه إلى أمستردام رأسًا حيث نزلا بفندق « أمريكا » الفخم ..

وفى الفندق .. زاره الصحفى البريطانى « ميشيل جاى طومسون » – الذى هو فى الأصل ضابط مخابرات إسرائيلى – وأستغرق وقتًا طويلاً فى الحديث معه ومناقشته فيما جاء بتقاريره الهامة .. ووجد السيد محمود نفسه يعيش حياته السابقة من جديد حيث الخمر والنساء الجميلات .. وبخاصة كريستينا الرائعة التى قدمها له طومسون كصحفية تعمل معه . وغاب عنه ليومين تاركًا كريستينا معه وتحت إمرته .

الجاسوس المغيب العقل

كانت الفتاة اليهودية المثيرة تعلم أنه زوج لاثنتين . وزئر نساء خبير بأمورهن . ولذا كان عليها أن تكون مختلفة عن كل النساء اللائى عرفهن . فأبدعت فى إثارته إلى درجة الهوس .. وفى حجرته بالفندق لم تسكره الخمر بقدرما أسكره دلالها .. وجسدها الأنثوى الذى تفوح منه رائحة الرغبة .. فكانت تدعوه إليها وتتمنع ، وكلما اقترب منها زادته لسعات النشوة فيمتشق سلاح الصبر وما صبر لديه .. فيهوى سكرانًا بين يديها ، يمتص معتق الخمر من نهر الحياة بين نهديها ، وترتجف خلجاته نشوانة لفعل اللذة الساحرة ، ويقسم بأنه ما ذاق من قبل طعم امرأة ، ولا ذهب عقله بلا خمر إلا معها .

فتضحك العميلة المدربة فى نعومة آسره ، وتخبره بأنها تعمل مع طومسون لصالح المخابرات الأمريكية .. إضافة إلى عملها في « حلف شمال الأطلسى » فلم يندهش العاشق الغارق بين أحضانها أو يحس بمدى الخطر الذى يحيط به . وعندما جاءه طومسون .. أبلغه تحيات فيتورا الذى سافر إلى استراليا « حيث انتهت مهمته إلى هنا » .

رجع السيد إلى القاهرة ومعه مئات الدولارات .. والعديد من الهدايا التى حرم من حملها لفترة طويلة . وأيضًا – يحمل عدة تكليفات محددة عليه الكتابة عنها بتفصيل . وأغراه ضابط الموساد بمبلغ كبير لكل تقرير مفصل .. يحوى معلومات قيمة لا تتوافر فى المادة الصحفية المنشورة فى الصحف المصرية .

وما هى إلا أسابيع حتى سافر إلى أمستردام مرة ثانية بحقيبته عدة تقارير غاية فى الأهمية. وإحصائيات عن حركة ميناء الإسكندرية اليومية .

اندهش طومسون لغزارة المعلومات التى جلبها تلميذ الجاسوسية الجديد . وأهدى إليه كريستينا لعدة أيام مكافأة له . فغيبت عقله وحركت بداخله كل إرهاصات النشوة وتياراتها المتلاحقة .

نوع آخر من النساء هى . دربها خبراء الموساد على التعامل مع المطلوب تجنيده بأساليب شتى تجعله يعشق الجنس .. ويدمنه .. فكانت تزرع لديه اعتقادات الفحولة التى لا يتمتع بها سواه . وبنعومة الحية تنسج معه قصة حب ملتهبة مفعمة بالرومانسية الخالصة ثم تمتزج بالجنس فيختلط الأمرين ويقع الضحية فريسة الرغبة الشديدة فى الارتواء والتى عادة ما تنطفىء أو تخمد .

فالعميلة المدربة تملك سلاح تأججها الدائم . والقدرة على السيطرة على الضحية بسلاح الضعف وعدم إيثار اللذات . هكذا تفعل عميلة الموساد التى تخرجت من أكاديمية الجواسيس فى إسرائيل برتبة عسكرية .. وترتقى وظيفيًا كلما أجادت استخدام لغة الجسد فى «العمل» .

فالجسد الأنثوى – مادة خصبة تجتذب ضعاف النفوس .. أمثال السيد محمود الذى نظر فى بلاهة إلى فتاته العارية وهو يقترب من لحظات الذروة .. حينما تصرخ وتخبره فى ضعف أنها إسرائيلية تحبه وتعشقه وتعبده . ويكمل صعود المرتفع وحين يهبط .. تكرر عليه القول فلا يهتم . وتفهم من ذلك أنه سقط .. سقط لآخره فى عشقها وحبائلها .. ولأنه مغيب العقل فلا مفر من استسلامه .

وبعد عدة أيام – كان فى طريقه إلى الإسكندرية – عميلاً للموساد الإسرائيلى . فهناك أحاديث سجلت له . وأفلام فاضحة تظهر لحظات ضعفه وشذوذه مع العميلة المدربة . وهناك ما هو أهم – التقارير الخطيرة التى كتبها بخط يده .

أغمض عينيه ولم يهتم بالنداءات المستمرة التى كانت تصدر عن جهاز المخابرات المصرية .. والتى تعفى أى مصرى تورط مع الموساد بشرط الإبلاغ الفورى .. وتجاهل كل تلك النداءات لظنه أن إبلاغهم بالأمر .. معناه حرمانه من آلاف الجنيهات التى يحصل عليها مقابل عدة تقارير لا يبذل فى جمعها مجهودًا يذكر .. فالمعلومات متوفرة بكثافة وكل معلومة لها ثمن يحدده هو حسب أهميتها . عليه إذن أن يبحث عن كل ما هو مهم لتزداد مكافآته . ويكبر راتبه الشهرى الذى حددوه له بـ ٥٠٠ دولار .. مبلغ كبير بلا شك من أين له بمثله إذا امتهن أية مهنة ؟

كان يكتب تقاريره التفصيلية ويضمنها كل المعلومات التى تصل إليه .. ويتوقع أرقامًا معينة ثمنًا لها .. ويسرع بالسفر إلى أمستردام كلما تضخمت لديه المعلومات ليجد فى انتظاره كريستينا وطومسون . هى تمنحه جسدها . وتزيل عنه أعباء الخوف الذى يتملكه عندما تنشر الصحف المصرية قصة القبض على جاسوس لإسرائيل .. وطومسون يعمل على إزالة الخوف منه بتدريبه على استخدام الشيفرة فى الكتابة بالحبر السرى .. وعلى استعمال الراديو لاستقبال التعليمات من خلاله بالشيفرة وطريقة حلها وأسلوب تنفيذها .. وتدريبه أيضًا على كيفية تمييز الأسلحة بالنظر .وكان طومسون يؤكد له بصفة مستمرة .. أن التدريب الجيد فيه تأمين له .. وحصانة ضد الخطأ الذى قد يوقع به .. ويحثه دائمًا على الالتجاء إلى العلم .. وإلى التزود بالحس الأمنى العالى لحماية نفسه .

المصير الأسود

ومع جرعة التدريب العالية التى نالها .. عاد السيد لاستئناف نشاطه بشهية مفتوحة ومحفظته متخمة بالأموال .. وحقائبه منتفخة ملأى بالهدايا .. وعرف أكثر وأكثر قيمة كل معلومة يجمعها . خاصة المعلومات العسكرية .

ولما كانت مصادر معلوماته العسكرية معدومة .. فكر فى تجنيد شقيقه الأصغر « أمين » المجند بالقوات المسلحة . فاستغل حاجته إلى النقود فترة تجنيده .. للإنفاق على نفسه وعلى حبيبته التى يستعد للزواج منها . ولعب على هذا الوتر ، وكلما أمد شقيقه بالنقود كلما أخضعه له .

لم يكن الأمر صعبًا على أمين هو الآخر . فببعض معلومات عسكرية لا قيمة لها عنده .. يمنحه السيد مقابلاً كبيرًا لها . وعندما سأله أمين ذات مرة ضاحكًا :

« هه يا أخي .. هل تعمل جاسوسًا »؟!

انتفض كالملسوع واكفهر وجهه وقام على الفور وصفعه بشدة قائلاً :

« إياك أن تخبر أحدًا بهذا الأمر .. أنا أعطيك مبالغ طائلة مقابل معلوماتك ، وكلمة واحدة وتنتهي حياتنا إلى الأبد » .

والخرس أمين ولملم جرأته وانغمس مضطرًا بسبب المال إلى الاستمرار في إمداد شقيقه بالمعلومات .

وذات مرة .. عرض عليه السيد أن يجلب له خرائط عسكرية .. ولوحات هندسية لتصميمات بعض المواقع الهامة . وتخوف أمين في البداية ، وأمام إغراءات المال استجاب أخيرًا ولكنه ساومه على الثمن . وتفاصلا في المبلغ حتى اتفقا .

وعندما رأى طومسون الصور العسكرية واللوحات البالغة السرية .. احتضن الجاسوس الخائن وقال له « سأكتب حالاً بذلك إلى إسرائيل وسأطلب لك مكافأة سخية » وجاء الردّ من تل أبيب يفيض كرمًا وسخاءً .

هذه المرة .. لم يهتم السيد كثيرًا بعشيقته التي لم تأت لمقابلته . بل انحصر اهتمامه في القيمة المادية التي سيتحصل عليها ثمنًا لما أمدهم به . ولم يمكث كثيرًا بأوروبا إذ عاد على وجه السرعة .. حيث جاءه مولود جديد من زوجته غادة بعد محاولات فاشلة سابقة . وحيث ينتظره أخوه أمين .. الذي يجهز شقته استعدادًا للزواج من حبيبته « توحة » .

كانت حرب أكتوبر قد انتهت . وكثف أمين من نشاطه في تصوير المستندات العسكرية والخرائط قبل خروجه من الجيش إلى الحياة المدنية . وحرمانه من المبالغ الخيالية التي يحصل عليها من شقيقه . وهذا ما أوقع بالخائن وبشقيقه في قبضة المخابرات المصرية ..

فقد حامت شكوك حوله مصادر المال الذي ينفقه أمين بشراهة . ولفت انتباه أحد زملائه اهتمامه بالحجرة التي تحوي تصميمات هندسية سرية لممرات الطائرات في المطارات الحربية .. وقواعد يجري إنشائها في عدة مواقع سرية .

ووصلت الشكوك إلى القائد الذى جمع التحريات عن الجندى أمين .. فاتضح له أنه يغدق بالهدايا على زملائه .. وأقام صداقات قوية للحصول على أجازات من القوات المسلحة يقضيها فى اللهو والمجون .

وبوضعه تحت المراقبة هو وشقيقه السيد . وكانت النتيجة الحتمية سقوطهما فى قبضة المخابرات المصرية وهما فى غفلة من الزمن لا يتصوران أن أمرهما قد ينكشف فى يوم من الأيام .

هكذا فاجأ فريق من رجال المخابرات العسكرية شقة أمين .. وتم العثور على وثائق عسكرية هامة .. تحوى خرائط ولوحات لمواقع استراتيجية .. اعترف أمين فى الحال أنه جلبها لشقيقه السيد مقابل مائة جنيه .. وبمداهمة شقة السيد وجدوه يخبئ وثائق أخرى بجيب سحرى بقاع حقيبته .. فانهار لا يصدق .. وأخذ يلطم خديه ويردد :

« الطمع والنسوان ضيَّعونى .. وأنا أستاهل » .

وضبطت لديه كل أدوات التجسس .. الأحبار السرية .. جهاز الراديو .. جدول الشيفرة .. الكاميرا .. إلخ .

واستمر التحقيق معهما . ابتداء من ٢٨ مارس ١٩٧٤ حتى ديسمبر ١٩٧٤ حيث اعترفا خلاله بتهمة التجسس لصالح المخابرات الإسرائيلية ..

وعندما نطق القاضى بالحكم . دوت صرخات عالية فى القاعة من ثلاثة نساء . كن إخلاص وغادة وتوحة . واقتيد السيد محمود ليقضى ٢٥ عامًا فى أحد سجون الصحراء . وكان منظرًا عجيبًا فى قفص المتهمين بالمحكمة ، إذ أمسك أمين بتلابيب شقيقه الأكبر وغرس فيه أظافره وأنيابه وهو يصرخ :

« إنت السبب يا مجرم . أنا ح أقتلك .. ح أقتلك .. ضيعت خمستاشر سنة من عمرى أونطة يا ...... » .

وباعدوا بينهما واقتيد كل منهما فى عربة مصفحة حيث ينتظرهما مصير أسود .. لا ضوء فيه ولا شعاع ..

فالطريق غامض تحفه المخاطر والأهوال ..!!

انشراح موسى .. لماذا أنقذها السادات من الإعدام .. ؟



حب الجواسيس كحب الأفاعي .. مدمر وعجيب .

فالجاسوس عندما يعشق امرأة يبث فيها سمومه رويدًا رويدًا .. فتموت .. أو قد تنقلب مثله إلى أفعى سامة .. عندئذ تكون سمومه مصلاً واقيًا يقيها خطره الفتاك .. فتتوحش .. وتقوى لديها روح المغامرة .. وتقامر بحياتها لمرة واحدة فقط .

والمرأة .. عندما تعشق جاسوسًا .. فإن حبها له قد يحوله - أحيانًا - من ثعبان قاتل إلى قط أليف لا يستخدم مخالبه .. وربما منحه الثقة ليعمل بفاعلية أكثر .. تدعوها إلى مشاركته والدخول معه إلى وكر الجواسيس .

فالحبيبة التي صارت حية رقطاء .. تضحي - تأكيدًا لحبها - بكل ثمين في سبيل حبيبها .

وفي عالم الجاسوسية .. من باعت الوطن في سبيل الحب .. ما عزَّ عليها بيع أولادها .. أو قذفهم إلى وكر الثعابين ..

وهذا ما فعلته انشراح بسبب الحب ..!!!

أزمة لم تطل

في مدينة المنيا ولدت انشراح على موسي عام ١٩٣٧ لأسرة متوسطة الحال .. وبرغم التقاليد المتزمتة في ذلك الوقت دخلت الفتاة الصعيدية المدرسة وواصلت تعليمها حتى حصلت على الشهادة الإعدادية عام ١٩٥١ .

وبعد نجاحها بأيام قليلة أراد والدها مكافأتها فاصطحبها معه إلى القاهرة لحضور حفل عرس أحد أقاربه .

كانت انشراح ذات وجه مليح وعينان نجلاوان .. وجسد دبت به معالم الأنوثة وخرطته خرطًا .. فبدت أكبر كثيرًا من سنها .. مما لفت الأنظار إليها واخترقتها سهام الباحثين عن الجمال .. فكانت تقابل تلك النظرات بحياء فطري غلف ملامحها مما أزادها جمالاً فوق جمال .

وفي حفل العرس اصطدمت نظراتها البريئة بنظراته .. فتملكها الخجل وتوردت خدودها للسع لذيذ أحست به يجتاح مشاعرها .. فيوقظها من رقدتها .. معلنًا عن مولد مشاعر جديدة غزت عقلها وقلبها لأول مرة .

كان فتاها الذي حرك فيها دماء الأنثى هو إبراهيم سعيد شاهين ابن العريش المولود عام ١٩٢٩ .. الذي ما غادر الحفل إلا وعرف عنها كل شيء . وبعد أيام قلائل فوجئت به يطرق باب بيتها في المنيا برفقته والده .. طارت انشراح من السعادة وحلقت بين السحب بخيالها تستطلع مستقبلها الهنيء .. فمنذ رأته في الحفل انغرس حبه بصدرها .. وباتت ليالىَ تحلم به وتترقب الليل لتسرح معه طويلاً .. وتطوف مع نظراته الحانية في عوالم الأمل .. والحبور ..

وانزعجت الفتاة الصغيرة عندما اعترضت والدتها في أمر زواجها منه .. متحججة ببعد المسافة بين المنيا والعريش .. وبكت بحرقة وهي ترى أحلامها الوردية تكاد أن تتحقق .. ثم سرعان ما تنهار في ذات الوقت .. دون أن تقدر على عمل شيء ..

وأمام دموعها الصامته .. سألها أبوها :

– أتوافقين عليه يا ابنتي .. ؟

فكان فى صمتها إجابتها ..

وأعلنت الخطبة ..

وفى أول حديث مع خطيبها صارحته بأنها أعجبت به مذ رأته فى حفل القاهرة .. وازداد إعجابها به حينما سعى وراءها حتى المنيا ليطلب يدها .

وأكد لها الشاب الولهان أنه تمناها زوجة له منذ النظرة الأولى .. ويومها دعا ربه ألا تضيع منه أبدًا .

وفى حفل أكثر من رائع انتقلت انشراح إلى بيت الزوجية فى العريش .. تحفها السعادة بحبيبها الذى أيقظ فيها مشاعر دفينة لم تكن تدركها .. وأرسل إلى قلبها سهام الحب فأسلمت إليه نفسها .. وتدفقت موجات متلاحقة من الحب مع كل نبضة من نبضات قلبها الصغير .

كان إبراهيم شاهين يعمل كاتب حسابات بمكتب مديرية العمل بالعريش .. وهو أيضًا لم يحصل سوى على الإعدادية مثلها .. لذلك .. اتفق وانشراح على أن يواصل أولادهما تعليمهم حتى أعلى الشهادات العلمية .. وأصبح هذا الأمل هو هدفهما الذى يسعيان إليه ويعملان على تحقيقه مهما كانت الظروف .

ومرت بهما الشهور حلوة هنيئة تحفل بالبشاشة والانسجام .. فلم يكن إبراهيم يرى فى الدنيا زهرة أجمل من وجه حبيبته .. ولا يسمع صوتًا أرق من صوتها .. ولا يظل عقله بمكانه كلما انفرد بها وهى ترقص له بملابسها الشفافة .. فهى تحب الرقص ويستهويها الجنس .. وهو يعشق هذا الجسد الذى يتلوى وينثنى أمامه عاريًا .. وتحول الجنس عندهما كالهواء ماتا لو لم يتعاطيانه كل يوم .. إنه يطلبه منها صراحة .. وتطلبه هى تدللاً ، وبنظراتها فوران من الرغبة كالجحيم . وكانا إذا ما أظلتهما سحابة حزن فسريعًا ما تنقشع .. حتى اشتهر حبهما بين الأهل والأقارب وبدا قويًا عتيًا لا يقطعه الملل أو يضعفه الكلل .

وفى أواخر عام ١٩٥٥ رزقا بمولودهما الأول " نبيل " .. ثم جا المولود الثانى محمد عام ١٩٥٦ ، ثم عادل فى ١٩٥٨ ، فعظم حبه لها لأنها ملأت عليه الدنيا بهجة .. وملأت بيته بضجيج الأبناء الثلاثة .. وهكذا سارت بهما الحياة ترفل فى أهازيج الفرح وأغاريد الوئام .

وفي عام ١٩٦٣ - وكما اتفقا من قبل - أرسلا بأولادهما إلى عمهم بالقاهرة ليواصلوا الدراسة هناك .. وليعيشوا حياة رغدة بعيدًا عن مظاهر البداوة وظروف الحياة الأقل حظًا من العاصمة .. وفي أكتوبر ١٩٦٦ ضبط إبراهيم بتلقي الرشوة وحبس ثلاثة أشهر .. خرج بعدها ليكتشف مدى قسوة الظروف التي تمر بـه .. والمعاناة الشديدة في السعي نحو تحقيق آماله في الارتقاء والثراء .

وذات يوم من أيام التاريخ المكفهرة - اجتاحت إسرائيل سيناء واحتلتها في يونيو ١٩٦٧ .. وأغلقت فجأة أبواب السبل أمام السفر إلى القاهرة .. فتأزمت انشراح نفسيًا قلقًا على أولادها .. وكانت كلما نامت تراهم في المنام يستغيثون بها فتصرخ وتستيقظ .. ويحتضنها الزوج الملتاع في حنان ويهدىء من روعها .. وإن كان هو الآخر لا يقل عنها قلقًا واشتياقًا لهم .

هكذا تظل انشراح تبكي معظم الليل والنهار حتى قارب عودها على الذبول .. وأوشك جمالها أن ينطفىء . ووجد إبراهيم أن الحياة في العريش كما لو كانت في الأسر .. فالحزن يخيم على البيت الذى ما عرف إلا الضحك والفرح .. والمعيشة أضحت في أسوأ حال .. فمنذ الغزو وهو عاطل عن العمل لا يملك المال الذى يشترى به أبسط الأشياء .. كالشاى .. والشاى عند البدوى يعد من الضروريات الأساسية في حياته .. فاستعاض عنه إبراهيم بعشب برى يعرف باسم " المرمرية " له مذاق طيب .. وأصبحت المرمرية مشروبًا مستقلاً في بيته بعدما كانت وريقاتها تضاف إلى الشاى كالنعناع .

وسط هذا المناخ كانت المخابرات الإسرائيلية تعمل بنشاط زائد .. وتسعى لتصيد العملاء بسبب الضغوط المعيشية الصعبة وظروف الاحتلال .. فالاحتلال الفجائى لسيناء وقع على سكانها كالصاعقة ، فاختنقت نفوس الأهالى برغم اتساع مساحات الأرض والجبال .. ولكونهم ذوى تقاليد بدوية ومحبين للحركة والتجوال والتنقل ، أحسوا بثقل الأمر ولم يطيقوه .. لكن الظروف التي وضعوا فيها اضطرتهم إلى محاولة تحملها لثقتهم أنها أزمة لن تطول . لكن ما كان يحز في نفوسهم هو تضييق الخناق عليهم في المعيشة والتنقل .. فكانت التصاريح التي يمنحها الحاكم العسكرى الإسرائيلي لا تتم بسهولة .. وأصبح السفر إلى القاهرة يحتاج لمعجزة من السماء . فالتعنت في منح التصاريح بلغ منتهاه .. واشتدت عضات الغضب في الصدور .. إلى جانب آلام الجوع التي تنهش الأبدان وتجتث الصبر والقوة .

الأفعى النائمة

ضاقت الحياة باتساعها على إبراهيم وانشراح في العريش .. وخلا البيت من الطعام والشراب والسرور .. وخيمت قتامة سوداوية على نفسيهما .. فازدادا يأسًا وشوقًا إلى الأبناء في العاصمة .. وأمام البكاء المستمر الذى تورمت له عينا انشراح .. اندفع إبراهيم إلى مكتب الحاكم العسكرى يطلب تصريحًا له ولزوجته بالسفر إلى القاهرة .

ولما ماطلوه كثيرًا بوعود كاذبة .. صرخ في وجه الضابط الإسرائيلي قائلاً إنه فقد عمله ودخله ولا يملك قوت يومه .. فطمأنه الضابط « أبو نعيم » ووعده بالنظر في أمر التصريح في أسرع وقت .. وبعد حديث طويل بينهما حاول إبراهيم خلاله التقرب إليه لإنجاز التصريح .. أمر له أبو نعيم بجوال من الدقيق وبعض أكياس الشاى والسكر .. فحملها فرحًا إلى زوجته وهو يزف إليها السفر إلى القاهرة عما قريب .

استبشرت انشراح خيرًا وغمرتها السعادة بما جاءها به ، وغاصت في أحلامها وتخيلاتها باللقاء الحميم مع فلذات أكبادها . لكن الأيام تمر وأبو نعيم يعد ولا ينفذ .. ويعود إبراهيم في كل مرة محبطًا .. لكنه كان يحمل معه دائمًا أكياس المواد التموينيه التى أصبحت هى المصدر الوحيد للإعاشة .. ولولاها لمات جوعًا هو وزوجته .

وذات صباح فوجىء بمن يستدعيه لمكتب أبو نعيم .. فذهب إليه في الحال وقدم له الشكر على الإعانة الدورية التى يمنحها له .. فاخبره الضابط بأن الحاكم العسكرى وافق على منحه تصريح السفر هو وزوجته ..

تهلل وجه إبراهيم بشرًا وقبل ظهر يده شكرًا لله .. فباغته أبو نعيم وقال له بأن موافقة الحاكم السعكرى جاءت بشرط أن يكون متعاونًا ويأتيه بأسعار الفاكهة والخضروات في مصر .. والحالة الاقتصادية للبلد بواسطة أخيه الذى يعمل بالاستيراد والتصدير .

أجاب إبراهيم على الفور أن الشرط بسيط للغاية .. فبإمكانه القيام بهذه المسألة خير قيام .. وأضاف بأنه سيأتيهم بأسعار السلع الاستهلاكية والبقالة والسمك أيضًا .. ولو أنهم أرادوا أكثر من ذلك لفعل .

عندئذ .. وضحت الرؤية للضابط الإسرائيلى .. فقد نجح إبراهيم شاهين فى الاختبار الأولى .. وكان عليه أن يتصرف معه حسبما هو متبع .. ويحيله إلى الضابط المختص لإكمال المهمة .. فدوره ينحصر فقط فى " الفرز " لا أكثر .

. وبينما إبراهيم وانشراح يحتفلان بالأمل الجديد الذى راودهما طويلاً .. توقفت سيارة جيب أمام المنزل ، وطلب منه جندى أن يرافقه إلى مكتب الأمن .. وهناك كان ينتظره ضابط يدعى " أبو يعقوب " بالغ فى الاحتفاء به بدعوى أن أبا نعيم أوصاه به خيرًا . فشكره إبراهيم وأثنى على أبو نعيم وامتد بينهما الحوار لوقت طويل .. استشف أبو يعقوب بحاسته أن إبراهيم يدرك ما يبتغيه منه .. فطلب منه أن يذهب معه إلى بئر سبع .. حيث المكتب الرئيسى للأمن المختص بالتعامل مع أبناء سيناء .

وفى بئر سبع استضافوه وأكرموه بكل السبل ، ولوحوا له بإغراءات ما كان يحلم بمثلها يومًا .. ونظير إغراقه بالنقود وتأمين حياته وذويه فى العريش وافق إبراهيم على التعاون مع الإسرائيليين فى جمع المعلومات عن مصر .. وتسلم – كدفعة أولى – ألف دولار فى الوقت الذى لم يكن يملك فيه ثمن علبة سجائر .

لم تكن تلك الإغراءات أو التهديدات المغلفة هى وحدها السبب الأول فى سقوطه .. لكن تشريح شخصيته يعطينا مؤشرًا عن استعداده الفطرى للخيانة .. فلا يمكن لشخص سوىّ أن يستسهل بيع نفسه ووطنه هكذا بسهولة .. لمجرد منفعة مادية مؤقتة .. فالمؤكد أن خلايا الخيانة كانت قابعة بين أنسجته منذ ولادته .. وكان يجاهد كثيرًا حتى وجد لها منفذًا فأخرجها .

ففى بئر سبع تغير المشهد .. إذ تحول إبراهيم شاهين من مواطن يسعى للحصول على تصريح بالسفر إلى القاهرة .. إلى جاسوس لإسرائيل وعينًا لها على وطنه .

تناقض شاسع بين الحالين يدعونا للبحث فى تقلبات النفس البشرية التى لا يعلم سرها إلا خالقها ..

أخضع الجاسوس الجديد لدورة تدريبية مكثفة تعلم أثناءها الكتابة بالحبر السرى وتظهير الرسائل .. ووسائل جمع المعلومات من الأهل والأصدقاء .. درب أيضًا على كيفية التمييز بين الطائرات والأسلحة المختلفة .. واجتاز العميل الدورة بنجاح أذهل مدربيه .. فأثنوا عليه

ووعدوه بالثراء وبالمستقبل الرائع .. وبحمايته في القاهرة حتى وهو بين ذويه .. فعيونهم في كل مكان لا تكل .

دربوه أيضاً على كيفية بث الإشاعات وإطلاق النكات السياسية التي تسخر من الجيش والقيادة .. إلى جانب الاحتراز وامتلاك الحس الأمني العالي ، ولقنوه شكل الاستجواب الذي سيتعرض له حال وصوله القاهرة من قبل أجهزة الأمن . وكيف ستكون إجاباته التي لا تثير الشكوك من حوله .

وعندما رجع إلى بيته محملاً بالهدايا لزوجته وأولاده .. دهشت انشراح وسألته عن مصدر النقود .. فهمس لها بأنه أرشد اليهود عن مخبأ فدائي مصري فكافأوه بألف دولار .. ووعدوه بمنحه التصريح خلال أيام .

بهتت الزوجة البائسة لأول وهلة .. ثم سرعان ما عانقت زوجها سعيدة بما جلبه لها .. وقالت له في امتنان :

– كانوا سيمسكونه لا محالة .. إن عاجلاً أو آجلاً ..

فسألها في خبث :

– ألا يعد ذلك خيانة ..؟

ففرت فاها وارتفع حاجباها في استنكار ودهشة وأجابته :

– مستحيل .. كان غيرك سيبلغ عنه ويأخذ الألف دولار .. أنت ما فعلت إلا الصح .

غمغم إبراهيم كأنه مستاء مما فعل وأضاف :

– لقد عاملوني بكرم شديد .. ووعدوني بالكثير بسبب إخلاصي .. وتعهدوا بحماية أهلي وأقاربي إذا ما تعاونت معهم في القاهرة ..

صرخت انشراح في هلع :

– تعاونت معهم في القاهرة .. ؟ يانهار أسود يا إبراهيم .. كيف ..؟

وهو يغلق فمها بيده :

- طلبوا منى موافاتهم بأسعار الخضر والفاكهة فى مصر نظير ٢٠٠ دولار لكل خطاب.

أذهلها المبلغ فسرحت بخيالها وألجمها الصمت ثم قالت له فيما يشبه الهمس :

- أنا خائفة .

جذبها إلى صدره واحتضنها بقوة وأخذ يردد :

- أنا لا أملك عملاً الآن وليس لى مورد رزق .. وبالمعلومات التافهة التى طلبوها سآخذ الكثير وسنعيش فى مأمن من الفقر .. ثم إننى لست عسكريًا حتى أخاف على نفسى .. ولأننى رجل مدنى فمعلوماتى ستكون هزيلة ولن تفيدهم بشىء .

وظل الثعبان ينفث السم الزعاف فى أذنى زوجته حتى هدأت .. وشمل المنزل سكون لا يقطعه إلا صوت ارتطام الرغبة .. وتصادم جسدان يلهثان بفعل رعشات الشوق وحرارة اللقاء .

وبعدما هدأت الأنفاس وجف العرق .. وارتمت الأعضاء تتوسل الراحة .. لامست بخدها خدَّه .. ولفح وجهه شعرها الكث الناعم الرطب .. وأعلنت المفاجأة التى شلت تفكيره .. وتركيزه أيضًا ..

قالت له إنها لكى لا تكون قلقة خائفة .. يجب أن يطلعها على رسائله أولاً بأول .. وأن تقوم بشطب أية معلومات لا داع لإرسالها لهم .

ولما وافقها إبراهيم على الشرط النهائى لموافقتها .. نامت قريرة العين تتوسد ذراعه .. واستغرق هو فى تفكير عميق .. بينما أنفاسها المنتظمة الرتيبة تشبه فحيح أفعى تتربص بفريستها .

أفضل تغطية

في ١٩ نوفمبر ١٩٦٧ وصل إبراهيم وانشراح إلى القاهرة بواسطة الصليب الأحمر الدولي .. فمنح سكنًا مجانيًا مؤقتًا في حي المطرية .. ثم أعيد إلى وظيفته من جديد بعدما نقلت محافظة سيناء مكاتبها من العريش إلى القاهرة .

وبعدما استقرت الأمور قليلاً .. انتقل إبراهيم إلى حي الأميرية المزدحم .. ومن خلال المحيطين به في العمل والمسكن .. بدأ في جمع المعلومات وتصنيفها .. وكانت زوجته تساعده بتهيئة الجو الآمن لكتابة رسائله بالحبر السري .. وكثيرًا ما كانت تعيد صياغة بعض الجمل بأسلوب أفضل .. وتكتب أيضًا تحياتها إلى الموساد على أنها شريكة في العمل .. واعتاد إبراهيم أن يختتم رسائله بعبارة : « تحيا إسرائيل العظمى .... موسى » .

ولأجل التغطية اتجه إلى تجارة الملابس والأدوات الكهربائية .. وبواسطة المال والهدايا كان يتغيب كثيرًا عن العمل غالبية أيام الأسبوع . ولشهور عديدة تواصلت الرسائل إلى روما مزدحمة بالأخبار .. مما حدا برجال الموساد إلى دعوته إلى روما لاستثمار هذا الثنائي الرائع في مهام أكثر أهمية ..

وفي أغسطس ١٩٦٨ وتحت ستار التجارة لا أكثر .. أبحر الثعبان والحية إلى لبنان .. ومنها طارا إلى روما حيث التقيا بمندوب الموساد الذي سلمهما وثيقتي سفر إسرائيليتين باسم موسى عمر ودينا عمر .. وعلى طائرة شركة العال الإسرائيلية طارا إلى مطار اللد ..

كان استقبالهما في إسرائيل بالغ الحفاوة والترحيب .. إذ عوملا معاملة كبار الزوار .. وأنزلا بفيلا خيالية في تل أبيب مكثا بها ثمانية أيام .. حصلا خلالها على دورة تدريبية مكثفة في تحديد أنواع الطائرات والأسلحة .. والتصوير الفوتوجرافي .. وجمع المعلومات .. ومنح إبراهيم رتبة عقيد في الجيش الإسرائيلي باسم موسى . أما انشراح فقد منحت رتبة ملازم أول باسم دينا .

وفي مقابلة مع أحد القيادات العليا في الموساد .. أكدت انشراح على ضرورة زيادة المكافآت لاشتراكها في العمل يدًا بيد مع إبراهيم .. ووصفت له صعوبة جمع المعلومات ما لم يشتركا معًا في جمعها وتصنيفها .. وأفاضت في سرد العديد من الحيل التي تقوم بها لانتزاع المعلومات من العسكريين الذين صادقهم زوجها ويجيئون لمنزلهم .. ومن ذلك أنها تعلن بمرارة

مدى كراهيتها للإسرائيليين وتنتظر يوم الانتقام منهم .. ولأنهم يتحدثون مع امرأة جميلة سرعان ما تنفك عقدة ألسنتهم .. وتخرج الأسرار منهم بسهولة .. خاصة والخمر تدغدغ الأعصاب وتذهب بالعقل .

ونظرًا لأهمية المعلومات التى حصلوا عليها من خلال الجاسوس وزوجته .. فقد قرروا لهما مكافأة سخية وأغدقوا عليهما بآلاف الدولارات التى عادا بها إلى القاهرة .. حيث استغلا وجودهما وسط حى شعبى فقير فى عمل الصداقات مع ذوى المراكز الحساسة من سكان الحى .. وإرسال كل ما يصل إليهما من معلومات إلى الموساد فورًا ..

لقد برعا خلال حرب الاستنزاف - ١٩٦٧ - ١٩٧٠ - فى التحليل والتصنيف ، وتصوير المنشآت العسكرية أثناء رحلات للأسرة بالسيارة الجديدة فيات ١٢٤ .

يقول الابن الأصغر عادل فى حديث نشرته جريدة معاريف الإسرائيلية عام ١٩٩٧ .

« لن أنسى ذلك اليوم المعلون من صيف ١٩٦٩ طيلة حياتى .. فقد استيقظت مبكرًا على صوت همسات تنبعث من حجرة نوم والدى . كان أبى وأمي مستغرقين في نقاش غريب .. وكانت أمي تمسك في يدها حقيبة جلدية بينما كان أبي يحاول إدخال كاميرا إلى داخلها لم أر مثلها من قبل في ذلك الحين .

كانت أمي غاية في العصبية وقالت له : لا ليس كذلك .. هكذا سيرون الكاميرا . فأخرج أبي الكاميرا وأدخلها مرات ومرات إلى الحقيبة .. فجلست أنظر إليهما وهما يتناقشان .. ثم قال لى أبي : نحن ذاهبون فى رحلة إلى الإسكندرية .

وخلافًا لنا نحن الأولاد الذين سعدنا جدًا بالقيام بهذه الرحلة .. كان الوالد والوالدة غاية في القلق .. ولم أرهما متوترين إلى هذا الحد من قبل .

أخذ أبي يتصبب عرقًا كلما ابتعدنا عن القاهرة ، إلى أن بلل قميصه تمامًا كلما ابتعدنا أكثر وأكثر من القاهرة . وكان يتبادل الكلمات مع أمى بصعوبة . وصمتنا نحن أيضًا لشعورنا أن هذه الرحلة ليست ككل رحلة .

وفى تلك الفترة كانت هناك قواعد عسكرية ومصانع حربية كثيرة متناثرة حول الطرق الرئيسية فى مصر . لم تخف السلطات شيئًا . ربما كنوع من استعراض القوة . وعندما بدأنا فى الاقتراب من إحدى القواعد العسكرية أخرجت أمى الكاميرا وأمرها أبى قائلاً :

« صَوِّرى .. ياللاّ صَوِّرى .. صَوِّرى » .

فقالت له وأصابعها ترتعش :

« ستذهب إلى الجحيم بسببك » .

وحركت أمى الجاكيت المعلق على النافذة وبدأت فى التصوير . وامتلأت السيارة الصغيرة بصرخاتها المزوجة بالخوف . فأجابها أبى بنفس اللهجة :

« هذه نهايتنا » .

واستمرت أمى فى احتجاجها قائلة :

« سنذهب إلى السجن » .

وفى النهاية نظر أبى إليها بعيون متوسلة :

« عدة صور أخرى .. فقط عدة صور أخرى » .

وحاول « محمد » أن يسأل ما الذى يحدث لكن الرد الذى تلقاه كان « اسكت » فلم نسأل أية أسئلة أخرى بعد ذلك .

عدنا للبيت سعداء فى ذلك اليوم . وعلى الفور أغلق أبى حجرته على نفسه وبعد فترة طويلة خرج وعانق أمى وقال لها :

« يا حبيبتى لقد قمت بالتقاط صور رائعة للغاية » ..

وبكت أمى وقالت له :

« إلى هنا يجب أن نشرح الأمر للأولاد » .

وكنا مازلنا فى صدمة وغير مدركين لهذه الجلبة التى تحدث .

وتحولت الرحلات الأسرية فى أنحاء مصر إلى روتين .. وكنا نخرج فى نهاية كل أسبوع وكنا نسافر إلى الأقصر ، وأسوان ، ليس هناك مكان لم نذهب إليه .. وأحيانًا كان أبى يحصل على أجازة فى وسط الأسبوع وكنا نسافر لعدة أيام .. وقد صَوَّرت قواعد ومنشآت عسكرية فى مصر .. وكان أبى يُسجِّل عدد الكيلو مترات فى الطريق .. وبذلك يحدد موقع المصانع والقواعد العسكرية .. وكنا نحن الأولاد أفضل تغطية » .

ضمان الولاء

تعددت زيارات إبراهيم وانشراح إلى روما .. بعضها كان باستدعاء من الموساد .. والبعض الآخر كانت لاستثمار عشرات الآلاف من الدولارات التى حصلوا عليها من جراء عملهما فى التجسس .

وفى إحدى هذه الزيارات .. قررا إشراك ولديهما لزيادة الدخل بتوسع حجم النشاط .. ولم يكن من الصعب عليهما تنفيذ ما اتفقا عليه ..

يقول الابن عادل فى حديثه المنشور بجريدة معاريف :

عاد أبى وأمى ذات مساء من روما يحملان لنا الملابس الأنيقة والهدايا ..

وأحسست من خلا ل نظراتهما لبعضيهما أن هناك أمرًا ما يجرى الترتيب له . وعرفت الحقيقة المرة عندما أجلسنى أبى قبالته أنا وأخوىَّ وقال فى حسم :

مررنا كثيرًا بظروف سيئة .. لم نكن نملك أثناءها ثمن رغيب الخبز .. أو حفنة من الملح . والآن نعيش جميعًا فى رغد من العيش .. ويسكن حوالينا أولاد فى عمركم يحيون جوعى كالعبيد .. أما أنتم فتنعمون بكل شىء كالملوك . ولم تسألونى يومًا من أين جئت بكل هذا .. ؟

إن عملى فى الحكومة .. وتجارتى أنا وأمكم وشقائى طوال تلك السنوات لم يكن هو سبب النعيم الذى نحن فيه جميعًا الآن ..

والحقيقة .. أن هناك أناسًا يحبوننا للغاية .. وهم هؤلاء الذين يرسلون لنا الهدايا والمال .. وبفضلهم لدينا طعام طيب وملابس جميلة .. إنهم الإسرائيليون .. وهم الذين أنقذوا حياتنا من الجوع والضياع .. وأمّنوا لنا مستقبلاً مضمونًا يحسدنا عليه كل من نعرفهم ..

حدث ذلك في صيف ١٩٧١ ، وكنت وقتها في الثالثة عشر من عمرى ، وكان أخى نبيل يكبرنى بعامين تقريبًا وأخى محمد بعام واحد .

وكطفل .. لم أعر الأمر أهمية خاصة .. لحقيقة أن أبى « يعمل » مع الإسرائيليين . ومثل كل الأولاد .. كنت قد كبرت وتربيت على كراهية اليهود.. لكن في البيت تلقيت تربية أخرى .. فقد عرفت أن الإسرائيليين هم المسئولون عن الطعام الذى آكله .. وعن الملابس الجديدة التى أرتديها .. وعن الهدايا التى أتلقاها .. لذلك .. سعدت لأننى كنت محظوظًا .

وكلما كبرت .. بدأت أدرك معنى « عمل » أبى .. وبدأ الخوف ينخر أكثر وأكثر في عظامى .. فقد كانت كماشة من الموت تطبق علينا .. وكفتى بالغ أدركت أنهم لو ضبطونا سيتم شنقنا .. من ناحية أخرى كان الخوف من حياة الفقر يصيبنى بالشلل .. فقد كنت ملكًا لديه كل شيء » .

هكذا انخرطت الأسرة كلها في التجسس .. وأصرت انشراح على الانتقال من الحي الشعبى الفقير إلى آخر أكثر رقيًا وثراء .. وعندما عارض زوجها قالت له :

دعنا نستمتع بالحياة فربما ضبطونا .

وفي النهاية انتقلوا إلى فيلا فاخرة بمدينة نصر .. ونقل نبيل ومحمد وعادل مدارسهم إلى الحي الراقي الجديد .

احتفظ إبراهيم شاهين بعلاقاته القديمة وأقام أخرى جديدة .. وامتلأ البيت مرة أخرى بالأصدقاء من رجال الجيش والطيارين .. وتحول أولاده إلى جواسيس صغار يتنافسون على جلب المعلومات من زملائهم أبناء الضباط في المدرسة والشارع .. ومناوبة الحراسة ريثما ينتهى أباهم من تحميض الأفلام .. فكان نبيل يتولى المراقبة من الخارج .. وعادل من داخل

البيت .. وحصل نبيل على أدوار أكثر جدية .. فكان أبوه يسمح له بكتابة الرسائل بالحبر السرى وتظهيرها .. وصياغة التقارير وتحميض الصور .

وذات مساء بينما هم جميعًا أمام التليفزيون .. عرض فجأة فيلم تسجيلى عن أحد الجواسيس الذى انتهى الأمر بإعدامه شنقًا .. وطوال وقت عرض الفيلم انتابتهم حالة صمت تضج بالرعب والفزع .. واستمروا على تلك الحال لأسابيع طويلة .. امتنعوا خلالها عن كتابة التقارير أو الرسائل .. حتى تضخم لديهم الخوف وأصيبوا بالصداع المستمر .. ومرض إبراهيم فاضطرت انشراح للسفر وحدها إلى روما تحمل العديد من الأفلام .. خبأتها داخل مشغولات خشبية .

كانت الرحلة إلى روما منفذًا ضروريًا للخروج من أزمتها النفسية السيئة .. وفى الوقت نفسه لتطلب من رجال الموساد السماح لهم بالتوقف عن العمل .. فلما التقت بأبو يعقوب ضابط الموساد الداهية .. قصت عليه معاناتهم جميعًا ومدى الخوف الذى يسيطر على أعصابهم .. فطمأنها الضابط ووعدها بعرض الأمر على الرئاسة فى تل أبيب .. وصحبها إلى ناد ليلى فرقصت وشربت لتنسى همومها .. وعادت معه آخر الليل ثملة لا تعى ما حولها .. وفى الصباح وجدت نفسها عارية بين أحضانه فبكت .. ومع أحضانه الدفيئة تكرر المشهد وهى بكامل وعيها .. فذاقت للجنس طعمًا جديدًا لا تعرفه .. ولم تتذوقه مع زوجها الذى انشغل عنها ولم يعد يهتم بها .. بعدها عادت إلى القاهرة تحمل آلاف الدولارات . وكانت قبلما يفترقا فى روما قد طلبت منه أن يرسل فى طلبها بمفردها فى المرات القادمة ..

هكذا . لقد نسيت انشراح رغبتها فى اعتزال الجاسوسية .. واستمرأت مذاقات اللذة الجامحة مع ضابط الموساد الذى لم يبخل عليها بفحولته المغلفة بالحنان .. وبالرغم من أن ما حدث يخالف وظيفة ضابط المخابرات ومهامه .. إلا أنه ما لجأ إلى ذلك سوى لرغبته فى احتوائها .. وضمان ولائها لإسرائيل .

وفى آخر سبتمبر ١٩٧٣ كانت انشراح بمفردها فى رحلة أخرى إلى روما .. فاستقبلها أبو يعقوب المسئول عن توجيهها واستلام التقارير والأفلام منها . لذلك فقد كان عليه أن يسارع بمغادرة بئر السبع إلى اللد ثم روما فى كل مرة تطير فيها انشراح خارج القاهرة . وفى ذات الوقت كان الضابط الإسرائيلى مكلف بألا يتعدى أية حدود مع الجاسوسة المصرية طالما رغبت هى فى ذلك .. لكن ولأن انشراح كانت من النوع الحار لم تجد غضاضة فى

أن تنغمس في بحور اللذة لا تريد الطفو على السطح أبدًا .. حتى فاجأها أبو يعقوب بنبأ هجوم الجيش المصرى والسورى على إسرائيل .. وأن احتمال القضاء على دولة اليهود أصبح وشيكًا . كان يقول لها ذلك وهو يبكي ويرتعد جسده انفعالاً .. فأخذت تواسيه وتبكى لأجله ولأجل إسرائيل .. الدولة الصغيرة التي يسعى العرب لتدميرها (!!) .

وفي أبريل ١٩٧٤ اقترحت إنشراح على أسرتها السفر إلى تركيا للسياحة .. وبينما هم في أنقرة اتصل بهم أبو يعقوب وطلب من إبراهيم أن يسافر إلى أثينا لمقابلته . ومن هناك سافر إلى إسرائيل . وفي مبنى المخابرات الإسرائيلية سألوه :

كيف لم تتبين الاستعدادت للحرب في مصر ؟

فأجابهم :

– لم يكن هناك إنسان قط يستطيع أن يتبين أية استعدادت . فبعض معارفي وأقاربي من ضباط القوات المسلحة تقدموا بطلبات لزيارة الكعبة للعمرة .

وأضاف إبراهيم :

في حالة ما إذا كنت قد علمت بنية الحرب فكيف أتصل بكم ..؟ فالخطابات تأخذ وقتًا طويلاً وهي وسيلة الاتصال الوحيدة المتاحة .

وبعد اجتماع مطول قرر قادة الموساد تسليم إبراهيم أحدث جهاز إرسال لاسلكى فى العالم يتعدى ثمنه المائة ألف دولار . فلقد كانت لديهم مخاوف تجاه الفريق سعد الدين الشاذلى الذى يريد تصعيد الحرب .. والوصول إلى أبعد مدى فى سيناء مهما كانت النتائج .. عكس السادات الذى كان يريدها حربًا محدودة ..

دُرِّب إبراهيم لمدة ثلاثة أيام على كيفية استخدام الجهاز .. وعندما تخوف من حمله معه إلى القاهرة .. عرضوا عليه أن يذهب إلى الكيلو ١٠٨ طريق القاهرة السويس الصحراوى .. وهناك سيجد فنطاس مياه كبير مثقوب وغير صالح للاستخدام .. وخلفه جدار أسمنتى مهدم عليه أن يحفر فى منتصفه لمسافة نصف المتر ليجد الجهاز مدفونًا . وأخبره ضابط الموساد الكبير أن راتبه قد تضاعف . وأن له مكافأة مليون دولار إذا ما أرسل للإسرائيليين عن يقين بميعاد حرب قادمة .

عاد إبراهيم إلى أثينا ثم أنقره حيث تنتظره الأسرة .. فقضوا أوقاتًا جميلة يستمتعون بالمال الحرام وبثمن خيانتهم .

نهاية كل خائن

عندما رجعوا إلى القاهرة استقلوا السيارة إلى الكيلو ١٠٨ وغادرت انشراح السيارة وبيدها معول صغير .. وظلت تحفر إلى أن أخرجت الجهاز .. فنادت على ابنها عادل الذى عاونها وحمله إلى السيارة ملفوفًا فى عدة أكياس بلاستيكية .. وعندما ذهبوا بالجهاز إلى المنزل أراد إبراهيم تجربته بإرسال أولى برقياته فلم يتمكن من إكمال رسالته .. بعدما تبين له أن مفتاح التشغيل أصيب بعطل (ربما نتيجة الحفر بالمعول) .

حزن الجميع .. لكن انشراح عرضت السفر لإسرائيل لإحضار مفتاح جديد . وسافرت بالفعل يوم ٢٦ يوليو ١٩٧٤ ففوجىء بها أبو يعقوب ودهش لجرأتها .. وأراد الاحتفاء بها فأقام حفلاً صاخبًا ماجنًا على شرفها انتهى بليلة حمراء .. فأمتعت جسدها المتعطش لفحولة أبو يعقوب .. وأرقها الابتعاد عنه والحرمان من خيراته المذهلة وتفننه فى إشباعها . ومنحها مكافأة لها ٢٥٠٠ دولار مع زيادة الراتب للمرة الثالثة إلى ١٥٠٠ دولار شهريًا (كان مرتب الموظف الجامعى حينذاك حوالى ١٧ جنيهًا) .

وأثناء وجود انشراح فى إسرائيل تائهة بين أحضان ضابط الموساد ، كانت هناك مفاجأة خطيرة تنتظرها فى القاهرة فعندما كان إبراهيم يحاول إرسال أولى برقياته إلى إسرائيل بواسطة الجهاز – استطاعت المخابرات المصرية التقاط ذبذبات الجهاز بواسطة اختراع سوفييتى متطور جدًا اسمه (صائد الموجات) وقامت القوات بتمشيط المنطقة بالكامل بحثًا عن هذا الجاسوس . ومع محاولة تجربة الجهاز للمرة الثانية أمكن الوصول لإبراهيم بسهولة .

وفى فجر ٥ أغسطس ١٩٧٤ كانت قوة من جهاز المخابرات المصرية تقف على رأس إبراهيم النائم فى سريره . استيقظ مذعورًا وفى الحال دون أن توجه إليه كلمة واحدة صاح فى هلع :

أنا غلطان .. أنا ندمان .. الجوع كان السبب .. النكسة كانت السبب .. اليهود جوّعونى واشترونى بالدقيق والشاى .

ولما فتشوا البيت عثروا على جهاز اللاسلكى ونوتة الشفرة .. والتزم إبراهيم الصمت .. وكان بدنه كله يرتجف . سحبوه فى هدوء للتحقيق معه فى مبنى المخابرات العامة ، بينما

بقيت قوة من رجال المخابرات فـي المنزل مع أولاده الثلاثة تنتظر وصول انشراح . تأكل وتشرب وتنام دون أن يحس بهم أحد .

وعلى طائرة أليطاليا رحلة ٧٩١ في ٢٤ أغسطس ١٩٧٤ ، وصلت انشراح إلى مطار القاهرة الدولي قادمة من روما بعد شهر كامل بعيدًا عن مصر ، تدفع أمامها عربة تزدحم بحقائب الملابس والهدايا . ونظرت حولها تبحث عن زوجها فلم تجده ، فاستقلت تاكسيًا إلى المنزل وهي في قمة الغيظ .. وعندما همت بفتح الباب اقشعر جسدها فجأة ، فدفعت بالباب لا تكترث .. لكنها وقفت بلا حراك .. وبالت على نفسها عندما تقدم أحدهم .. وأمسك بحقيبة يدها وأخرج منها مفتاحين للجهاز اللاسلكي بدلاً من مفتاح واحد . وكانت بالحقيبة عدة آلاف من الدولارات دسها الضابط كما كانت .. وتناول القيد الحديدي من زميله والخرست الكلمات على لسانها فكانت تتمتم وتهذي بكلمات غير مفهومة .. وقادوها مع ولديها إلى مبنى المخابرات وهناك جرى التحقيق مع الأسرة كلها .

ولما كانت المخابرات الإسرائيلية لا تعلم بأمر القبض على أسرة الجواسيس .. وتنتظر في ذات الوقت الرسالة التي سيبعث بها إبراهيم ليطمئنوا على كفاءة عمل الجهاز .. فوجئت الموساد بالرسالة .. لم تكن بالطبع من إبراهيم بل أرسلتها المخابرات المصرية ..

« أوقفوا رسائلكم مساء كل أحد .. لقد سقط جاسوسكم وزوجته وأولاده . وقد وصلتنا آخر رسائلكم بالجهاز في الساعة السابعة مساء الأربعاء الماضي » .

وفي ٢٥ نوفمبر ١٩٧٤ صدر الحكم بإعدام انشراح وزوجها شنقًا . والسجن ٥ سنوات للابن نبيل وتحويل محمد وعادل لمحكمة الأحداث .

وفي ١٦ يناير ١٩٧٧ سيق إبراهيم إلى سجن الاستئناف بالقاهرة لتنفيذ الحكم . كان لا يقو على المشي .. وإلى حجرة الإعدام كان يجره اثنان من الجنود وساقاه تزحفان خلفه بينما هو يضحك في هستيريا ثم يبكي .. وبعدما تيقن من أنه سوف يُعدم أخذ يردد آيات من القرآن الكريم بكلمات غير مفهومة ثم صاح في انهيار : سامحني يا رب .. وتلا عليه مأمور السجن منطوق الحكم .. ثم ردَّد الشهادتين وراء واعظ السجن .. عندئذ عرضوا عليه آخر طلب له قبل إعدامه فطلب سيجارة .. وبعد أن انتهى من تدخينها جرُّوه جرًا إلى داخل غرفة الإعدام .. فقام عشماوي بتقييد يديه خلف ظهره .. ثم ألبسه الكيس الأسود ووضع الحبل في رقبته .. وشد ذراعًا فانفتحت طاقة جهنم تحت قدميه .. وظل الجسد معلقًا في الهواء

يتأرجح إلى أن همد وسكن .. واستمر النبض ثلاث دقائق وعشر ثوان بعد التنفيذ .. حتى أعلن طبيب السجن وفاة الجاسوس الذى ظل يتعامل مع الموساد طوال سبع سنوات .

أما انشراح فقد ترددت الأنباء فى حينها عن شنقها هى الأخرى .. ولكن فى ٢٦ نوفمبر ١٩٨٩ نشرت صحيفة « حدا شوت » الإسرائيلية قصة تجسس إبراهيم على صفحاتها الأولى .. وذكرت الصحيفة أن ضغوطًا مورست على الرئيس السادات لتأجيل إعدام انشراح بأمر شخصى منه .. ثم أصدر بعد ذلك عفوًا رئاسيًا عنها .. وتمكنت انشراح (فى صفقة لم تعلن بعد تفاصيلها) من دخول إسرائيل مع أولادها الثلاثة .. حيث حصلوا جميعًا على الجنسية الإسرائيلية واعتنقوا الديانة اليهودية .. وبدلوا اسم شاهين إلى (بن ديفيد) واسم انشراح إلى (دينا بن ديفيد) وعادل إلى (رافى) و نبيل إلى (يوسى) ومحمد إلى (حاييم) .. !!!

رافى بن ديفيد

وعن اللحظات الأخيرة التى وضعت نهاية أسرة الجواسيس .. يقول أصغر الأبناء – عادل – فى حديثه لصحيفة معاريف الإسرائيلية[1] .

بعد حرب ٧٣ قرر والدى نهائيًا أن تكون هذه هى السنة الأخيرة لهم فى أعمال التجسس . وكانت الخطة تقضى ببيع البيت والممتلكات والسفر للولايات المتحدة .. وأنا كفتى فى الخامسة عشرة من عمره أنذاك فكرت قطعًا فى المستقبل .. ووعدنى والدى بإرسالى للدراسة فى أفضل كلية هناك . وبعد أن اتخذوا قرارًا بأن تكون هذه هى السنة الأخيرة لنا فى مصر شعرنا أننا أكثر راحة وأزيح حجر ثقيل من على صدورنا .

لكن كان هناك حادثان فى تلك السنة هزا ثقتنا . فقد أراد والدى تجنيد شقيقه أيضًا . وأتذكر النقاشات التى دارت بين أمى وأبى حول ذلك .. فقد خافت أمى من أن يسلمنا شقيق والدى .. وحتى اليوم لست أعرف هل عرف بذلك الأمر أم لا ؟ .

(١) نشرته جريدة العربى القاهرية فى نوفمبر ١٩٩٧ .

والحادث الآخر كان بعد الحرب عندما قمنا بزيارة الأخوال .. وتشاجرت شقيقة أمى « فتحية » مع ابنتها نجوى .. وكانت هناك صرخات عالية فى البيت وحاول أبى التدخل .. فأغلقت نجوى باب دورة المياه عليها وصرخت فى أبى :

« لماذا تتدخل ؟ فالجميع يعرف أنك تعمل مع الإسرائيليين » .

فدخل أبى وراءها وصفعها ، وحتى اليوم لا أعرف من أين عرفت .. وشعرنا أن الأمور خرجت عن السيطرة .

وفى إحدى المرات التى سافرت فيها أمى إلى روما كى تحصل على قطع غيار لجهاز البث الذى عطب .. عاد أبى من العمل شاحبًا ، وجلس على أحد المقاعد ونظر لى وهمس :

« أعتقد أنهم قد تمكنوا منى » .

وصمتنا ، وأضاف :

« لقد سألوا عنى فى العمل » .

فبعد سبع سنوات من التجسس كان لأبى حواس حادة ، وعندما قال لنا أنهم قد تمكنوا منه كان قد عرف ذلك عن يقين .

كان لدينا فى البيت حوالى ٦ شرائط أفلام ، وبدأ أبى فى تمزيقها وحرقها وحرق الخطابات .. وأدركنا أن الحكاية قد انتهت .. وحتى اليوم لست أدرى لماذا لم يأخذنا أبى ويهرب ولماذا لم نطلب منه الهرب ؟! وأنا أسترجع تلك الأيام فى مخى حتى اليوم لا أفهم لماذا ظللنا فى البيت ؟ .

وفى صباح أحد الأيام استيقظنا على صوت طرقات قوية على الباب ، وفى المدخل وقف ثلاثة من الرجال وسألوا أين أبى ؟ فقلت لهم إنه فى العمل ، فدخلوا وطلبوا انتظاره . جلس اثنان منهم فى الصالون والآخر أخذ مقعدًا وجلس بجانب الباب .. وقلت له :

« سيدى من فضلك أدخل إلى الصالون » .

فأجابنى قائلاً :

« أشعر بالراحة هنا » فتبادلت أنا وأخى نظرات فزعة ، وحاول نبيل الدخول إلى حجرة أبى كى يدمر الوثائق التى كانت هناك .. لكن الأدراج كانت مقفلة وكانت المفاتيح مع أبى ، فتبادلنا نظرات يائسة ولم نعرف ما يمكن أن نفعله .

مرت ساعة بدت كأنها الدهر ثم سمعنا أصوات سيارات . واقترب من البيت موكب يتكون من عشر سيارات وكانت سيارة أبي تسير ببطء في المنتصف ، وتوقفوا أمام المنزل ، واقتحم البيت عشرات الجنود ورجال المخابرات وأدخلوا أبي معهم .. وبدأوا في قلب البيت .. ولا يمكن وصف صرخات الفرحة التي خرجت من الجنود عندما وجدوا جهاز الإرسال وهنأوا بعضهم قائلين «مبروك» وأحنى أبي رأسه وهمس لنا : « آسف يا أولادى » .

ويكمل عادل الذى غير اسمه إلى (رافي بن ديفيد) حسب الرواية الإسرائيلية :

بعد القبض على والدى تركتنا السلطات المصرية وكنا في حالة يرثى لها .. وأردت البكاء والصراخ ولم أستطع .. فقد انتهى العالم بالنسبة لى .. وبعد ساعات تحدث أخي محمد للمرة الأولى « ماذا عن أمي ؟ » يجب أن نحكى لها ما حدث .

وفى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٧٤، في ساعات الصباح المبكر ، وصلت أمي إلى البيت ، وفي جيب سرى بالحقيبة كانت تخفى قطع غيار الجهاز .. وكانت قد اندهشت من عدم انتظار أبي لها في المطار ، وسألت عند دخولها : « أين أبوكم ؟ » وكان العناق بيننا باردًا فقلت لقد سافر أبي إلى الريف ، فهكذا طلب منا رجال المخابرات المصرية إخبارها .

وفهمت أمي على الفور فلا يمكن الكذب على من يحيا في ظل الموت ، فاقتحمت حجرة النوم للبحث عن الجهاز هناك ولم يكن الجهاز موجودًا ، فجرت نحو الحمام كي تتخلص من المواد التي تحملها . لكن كان قد فات أوان ذلك . فقد اقتحم البيت اثنان من رجال المخابرات ، قال لها أحدهما :

« حمدًا لله على سلامتك يا دنيا » فتظاهرت أمي بالبراءة وقالت :

« من هى دنيا ؟ » أنا انشراح ..

قالت ذلك بثقة فابتسم رجل المخابرات فى رضا :

« لقد اعترف زوجك بكل شيء » .

ذهبنا إلى مبنى المخابرات وأمام المبنى الذى كنت أعرفه جيدًا « فقد التقطنا له بعض الصور » استقبلني رئيس النيابة العسكرية محمد السبكي وقال لي :

« سترى أبويك قريبًا » .

وفي التحقيق الأول معي أنكرت وقلت إنني لا أعرف شيئًا فأخذني المحقق إلى القناء .

أصدقاء أبي

بدأت المحاكمة واحتفلت وسائل الإعلام بضبط شبكة التجسس العائلية .. واليوم الذى نشرت فيه القصة كان يوم عيد قومي في مصر ، ونقلت أمي إلى سجن القناطر للنساء ونقلنا نحن للسجن الحربي في القاهرة .. وقال أبي في كل مناسبة : « إن الإسرائيليين سوف ينقذوننا ويخلصوننا بعملية خاصة » وحرص على أن يسمع الضباط المصريون أن أصدقاءنا لن يتركونا .

أدخل أبي إلى فرع المحكوم عليهم بالإعدام ونبيل الذى كان يبلغ ١٨ عامًا إلى الفرع الحربي .. وتم إدخال محمد إلى فرع ثالث به أشخاص ينتظرون عقوبتهم .. وأدخلوني أنا – وكنت في السادسة عشرة – إلى فرع القتلة المحكوم عليهم بالإعدام .. أدركت أنها النهاية . ولم أبك فكنت في حالة من اللا مبالاة ، وبعد شهر تم إخراجي لأول مرة ، واقتدت إلى المحاكمة وكان والدى وإخوتي هناك .. وانقض المصورون علينا وكان المشهد فظيعًا .

وفي الخامس والعشرين من نوفمبر صدر الحكم .. وتم اتهامنا بخيانة الوطن والتجسس لحساب إسرائيل .. وحكم على والدىّ بالإعدام ، وعلى نبيل بخمس سنوات أشغالٍ شاقة ، وتم إعادتي وأخي محمد إلى السجن إلى اليوم الذى يصدق فيه الرئيس أنور السادات على حكم الإعدام .

في ذات اليوم ودعنا والدينا ، وأدركت أن الأسوأ من كل شيء قد حدث .. وعدت إلى زنزانتي وأردت بالفعل الخروج للحرية .. لكنني صليت من أجل

ألا يوقع الرئيس السادات على قرار الحكم .. لأنه فى نفس اليوم الذى سأخرج فيه سيتدلى والدى من حبل المشنقة ، وتتحول الأيام إلى أسابيع والأسابيع لشهور .. وظللت هكذا لمدة عامين فى السجن .. وكل فترة كان مدير السجن يسمح لنا بلقاء أبى لكنها كانت لقاءات قصيرة ومؤثرة ، وكان أبى المرتدى ملابس الإعدام الحمراء يقول لنا عن الإسرائيليين :

« عندما أموت ويتم إطلاق سراحكم سافروا إلى إسرائيل .. إلى أصدقائى » .

بعد عامين من رؤيتنا إياها للمرة الأخيرة .. ودون إعداد مسبق .. أخذونى وأخى محمد إلى سجن النساء للقاء أمى .. واستمر اللقاء عشرين دقيقة ، وأدركنا أن نهايتها قد اقتربت فمنح مثل هذا التصريح يشير إلى أنه سيتم إعدام أمى فى الأيام القريبة .

وتم إعادتنا للسجن الحربى .. وبعد عدة أيام جاء لزيارتنا بشكل مفاجىء شقيق أمى .. وتوقعت أنا وأخى محمد أنباء سيئة إلا أنه كان سعيدًا .. وبشرنا قائلاً أنه تم إطلاق سراحكم وسراح أمكم .

بعد ذلك بأسبوع صدق الرئيس السادات على إعدام أبى لكنه عفا عن أمى .

وللتمهيد أمام الرأى العام فى الشوارع لعملية إطلاق سراح انشراح .. خرجت الصحف اليومية المصرية بتحقيقات عن تحول أمى إلى قديسة .. ومرورها بفترة من الاعتراف بالإثم ، وذلك بعد عامين من إعلان هذه الصحف أن أمى خائنة تستحق الموت . ولم يقبل الشعب المصرى قصة انشراح القديسة ، وكثيرًا ما مررنا بالشوارع ويبصق علينا الناس وسبُّونا .. وعدنا إلى الوراء عشر سنوات .. إلى الفقر والجوع .. وفى البداية أقمنا عند شقيقة والدتى .. وبعد ذلك انتقلنا للإقامة فى الجيزة .. وعملت أنا ومحمد فى أعمال مؤقتة ومن اكتشف من أصحاب الأعمال من نحن سارع بفصلنا على الفور ، وفى النهاية بدأنا المتاجرة فى الملابس وأدوات المطبخ ، وكنا نعطى ما نكسبه لأمى ونبيل اللذين كانا لا يزالان فى السجن ، وفى لقاءاتنا القصيرة مع أبى كان ينصحنا بالسفر لإسرائيل ، لكن كنا لا نزال تحت مراقبة المخابرات طوال الوقت .

عذاب الخونة

وفى ١٦ يناير ١٩٧٧ عندما وصلنا أنا وأخي إلى البيت ، وجدنا أمي منخرطة في البكاء .. فقد كانوا قد أخبروها قبل ذلك بقليل أنه تم إعدام أبي في الصباح.. ولم نتمكن من رؤيته أو رؤية جثته . وفى اليوم التالى فقط نشرت صورته في كل الصحف وهو يدخن السيجارة الأخيرة قبل الإعدام .

وأدركت فجأة بعد ذلك أنه ليس لدى ما أبحث عنه في مصر ، وفي هذا العام رأيت القدس لأول مرة في التليفزيون ، حين تم نقل زيارة الرئيس السادات للقدس . وأخبرت أمي أنني أنوى الهرب من مصر إلى إسرائيل ، وكانت الخطة هي التطوع في منظمة التحرير الفلسطينية ، فقد عرفت أنهم يرسلون رجالاً من لبنان إلى إسرائيل .. واعتقدت أنه ربما يكون ذلك هو أضمن طريق للوصول إلى هناك ، وجندت في المنظمة واستقبلني « الإرهابيون » بأذرع مفتوحة ، وصدقوا قصة الشاب المحبط الذى يريد الانتقام من إسرائيل على ما فعلته بأبيه ، وعندما أدركت أنهم لا ينوون إرسالى لإسرائيل وإنما للتدريبات في أفريقيا تركت المنظمة .

وفى عام ١٩٨٠ قررت محاولة الوصول إلى إسرائيل عن طريق العريش التي كانت قد أعيدت لمصر ، وسافرت أنا ومحمد إلى العريش كي نعبر الحدود ، وخاف محمد وعاد للقاهرة وتصادقت أنا مع فتى بدوى وظللت مع أسرته لمدة ثلاثة أيام .. وبعد ذلك قام الفتى بتهريبي إلى إسرائيل عبر الحدود .

وبعد وصولى بشهور معدودة ، نجح إخوتي أيضًا في التسلل ودخول إسرائيل .. في البداية تم تسكيننا في منزل للمتعاونين في قلقيلية على حدود كفار – سابا – وبعد سنة انتقلنا إلى مركز للاستيعاب .. وحصلنا على وثائق هوية إسرائيلية وعادت الحياة لتصبح جميلة .. ومن هناك أكملنا إلى حيفا وهناك اجتزنا « كورس » في الخدمة بالمطاعم والفنادق كي نحصل على مهنة .

تحولت لرافي وتحول محمد إلى حاييم ونبيل إلى يوسي .. وأحيانًا اعتقد العرب الذين عملوا معنا أننا من المتعاونين ودخلوا في شجار معنا واليهود من الناحية الأخرى أيضًا لم يفهمونا .. فقد تحولنا إلى إسرائيليين فجأة ، وكان هذا سريعا جدًا بالنسبة لنا ربما أسرع من اللازم .. وانتقلنا إلى بئر سبع وتهودنا تمامًا وأصبحنا يهودًا .

ورغم ما حصلنا عليه من أموال .. إلا أن مذاقًا مرًا بقي في فمنا .. وطوال سنوات حاولت أن أفهم كيف تم القبض علينا ؟ في إسرائيل اتهموا والدى بأنه لم يكن حذرًا بما يكفى ، وأحيانًا أعتقد أن يدًا مجهولة .. تحديدًا في جهاز الأمن هنا في إسرائيل .. أرادت أن يتم ضبطنا بعد تقصير حرب أكتوبر .. وإلا فكيف نفسر جهاز الإرسال العطب الذى أرسلوه لنا ؟ وكيف نفسر حقيقة أنه عندما كانت أمى في روما لم تعرف المخابرات الإسرائيلية أن أبى قد ضبط وأرسلوا أمى ثانية إلى مصر ؟

وقد انجذبت إلى القاهرة كما تنجذب الفراشة إلى النار ، وحاولت الهرب إلى القاهرة ثمانى مرات .. ومنذ عدة سنوات ضبطونى على الحدود وأخذونى في أتوبيس لتل أبيب وهناك تم التحقيق معى لفترة طويلة .

مرت عشرون عامًا منذ ذلك اليوم الذى تم فيه إعدام أبى ، وقد أطلقت على ابنى اسم موشيه – أى موسى .. وهو الاسم الكودى الذى حمله أبى الكولونيل موسى ، واليوم أيضًا فإن الأشخاص الذين يلتقون معى للمرة الأولى لا يعرفون كيف يحددون من أنا .. هل أنا عربي ؟ أم يهودى ؟ ويسألوننى هل أنت عربى ..؟ وأرد بأدب شارحًا لهم إننى مصرى قد تهوَّد ، ومن يبدى اهتمامًا أكثر أروى له قصة حياتى فيقولون لى... أحسنت « ويربتون على كتفي » وعندما يبتعدون أدرك تمامًا فيما يفكرون ويعتقدون « إن الخائن يظل خائنًا لا يغير من الأمر أين يكون فهو أسوأ البشر » وأنا إلى الآن مازلت أعيش فى الماضى .. ولم أنجح فى التخلص منه .. وقد تورطت فى أعمال فاشلة وأنا عاطل وغارق في ديون ثقيلة ، وطلقت

زوجتي ، لكن جذوري الآن في إسرائيل ، ابني هنا ، وجاء إخوتي ورائي وأمي أيضًا ، واسم أمي على نفس الاسم الكودي الذي أعطى لها دينا ، وأخي يوسي عاني كثيرًا في السجن وهو لا يتحدث عن الماضي ، ويعيش منذ سنوات مع زوجته في البرازيل ، ويعمل حاييم في مصنع للمعادن في وسط إسرائيل .. وكلنا آباء لأطفال فماذا سنروي لأولادنا ؟ سنقول لهم إن جدكم كان بطلاً وكان يسمى إبراهيم شاهين .. لكنه كان أكثر صهيونية من أي صهيوني آخر تعرفونه .. لكن جثته لا تزال في مصر .. ولا يوجد في إسرائيل نصب تذكاري لذكراه ولا شارع يحمل اسمه .. وفي ذكراه لا يوجد قبر نذهب لزيارته ..؟!! .

وأمي اليوم في الستين[1] وتمر بها موجة من الحنين ، وتود العودة إلى مصر ، فهي تريد رؤية إخوتها والشارع الذي سكنت فيه ، وطبعًا لا تسمح لها السلطات المصرية بذلك .. وفي السنوات التي عاشتها هنا كانت تعمل كطاهية في المطاعم .

إن بداخلي غضب لا يمكن إغفاله ، فأنا أشعر أنني مازلت أدفع ثمنًا غاليًا لما فعله أبي وأمي وما فعله الإسرائيليون .. ما فعله الجميع .. ورغم الـ ١٧ عامًا التي عشتها في إسرائيل ، يبدو لي إنني لم أسر في الطريق الصحيح بعد .. وأحيانًا أفكر لو لم يحدث كل هذا أين كنت الآن ؟

تلك هي النهاية .. ولا يوجد أي تعليق عليها سوى العذاب الذي يعيشه ابن الخائن وإخوته؟! علَّ الخونة يتعظون .!!

(١) عام ٢٠٠٢ – عند صدور هذا الكتاب – يكون عمرها ٦٥ عامًا تقريبًا .

هبة سليم .. ملكة الجاسوسية المتوّجة ..!!



منذ أن كتب الأستاذ صالح مرسى قصة « عبلة كامل » فى فيلم « الصعود إلى الهاوية » وصورة هذه الخائنة مرتسمة بخيالنا .. وحفظنا تفاصيل تجنيدها وخيانتها حتى سقطت فى قبضة المخابرات المصرية هى وخطيبها .

والجديد هنا فى قصة عبلة كامل .. أو « هبة سليم » الحقيقية .. معلومات جديدة تمامًا أعلن عنها مؤخرًا .. وكانت خافية حتى بضع سنوات خلت .. كشفت النقاب عن شريكها الضابط العسكرى المقدم فاروق الفقى .

إنها قصة مثيرة وعجيبة .. قصة أول جاسوسة عربية استُغلّت أيديولوجيًا .. وعملت لصالح الموساد ليس لأجل المال أو الجاه أو أى شىء سوى الوهم .. الوهم فقط ..

فكانت بذلك أول حالة شاذة لم تماثلها حالة أخرى من قبل .. أو بعد .. !!

حقائق ثابتة

لم تدخر المخابرات الإسرائيلية وسيلة عند تجنيدها للجواسيس إلا وجربتها . وأيضًا - لم تعتمد على فئة معينة من الخونة .. بل جندت كل من صادفها منهم واستسهل بيع الوطن بثمن بخس وبأموال .. حرام ، وأشهر هؤلاء على الإطلاق - هبة عبد الرحمن سليم عامر - وخطيبها المقدم فاروق عبد الحميد الفقي .

إنها إحدى أشرس المعارك بين المخابرات الحربية المصرية والمخابرات الإسرائيلية . معركة أديرت بذكاء شديد وبسرية مطلقة ، انتصرت فيها المخابرات المصرية فى النهاية . وأفقدت العدو توازنه ، وبرهنت على يقظة هؤلاء الأبطال الذين يحاربون فى الخفاء من أجل الحفاظ على أمن الوطن وسلامته .

لقد بكت جولدا مائير حزنًا على مصير هبة التى وصفتها بأنها « قدمت لإسرائيل أكثر مما قدم زعماء إسرائيل » . وعندما جاء هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى ليرجو السادات تخفيف الحكم عليها .. كانت هبة تقبع فى زنزانة انفرادية لا تعلم أن نهايتها قد حانت بزيارة الوزيرالأمريكى .

لقد تنبه السادات فجأة إلى أنها قد تصبح عقبة كبيرة فى طريق السلام ، فأمر بإعدامها فورًا ، ليسدل الستار على قصة الجاسوسة التى باعت مصر ليس من أجل المال أو الجنس أو العقيدة .. إنما لأجل الوهم الذى سيطر على عقلها وصور لها بأن إسرائيل دولة عظمى لن يقهرها العرب . وجيشها من المستحيل زحزحته عن شبر واحد من سيناء ، وذلك لأن العرب أمة متكاسلة أدمنت الذل والفشل . فتفرقت صفوفهم ووهنت قوتهم .. إلى الأبد .

آمنت هبة بكل هذه الخرافات ، ولم يستطع والدها - وكيل الوزارة بالتربية والتعليم - أن يمحو أوهامها أو يصحح لها خطأ هذه المفاهيم .

ولأنها تعيش فى حى المهندسين الراقى وتحمل كارنيه عضوية فى نادى « الجزيرة » - أشهر نوادى القاهرة - فقد اندمجت فى وسط شبابى لا تثقل عقله سوى أحاديث الموضة والمغامرات ، وبرغم هزيمة ١٩٦٧ الفادحة والمؤلمة للجميع .. إلا أن هبة انخرطت

في « جروب » من شلة أولاد الذوات تسعى خلف أخبار الهيبز ، وملابس الكاوبوى وأغانى ألفيس بريسلي .

وعندما حصلت على الثانوية العامة ألحت على والدها للسفر إلى باريس لإكمال تعليمها الجامعي . فالغالبية العظمى من شباب النادى أبناء الهاى لايف ، لا يدخلون الجامعات المصرية ويفضلون جامعات أوروبا المتحضرة(١) .

وأمام ضغوط الفتاة الجميلة وحبات لؤلؤ مترقرقة سقطت على خديها ، وافق الأب وهو يلعن هذا الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه ولابد من مسايرة عاداته وتقاليده ..

وفى باريس لم تنبهر الفتاة كثيرًا . فالحرية المطلقة التى اعتادتها فى مصر كانت مقدمة ممتازة للحياة وللتحرر فى عاصمة النور .

ولأنها درست الفرنسية منذ طفولتها فقد كان من السهل عليها أيضًا أن تتأقلم بسرعة مع هذا الخليط العجيب من البشر . ففى الجامعة كانت تختلف كل الصور عما ترسب بمخيلتها .. إنها الحرية بمعناها الحقيقى ، الحرية فى القول والتعبير .. وفى اختيار المواد الدراسية .. بل وفى مواعيد الامتحان أيضًا ، فضلاً عن حرية العلاقة بين الجنسين التى عادة لا تقتصر على الحياة الجامعية فحسب .. بل تمتد خارجها فى شمولية ممتزجة باندفاع الشباب والاحتفاء بالحياة .

جمعتها مدرجات الجامعة بفتاة يهودية من أصول بولندية دعتها ذات يوم لسهرة بمنزلها، وهناك التقت بلفيف من الشباب اليهود الذى تعجب لكونها مصرية جريئة لا تلتفت إلى الخلف ، وتنطلق فى شراهة تمتص رحيق الحرية .. ولا تهتم بحالة الحرب التى تخيم على بلدها ، وتهيمن على الحياة بها .

لقد أعلنت صراحة فى شقة البولندية أنها تكره الحرب ، وتتمنى لو أن السلام عم المنطقة . وفى زيارة أخرى أطلعتها زميلتها على فيلم يصور الحياة الاجتماعية فى إسرائيل ، وأسلوب الحياة فى « الكيبوتز » وأخذت تصف لها كيف أنهم ليسوا وحوشًا آدمية كما يصورهم الإعلام العربى ، بل هم أناس على درجة عالية من التحضر والديمقراطية .

---

(١) كانت هذه أيضًا بداية طريق الخيانة الذى سلكته الخائنة الأردنية أمينة داود المفتى ، والتى تتشابه كثيرًا مع بداية حياة هبة سليم فى أوربا ، لكن نهايتها اختلفت تمام الاختلاف ..
(انظر كتابنا : أمينة المفتى .. أشهر جاسوسة عربية للموساد) .

وعلى مدار لقاءات طويلة مع الشباب اليهودى والامتزاج بهم بدعوى الحرية التى تشمل الفكر والسلوك .. استطاعت هبة أن تستخلص عدة نتائج تشكلت لديها كحقائق ثابتة لا تقبل السخرية . أهم هذه النتائج أن إسرائيل قوية جدًا وأقوى من كل العرب . وأن أمريكا لن تسمح بهزيمة إسرائيل فى يوم من الأيام بالسلاح الشرقى . ففى ذلك هزيمة لها .

آمنت هبة أيضًا بأن العرب يتكلمون أكثر مما يعملون . وقادتها هذه النتائج إلى حقد دفين على العرب الذين لا يريدون استغلال فرصة وجود إسرائيل بينهم ليتعلموا كيفية اختزال الشعارات إلى فعل حقيقى . وأول ما يبدئون به هو نبذ نظم الحكم التى تقوم على ديمقراطية كاذبة وعبادة للحاكم .

وثقت هبة أيضًا فى أحاديث ضابط الموساد الذى التقت به فى شقة صديقتها .. وأوهمها باستحالة أن ينتصر العرب على إسرائيل وهم على خلاف دائم وتمزق خطير ، فى حين تلقى إسرائيل الدعم اللازم فى جميع المجالات من أوروبا وأمريكا .

هكذا تجمعت لديها رؤية أيديولوجية باهتة ، تشكلت بمقتضاها اعتقاداتها الخاطئة ، التى قذفت بها إلى الهاوية .

الشك المجنون

كانت هذه الأفكار والمعتقدات التى اقتنعت بها الفتاة سببًا رئيسيًا لتجنيدها للعمل لصالح الموساد .. دون إغراءات مادية أو عاطفية أثرت فيها ، مع ثقة أكيدة فى قدرة إسرائيل على حماية « أصدقائها » وإنقاذهم من أى خطر يتعرضون له فى أى مكان من العالم .

هكذا عاشت الفتاة أحلام الوهم والبطولة . وأرادت أن تقدم خدماتها لإسرائيل طواعية ولكن .. كيف ؟ الحياة فى أوروبا أنستها هواء الوطن .. وأغانى عبد الحليم حافظ الوطنية .. وبرج القاهرة الذى بناه عبد الناصر من أموال المخابرات الأمريكية التى سخرتها لاغتياله .

فقط تذكرت فجأة المقدم فاروق الفقى الذى كان يطاردها فى نادى الجزيرة ، ولا يكف عن تحين الفرصة للانفراد بها .. وإظهار إعجابه الشديد ورغبته الملحة فى الارتباط بها . لقد ملت كثيرًا مطارداته لها من قبل فى النادى وخارج النادى ، وكادت يومًا ما أن تنفجر فيه غيظًا فى التليفون .. وذلك عندما تلاحقت أنفاسه اضطرابًا وهو يرجوها أن تحس به . مئات المرات قال لها : « أعبدك .. أحبك .. أهواك يا صغيرتى » .. ولكنها كانت قاسية عنيفة فى صدّه .

تذكرت هبة هـذا الضـابط الولهـان ، وتذكـرت وظيفتـه الهامـة فـى مكـان حسـاس فـى القوات المسلحة المصرية ، وعندما أخبـرت ضـابط الموسـاد عنـه .. كـاد أن يطـير بهـا فرحًـا ، ورسم لها خطة اصطياده .

وفى أول أجازة لها بمصر .. كانت مهمتها الأساسية تنحصر فى تجنيـده .. وبأى ثمن . وكان الثمن خطبتها له . وفرح الضابط العاشق بعروسه الرائعة التى فـاز بهـا أخيـرًا . وبـدأت تدريجيًا تسأله عن بعض المعلومات والأسرار الحربية .. وبالذات مواقع الصواريخ الجديدة التـى وصلت من روسيا .. فكان يتباهى أمامها بأهميته ويتكلم فى أدق الأسـرار العسـكرية ، ويجـئ لها بالخرائط زيادة فى شرح التفاصيل .

أرسـلت هبـة سـليم علـى الفـور بعـدة خطابـات إلى بـاريس بمـا لديهـا مـن معلومـات .. ولما تبينت إسرائيل خطورة وصحة ما تبلغه هذه الفتاة لهم .. اهتموا بها اهتمامًا فوق الوصف. وبدأوا فى توجيهها إلى الأهم فى تسليح ومواقع القوات المسلحة .. وبالذات قواعد الصواريخ والخطط المستقبلية لإقامتها ، والمواقع التبادلية المقترحة .

وسافرت هبة إلى باريس مرة ثانية تحمل بحقيبتها عدة صفحـات .. دونـت بهـا معلومـات غاية فى السرية والأهمية للدرجة التى حيرت المخابرات الإسرائيلية . فماذا سـيقدمون مكافـأة للفتاة الصديقة ؟

سؤال كانت إجابته عشرة آلاف فرنك فرنسى حملها ضابط الموساد إلى الفتاة .. مع وعد بمبالغ أكبر وهدايا ثمينة وحياة رغدة فى باريس . رفضت هبة النقود بشدة وقبلت فقط السفر إلى القاهرة على نفقة الموساد بعـد ثلاثـة أشـهر مـن إقامتهـا ببـاريس . كـانت الوعـود البراقـة تنتظرها فى حالة ما إذا جندت خطيبها ليمدهم بالأسرار العسكرية التى تمكنهـم مـن اكتشـاف نوايا المصريين تجاههم .

لم يكن المقدم فاروق بحاجة إلى التفكير فـى التـراجع . إذ إن الحبيبـة الرائـع هبـة كـانت تعشش بقلبه وتستحوذ على عقله .. ولم يعد يملك عقلاً ليفكر ، بل يملك طاعة عمياء سخرها لخدمة إرادة حبيبته .

وعندما أخذها فى سيارته الفيات ١٢٤ إلى صحراء الهرم .. كان خجولاً لفـرط جرأتهـا معه ، وأدعـت بين ذراعيه أنها لم تصادف رجلاً قبله أبدًا . وأبدت رغبتها فى قضاء يوم كـامل

معه فى شقته . ولم يصدق أذنيه . فهو قد ألح عليها كثيرًا من قبل لكنها كانت ترفض بشدة. الآن تعرض عليه ذلك بحجة سفرها . وفى شقته بالدقى تركت لعابه يسيل . وجعلته يهلث ضعفًا وتذللاً ..

ولما ضمها إلى صدره فى نهم ورغبة واقتربت شفتاه منها .. صدته فى تمنع كاذب . فاندفع إليها بشوق أكثر ، ولملم جرأته كلها وأطبق على شفتيها يروى ظمأ ملهوفًا تلسعه موجات من صهد أنوثتها . فأذاقته قبلة طويلة غمست بلذائذ من النشوة ، وحمم من الرغبات، فطار عقله وبدا كطفل تشبث بأمه فى لحظة الجوع ، لكنها .. هيهات أن تمنحه كل ما يريد . فقد حجبت عنه رعشة الوطر وأحكمت قيدها حول رقبته فمشى يتبعها أينما سارت .. وسقط ضابط الجيش المصرى فى بئر الشهوة ووقّع وثيقة خيانته عاريًا على صدرها ، ليصير فى النهاية عميلاً للموساد تمكن من تسريب وثائق وخرائط عسكرية .. موضحًا عليها منصَّات الصواريخ « سام ٦ » المضادة للطائرات .. التى كانت القوات المسلحة تسعى ليل نهار لنصبها لحماية مصر من غارات العمق الإسرائيلية .

لقد تلاحظ للقيادة العامة للقوات المسلحة ولجهازى المخابرات العامة والحربية ، أن مواقع الصواريخ الجديدة تدمر أولاً بأول بواسطة الطيران الإسرائيلى .. حتى قبل أن يجف الأسمنت المسلح بها ، وحدوث خسائر جسيمة فى الأرواح ، وتعطيل فى تقدم العمل وإنجاز الخطة التى وضعت لإقامة حائط الصواريخ المضادة للطائرات .

تزامنت الأحداث مع وصول معلومات لرجال المخابرات المصرية .. بوجود عميل « عسكرى » قام بتسريب معلومات سرية جدًا إلى إسرائيل . وبدأ شك مجنون فى كل شخص ذى أهمية فى القوات المسلحة ، وفى مثل هذه الحالات لا يستثنى أحد بالمرة بدءًا من وزير الدفاع .

يقول السفير عيسى سراج الدين سفير مصر فى كوبنهاجن .. ووكيل وزارة الخارجية بعد ذلك :

« اتسعت دائرة الرقابة التليفزيونية والبريدية لتشمل دولاً كثيرة أخرى ، مع رفع نسبة المراجعة والرقابة إلى مائة فى المائة من الخطابات وغيرها ، كل ذلك لمحاولة كشف الكيفية التى تصل بها هذه المعلومات إلى الخارج . كما بدأت رقابة قوية وصارمة على حياة وتصرفات كل من تتداول أيديهم هذه المعلومات من القادة ، وكانت رقابة لصيقة وكاملة . وقد تبينت طهارتهم ونقاءهم .

ثم أدخل موظفو مكاتبهم فى دائرة الرقابة .. ومساعدوهم ومديرو مكاتبهم .. وكل من يحيط بهم مهما صغرت أو كبرت رتبته » .

وفى تلك الأثناء كانت هبة سليم تعيش حياتها بالطول وبالعرض فى باريس . عرفت الخمر والتدخين وعاشت الحياة الأوروبية بكل تفاصيلها . وكانت تشعر فى قرارة نفسها بأنها خلقت لتعيش فى أوروبا . وتكره مجرد مرور خاطرة سريعة تذكرها بعصريتها .

لقد نزفت عروبتها نزفًا من شرايين حياتها ، وتهللت بشـرًا عندما عرض عليها ضابط الموساد زيارة إسرائيل ، فلم تكن لتصدق أبدًا أنها مهمة إلى هذه الدرجة . ووصفت هى بنفسها تلك الرحلة قائلة :

طائرتان حربيتان رافقتا طائرتى كحرس شرف وتحية لى . وهذه إجراءات تكريمية لا تقدم أبدًا إلا لرؤساء وملوك الدول الزائرين . حيث تقوم الطائرات المقاتلة بمرافقة طائرة الضيف حتى مطار الوصول .

وفى مطار تل أبيب كان ينتظرنى عدد من الضباط اصطفوا بجوار سيارة ليموزين سوداء تقف أسفل جناح الطائرة ، وعندما أدوا التحية العسكرية لى تملكنى شعور قوى بالزهو . واستقبلنى بمكتبه مائير عاميت رئيس جهاز الموساد[١] وأقام لى حفل استقبال ضخمًا ضم نخبة من كبار ضباط الموساد على رأسهم مايك هرارى الأسطورة[٢] وعندما عرضوا تلبية كل « أوامرى » .. طلبت مقابلة جولدا مائير رئيسة الوزراء التى هزمت العرب ومرغت كرامتهم . ووجدت على مدخل مكتبها صفًا من عشرة جنرالات إسرائيليين أدوا لى التحية العسكرية .. وقابلتنى مسز مائير ببشاشة ورقة وقدمتنى إليهم قائلة : « إن هذه الأنسة قدمت لإسرائيل خدمات أكثر مما قدمتم لها جميعًا مجتمعين » .

وبعد عدة أيام عدت إلى باريس .. وكنت لا أصدق أن هذه الجنة «إسرائيل» يتربص بها العرب ليدمروها !! .

---

(١) مائير عاميت (١٩٦٣ – ١٩٦٨) .

(٢) مايك هرارى – صاحب أشهر عملية فاشلة للموساد فى أوربا .. عندما أخطأ عام ١٩٧٣ فى تعقب الفدائى الفلسطينى على حسن سلامة قائد القوة (١٧) وبطل عملية ميونيخ ، وقتل بدلاً منه شابًا مغربيًا في ليليهامر بالنرويج .

سفر بلا عودة

وفى القاهرة .. كان البحث لا يزال جاريًا على أوسع نطاق ، والشكوك تحوم حول الجميع ، إلى أن اكتشف أحد مراقبى الخطابات الأذكياء « من المخابرات الحربية » خطابًا عاديًا مرسلاً إلى فتاة مصرية فى باريس سطوره تفيض بالعواطف من حبيبها . لكن الذى لفت انتباه المراقب الذكى عبارة كتبها مرسل الخطاب تقول إنه قام بتركيب إيريال الراديو الذى عنده ، ذلك أن عصر إيريال الراديو قد انتهى . إذن .. فالإيريال يخص جهازًا لاسلكيًا للإرسال والاستقبال .

وانقلبت الدنيا فى جهازى المخابرات الحربية والمخابرات العامة وعند ضباط البوليس الحربى ، وتشكلت عدة لجان من أمهر رجال المخابرات ، ومع كل لجنة وكيل نيابة ليصدر الأمر القانونى بفتح أى مسكن وتفتيشه . وكانت الأعصاب مشدودة حتى أعلى المستويات فى انتظار نتائج اللجان ، حتى عثروا على جهاز الإيريال فوق إحدى العمارات .. واتصل الضباط فى الحال باللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية وأبلغوه باسم صاحب الشقة .. فقام بإبلاغ الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الدفاع « قبل أن يصبح مشيرًا » الذى قام بدوره بإبلاغ الرئيس السادات .

حيث تبين أن الشقة تخص المقدم فاروق الفقى ، وكان يعمل وقتها مديرًا لمكتب أحد القيادات الهامة فى الجيش ، وكان بحكم موقعه مطلعًا على أدق الأسرار العسكرية ، فضلاً عن دوره الحيوى فى منظمة سيناء[(١)] .

وكان الضابط الجاسوس أثناء ذلك فى مهمة عسكرية بعيدًا عن القاهرة .

وعندما اجتمع اللواء فؤاد نصار بقائد الضابط الخائن .. « قيل بعد ذلك أنه ضابط كبير له دور معروف فى حرب أكتوبر واشتهر بخلافه مع الرئيس السادات حول الثغرة » .. رفض القائد أن يتصور حدوث خيانة بين أحد ضباط مكتبه . خاصة وأن المقدم فاروق يعمل

---

(١) منظمة سيناء كانت تضم عناصر مدنية من سكان سيناء ، تتكفل المخابرات الحربية بتدريبهم على أعمال القتال والنسف والرصد خلف خطوط العدو فى سيناء بعد حرب ١٩٦٧ ، وكان يتم الدفع بهم من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية بالأسلحة المختلفة ، للقيام بعمليات محددة ، وبتعاون وثيق من أعضاء المنظمة من البدو المقيمين . وكان لهذه العمليات الأثر الكبير فى رفع معنويات الجيش المصرى بعد الهزيمة التى منى بها .

معه منذ تسع سنوات ، بل وقرر أن يستقيل من منصبه إذا ما ظهر أن رئيس مكتبه جاسوس للموساد .

وعندما دخل الخائن إلى مكتبه .. كان اللواء حسن عبد الغني نائب مدير المخابرات الحربية ينتظره جالسًا خلف مكتبه بوجه صارم وعينين قاسيتين فارتجف رعبًا وقد جحظت عيناه وقال في الحال « هو أنتم عرفتوا ؟؟ » .

وعندما ألقى القبض عليه استقال قائده على الفور ، ولزم بيته حزينًا على خيانة فاروق والمعلومات الثمينة التى قدمها للعدو .

وفى التحقيق اعترف الضابط الخائن تفصيليًا بأن خطيبته جندته بعد قضاء ليلة حمراء معها .. وأنه رغم إطلاعه على أسرار عسكرية كثيرة إلا أنه لم يكن يعلم أنها ستفيد العدو .

وعند تفتيش شقته أمكن العثور على جهاز اللاسلكى المتطور الذى يبث من خلاله رسائله ، وكذا جهاز الراديو ونوتة الشفرة ، والحبر السرى الذى كان بزجاجة دواء للسعال . ضبطت أيضًا عدة صفحات تشكل مسودة بمعلومات هامة جدًا معدة للبث ، ووجدت خرائط عسكرية بالغة السرية لأحشاء الجيش المصرى وشرايينه ، تضم مواقع القواعد الجوية والممرات والرادارات والصواريخ ومرابض الدفاعات الهامة .

وفى سرية تامة .. قدم سريعًا للمحاكمة العسكرية التى أدانته بالإعدام رميًا بالرصاص .. واستولى عليه ندم شديد عندما أخبروه بأنه تسبب فى مقتل العديد من العسكريين من زملائه من جراء الغارات الإسرائيلية . وأخذوه فى جولة ليرى بعينه نتائج تجسسه . فأبدى استعداده مرات عديدة لأن يقوم بأى عمل يأمرونه به . ووجدوا - بعد دراسة الأمر بعناية - أن يستفيدوا من المركز الكبير والثقة الكاملة التى يضعها الإسرائيليون فى هذا الثنائى . وذلك بأن يستمر فى نشاطه كالمعتاد خاصة والفتاة لم تعلم بعد بأمر القبض عليه والحكم بإعدامه .

وفى خطة بارعة من مخابراتنا الحربية ، أخذوه إلى فيلا محاطة بحراسة مشددة ، وبداخلها نخبة من أذكى وألمع رجال المخابرات المصرية تتولى « إدارة » الجاسوس وتوجيهه ، وإرسال الرسائل بواسطة جهاز اللاسلكى الذى أحضرته له الفتاة ودربته عليه . وكانت المعلومات التى ترسل هى بالطبع من صنع المخابرات الحربية ، وتم توظيفها بدقة متناهية فى تحقيق المخطط

للخداع ، حيث كانت حرب أكتوبر قد اقتربت ، وهذه هى إحدى العمليات الرئيسية للخداع التى ستترتب عليها أمور استراتيجية مهمة بعد ذلك .

لقد كان من الضرورى الإبقاء على هبة فى باريس والتعامل معها بواسطة الضابط العاشق . واستمر الاتصال معها بعد القبض عليه لمدة شهرين ، ولما استشعرت القيادة العامة أن الأمر أخذ كفايته .. وأن القيادة الإسرائيلة قد وثقت بخطة الخداع المصرية وابتلعت الطعم . تقرر استدراج الفتاة إلى القاهرة بهدوء .. لكى لا تهرب إلى إسرائيل إذا ما اكتشف أمر خطيبها المعتقل .

وفى اجتماع موسع .. وضعت خطة القبض على هبة .. وعهد إلى اللواء حسن عبد الغنى ومعه ضابط آخر بالتوجه إلى ليبيا لمقابلة والدها فى طرابلس حيث كان يشغل وظيفة كبيرة هناك . وعرفاه على شخصيتهما وشرحا له أن ابنته هبة التى تدرس فى باريس تورطت فى عملية اختطاف طائرة مع منظمة فلسطينية ، وأن الشرطة الفرنسية على وشك القبض عليها .. وما يهم هو ضرورة هروبها من فرنسا لعدم تورطها ، ولمنع الزج باسم مصر فى مثل هذه العمليات الإرهابية . وطلبا منه أن يساعدهما بأن يطلبها للحضور لرؤيته حيث إنه مصاب بذبحة صدرية .

أرسل الوالد برقية عاجلة لابنته .. فجاء ردها سريعًا ببرقية تطلب منه أن يغادر طرابليس إلى باريس .. حيث إنها حجزت له فى أكبر المستشفيات هناك وأنها ستنتظره بسيارة إسعاف فى المطار .. وأن جميع الترتيبات للمحافظة على صحته قد تم اتخاذها .

ولكى لا تترك المخابرات المصرية ثغرة واحدة قد تكشف الخطة بأكملها .. فقد تم إبلاغ السلطات الليبية بالقصة الحقيقية ، فتعاونت بإخلاص مع الضابطين من أجل اعتقال الجاسوسة المصرية . وتم حجز غرفة فى مستشفى طرابلس وإفهام الأطباء المسئولين مهمتهم وما سيقومون به بالضبط .

وبعدما أرسل والدها ردًا بعدم استطاعته السفر إلى باريس لصعوبة حالته .. صح ما توقعه الضابطان ، إذ حضر شخصان من باريس للتأكد من صحة البرقية وخطورة المرض ، وسارت الخطة كما هو مرسوم لها ، وذهب الإسرائيليان إلى المستشفى وتأكدا من الخبر ، فاتصلا فى الحال بالفتاة التى ركبت الطائرة الليبية فى اليوم التالى إلى طرابلس .

وعلى سلم الطائرة عندما نزلت هبة عدة درجات كان الضابطان المصريان فى انتظارها، وصحباها إلى حيث تقف الطائرة المصرية على بعد عدة امتار من الطائرة الليبية .. فسألتهما :

« إحنا رايحين فين ؟ »

فرد أحدهما :

« المقدم فاروق عايز يشوفك » .

فقالت :

« هو فين » .

فقال لها :

« فى القاهرة » .

صمتت برهة ثم سألت :

« أمال إنتم مين ؟ » .

فقال اللواء حسن عبد الغنى :

« إحنا المخابرات المصرية » .

وعندما أوشكت أن تسقط على الأرض .. أمسكا بها وحملاها حملاً إلى الطائرة التى أقلعت فى الحال ، بعد أن تأخرت ساعة عن موعد إقلاعها فى انتظار الطائرة القادمة من باريس بالهدية الغالية .

لقد تعاونت شرطة المطار الليبى فى تأمين انتقال الفتاة لعدة أمتار حيث تقف الطائرة المصرية .. وذلك تحسبًا من وجود مراقب أو أكثر صاحب الفتاة فى رحلتها بالطائرة من باريس .. قد يقدم على قتل الفتاة قبل أن تكشف أسرار علاقتها بالموساد .

وبلا شك .. فاعتقال الفتاة بهذا الأسلوب الماهر جعلها تتساءل عن القيمة الحقيقية للوهم الذى عاشته مع الإسرائيليين . فقد تأكدت أنهم غير قادرين على حمايتها أو إنقاذها من حبل المشنقة . وهذا ما جعلها تعترف بكل شيء بسهولة بالتفصيل .. منذ أن بدأ التحقيق معها فى الطائرة بعد إقلاعها مباشرة . وبعد أيام قليلة من اعتقالها تبين لها وللجميع عجز الإسرائيليين عن حماية إسرائيل نفسها وعدم قدرتهم على إنقاذها .

فقد جاءت حرب أكتوبر وتدمير خط بارليف بمثابة الصدمة التى أذهلت أمريكا قبل إسرائيل . فالخداع المصرى كان على أعلى مستوى من الدقة والذكاء . وكانت الضربة صائبة إذ أربكت العدو وأشلته .. لولا المدد العسكرى الأمريكى .. والأسلحة المتطورة .. والصواريخ السرية .. والمعونات .. وإرسال الطيارين والفنيين الأمريكان كمتطوعين[1] .

لقد خسرت إسرائيل فى ذلك الوقت من المعركة حوالى مائتى طائرة حربية . ولم تكن تلك الخسارة تهم القيادة الإسرائيلية بقدر ما خسرته من طيارين ذوى كفاءة عالية قتلوا فى طائراتهم ، أو انهارت أعصاب بعضهم ولم يعودوا صالحين للقتال . ولقد سبب سقوط الطائرات الإسرائيلية بالعشرات حالة من الرعب بعد عدة أيام من بدء المعركة .. إلى أن وصلت المعونات الأمريكية لإسرائيل فى شكل طيارين وفنيين ووسائل إعاقة وتشويش حديثة .

لا أحد يعرف

تبخرت أوهام الجاسوسة هبة سليم .. وأيقنت أنها كانت ضحية الوهم الذى سيطر على فكرها وسرى بشرايينها لمدة طويلة للدرجة التى ظنت أنها تعيش الواقع من خلاله .. لكن .. ها هى الحقائق تتضح بلا رتوش أو أكاذيب .

لقد حكم عليها بالإعدام شنقًا بعد محاكمة منصفة اعترفت صراحة أمامها بجريمتها .. وأبدت ندمًا كبيرًا على خيانتها . وتقدمت بالتماس لرئيس الجمهورية لتخفيف العقوبة لكن التماسها رفض .

وكانت تعيش أحلك أيامها بالسجن تنتظر تنفيذ الحكم .. عندما وصل هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى – اليهودى الديانة – لمقابلة الرئيس السادات فى أسوان فى أول زيارة له إلى مصر بعد حرب أكتوبر .. وحملته جولدا مائير رسالة إلى السادات ترجوه تخفيف الحكم على الفتاة . ومن المؤكد أن كيسنجر كان على استعداد لوضع ثقله كله وثقل دولته خلف هذا الطلب . وتنبه الرئيس السادات الذى يعلم بتفاصيل التحقيقات مع الفتاة وصدور الحكم بإعدامها .. إلى أنها ستصبح مشكلة كبيرة فى طريق السلام . فنظر إلى كيسنجر قائلاً :

(١) يذكر السفير عيسى سراج الدين أن صديقًا له « دانماركى »أخبره بأن ثلاثة أفواج .. كل فوج مكون من ٣٥٠ طيارًا وفنيًا أمريكيًا – وصلوا إلى كوبنهاجن وقضى كل فوج ليلة واحدة فى فندق « اسكندنافيا » على أطراف المدينة ، وذلك فى الفترة من ١٠ : ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ فى طريقهم إلى إسرائيل .

« تخفيف حكم ؟ .. ولكنها أعدمت .. !! » .

دهش كيسنجر وسأل الرئيس :

« متى » .. ؟

ودون أن ينظر لمدير المخابرات الحربية قال السادات كلمة واحدة :

« النهارده » . وفعلاً .. تم تنفيذ حكم الإعدام شنقًا في هيئة سليم في اليوم نفسه في أحد سجون القاهرة .

أما الضابط العاشق – المقدم فاروق عبد الحميد الفقي – فقد استقال قائده من منصبه لأنه اعتبر نفسه مسئولاً عنه بالكامل . وعندما طلبت منه القيادة العامة سحب استقالته .. رفض بشدة وأمام إصرار القيادة على ضرورة سحب استقالته .. خاصة والحرب وشيكة .. اشترط القائد للموافقة على ذلك أن يقوم هو بتنفيذ حكم الإعدام في الضابط الخائن . ولما كان هذا الشرط لا يتفق والتقاليد العسكرية .. وما يتبع في مثل هذه الأحوال .. فقد رفع طلبه إلى وزير الدفاع « الحربية » الذى عرض الأمر على الرئيس السادات « القائد الأعلى للقوات المسلحة » فوافق فورًا ودون تردد .

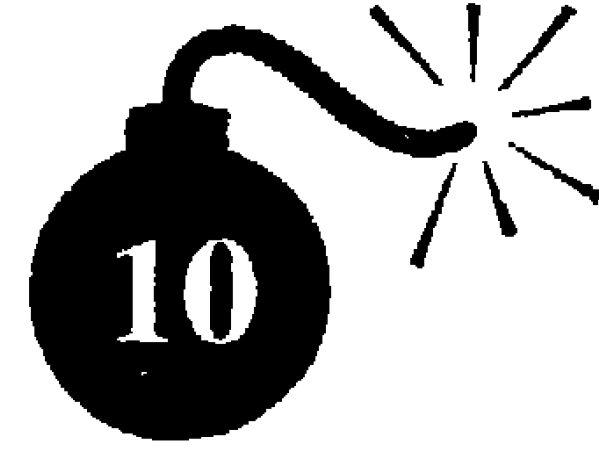
وعندما جاء وقت تنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص في الضابط الخائن .. لا أحد يعرف ماذا كان شعور قائده وهو يتقدم ببطء.. يسترجع في شريط سريع تسع سنوات مرت عليهما في مكتب واحد .. تسع سنوات كان بعضها في سواد الليل .. وبعضها تتلألأ خلاله ومضات الأمل قادمة من بعيد .. الأمل في الانتصار على اليهود الخنازير القتلة السفاحين .. وبينما كان يخطط لحرب أكتوبر كان بمكتبه هذا الخائن الذى باع الوطن والأمن وقتل بخيانته أبرياء ..

لا أحد يعرف ماذا قال القائد له . وماذا كان رد الضابط عليه .. لا أحد يعرف .

هل طلب منه أن ينطق بالشهادتين . وأن يطلب المغفرة من الله ؟ .. لا أحد يعرف .

لكن المؤكد أنه أخرج مسدسه من جرابه .. وصوبه على رأس الضابط وأطلق طلقتين عليه كما تقضى التعليمات العسكرية في حالة إعدام الخونة ..

توماس المصرى .. زعيم شبكة الشواذ .. !!



محدودة جدًا .. شبكات الجاسوسية الإسرائيلة في مصر ، قياسًا بعدد الجواسيس الذين يعملون بمفردهم . وأشهر هذه الشبكات التى نعرفها ولاقت شهرة واسعة .. شبكة التخريب التى تكونت من يهود مصر وفجَّرت « فضيحة لافون» عام ١٩٥٤ فأحدثت أزمة طاحنة في إسرائيل حينذاك .

أما شبكة توماس – التى لم تأخذ ولو قدرًا ضئيلاً من الشهرة – فتعد من أكبر الشبكات التى ضُبطت ، وحجَّمت كثيرًا من شأن الموساد ، وألقت الضوء مبهرًا على براعة المخابرات المصرية .

وخطورة هذه الشبكة تكمن في تنوع أنشطتها وأهدفها ، وكثرة عدد أعضائها من المصريين والأجانب ، وكثافة المعلومات الحيوية التى نقلتها لإسرائيل ، وأيضًا .. عمرها القصير جدًا الذى يقابله انتشار شرس محموم في أكثر من دولة .

إنها بحق .. أشهر شبكات الجاسوسية التى سقطت في مصر .. ولا يعرفها أحد .. !!

الصياد والفريسة

فى فبراير عام ١٩٥٨ دخلت سوريا مع مصر فى اتحاد اندماجى ، وعرفت الدولتان باسم « الجمهورية العربية المتحدة » وكانت سوريا هى الإقليم الشمالى ، ومصر هى الإقليم الجنوبى . ورأت إسرائيل فى هذا الاتحاد خطرًا عظيمًا يتهدد أمنها فى الشمال والجنوب ومن الشرق أيضًا .

وحوصرت الدولة اليهودية بالجيوش العربية ، ولم يتبق لها سوى البحر الأبيض المتوسط – المنفذ الوحيد الآمن ، فحصنته بالسفن وبالمدمرات ، ووزعت غواصاتها بطول الساحل خوفًا من حصار هذه الجبهة بالقوات البحرية العربية ، وأصبحت إسرائيل تعيش فى حالة طوارئ دائمة لا تدرى من أية جهة تأتيها الضربة الفجائية القاضية .

لذلك حرص ساستها – بواسطة أجهزة المخابرات – على عرقلة نمو هذا التطويق العربى من الشمال والجنوب ، ولعبت على كل الأوتار لإفشاله والقضاء عليه . ولم يكن بمستطاعها وقف الزحف العربى لإنقاذ فلسطين المغتصبة ، سوى باللجوء إلى كل الحيل القذرة والتصرفات الوحشية لإرهاب العرب ، وبث الدعايات المسمومة لإخافتهم ، وتصوير الجندى الإسرائيلى والعسكرية الإسرائيلية كأسطورة فى الأداء والمهارة والقوة .

لذا فقد عمدت إلى ترسيخ هذا الاعتقاد لدى العرب بمحو ما يقرب من « ٢٩٣ » قرية فلسطينية وإزالتها من فوق الأرض والخريطة ، وارتكاب أبشع المذابح فى التاريخ دموية وبربرية ضد العرب العزل فى فلسطين . هذا بجانب التكثيف الإعلامى والنشاط الدبلوماسى للحد من يقظة روح الجهاد ، التى جاهدت قوى الاستعمار على إسكاتها بالضغط على العرب وسد أفواههم .. ومنع السلاح عنهم وإغراقهم فى مشاكل داخلية معقدة .. كالجهل والتخلف والفقر والمرض .. وإثارة الثورات الداخلية طمعًا فى شهوة الوصول إلى الحكم .

كل ذلك أدى إلى إضعاف الجيوش العربية فى حين كانت إسرائيل تتشكل وتقوى ، وتغدق عليها الدول الاستعمارية الكبرى الأسلحة المتطورة الحديثة التى صنعت إسرائيل ، وزرعتها فى قلب المنطقة العربية لتقسمها إلى نصفين – أفريقى وآسيوى – لا أمل فى التقائهما إلا بفناء إسرائيل .

من هنا كان الرعب الأكبر لإسرائيل حينما قامت الوحدة فى فبراير ١٩٥٨ بين الشطرين المنفصلين فى الشمال والجنوب ، وربطهما اتحاد اندماجى وحكومة واحدة على رأسها الزعيم جمال عبد الناصر ، خاصة بعدما فشل زعماء اتفاق « سيفر » بفرنسا فى العدوان الثلاثى الغاشم على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦ ، والذى انتهى بخيبة أمل انجلترا وفرنسا وإسرائيل ، وانسحابهم يملأهم الخزى والعار .

لذلك كان على إسرائيل أن تراقب اتحاد الشطرين ، بل وتسعى إلى معرفة أدق الأسرار عنهما .. لكى تحتاط إلى نفسها من مغبة تقويضها واجتياح الأرض السليبة فجأة .

وكان أن أرسلت إلى مصر وسوريا بأمهر صائدى الجواسيس .. للبحث عن خونة يمدونها بالمعلومات وبالوثائق السرية ، فجندت مصريًا خائنًا من أصل أرمنى اسمه « جان ليون توماس » استطاع تكوين شبكة تجسس خطيرة فى مصر ، وأرسلت إلى سوريا – إيلياهو كوهين – داهية الجواسيس على الإطلاق ، وأسطورة الموساد الذى ظل جسده معلقًا فى المشنقة لأربعة أيام فى دمشق .

والأرمن .. جالية أقلية استوطنت مصر هربًا من الاضطهاد والتنكيل الذى تعرض له الشعب الأرمنى . وتعدادهم بالآلاف فى مصر .. امتزجوا بنسيجها الاجتماعى وتزاوجوا فيما بينهم فى البداية .. ثم اختلطت دماؤهم بالمصريين فى مصاهرة طبيعية تؤكد هذا الامتزاج والاستقرار ، واحتفظوا فيما بينهم بعاداتهم وتقاليدهم وبلغتهم الأصلية .

وتشير بعض المصادر أن تعدادهم فى مصر يصل إلى مائة ألف أرمنى ، يتمتعون بالجنسية المصرية وبكامل الحقوق ، وسمحت لهم السلطات بإصدار صحيفة باللغة الأرمينية ، تدعم ترابطهم وتذكرهم بجذورهم .

اشتهر عن الأرمن أنهم أناس درجوا على العمل والكفاح والاشتغال بالتجارة ، لذلك .. فأمورهم الحياتية والمادية ممتازة .. خاصة بعدما هيأ لهم المناخ المستقر فى مصر فرص الانطلاق والنجاح .

وكان « جان ليون توماس » أحد أبناء هذه الجالية ، وقد عمل بالتجارة والاستيراد والتصدير ، واستطاع بعد عدة سنوات أن يجمع ثروة طائلة تؤمن له مستقبلاً رائعًا .. تدفعه إليه زوجته الألمانية « كيتى دورث » فتغلغل داخل أوساط المجتمع الراقى يزهو بثمرة كده واجتهاده . ولظروف عمله وقرابته تعددت سفرياته إلى ألمانيا الغربية لإنجاز أعماله .

هناك .. اقترب منه أحد صائدى الجواسيس المهرة ، واشتم فيه رائحة ما غالبًا هـى نقطة ضعف من خلالها يستطيع الالتفاف حوله .. وتجنيده ، لا سيما بعد تأكده من أن له علاقات واسعة فى مصر .

ولم تخب حاسة الشم لدى ضابط المخابرات الإسرائيلى الذى يتستر وراء شخصية رجل أعمال . إذ اكتشف هواية خاصة جدًا عند توماس .. وهى عشقه للجنس مع الأطفال الصغار. ففى غمرة مشاغله وأعماله ، سرعان ما ينقلب إلى ذئب شـره يبحث عن فريسة تشبع نهم شذوذه .

كان توماس بالفعل يعانى من هذا الداء ، ويصاب أحيانًا بتوترات عصبية وتقلبات مزاجية حادة ، تظهر عادة فى صورة ثورة على زوجته الجميلة .. التى لم تكن تدرك السبب الحقيقى فى هروب الخادمات صغيرات السن من بيتها ، ولا يعدن إليه مرة ثانية ؟ وفشلت كثيرًا فى الوصول إلى إجابة منطقية لذلك .

بياتريشيا اللذيذة

ولكى يزجوا به داخل دائرة الجاسوسية من أوسع الأبواب .. قذفوا إليه بطفلة يهودية يتيمة فى العاشرة من عمرها ، طرقت باب شقته فى فرانكفورت ، ولأنهم زرعوا الكاميرات والأجهزة السرية بها واتخذوا من الشقة المجاورة مكمنًا لتسجيل ما سيحدث .. أذهلتهم أغرب مطاردة بين جدران الشقة الصغيرة ، بين توماس الذئب الجائع .. والطفلة الضعيفة التى كانت تبكى متوسلة إليه ، فيتوسل هو إليها ألا تتركه يعانى أكثر من ذلك .

كان عاريًا تمامًا ، يتصبب منه العرق الغزير وترتجف خلجات وجهه ، وبدا فى قمة ضعفه عندما هجم على الطفلة ، وصفعها فى عنف فانخرست من الخوف ، وشرع فى الحال فى تجريدها من ملابسها حتى تعرت تمامًا ، وبدا واضحًا ارتجاف أطرافها واضطراب أنفاسها اللاهثة ، فتحرر بسرعة من ملابسه كأنه لا يصدق أن فريسة بين يديه ، واحتضنها فى لهفة الجائع وهو يأمرها ألا تصده ، أو تعترض على ما يفعله معها .

وفوجئ بهم من حوله . انتزعوا الطفلة من بين يديه فانزوت ترتجف .. بينما أخذ يرجوهم ألا يصحبوه عاريًا للشرطة . وأطلعوه على ما لديهم من أدلة شذوذه ، فانهار .. ووقع فى لمح البصر على عقد يقر فيه بتعاونه مع الموساد ، وأنه على استعداد تام لتنفيذ ما يكلف به.

هذه هي الموساد .. تتبع أقذر الحيل للسيطرة على عملائها وإخضاعهم ، وهذا ليس بأمر جديد على المخابرات الإسرائيلية ، فلا شيء يهم طالما ستحقق مآربها وتجند ضعاف النفوس في كل زمان ومكان .

في قمة مذلته وشذوذه لم تكن لديه القدرة على أن يفكر أو يقرر ، إذ إن إرادته قد شلت .. وانقلب إلى شخص آخر بلا عقل .. فقد غلفته المحنة وأزهقته الصدمة ، وبسهولة شديدة استسلم لضباط الموساد يتحكمون بأعصابه .. وابتدأوا في تدريبه وإحكام سيطرتهم عليه ، وكتب في عدة صفحات بيده كل ما لديه من معلومات اقتصادية يعرفها بحكم عمله وعلاقاته ، وأحاطوه بدائرة الخوف فلم يستطع الإفلات ، وهددوا بقتل أفراد أسرته إذا ما عاد إلى مصر وأبلغ السلطات .. فقد كان من السهل إقناعه بوجود عملاء لهم في القاهرة ينتظرون إشارة منهم ليقوموا باللازم مع عائلته هناك .

وتأكيدًا لذلك .. أرسلوا باقة زهور إلى منزله بمناسبة عيد ميلاد ابنته .. وكم كان فزعه شديدًا عندما اتصل بالقاهرة فتشكره ابنته على باقة الزهور التي أرسلها .. وأصيب رجل الأعمال المذعور بصدمة عنيفة ، وصرخ في هلع مؤكدًا بأنه سيقوم بالعمل لصالحهم .. وتركوه يسافر ملتاعًا ومرعوبًا يحمل تكليفات محددة وأسئلة مطلوب إجاباتها ، وكانوا على يقين أنه سقط في شباكهم ولن يمكنه الإفلات أبدًا .

وفي الطائرة استغرقه تفكير عميق فيما صار إليه حاله ، وهل يستطيع النجاة من هذا المأزق أم لا ؟ واتصل فور وصوله بصديقه محمد أحمد حسن الذي يشغل منصبًا حساسًا في مدرسة المدفعية بالقاهرة ، وسأله عدة أسئلة تتصل بعمل جهاز المخابرات المصرى . وهل بالإمكان حماية شخص ما تورط مع المخابرات الإسرائيلية ؟ وكانت إجابات محمد حسن إجابات قاطعة ، تؤكد أن المخابرات المصرية من أنشط أجهزة المخابرات في العالم بعد استحداثها وتدريب كوادرها بأقسامها المختلفة ، وحسبما يقال فهي تحمي المتورطين إذا ما تقدم بالإبلاغ عما وقع لهم بالخارج .

لكن توماس لم يثق بكلامه ، وظن أنها دعاية يروجها لا أكثر .. فتملكه الخوف من الانسياق وراء دعاية لن تفيد ، وحرص على المضي في طريق الخيانة حتى آخره . بينما انشغل صديقه بالهدايا الثمينة التي جلبها له ولم يسأله عن تفاصيل الأمر . أو عن ذلك الشخص المتورط مع الموساد .

لم يضيِّع توماس وقته فى إثارة أعصابه بالتفكير والقلق .. وشرع كما دربوه فى دراسة أحوال المحيطين به ليستكشف نقاط ضعف تمكنه من النفاذ إليهم ، وكان أول من نصب شباكه حوله - محمد أحمد حسن - الذى كان يدرك جيدًا أن المخابرات المصرية أضافت اختصاصات وتكنولوجيا حديثة تمكنها من تعقب الجواسيس والخونة .

تناسى الرجل العسكرى كل ذلك وعاش فى وهم ابتدعه . ولم يعد يفكر سوى فى نفسه فقط .. وقد طغت هدايا صديقه على أنسجة عقله . كان ذلك فى شهر أكتوبر عام ١٩٥٨ عندما نام ضميره نوم الموات بلا أدنى حياة أو رعشة من شعور .. وأسلم مصيره بل حياته كلها لمغامرة طائشة قادته إلى الهلاك .

وكانت « بياتريشيا » خطوة أولى فى سلم الموت الذى لا مهرب منه ولا منجى على الإطلاق .. وبياتريشيا هذه راقصة ألمانية مقيمة بالقاهرة .. تربطها بتوماس علاقة قديمة قبل زواجه من كيتى ، وفى حين انشغل عنها بعمله اضطر لتجديد علاقته بها بمجرد عودته ، لتساعده فى تجنيد محمد حسن الذى كان يعرف عنه ميله الشديد للخمر وللنساء ..

فرحت الراقصة المثيرة بعودة توماس إليها وتقابلت الأغراض والنوايا .. وبعد سهرة ممتعة بأحد النوادى الليلية .. ارتسمت بخيالات محمد حسن صور متعددة لعلاقته ببياتريشيا ، أراد ترجمتها إلى واقع فعلى لكن راتبه الضئيل لم يكن ليكفى للإنفاق على بيته .. وعلى راقصة مثيرة تجتذب من حولها هواة صيد الحسناوات . وتكررت السهرات الرائعة . التى أصبحت تشكل شبه عادة لديه لم يكن من السهل تبديلها أو الاستغناء عنها . وأغرقته الراقصة فى عشقها فازداد اندفاعًا تجاهها ، ولم يوقفه سوى ضيق ذات اليد .

عند ذلك لم يكن أمامه سوى الالتجاء إلى توماس ليستدين منه ، وتضخم الدين حتى توترت حياة محمد حسن .. وانتهزها توماس فرصة سانحة لاستغلاله والضغط عليه فرضخ له فى النهاية وسقط مخمورًا فى مصيدة الجاسوسية .. مستسلمًا بكامل رغبته مقابل راتب شهرى - خمسين جنيهًا - خصصه له توماس لينفق على الفاتنة التى أغوته وأسكرته حتى الثمالة .

فى المقابل لـم يبخـل محمـد حسـن بالمعلومـات الحيويـة عـن مدرسـة المدفعية .. كأعداد الطلاب بها وأسماء المدربين والخطة الاستراتيجية للتدريب .. كل ذلك من أجل عيون الفاتنة الحسناء العميلة .

فيالها من سقطة .. ويالها من مأساة وخيبة !!

وفى الوقت الذى نشط فيه توماس كجاسوس يقوم بمهمته ، تراءت له فكرة تجنيد عملاء آخرين تتنوع من خلالهم المعلومات التى يسعى للوصول إليها . فكان أن نصب شباكه حول مصور أرمنى محترف اسمه جريس يعقوب تانيليان – ٤٣ عامًا ، واستطاع أن يسيطر عليه هو الآخر بواسطة إحدى الساقطات وتدعى – كاميليا بازيان – أوهمته كذبًا بفحولة لا يتمتع بها سواه .

ولأنه كان ضعيفًا جنسيًا .. رأى رجولة وهمية بين أحضانها . فهى المرأة الوحيدة التى « أنعشت » رجولته ، وبالتالى فقد كان لزامًا عليه إسباغ رجولة أخرى حولها ، وهى الإنفاق عليها بسخاء .

وفى غضون عدة أشهر استنزفته كاميليا ماديًا .. فاتبع مسلك محمد حسن باللجوء إلى توماس ليقرضه مالاً ، فجنده فى لحظات ضعفه وحاجته .

ولما اتسع نشاطه .. استأجر توماس شقة بمنطقة روكسى باسم محمد حسن كانت تزخر بأنواع فاخرة من الخمور ، وتقام فيها الحفلات الماجنة التى تدعى إليها شخصيات عامة ، تتناثر منها المعلومات كلما لعبت الخمر بالرءوس فتمايلت على صدور الحسان وتمرغت بين أحضانها . وفى إحدى حجرات الشقة أقام جريس تانيليان معملاً مصغرًا لتحميض الأفلام وإظهار الصور والخرائط ، حيث كان يجلبها محمد حسن من مقر عمله ويعيدها ثانية إلى مكانها .

وذات مرت .. عرض توماس على محمد حسن فكرة السفر إلى السويس بالسيارة .. ثم إلى بورسعيد لتصوير المواقع العسكرية والتعرف عليها من خلال شروحه . ووافق الأخير ورافقتهما كيتى التى اطلعت على سر مهنة زوجها وشاركته عمله . وكان محمد حسن دليلاً لهما يشرح على الواقع أماكن الوحدات العسكرية .. ليقوم توماس بتصويرها من النافذة وتسجيلها على خريطة معه بينما تقود كيتى السيارة .

المشهد العجيب

وعندما تعثرت أحوال « جورج شفيق دهاقيان » – ٤٥ عامًا – تاجر الملابس ، تدخل صديقه توماس بطريقته الخاصة لإنقاذه . وكان المقابل تجنيده للعمل معه فى شبكة الجاسوسية .

لم يعترض جورج كثيرًا فى البداية .. فهو يعلم أنه لا يملك معلومات حيوية هامة تساوى مئات الجنيهات التى أخذها من توماس مقابل إيصالات ورهونات . وقد كان توماس الخائن ينظر إلى بعيد .. إلى ضابط كبير يقيم أعلى شقة جورج وتربطهما علاقات وطيدة ، وكان له دور فعال فيما بعد .

ولأن « بوليدور بابا زوغلو » تاجر طموح يحلم بامتلاك محل كبير للمجوهرات بوسط القاهرة .. عرض الفكرة على توماس فأبدى موافقته وشجعه على المضى لتحقيق حلمه ، والحلم تلزمه مبالغ كبيرة ، والخمر تلتهم حصيلة مكسبه أولاً بأول إلى جانب السهرات الماجنة التى تستنزف الكثير من رأسماله . عند ذلك لم يجد توماس صعوبة تذكر فى اصطياده أيضًا بعدما رسم له خطوط الحلم المرجو .

لقد رأى بوليدور أن لا شىء يجب أن يعوق تنفيذ حلمه الكبير .. حتى ولو كانت الخيانة هى الثمن .

هكذا مضى توماس يصطاد ضعاف النفوس .. فيمدهم بالمال ويغرقهم فى الخمر والجنس ويحصل على مبتغاه من خلالهم .. وانتعشت بذلك شبكة توماس فى جمع المعلومات ، لا يوقفها خوف من السقوط أو من حبل المشنقة . فالمخابرات الإسرائيلية كانت تؤكد له فى كل مرة يزور فيها ألمانيا أن المخابرات المصرية خاملة ضعيفة . نشأت منذ سنوات قليلة ولم تنضج بعد . ومهما أوتيت من علم ومقدرة فمن المستحيل كشفه .

هذا الاعتقاد سيطر عليه فأظهر وفاءه لإسرائيل وكراهيته للعرب ولكل ما هو عربى . وكلما استدعوه إلى ألمانيا كانوا يعدون له وليمة يعشقها من الفتيات الصغيرات أو الغلمان . ولم يعد يهمهم تصويره فى أوضاعه الشاذة مع الصغار بعد ذلك .. فلقد سقط حتى أذنيه وتوسعت شبكته توسعًا مذهلاً حير خبراء الموساد أنفسهم ، إذ تعدت الشبكة حدود مصر إلى دول عربية أخرى .. بعدما ازداد توماس علمًا بأدق فنون التجسس .. وكيفية السيطرة على شركائه بسهولة بواسطة نقاط ضعفهم التى استغلها بمهارة ، وبالأموال الطائلة التى ينفقها عليهم ، وقد اشتدت حاجتهم إليها ، وقد عرفوا أن لكل معلومة ثمنًا وقيمة .

وذات مرة عاد توماس من إحدى رحلاته في ألمانيا وفي ذهنه صورة « جورج استماتيو » الموظف بمحلات جروبي بالقاهرة .

كان استماتيو يشرف على حفلات العشاء التي كانت تقيمها رئاسة الجمهورية للضيوف ، ومن خلال دخوله لقصر الرئاسة بشكل رسمي ، فقد كان يعد بمثابة سلة معلومات طازجة ، تحوى كل ما يدور فى الحفلات الرسمية من أسرار وأخبار ، ويمكن استخدام هذه المعلومات بشكل أو بآخر ، إضافة إلى الاستعانة باستماتيو في تنفيذ أية مخططات مستقبلية .

لذلك .. وجدها توماس فرصة لا تعوض .. وكان عنده إصرار متوحش لتجنيده هو الآخر ليحصل منه على معلومات تدر عليه مبالغ خيالية . خاصة وأن استماتيو – ٥٣ عامًا – يعيش مأساة عجيبة جدًا . إذ كان مصابًا بالعنة المؤقتة أو عدم القدرة على الجماع إلا بعد أن يجامعه رجل مثله . حينئذ تعود إليه رجولته ويأتي المرأة بمهارة .

اكتشف توماس هذا السر وأخذ يدبر للسيطرة عليه والدخول به لوكر الجواسيس الذى صنعه . وعندما عرض الأمر على ضباط الموساد .. تهللت أساريرهم وأمدوه بأجهزة حساسة دُرِّب عليها لتسجيل هذا المشهد الشاذ العجيب .. وعاونه جريس تانيليان فى مهمته إلى جانب باتريشيا التي وافقت على تصوير المشهد للسيطرة على استماتيو .

كيرلس الوطنى الشريف

فى شقة روكسي تحولت إحدى حجرات النوم في شقة روكسي إلى بلاتوه ، وقام أحد الشباب بدور الرجل مع استماتيو المخمور . وكان المشهد الغريب الذى تم تصويره – سببًا لخضوعه .. وسقوطه فى دائرة الجاسوسية غصبًا عنه . ومن خلاله .. تدفقت أسرار قصر الرئاسة وما يجرى بين أروقته ، وما يتلقطه من أخبار وأسرار وحكايات لا تنشرها الصحف أو يعلم بها أحد .

داس توماس على كل القيم والمبادىء لتحقيق أغراضه .. ووصل به الأمر أنه قدم زوجته كيتي دورث هدية إلى بعض المحيطين به لتستخلص منهم أسرارًا معينة .. ولم يبخل بها على صديقه محمد حسن الذى حمل إليه ذات مرة وثيقة هامة تحوى أسرارًا غاية فى الخطورة ، أراد توماس تصويرها فطلب منه محمد حسن الثمن .. زوجته ، وأمام رغبته وتصميمه لم يجد بدًا من تحقيق مطلبه ، وعلى فراشه .

ونعود مرة أخرى إلى جورج شفيق دهاقيان .. التاجر الذى أنقذه توماس من الإفلاس . لقد كانت تربطه جيرة وصداقة بضابط كبير بالقوات المسلحة اسمه « أديب حنا كيرلس » . لاحظ كيرلس تردد جاره دهاقيان على منزله كثيرًا فى مناسبات عديدة وبدون مناسبات أيضًا. وكان فى كل مرة يناقشه فى أمور عسكرية حساسة ويحاول الحصول على إجابات لاستفساراته .. بل وإطلاعه على لوحات ووثائق عسكرية تؤكد شروحه .

لاحظ كيرلس أيضًا أن جاره يعيد طرح أسئلة بعينها سبق أن أجابه عليها . وشك الضابط فى الأمر ، فهذا التاجر يريد إجابات تفصيلية لأمور عسكرية حساسة .. وكلما أعرض عنه يزداد إلحاحًا عليه .. عندئذ .. انقلب شكه إلى يقين .. وبلا تردد حمل شكوكه إلى جهاز المخابرات المصرية وأطلعهم على كل ما دار من حوارات .

وبعد مراقبات دقيقة لدهاقيان .. أمكن التعرف على توماس والمترددين عليه . وكانت مفاجأة غاية فى الغرابة . إذ تكشفت شبكة جاسوسية خطيرة كان لابد من معرفة كل أعضائها . وفى خطة بالغة السرية والحذر .. أمكن الزج بعناصر مدربة إلى الشبكة فاتضح أن لها أذرعًا أخطبوطية تؤلف شبكة جاسوسية تمتد لتشمل دولاً عربية أخرى .. تكونت بها خلايا على اتصال بفروع للموساد فى كل من ألمانيا وفرنسا وسويسرا وهولندا وإيطاليا .. وكلها تعمل فى تناسق مدهش ، وتكوّن فى مجملها ست شبكات للجاسوسية فى القاهرة والإسكندرية ودمشق .

وبالقبض على الخونة فى ٦ يناير ١٩٦١ اتضحت حقائق مذهلة . ففالبية الجواسيس سقطوا فى بئر الخيانة بسبب الانحراف والشذوذ . وكانت أدوات التجسس التى ضبطت عبارة عن خمس آلات تصوير دقيقة ، وحقيبة سفر ذات قاع سرى ، وعلبة سجائر جوفاء تخبىء بها الوثائق والأفلام ، وجهاز إرسال متقدم وجد بسيفون الحمام بشقة خاصة بتوماس فى جاردن سيتى .

وبموجب القرار الجمهورى رقم ٧١ لسنة ١٩٦١ شكلت محكمة أمن دولة عليا .. يشمل اختصاصها كل وقائع التجسس فى مصر وسوريا « كانت الوحدة لازالت قائمة » وخلال ستة أشهر .. بلغت جلسات المحاكمة ٨٣ جلسة ، وبلغ عدد صفحات ملف القضية حوالى ستة آلاف صفحة ، وادلى ٩٥ شاهدًا بأقوالهم منهم الخبراء والفنيون والمختصون ، أما عدد المتهميمن من المصريين فكان ١١ متهمًا ومن الأجانب ٦ ودافع عنهم ٣٣ محاميًا ،

وجرى ندب طابور طويل من خبراء مصلحة التزييف والتحليل بالطب الشرعى ، وخبراء اللاسلكى والإلكترونات ، بالإضافة إلى عدد كبير آخر من الفنيين الذين انتدبوا بمعرفة المحكمة ، وعدد من المترجمين بالجهات الرسمية .

وفى ٢٥ أكتوبر ١٩٦١ أصدرت المحكمة حكمًا بإعدام جان ليون توماس شنقًا ، ومحمد حسن رميًا بالرصاص ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة على الآخرين .

أما كيتى دورث فقد أفلتت من العقاب فى مصر لأنها سافرت لألمانيا قبل القبض على أفراد الشبكة بعدة أيام ، لكن عقاب السماء كان أسرع . إذ صدمتها سيارة مسرعة وقتلت . فى الحال بأحد شوارع فرانكفورت .. بينما باتريشيا التى عوقبت بالسجن لمدة عامين ، فقد أصيبت بسرطان فى الثدى امتد إلى صدرها النافر المثير .. والتهم هذا الجمال الرائع الذى استغل أسوأ استغلال فى اصطياد الخونة والجواسيس .

وفى إسرائيل تشكلت لجنة « قعادات » وهو اختصار لاسم « قعادات راشيل هاشيرو تيم » والمؤلفة من رؤساء أجهزة المخابرات فى إسرائيل ومستشارى رئيس الوزراء .. لدراسة أسباب سقوط هذه الشبكة .. التى كانت تمثل مصدرًا حيويًا يتدفق بالمعلومات الاستراتيجية فى الجمهورية العربية المتحدة .

لقد كان هذا السقوط المفاجىء سببًا فى صدمة عنيفة لكبار قادة الاستخبارات الإسرائيلية . إذ تبين لهم بشكل قاطع أن هناك عقولاً عربية تستطيع إرباكهم .. وتدمير مخططاتهم القذرة فى المنطقة العربية بحيث يجدُّون دائمًا فى البحث عن أساليب جديدة متطورة، تذكى ذلك العالم السرى الغامض .. عالم المخابرات والجاسوسية ..!!

عبد الفتاح عوض .. الجاسوس الأسير .. !!



وسط رائحة الموت وصلصلة الجنازير فى سراديب الأَسْر .. لم أتخيَّل أننى قد أرى مصر .. أبدًا .

وعندما عدت إليها .. أحسست بالغربة لأسابيع طويلة .. وكان فى قرارة نفسى يقبع ذنب جبار يزمجر فى عنفٍ ويتعاظم .. ويلتصق بجدران شراييني هاجس مؤلم يلسعني كل لحظة .. يذكِّرنى بأننى مجرم .. آثم .. لا أستحق الحياة .. !! .

« أسير مصرى » .

الحطام الهش

استغلت المخابرات الإسرائيلية حالات الضعف الإنسانى لأسرى حرب ١٩٦٧ .. وساومتهم بشتى الطرق لأجل التعاون معها بعدما تتم مبادلتهم .

لقد أغرتهم بالمال وبأجمل النساء .. وعرَّضَتْهُم للتجويع والتنكيل والإرهاب والحصار النفسى حتى القتل .. وذلك للتحكم بأعصابهم وتوريطهم للانغماس فى تيار الخيانة والجاسوسية ..

وفى الملفات وجدنا حالات عديدة .. تبين كيف لجأت مخابرات العدو لوسائل شيطانية للضغط على الأسرى .. كيف ذلك .. ؟

وبأية طرق كانت تقود بعضهم إلى مستنقع الجاسوسية .. ؟!!

بداية .. تقول بعض المصادر العسكرية إن أسرى مصر لدى إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ يقارب عددهم الخمسة آلاف أسير .. سقطوا فى قبضة القوات الإسرائيلية عند اجتياح سيناء .. وانسحاب الجيش المصرى مهزومًا بدون نظام أو قيادة أو غطاء .

لقد كان ضرب المعابر على القناة وتدميرها .. خشية عبور العدو إلى الضفة الغربية للقناة .. أحد أهم أسباب اقتياد الآلاف من أفراد قواتنا إلى معسكرات الأسر .. وتعرضهم للقتل الجماعى والإبادة فى مذابح بشعة لن يغفلها التاريخ .

فعندما يدرك الأسير أن ما بين الحياة والموت ضغطة زناد من يهودى دموى .. يتوقف تفكيره عند تلك اللحظة ، وتتسمر عيناه على ارتعاشة إصبع مختل وصيحات آمرة . وكلما دوت رصاصات تحصد أرواح ضعفاء يرسفون فى قيود الأسر .. اشتهت النفس الحياة وطلبتها بإلحاح عنيد .

لقد نشط خبراء المخابرات الإسرائيلية فى تعذيب الأسرى وإرهابهم ، والتمثيل بجثث زملائهم على مرأى منهم لقتل أى آمال لديهم فى الحياة . وعند اختيارهم لبعض الجنود والضباط من الأسرى الذين أبدوا ذعرهم الشديد ، عملوا على منحهم فرصة النجاة من الموت الرخيص ليسهل إخطاعهم والسيطرة عليهم ، وكان لابد للمرشح أن يمر بعدة اختبارات

نفسية قاسية .. مثل إطلاق النيران بشكل فجائي على مجموعات من الأسرى ودون سابق إنذار ، والتنكيل بأحدهم بوسائل تعذيب وحشية لإرهاب الآخرين ، وفتح النيران من خلف الأسرى بعد فترة سكون .. فيصابون بالرعب والذعر من طلقات رصاص غير متوقعة .

اتبع العدو الصهيوني أيضًا طرقًا أخرى عديدة ، تحطم ما لدى الأسرى من مقاومة ، وتدفعهم إلى التفكير في منجى لهم من الهلاك .

ولكثرة وسائل انتهاك آدمية الأسرى ، كثيرًا ما عادوا إلى بلادهم وبعضهم تشوشت أفكارهم وأصبحوا لا يضبطون ، وفقد قلة منهم الثقة في القيادة العسكرية والسياسية ، ورسموا صورة مغايرة للواقع الملموس ، محتاطون لمحاولات اقتلاع ما آمنوا به فترة الأسر ، إذ إن العدو أصبح لديهم هو الأقوى والأمهر ، ومجرد التفكير في معاداته ضرب من جنون .

هكذا عاد بعض الأسرى من إسرائيل في صفقات متبادلة وغير متكافئة العدد أو المعنويات . فهناك فروق شاسعة ما بين الأسرى في الحالتين .

وكان من بين الأسرى المصريين الذين عادوا .. الملازم أول الاحتياطي عبد الفتاح عبد العزيز عوض . أشهر جاسوس لإسرائيل تم تجنيده في أحد معسكرات أسرى ١٩٦٧ في بئر سبع . عاد بعدما أجريت له عملية غسيل مخ ، وتحول من ضابط مصري يدافع عن أرضه وعرضه .. إلى عين من عيون إسرائيل ترى وتتحرك بيننا في ثقة .

هذا التحول الخطير ليس بأمر هين ، إذا ما أجرينا مقارنة عادلة بين أسير مكبل يرتجف رعبًا وجوعًا .. تحيطه مجموعة كبيرة من خبراء المخابرات تتفنن في تجنيده ، وبين شاب آخر تتصارع لديه الرغبات والطموحات على موائد القمار في أوروبا ، وقد يسعى هذا الأخير بنفسه إلى رجال الموساد عارضًا عليهم خدماته .

فرق كبير بين الأسير والحر . فالأسير مجبر مضطر ، والحر مخير مدرك .

الأسير يرى الموت ملاصقًا له ومعدته خاوية وأعصابه في انهيار ، والحر تلسعه حرارة الرغبة حينما تلتصق به حسناء مثيرة تصطاده ، ومعدته ممتلئة بأشهى أنواع الطعام والخمور .

كلها أمور لا تقارن مطلقًا .. ويكفينا أن ننقل إحساسات أسير مسلوب الإرادة ، في معسكر إسرائيلي ، تصم أذنيه صرخات زملائه حينما تدور بهم عجلة التنكيل ، ولا يدري متى يجيء دوره هو الآخر ؟!

إنه في تلك الظروف أضعف من الضعف نفسه أمام حيوانية الآسر وشهوته في التعذيب والقتل .

ولست ممن عاشوا تلك التجربة المرة حتى أصفها بحق .. لكن الخبراء العسكريين والعلماء أفاضوا في وصف كل تلك الأمور وصفًا دقيقًا ، وإن كان هذا أمر نستنكره بالمرة .. ولا يدفعنا إلى العطف على الأسير الذى يسقط في بؤرة الجاسوسية ، بقدر ما يدفعنا إلى الإحساس بمعاناته الشديدة إزاء ما تعرض له ، فاضطر مقهورًا إلى الاستسلام ، طمعًا في رشفة ماء ، أو كسرة خبز تُسَكِّن صراخ معدته وأمعائه .

وعبد الفتاح عوض بطل هذه القصة .. ضابط صغير برتبة ملازم أول في القوات المسلحة المصرية ، لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، أنهى دراسته الجامعية وحصل على مؤهله العلمى .. يملؤه طموح قوى في أن يعيش ويعمل ويخدم وطنه .. ويتزوج من حبيبته ياسمين ابنة عمه الجميلة التى ارتبط بها ، وتأجل زفافهما حتى ينتهى من فترة تجنيده .

لقد حزنت ياسمين كثيرًا وهو يسوق لها نبأ اختياره ضابطًا في الجيش .. فمعنى ذلك أن فترة خدمته العسكرية ستطول ، وبالتالى سيتأخر زواجهما ، لكن عبد الفتاح طمأنها عندما وعدها بسرعة الزفاف ، حيث إن راتبه كبير كضابط بالجيش بالقياس براتب الوظيفة التى لم تجىء بعد .

انخرط في سلك الحياة العسكرية وتفوق كثيرًا في تخصصه الدقيق .. وشهد له قادته بالانضباط والشجاعة . لذلك فقد أُرسل مع القوات المسلحة المصرية إلى اليمن للقضاء على حكم الإقطاع هناك .. المتمثل في الإمام البدر .. الذى قامت الثورة اليمنية عليه في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ .

لكن الدوائر الاستعمارية والرجعية كانت تخطط لعودة الإمام المخلوع بالقوة .. واستعادة عرشه المفقود . ورسمت خطة جهنمية متشعبة الأطراف ، حشدت لها جيشًا ضاريًا من المرتزقة .. مهمته القيام بهجمات جانبية على أجنحة مأرب جهة الشرق ، وفي صعدة من الشمال ، وفي المحابشة بداخل المنطقة الجبلية ، بينما تندفع بقيادة البدر قوة هجومية ضخمة تشق قلب البلاد .

غير أن هذه الخطة لم تكن محكمة ، إذ حوصرت مواقع الحشود الملكية ودمرت تمامًا في معركة « حرض » التى أبدع فيها عبد الفتاح قتالاً وتخطيطًا ، واستحق شهادات التقدير عن جدارة ، فقد كان يعلم بحق أن معركة اليمن في أساسها لم يكن المقصود بها إسقاط عرش وانتهاء نظام ، إنما إنهاء حطام هش من الأنظمة البالية التى خلفتها القرون الوسطى دام لأكثر من عشرة قرون في هذه المنطقة .

الاستسلام قهرًا

عاد عبد الفتاح من اليمن والغل يأكل قلبه من عصابات اليهود التى تنكرت لكل الشرائع ، واغتصبت أرض فلسطين ، وتتربص بدول الجوار تود نهش أرضها ، والاستحواذ على قدر أكبر من الهيمنة على مقدرات المنطقة .

ولم يطل به المقام كثيرًا فى حضن عروسه ياسمين ، فحرب وشيكة مع إسرائيل تدق طبولها وقد ظهرت فى الأفق بوادر الأزمة .. فسارع بارتداء زيه العسكرى وذهب إلى رفح ، ثم تقدم إلى خان يونس فدير البلح ، وعندما اشتعلت شرارة الحرب فى ٥ يونيو ١٩٦٧ .. أبلى عبد الفتاح بلاءً حسنًا مع وحدته العسكرية التى تمرست على القتال فى اليمن . لكن صدرت الأوامر فجأة بالانسحاب إلى الخلف ، فاعتقد أنها خطة عسكرية إلا أن العدو كان قد أحكم الحصار ، وبرغم ذلك لم يستسلم عبد الفتاح ، وظل يقاوم إلى أن سقط أسيرًا ، واقتيد إلى معسكرات بئر سبع التى لا تبعد كثيرًا عن موقع أسره .

كان لا يصدق أن سيناء كلها سقطت هى الأخرى أسيرة ، وفقد ثقته بقادته الذين جعلوا لأولئك اليهود الخنازير شأنًا ، واستطاعوا – وهم قلة قليلة – التغلب على جيوش العرب ، وفى عدة أيام اتسعت رقعة إسرائيل إلى أضعاف أضعافها .

كان يبكى فى البداية للحال الذى وصلوا إليه ، وبعد ذلك كان يرتجف لمرأى حوادث القتل الجماعية البشعة لأسرى الحرب ، ويرتعد للقهر والذل والموت البطىء الذى يتحرك كل لحظة بين الأسرى ليقطف خيرة شباب الوطن .

لقد رأى من الأهوال مالا يوصف ، وتوقف تفكيره عند أشياء كثيرة أهمها الموت بلا ثمن .. ومعدته الخاوية من الطعام ، وجفاف حلقه لشدة العطش ، ولم يتفاءل كثيرًا عندما استدعوه لمكتب قائد المعسكر فبادره باللغة العربية قائلاً له :

« إن الجيش الإسرائيلى يحتل الآن سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة ، ولا حول للعرب ولا قيام لهم من جديد » .

أمر له الضابط الإسرائيلى بالماء والطعام ، وجىء له بكوب من العصير البارد .. وعلى بعد عدة أمتار ، شاهد بعينيه جنديًا يهوديًا يسوق أسيرًا مصريًا ، ويكبله فى جذع نخلة ويطلق عليه النار عدة مرات فى تشفٍ وانتقام .

عندها .. صرخ عبد الفتاح في هلع ، فسحبوه إلى حجرة أخرى وجرى استجوابه لمعرفة كل ما عنده من أسرار عسكرية ، وللمرة الثانية والثالثة يرى مشهد القتل لأسير مكبل ، فيموت هلعًا .. ويحاول في وهن خائر إقناعهم بأن معلوماته قاصرة بسبب تواجده لعدة سنوات في اليمن .

بعدها بأيام ذهبوا به لغرفة التحقيق ، وأمروه أن يخلع ملابسه بكاملها أمام المحققين ثم تركوه وحده عاريًا ، ترتعد كل عضلاته خوفًا من اقتياده للقتل ، فكل الأسرى الذين أطلقوا عليهم الرصاص أمامه كانوا عرايا .

فجأة دخلت الغرفة فتاة يهودية ترتدى زى الجيش الإسرائيلى ، ودون أن تلتفت إليه شرعت في خلع ملابسها كلها ، واقتربت منه في نعومة وطلبت منه بالعربية أن يتلطف . ومن فتحات سرية كانوا يلتقطون له صورًا بمختلف الأوضاع وهو يتهرب منها محاولاً الانزواء ، بينما هى لا تكلف عن إغوائه ومطالبته .

ومرة أخرى حاوره المحقق كثيرًا واستفزَّهُ وأجبره على أن يسب بلده وقائدها ، ولسابق معرفتهم بأسماء أهله وأقاربه ووظائفهم وعناوينهم .. كانوا يزيدون الضغط على أعصابه مهددين بإيذائهم ، في عملية « غسيل مخ » له ولغيره ، ويستخدم الضباط الإسرائيليون التنويم المغناطيسى ، والإيحاء النفسى والأمصال والعقاقير الطبية ومنها حقن « الصدق » وجهاز كشف الكذب ، فضلاً عن التعذيب الجسمانى بوسائل مختلفة ، وإطلاق حرب معنوية شرسة[1] لزلزلة عقيدته وعروبته .

لقد تم سجنه في زنزانة ضيقة تتسع بالكاد لجسده المنهك ، وسلطت عليه كشافات كهربائية قوية ليل نهار ، مع انبعاث موجات من الهواء الساخن تارة والبارد تارة أخرى ، وذلك لمدة ستين يومًا وهو عار تمامًا لا يدرك الليل من النهار ، أو متى تجيء لحظة النهاية ؟ بينما صوت المذياع لا يكف عن بث الدعاية المسمومة ، والنصائح الموجهة إليه لكى يستسلم ويتعاون مع ما يسمى بـ « منظمة السلام » ويفرغ ما في جعبته من معلومات وأسرار للمحققين ، مع تأكيدات مكررة بالاهتمام به صحيًا ومعنويًا إذا ما استجاب لهم مع الوعد بأن يغدقوا عليه بالأموال والميزات التى لا تخطر بباله .

---

(١) استغلت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية الحالة المعنوية السيئة للأسرى من الضباط ، وعرضت عليهم أفلامًا ماجنة مزيفة ، تصور مدى الانحلال الخلقى لرموز قادتهم ، وهم يتعاطون الجنس والخمر مع نساء متنوعات . واعتمدت إسرائيل في ذلك على فنيين متخصصين في تركيب الصور والصوت فبدت الأفلام حقيقية ، مما ساعد على فقدان الأسرى لثقتهم في قياداتهم .

وبعد هذه الجرعة من الإغراءات قد يسقط الأسير مستسلمًا ، وقد يتماسك أكثر وأكثر لإيمانه بقضيته وبقيادته ، فيقاد إلى غرفة « العمليات » حيث يجرى إدخال خرطوم دقيق فى جهازه البولى ينتهى طرفه بكيس شفاف ، ويترك هكذا فى زنزانته ، ويمنع عنه الماء ، وتسلط عليه الكشافات الحارقة من جديد مع الهواء الساخن ، فينزف عرقه ويكاد يموت عطشًا فلا يجد سوى بوله فيشرب منه .

هناك أيضًا وسيلة أخرى لإجبار الأسير على الانخراط فى سلك الجاسوسية تحت زعم الاشتراك فى « منظمة السلام » لوقف الحرب بين العرب وإسرائيل ، ألا وهى تكبيله بالجنازير وسلاسل الصلب المدبية ، وعصب عينيه بعصابة سوداء ، والحبس فى زنزانة منفردة معزولة صوتيًا عن العالم الخارجى لمدة أسبوع ، فيكاد الأسير أن يجن ، وينقل إلى غرفة التحقيق ليروا هل استسلم مقهورًا أم لا يزال صلبًا لا يخاف الموت ؟ فإن رأوا فيه صلابة فعندهم من وسائل التعذيب ما يكفى .

ويتم تصنيف الأسرى المطلوب تجنيدهم إلى مجموعات ، والمجموعة التى يعتقد أنها الأسهل انقيادًا .. تتابع معها المحاولات من جديد وبصور أخرى من التعامل ، ويتم عرض الأسير على أخصائيين فى وسائل الإقناع والتأثير النفسى يصلون به ومعه إلى مرحلة من « الهدنة » التى يعقبها أحد أمرين : إما الاستمرار معه ، أو تركه لحاله وعدم إضاعة جهدهم معه أكثر من ذلك .

يقول الملازم أول عبد الفتاح عبد العزيز عوض :

« فى الزنزانة الانفرادية الضيقة .. كنت عاريًا منكهًا معصوب العينين مكبلاً بالجنازير . طعامى قطعة خبز جافة كل عدة أيام مع نصف كوب من الماء .

كنت لا أكف عن التفكير فى حالى وما سيئول إليه مصيرى المجهول . وكلما استحضرت صور أهلى من ذاكرتى .. أتخيل حزنهم الشديد لفقدى فأتماسك .

كثيرًا ما كنت أستمد قوتى من صورة أمى ، ونظرة الرجاء فى عينى حبيبتى ياسمين ترجونى ألا أنساها .. ، كنت أبكى لحالى فلا تسقط منى دمعة واحدة ، فالجسد الهزيل فقد ما به من ماء . وجفت المدامع ونضب معينها ، وتصورت للحظة أننى بين أحضان أهلى وأصدقائى ، لكن أوهام الخيال كانت لا تطول ،

فالواقع كان أقسى من أى تخيل ، واقع قضى على لذة أحلام يقظة ، ووأد الآمال فى مهدها .

الأسابيع طويلة مريرة تمر والحال لا يتبدل .. عطش وجوع وموت يتربص .. وعواء ذئاب تهوى افتراس أجساد الأسرى ، وميكروفون يأتينى صوته من فوق رأسى يذيع أغانى الحرب من إذاعة « صوت العرب » . وبيانات كاذبة وخطب وتصريحات سياسية تصيبنى بالغثيان . وتساءلت مرارًا :

هل يهتم بنا أحد ؟؟

أجبت فى نفسى :

لا أظن أننا على خريطة المسئولين فى مصر .

فقد طالت مدة الأسر ، وصرنا نكرة ونسيًا منسيًا . وعندما يجيئنا أعضاء الصليب الأحمر الدولى ، يشفقون لحالنا ولا يملكون لأجلنا شيئًا .

الحياة أفضل

عدة أشهر وأنا أرى العذاب والموت .. لا أرى أكثر منهما قربًا منى . وعندما أطلقونى ذات يوم بين بعض الأسرى .. اقترب منى أحدهم وبصوت مصرى هامس ، وبعينين تدوران فى محجريهما خوفًا ، كشف لى عن استسلام العديد من زملائنا بعدما أفضوا بما لديهم من أسرار عسكرية للمحققين ، وانضمامهم لمنظمة « السلام الدولية » التى تضمن لهم عودة سالمة إلى مصر فى أسرع وقت . ولاحظت فجأة أن أصابع يده البيضاء يكاد ينفجر منها الدم ، ولا تبدو عليه مظاهر الهزال ، بينما نحن نعانى الجفاف والوهن .

أيقنت حينئذ مائة بالمائة بأنه ضابط إسرائيلى يجيد العربية بطلاقة . فأوهمته بأننى أصدقه ولكن ليس عندى ما أقوله لهم .. فأنا ضابط قادم لتوى من اليمن بعد عدة سنوات هناك .. ولا أعرف بالضبط تشكيلات الجيش المصرى .. أو عدد أفراده .. أو تسليحه .. أو حتى أسماء قادته بالكامل .. أو نظام التدريب الحديث الذى يطبق .. أو أماكن منصات الصواريخ أو المطارات السرية ومخازن الزخيرة .

قلت له ذلك .. وأنا أبدو صادقًا .. لكنه لم يصدقني بالطبع فأنا بلا شك أعلم الكثير من خلال زملائي .. وعندى معلومات قد تبدو تافهة لكن الإسرائيليين يهتمون بها جدًا .

بعدها تركني الضابط الإسرائيلي ليستدعيني المحقق في مساء ذات اليوم لتستقبلني فتاة إسرائيلية هادئة .. وبالعربية حدثتني هي الأخرى قائلة :

« سيقتلونك الليلة لو لم تتعاون معهم . لقد سمعتهم يقررون ذلك » .

كانت تحدثني في عطف بينما تسقيني أكواب العصير من دورق تحمله والخوف يسيطر عليها . قلت لها :

هل أنت إسرائيلية ؟

أجابتني لا .. إنني فلسطينية مسلمة واسمي « سهيلة » وأعمل ممرضة في المعسكر .

نصحتني بأن أصارحهم بما لدى لأنهم يعرفون كل شيء . ونظرت إلى بإشفاق وهي تقول :

« هم وحوش لا تعرف الرحمة » .

وتركتني مسرعة إلى حجرة أخرى وخطوات ثقيلة تقترب .

وعندما جاء المحقق ومن خلفه جندى يحمل رشاشه .. كنت أرتعد خوفًا ، وتوقف لساني عن الكلام رعبًا ، وبعد تهديدى بكهربة عضوى الذكرى قلت في نفسي إنني فقدت معنوياتي وكل شيء .. لكنني لم أعد أملك إلا رجولتي .. ساعتئذ اضطررت لأن أبوح ببعض ما لدى من معلومات .. يريدونها مني مبديًا رغبتي في التعاون مع « منظمة السلام » من أجل منع الحرب بين إسرائيل والعرب .

عند ذلك فكُّوا قيودى وأودعوني حجرة مريحة ، بلا كشافات إضاءة أو هواء ساخن أو ميكروفونات . ونقلوني إلى حجرة الطبيب الذى فحصني وحققني

بعض المقويات واستمروا فى ملاحظتى طبيًا مع الاهتمام بمأكلى ومشربى . واصطحبنى جندى إسرائيلى لأول مرة إلى الحمام لأستحم بعد مائتى يوم فاحت أثناءها رائحة جسدى النتنة ، وعهدوا بى إلى الحلاق ، وألبسونى ثيابًا جديدة نظيفة وانتقلت لمعسكر آخر جنوب بئر سبع اسمه « هازيريم » حيث أكدوا بكل الطرق أن بإمكانهم الوصول إلى فى مصر فى أى وقت .

لقد أسمعونى ما تفوهت به من سباب لمصر ولقيادتها . وفوجئت بصورى عاريًا مع الإسرائيلية العارية فأحسست بالمهانة ، وأشد ما آلمنى هو تهديدى برسائل متفجرة تقضى على أسرتى وأقاربى ، وأخذونى إلى « أشدود » ثم إلى «بات يام» جنوب تل أبيب وهناك رأيت ما لم أره فى حياتى أو أحلامى ، حياة أخرى فى عالم ليس له وجود على سطح الأرض ، عالم من السحر والخيال بلا حدود ، وأحاطونى بفتيات تتفنن كل حسناء منهن فى إمتاعى ، وساقتنى قدماى معهن بلا هدى أتذوق طعم حيوات أخرى ، مفعمة بالصخب وبالمغريات .. واللذائذ .. وسيطر علىّ هاجس غريب ترسب بعقلى ، وهو أن الجنس مع إسرائيليات ليس بزنا ..

وبعد حوالى الشهر أخذونى إلى منزل منعزل .. وشرعوا فى تدريبى على استخدام الأحبار السرية والكربون السرى الذى يفوق الأحبار ، وتعلمت أيضًا استعمال الشفرة والاتصالات اللاسلكية وإطلاق النكت والشائعات الكاذبة ، وكيفية جمع المعلومات العسكرية وأخبار التسليح ومخازن الأسلحة والتموين والذخيرة، وطلبوا منى أن أوافيهم بالمعلومات أولاً بأول على عنوان فى بروسكل .

وفى نهاية الدورة التدريبية أكدوا على أن يدهم الطويلة لن تتركنى أبدًا أو تترك عائلتى .. إذا ما أبلغت الجهات المختصة فى مصر بأمر انضمامى إلى منظمة السلام .

واستمرت تهديداتهم لى حتى وأنا فى طريقى إلى مصر مع مندوب الصليب الأحمر الدولى . حيث لم أصدق أبدًا أننى قد أعود إلى مصر فى يوم من الأيام .

لكنى أيقنت أننى على أرض الوطن أخيرًا .. حينما وجدتنى أتمرغ بين أحضان أهلى وزوجتى وأصحابى .

ولعدة أسابيع كنت أحس بالغربة .. وبوطأة الحمل الثقيل على كاهلى ، ورغبة عارمة فى البقاء تجتاحنى فأكاد أصرخ محتجًا على وصفى بالبطل ، ففى قرارة نفسى يقبع ذنب جبار يزمجر فى عنف ويتضخم .. ويلتصق بجدران شراييني هاجس مؤلم يتعاظم يذكرنى بأننى مجرم أثم لا أستحق الحياة . وفى مكتب ضابط المخابرات العسكرية المصرية .. رفضت أن أصارحه بما صار إليه حالى ، رفضت أن أبوح إليه بجرمى فكان سيغفر لى ويعذرنى .. إنه لم يلمح بذلك بل قالها صراحة دون لبس . إلا أننى كنت فى ذعر مما سيصيب عائلتى وزوجتى الحبيبة التى جاءتنى بطفل أسمته « بطل » وعلى مدى ساعة ونصف الساعة اعترفت بكل ما جرى لى ، ما عدا انضمامى « لمنظمة السلام » إلى أن قبضت على المخابرات العسكرية ، وقدمتنى للمحاكمة بتهمة التجسس .

لا وجه للمقارنة

كانت هذه اعترافات الملازم أول عبد الفتاح .. الضابط الأسير الذى عاد مقهورًا محطمًا من أسره فى إسرائيل . اعترافات يستعين بها الخبراء العسكريين وعلماء علم النفس والسلوك، لاستنباط نوازع مختلفة داخل العقل الإنسانى ، وصراعات لا ترحم تدور بداخل الأسير ، الذى افتقد أبسط مبادىء الأمان فى الأسر ، فسقط فى وكر الجاسوسية خائرًا واهنًا مكرهًا ومضطرًا ، تلسعه صراخات الخوف من الموت على أيدى شرذمة من ذئاب .. يرتجف بدنه لهفة لبريق من أمل يلوح من بعيد .. أملٍ ضعيف فى الفوز بكسرة خبز .. أو رشفة ماء .

لقد أكدت تحقيقات المحكمة العسكرية أن الملازم أول عبد الفتاح عبد العزيز عوض ، عاد من إسرائيل بعدما أجريت له عمليات « غسيل مخ » هناك .. وضبط وهو « يحاول » جمع معلومات عسكرية « ينوى » إرسالها إلى المخابرات الإسرائيلية ، سطرها ضمن رسالة مشفرة ، وحكمت المحكمة على الضابط الاحتياطى بالأشغال الشاقة المؤبدة . ولم تحكم

بإعدامه رأفة بظروف أسره ورحمة به .. لأن تجسسه ليس نابعًا من ذاته بل هو اضطرار مغلوب وجواب أسير مكبل .

وأنا أرى أن هذا الحكم – قياسًا بحالات أخرى – حكمًا قاسيًا .. لأن الضابط المتهم لم يمارس التجسس بشكله المعروف ، خلافًا لأزمته النفسية من جراء الأهوال التى مر بها .

فالجاسوس « أمين محمود محمد » المجند بالقوات المسلحة ، والذى جنده شقيقه السيد(*) حكم عليه بالسجن « ١٥ » عامًا فقط فى أكتوبر ١٩٧٤ .. برغم أنه سرب معلومات هامة إلى إسرائيل عن وحدته بالجيش .

والجاسوس محمد عمر حمودة(*) الذى سلم نفسه للقنصلية الإسرائيلية فى استانبول، وبهجت حمدان الذى دربته الموساد لعدة سنوات على فن الجاسوسية، والجاسوس السكندرى السيد محمود(*) الذى تحالف مع الشيطان من أجل المال ، والجواسيس : جمال حسنين(*) ، وفايز عبد الله ، وعبد الحميد اللباد ، ونبيل النحاس(*) ، ومؤيد عثمان ، وعماد إسماعيل ، وعبد الملك جاسوس المنصورة .

كل هؤلاء الجواسيس الخونة والعشرات غيرهم الذين تعاملوا مع المخابرات الإسرائيلية عن قناعة من أجل مطامع لهم فى مال أو غرائز ، أدينوا جميعًا بالأشغال الشاقة المؤبدة . وليس هناك وجه مقارنة بينهم مطلقًا وبين الضابط الأسير عبد الفتاح عوض ، الذى عاد من أسره غارقًا فى القهر والمذلة ، بينما هم جميعًا كانوا غرقى بين أثداء الحسان ، يرشفون اللذائذ ويفترشون الجمال .!!

(*) وردت تفاصيل قصص تجسسهم بكتابنا هذا .

سمير باسيلى .. أول جاسوس فى العالم يجند أباه ..!!



« عندما تخمد نبضات الحب صريعة الكبت .. والمعاناة .. والشجن ، وتحترق الأعصاب فيرتجف الجسد رجفة الجوع .. ينهار الجبان ويصير شبحًا بلا معالم .. فيسترخص الثمين بلا ندم ..

وعندها .. فهو لا يتورع أن يبيع الجذور بدريهمات .. ويهون عليه بيع الأهل .. والأبناء .. والوطن .. !! »

إنها حكاية ابن لم تنجبه مصر ..

السر العظيم

عندما ورط إبراهيم شاهين زوجته انشراح وأولاده الثلاثة .. ودفعهم بحماس للتجسس لصالح الموساد .. لم يكن دافعه الانتقام منهم .

كذلك هبة سليم .. التي جرجرت خطيبها المقدم فاروق الفقي للخيانة العظمى .. بالرغم من علمها أنه يحبها لدرجة الجنون .. لم يكن دافعها الانتقام منه .

أما جاسوس الإسكندرية .. السيد محمود .. الذي احتال على شقيقه أمين المجند بالقوات المسلحة .. وأغرقه في أموال الموساد .. فهو أيضًا لم يكن يقصد الانتقام منه .

لكن سمير وليم فريد باسيلي .. كان يختلف كثيرًا عن كل هؤلاء وغيرهم .. إذ دفع بوالده – عن عمد – إلى وكر الجاسوسية .. للانتقام منه .. وتشفيًا فيه .. وورطه في عمليات تجسس لحساب إسرائيل .. انتهت بمصير مهلك لكليهما .

كيف حدث ذلك .. ؟

علماء النفس تحيروا .. ووقفوا عاجزين أمام أحداث القصة المؤسفة .. وفشلوا تمامًا في تحليل شخصية الابن المجرم .. كما فشلوا من قبل مع إبراهيم وانشراح .. اللذين قال عنهما أستاذ علم النفس النمساوي « فردريش يوجان » :

أعتقد أنهما مصابان بمرض « الجنون ذي الوجهين Folie à double forme » ..

وهو مجموعة أعراض إكلينيكية قوامها خفض نغمة المزاج الوقتي Lowering of mood - tone وصعوبة التفكير الذي يغلفه القلق وتسلط الأفكار .. وتهيج بعض الأحزان والهموم .

ولأن حالة سمير باسيلي حالة فريدة من نوعها .. خضعت للعديد من التحليلات النفسية .. وضعته في النهاية في مصاف المرضى .. وصنفه « يوجان » على أنه « الدوني السيكوباتي التكوين Constitutional Psychopathic inferior » .. والسيكوباتي هو دائمًا في حالة

توتر .. لا يستفيد إلا قليلاً جدًا بالخبرة أو العقاب .. ولا يدين بأى ولاء حقيقى لأى مبدأ أو جماعة .

فلنقرأ معًا تفاصيل قصة سقوط سمير باسيلى .. ولا نتعجب لتحورات النفس البشرية وتقلباتها .. فتلك قضية شائكة معقدة .. ذلك لأن النفس البشرية سر لا يعلمه إلا خالقها سبحانه وتعالى .

على مقهى برنسيس

حصل سمير على الثانوية العامة بصعوبة شديدة عام ١٩٦٠ وتوقف عن إكمال دراسته بأحد المعاهد . فالأب .. كان بخيلاً شديد البخل .. شرس الطباع فى معاملته لأبنائه .. لا يترك قط مساحة ضئيلة من التفاهم تقربهم منه ، وكره سمير فى أبيه سلوكه فأدمن الخروج من المنزل والسهر مع أصحابه .. ولم تنطفىء برغم ذلك حرائق الصدام مع والده . لذلك فكر فى السفر إلى ألمانيا بعدما ضاقت به الحياة وعضه الجوع .

وعندما عرض الأمر على أبيه لم يسلم من تهكمه وسخريته اللاذعة .. وذكره بالفشل الذى أصبح سمة من سمات شخصيته .. رافضًا بشدة إمداده بنفقات السفر رغم توسط بعض أفراد الأسرة .

استدان سمير من أصدقائه ووجد نفسه فجأة على مقعده بالطائرة فى طريقه إلى ألمانيا ، يتنفس الصعداء ويلعن الفقر .. ويسب والده الذى حطم كل الآمال لديه فأشعره باحتقاره لنفسه .. ودونيته .. وبث بأعماقه شعورًا مخجلاً بالضعف والحقارة .

لقد كان يبخل عليه بأبسط بوادر الحنان والأبوة .. وحرمه الحب . فعاش معه مزويًا بلا هدف أو كيان . وأخذ سمير يجتر ذكرياته المرة مع والده البخيل .. الذى دأب على تسميم بدنه ليل نهار بالسباب والحط من شأنه .. وتحريض أمه على طرده من المنزل كلما عاد متأخرًا وحرمانه من العشاء والهدوء .. مما أثار شجن الشاب الممزق .. وكثيرًا ما كان يسأل نفسه أهو ابن شرعى لهذا الرجل أم لقيط وجدوه على الرصيف .

تحركت به الطائرة على الممر .. وقبل أن ترتفع مقدمتها عن أرض المطار .. أخرج سمير منديله وبصق على معاناته وآلامه وحظه ، وكأنه يبصق على كل ما يذكره بأيامه الكئيبة .

وظل يسرح طوال رحلته في خيال جميل أفاق منه على صراخ عجلات الطائرة وهي تنزلق على أرض مطار ميونيخ . وشرع من فوره في محاولة تحقيق الحلم .. فاتصل بمعارفه هناك لمساعدته .. وسريعًا حصل على وظيفة معقولة بشركة سيمونز الشهيرة فعاش حياة رائعة لم يكن خياله يقوى على وصفها أو يتخيلها .

مرت الأسابيع والشهور وفتانا منهمك في عمله لا يبغى سوى جمع المال .. وبدأ رويدًا رويدًا في استطلاع الحياة الجديدة .. والتحرر الصاخب الذى يغش المجتمع من حوله .. وساعده المال الذى ادخره على المغامرة .. فانغمس في عالم آخر بعدما ضعف أمام إغراء المدينة الساحرة .. بحر هائج من اللذات لا ينتهى مد موجه أو يخمد .. أفرغ بين ضفتيه حياته السابقة لا يكاد يفيق من نشوته وسكرته إلا ويعود أكثر شراهة وطلبًا .

ضمن له مرتبه الكبير التكيف مع حياته الجديدة . ولأنه فقد هويته – أراد أن يرسم لنفسه هوية جديدة ابتدعها هو .. وهيأت له الظروف خطوطها لخدمة أحلامه وطموحاته . وتبلورت شخصيته الجديدة على مقهى برنسيس حيث الخمر والرقص والنساء .

وذات مساء وكان الزحام على أشده جلس بجواره رجل أنيق ودار حديث بينهما وفهم سمير أن نديمه ينتظر صديقته التي جاءت تخطر كظبى رشيق نفر الجمود والوخم .. وصاح « هانز مولار » ينادى على صديقته « جينفيف يارد » في ترحاب زائد .. وعرفها على سمير باسيلي الذى غاص في الذهول والمفاجأة .

كانت أنوثتها الطاغية تقتل ، وصدرها العارى ترتج لمرآة الخلايا ، وسيقانها المرمرية المثيرة تُطيِّر العقل .

وعندما قامت للرقص معه .. حرقته نيران الجسد .. وألهبته أنفاسها وهي ترسل صهدًا تسلل إلى عقله فأوقفه ودمر مقاومته .. وكانت يداها كالقيد تطوقان رقبته تمامًا كالقيد الذى كبل به مصيره ومشواره المقبل . وعندما صحبها هانز وخرجا لم يستطع سمير صبرًا .. فلاحقهما بسيل من الاتصالات التليفونية تعمدا ألا يردا عليها لبعض الوقت .. إلى أن أوشك الشاب العاشق على الجنون .. فدعاه « هانز » إلى شقته وجاءت « جين » كفتنة تتحرك فتتحرك معها الرغبات وتثور معلنة عن نفسها .

ترك هانز الشقة إثر مكالمة تليفونية وتمنى سمير لحظتئذ لو منحها كل غال لديه للفوز بقطرة واحدة من شهد أنوثتها .. ولكن عندما أفاضت عليه بكئوس من النشوة خارت إرادته.. وود لو لم يفق من سكرته إلى الأبد .

وكانت خطة السقوط التى رسمتها الموساد أغرب من الغرابة .. فبينما كان عاريًا فى الفراش المستعر قالت له جين وهى تمرر المنشفة على وجهه :

– أنت مصرى رائع ، أشعرتنى بأن «للحب» مذاقات لذيذة أخرى .

أجابها فى ثقة :

– هذا ما تعلمته منكم .

سألته فى دلال :

– ألم تكن لديك صديقة فى مصر ؟

قطب حاجبيه وأجاب بسرعة :

– لا .. لا .. الجنس فى مصر يمارس بشكل متحرر فى الخيال .. وفى السر فقط . والصداقة بين الجنسين لا تعرف الجنس ولكنها تضج بالكبت وتفوح منها أبخرة الرغبة .

فى نعومة زائدة سألته وهى تفرك أذنه :

* وماذا تقول عنى أيها المصرى الشقى ؟

وهو يقبلها :

– أفروديت ابنة زيوس وهيرا التى ولدت من زبد الماء فى بحر إيجه[1] . وهى الآن بأحضانى .

« وهى تحتضنه فى تدلل » :

– لا تبالغ كثيرًا !! .

(١) هكذا جاءت فى الميثولوجيا الإغريقية قصة ولادة أفروديت ربة الجمال والحب .

ضغطها بين ذراعيه متولهًا وهو يقول :

– أنت أروع فتاة عرفتها .. ولن أتركك أبدًا .

« تتنهد فى حزن » :

– للأسف يا سمير .. سأتركك مضطرة خلال أيام .

لن أعيش وحيدًا

انتفض منزعجًا وهو يبعد وجهها عن صدره ليتأمله :

– جين ؟ ماذا تقولين ؟ عندما عثرت عليك امتلكت الحياة وسأموت بدونك.

عانقته وهى تقبله فى حنان بالغ :

– فضلت أن أصارحك الآن قبل أن أغادر ميونيخ فجأة .

تشبث بذراعيها فتألمت وقال :

– سأجيء معك حتى آخر الدنيا فلا دنيا لى سواك .

– مستحيل ..

تنهد فى زفرة طويلة وأردف :

– سأثبت لك يا جين أن لا شيء مستحيل ..

وفى نعومة الحية قالت :

– أرجوك .. أنت لا تعرف شيئًا .. فلا تضغط على أعصابى أكثر من ذلك .

هزها بين أحضانه وهو يردد :

– أحبك لدرجة الجنون منذ رأيتك فى البرنسيس يا أجمل برنسيس فى الدنيا.

– أحبك أيها المصرى الأسمر « قالتها وهى تداعب شعره فى ابتسامة عريضة » .

مرت فترة صمت قبل أن يضيف :

– تركت مصر وعندما رأيتك أحسست أنك وطن آخر . نعم – أنت الآن لى وطن وأهل وحياة .. ولن أتركك ترحلين فأغترب وأحترق .

تبدلت نبرتها إلى نبرة حزن وهى تقول :

– أنا أيضًا أعيش معذبة بعدما مات والدى منذ سنوات . إن الوحدة تقتلنى وترهقنى معاناة القتامة ، لذلك فأنا أموت كل ليلة من التفكير والقلق . وبى حاجة إلى صديق وحبيب يؤازرنى .

تساءل :

أليس هانز صديقًا ؟

أجابت مفتعلة الصدق والألم :

– لا .. إنه رئيسى فى العمل وفى ذات الوقت ملكه . إننى مثل سلعة تافهة يروجونها مجانًا .

تجهم وجهه وقطب حاجبيه وهو يسألها :

من ؟ من هؤلاء الذين تقصدين ؟

تلتصق به كالخائف الذى يلوذ بمن يحميه ..

– .... ؟

فى لهجة جادة يعاود سؤالها :

– أجيبينى من فضلك جين ..

« تزداد جين التصاقًا به ويرتعش جسدها بين يديه وتهمس بصوت متهدج » :

– لا أستطيع .. لا أستطيع .. مستحيل أن تثق بى بعد ذلك .

فى إلحاح مشوب بالعطف :

– أرجوك جين .. أنا أحبك ولن أتركك أبدًا .. من هؤلاء الذين تعملين معهم ؟

ركزت نظراتها على عينيه موحية له بالأسف :

– الموساد ......

– موساد ؟ !!

ردد الاسم ويبدو أنه لم يفهم .. إذ اعتقد أنهم جماعة من جماعات الهيبز التى كانت قد بدأت تنتشر فى أوروبا وتطوف بالميادين هناك والشوارع .

– نعم الموساد .. ألا تعرف الموساد ؟

نظرت فى عينيه بعمق تستقرئ ما طرأ على فكره .. واقتربت بشفتيها منه وأذاقته رحيق قبلة ملتهبة أنهتها فجأة وقالت له :

– إنها المخابرات الإسرائيلية .

وأكملت مص شفتيه لتستشف من حرارته رد فعله .

ولما رأت جين أن حرارة تجاوبه لم تفتر بل إن امتزاج الشفاه كان على أشده . تعمدت ألا تحاول استقراء أفكاره ، وهيأت رائعات اللذائذ ، وأسبغت عليه أوصاف الفحولة والرجولة فأنسته اسمه ووطنه الذى هجره .. والذى خط بالقلم أول مواثيق خيانته .

وبعد أن هدأت ثورة التدفق قالت له بخبث :

– هل ستتركنى أرحل ؟ بيدك أن أظل بجانبك أو أعود إلى تل أبيب ..

أجاب كالمنوم :

– بيدى أنا .. ؟ كيف ؟ لا أفهم شيئًا ..

عانقته فى ود مصطنع وبكت فى براعة وهى تقول :

– لقد كلفونى بالتعرف على الشباب العربى الوافد إلى ميونيخ . خاصة المصريين منهم وكتابة تقارير عما أعرفه من خلال حوارنا فى السياسة والاقتصاد .. لكننى فشلت فشلاً ذريعًا بسبب اللغة . فالمصرى أولاً ضعيف فى الإنجليزية لأنه يهتم بالدويتش ، وهم أمهلونى لمدة قصيرة وعلى ذلك لا مكان لى هنا .

وكأن الأمر ثانويا بالنسبة له :

– ماذا بيدى لأقدمه لك ؟

بتوسل شديد يغمسه الحنان قالت :

– تترجم لى بعض التقارير الاقتصادية من الصحف المصرية والعربية وليس هذا بأمر صعب عليك .

أفاق قليلاً وقال :

– وهل المخابرات الإسرائيلية تجهل ما بصحفنا لكى أقوم بالترجمة لها ؟

أجابت فى رقة :

– يا حبيبى أريد فقط أن أؤكد لهم أننى ألتقى بمصريين وأقوم بعملى معهم .. ولا يهمنى إن كانوا يترجمون صحفكم أو لا يترجمونها . أريد أن أظل بجانبك هنا فى ميونيخ .

وطال الحوار بينهما وعندما خافت جين من الفشل فى تجنيده .. أجهشت بالبكاء وهى تردد :

– لا حظ لى فى الحب . ويبدو أن صقيع الحياة سيظل يلازمنى إلى الأبد .

أخذتها نوبة بكاء هستيرية وهى تنعى حظها فى الحب وافتقادها للدفء والحبيب .. فما كان منه إلا أنه جذبها إلى صدره بقوة وهو يقول :

– مهما كنت .. لن أتركك ترحلين .

وأمام رغبته الجامحة وخدعة المشاعر ..

أسلم مصيره لها تفعل به ما تشاء .. فجاءته بأوراق وكتب بخطه سيرة حياته .. ومعلومات عن معارفه وأقاربه ووظائفهم وعناوينهم فى مصر . وطلبت منه بتدلل أن يمدها بأخبار مصر من خلال المصريين الوافدين إلى ميونيخ . فلم يعترض بل كان شرطه الوحيد أن تظل بجانبه .

هكذا سقط سمير فى براثن الموساد . وبعد أن غرق لأذنيه فى مهامه التجسسية واستسهل المال الحرام .. تركته جين لتبحث عن غيره .. وانشغل هو باصطياد المصريين والتقاط الأخبار .. وقبع فى مطار ميونيخ ينتظر الطائرات القادمة من مصر عارضًا خدماته على الوافدين للمرة الأولى .. الذين يسعدون بوجود مصرى شهم يرافقهم إلى حيث جاءوا .. ويقوم بتسهيل أعمالهم فى المدينة .

أشهر قليلة .. واستطاع أن يقيم شبكة واسعة من العلاقات .. خاصة مع بعض موظفى مصر للطيران وبعض المضيفين والمضيفات .. ويعود إلى مسكنه فى المساء ليكتب تقريره اليومى المفصل .. الذى يتسلمه منه مندوب من الموساد كل صباح . ويقبض آلاف الماركات مكافأة له .

الطماع والمغامر

وبعد أن استقرت أموره المالية كثيرًا عرف أبوه طريقه .. فزاره في ميونيخ عدة مرات زاعمًا أن المشاكل الاقتصادية في مصر تضخمت .. وأنه يطلب مساعدته في الإنفاق على أسرته .

كان سمير يتلذذ كثيرًا بتوسلات والده . بل يرسل في طلبه خصيصًا ليستمع إلى كلمات الرجاء تتردد على لسانه .. وليرى نظرات التودد تملأ وجهه . وتضخم الإحساس بالشماتة عند الابن تجاه أبيه حتى وصل إلى درجة الانتقام .. وكان الانتقام بشعًا ويفوق كثيرًا حجم الترسبات التي قبعت برأس الابن تجاه أبيه .

لقد دبر سمير كمينًا محكمًا لأبيه أوقعه في شراكه عندما صحبه إلى مكتب هانز مولار ضابط المخابرات الإسرائيلة في ميونيخ .. والذى يبدو في ظاهره مكتبًا للمقاولات .

ولأن وليم فريد باسيلي يعشق النقود .. أوضح له هانز أنه سبب الرفاهية التي يعيش فيها ابنه سمير . وأنه على استعداد أيضًا لبدء علاقة عمل بينهما وتأسيس شركة تجارية كبرى في القاهرة تدر عليهما ربحًا وفيرًا ..

عندها .. تخيل وليم شركته الجديدة والأموال التي ستغدق عليه .. تخيل أيضًا مقعده الوثير ومكتبه الفخم وسكرتيرته الجميلة وسيارته الحديثة .. وسافر بخياله يجوب شوارع القاهرة يختار موقع المكتب . فأيقظه هانز قائلاً إنه بحاجة إلى معلومات اقتصادية عن السوق المصرية .. يستطيع من خلالها أن يحدد خطوطًا عريضة لنشاط الشركة . ولبى وليم الدعوة وجلس عدة ساعات يكتب تقريرًا مفصلاً عن احتياجات السوق ، وأحوال الاقتصاد في مصر .

دهش هانز لدقة المعلومات التي سردها وليم ومنحه فورًا ١٠٠٠ مارك ، ووعده بمبلغ أكبر مقابل كل تقرير يرسله من القاهرة .

نشط الجاسوس الجديد في كتابة التقارير وإرسالها إلى ألمانيا وفي الزيارة التالية لميونيخ فوجيء وليم بثورة هانز بسبب سطحية تقاريره المرسلة إليه . وقال له إن المكتب الرئيسي على استعداد لدفع خمسة آلاف مارك للتقارير المهمة وأنه على استعداد لتدريبه على كيفية جمع المعلومات وكتابتها بعد تصنيفها . وعندما سأله وليم عن المكتب الرئيسي أجابه بأنه في تل أبيب ، وهو مكتب مختص بالشئون الاقتصادية في دول العالم الثالث .

ارتبك وليم فناوله هانز خمسة آلاف مارك في مظروف مغلق قائلاً إنه هدية من إسرائيل من أجل التعاون المخلص . أما التقارير فلها مقابل أيضًا .. وتسلم وليم خمسة آلاف أخرى فانكمش في مقعده بعدما أدرك حقيقة موقفه ووضعه .

طمأنه هانز بأن علاقتهما لن تكشفها المخابرات المصرية . لأن هذه التقارير ليست مادة سرية فهي موجودة في الصحف القاهرية . وشيئًا فشيئًا .. تطورت العلاقة بين هانز ووليم إلى علاقة بين ضابط مخابرات وجاسوس خائن ، تحددت بدورات تدريبية خاضها الأب على يد ضباط فنيين ، وانتفخت جيوبه بآلاف الماركات بعدما كثرت تقاريره التي كان يجيد كتابتها بعد تحليلها .. وتعمده مصادقة ضباط القوات المسلحة والعسكريين المسرحين من المحيطين به .

وفي كل زيارة لميونيخ كان هانز يحذره من قراءة قضايا التجسس في الصحف المصرية حتى لا يرتبك ويقع في قبضة المخابرات المصرية التي لا ترحم الخونة . وطمأنه على أسلوب عملهم الذي لا تستطيع المخابرات العربية كشفه . وحتى وإن حدث .. فهم سيتولون رعاية أبنائه والإنفاق عليهم من بعده « وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن إسرائيل تتنصل من الخونة بعد سقوطهم وأنها تأخذ فقط وتمنح قبل السقوط »[1] .

أما الابن سمير .. فقد اتسعت دائرة نشاطه في التعرف على المصريين الوافدين وتصيد الأخبار منهم من خلال الدردشة العادية .. وهؤلاء الذين فشلوا في الحصول على عمل .. وشرع بالفعل في تجنيد ثلاثة من المصريين .. استطاعوا الرجوع إلى مصر وأخبروا جهاز المخابرات المصرية بتصرفات سمير .. ودوره في محاولات الإيقاع بهم لصالح المخابرات الإسرائيلية .. بواسطة فتيات جميلات يجدن استعمال لغة الجسد .

لقد جاءت البلاغات الثلاثة في فترة قصيرة ومن أشخاص لا يعرفون بعضهم . وكانت خطة المخابرات المصرية لاصطياد سمير وأبيه محسوبة بدقة بالغة .. وإحكام .

---

(١) هناك حالات عديدة لخونة تعاونوا مع الموساد .. وبعدما استغنت الموساد عنهم لانكشافهم تعمدت تجاهلهم ونبذهم . أهم هؤلاء الجاسوسة المصرية انشراح موسى .. والسويسري فرانكيشت .. والأردنية أمينة المفتي .

الحكم العادل

كان وليم قد افتتح مكتبًا كبيرًا للمقاولات في القاهرة استطاع من خلاله أن يمارس عمله في التجسس .. وجعل منه مقرًا للقاءاته بالأشخاص الذين يستمد منهم معلوماته .. خاصة من العسكريين الذين أنهوا خدمتهم .. حيث إنهم في الغالب يتفاخرون دائمًا بدورهم وبعملهم السابق بصراحة مطلقة .. أمام الأشخاص الذين يبدون انبهارًا بما يقولونه ويسردونه من أسرار عسكرية وتفاصيل دقيقة .

وفي أحد الأيام .. فوجيء وليم برجل ثرى عائد من الخليج .. يريد الاستفسار عن إمكانية فتح مشاريع استثمارية وعمرانية كبيرة .

كان الرجل قد أمضى في الخليج سنوات طويلة ويجهل حاجة السوق المصرية للمشروعات .. وتباهي وليم في سرد خبراته مستعينًا بإحصائيات تؤكد صدق حديثه .. واستطاع إقناع المصرى الثرى بقدرته على اكتشاف حاجات السوق وإدارة المشاريع . وبدا أن الرجل قد استشعر ذلك بالفعل إلا أن حجم ثروته ورغبته في عمل مشاريع عملاقة .. استدعى من وليم الاستعانة بخبرة سمير فكتب له يطلب مجيئة وألح عليه في ذلك . وجاءه الرد من ابنه يخبره بميعاد قدومه .

وما هي إلا أيام حتى جاء الابن إلى القاهرة .. بصحبته شاب ألماني وصديقته أرادا التعرف على الآثار الفرعونية .. فصحبهما سمير إلى الأقصر حيث نزلوا بفندق سافوى الشهير على النيل .. ثم مكثوا يومين في أسوان وعادوا إلى القاهرة .

كان سمير طوال رحلته مع صديقيه يقوم باستعمال كاميرا حديثة ذات عدسة زووم في تصوير المصانع والمنشآت العسكرية طوال رحلة الذهاب والعودة .. وفي محطة باب الحديد حيث الزحام وامتزاج البشر من جميع الجنسيات .. وقف سمير أمام كشك الصحف واشترى عدة جرائد . وبعدما هموا بالانصراف .. استوقفه شاب أنيق يرتدى نظارة سوداء برفقته أربعة آخرين وطلب منه أن يسير بجانبه في هدوء .

ارتسمت على وجه سمير علامات الرعب .. وحاول أن يغلفها ببعض علامات الدهشة والاستفهام لكنه كان بالفعل يرتجف .

اعتذر الرجل الأنيق للضيف الألماني وصديقته .. وودعهما سمير بلطف ومشى باتجاه البوابة إلى ميدان رمسيس يجر ساقيه جرًا محاولاً أن يتماسك .. لكن هيهات فالموقف صعب وعسير ..

وعندما دلف إلىداخل السيارة سأله الرجل الأنيق ذو النظارة السوداء .

* أتريد أن تعرف إلى أين تذهب ؟

أجاب بصوت مخنوق :

أعرف !!

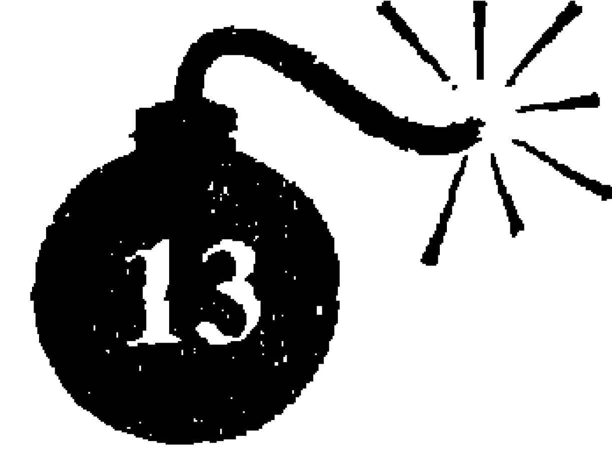
وعندما فكر في مصيره المحتوم .. أجهش بالبكاء .. ثم أغمي عليه بعدما تملكه الرعب وأصابه الهلع .. وحملوه منهارًا إلى مبنى المخابرات العامة ليجد والده هناك .. نظراته أكثر هلعًا وصراخه لا يتوقف وهو يردد :

سمير هو السبب !! .

واكتشف وليم أن الثرى القادم من الخليج ما هو إلى ضابط مخابرات .. واكتشف أيضًا أن تقاريره التي كان يرسلها إلى الخارج تملأ ملفًا كبيرًا .

ولم يستغرق الأمر كثيرًا . فالأدلة دامغة والاعتراف صريح . وكان الحكم في مايو ١٩٧١ عادلاً لكليهما . الإعدام للابن و ١٥ عامًا أشغال شاقة للأب .. وعار أبدى للأسرة حتى الجيل المائة .. وكانت النهاية الطبيعية لكل خائن باع النفس والوطن .

بهجت حمدان .. الهارب من الإعدام ..!!



بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .. وبينما الطائرات الإسرائيلة كانت تمرح آمنة كيفما تشاء فى سماء مصر .. كان بهجت حمدان ينقل إلى العدو أولاً بأول خرائط وصور القواعد العسكرية المصرية .. ويشعر بنشوة غامرة لنجاحه فى « العمل » .. ولثقة الموساد فى معلوماته .

وأمام تدفق الأموال عليه .. كوَّن شبكة جاسوسية خطيرة في القاهرة .. لكى يزداد ثراءًا ورونقًا .. وتوحشًا .

ولحظة سقوطه فى قبضة المخابرات المصرية .. صرخ غير مصدق : مستحيل .. مستحيل .. كيف توصلتم إلىّ .. ؟

لقد درَّبوني جيدًا في أوربا . بحيث لا أسقط أبدًا .. !!!

لغة الجسد

أصيبت المخابرات الإسرائيلية بصدمة قاسية عندما انكشف جاسوسها المدرب بهجت حمدان .. وزلزل النبأ كبار ضباطها الذين أعمتهم الثقة وغلفهم الغرور .. ذلك لأن الجاسوس مدرب جيدا في أوربا بواسطة أمهر الخبراء .. وحصل على دورات تؤهله لكل المهام التجسسية الصعبة .. دون أن يثير شكوك المخابرات المصرية . وظل العميل المدرب « نائمًا » لسنوات في أوربا انتظارًا للحظة الانطلاق ..

لقد أجاد فنون التجسس دراسة . عكس غالبية الخونة الذين يُدفع بهم عقب تجنيدهم مباشرة لممارسة العمل ضد بلادهم .. وكان تجنيده قد تم بواسطة نقطة ضعفه – المال – الذى ظل يلهث وراءه .. إلى أن وقع .

ولد بهجت يوسف حمدان بالإسماعيلية فى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٢ لأب ثرى يعمل فى التجارة اجتهد فى عمله لتأمين حياة كريمة لأسرته . مضحيًا بكل ما لديه فى سبيل تعليم أولاده وتبوئهم مناصب مرموقة فى المجتمع .

وأمضى بهجت طفولته على شاطىء القناة فى المدينة الجميلة الساحرة .. ولما حصل على الشهادة الإعدادية كان والده قد قرر الانتقال نهائيًا إلى القاهرة بعدما توسعت تجارته واشتهر اسمه .. فالتحق بهجت بمدرسة الخديوى إسماعيل الثانوية .. وتبلورت شخصيته بها وظهر حبه وولعه بالرسم والفنون .. للدرجة التى جعلته يهرب كثيرًا من المدرسة ليزور المتاحف والمعارض الفنية .. وكان ينفق مصروفه على شراء الألوان وأدوات الرسم . الأمر الذى استدعى تدخل والده لصرفه عن هوايته التى رآها الأب مضيعة للوقت على حساب مستقبله .

وفى عام ١٩٥٠ نال بهجت حمدان شهادة الثانوية العامة بصعوبة .. واتجهت نيته إلى الالتحاق بأحد المعاهد الفنية لتنمية موهبته .. لكن الأب عارض بشدة مصرًا على تعليمه كأبناء الباشوات .. وأرسل به إلى ألمانيا الغربية لدراسة الهندسة المعمارية فى جامعاتها .

وأمام رغبة الأب وإصراره .. حزم الشاب حقائبه وطار إلى ميونيخ وفى نفسه غصة لضياع حلمه فى أن يكون رسامًا .

وفي ميونيخ تصدع عقل الفتى الأغر .. فقد وجد نفسه فجأة بداخل مجتمع غريب عن طبيعته كشرقي .. مجتمع يفيض تحررًا وانفتاحًا يستطيع الامتزاج به بسهولة .. لذلك انطوى على نفسه في باىء الأمر .. وفشلت الأسرة الألمانية التي يقيم معها في إخراجه من عزلته .. فطلبت من إدارة الجامعة استبداله بآخر .. وانتقل بهجت بعدها إلى سكنى بيوت الطلاب .. لا هم له سوى تعلم اللغة الألمانية ومحاولة التأقلم مع الحياة الحضارية التي تحيط به .. فانكب على دراسة اللغة مبتعدًا عن المغريات التي تستهوي الشباب .. وكرس كل جهده ووقته لذلك حتى وقعت له حادثة بدلت طريقه وطباعه .

فقد دعاه زملاؤه الطلاب لقضاء سهرة الكريسماس بأحد المراقص .. وفي النادي الليلي حيث الخمر والرقص والفتيات الحساناوات والغزل .. تعرف بشاب مغربي قدمه إلى إحدى صديقاته .. وعلى « البيست » أخذ يراقصها .. فتناثرت عنه انطوائيته وضاع خجله .. وانقلب من وقتها إلى شاب جديد مليء بالثقة في نفسه .. يملك القدرة على إدارة الحوار بشتى أشكاله .

بعدها .. تعددت السهرات مع الفتاة الألمانية .. التي أخذت تحيطه بالاهتمام فأحبها .. ولم يعد بمستطاعه الافتراق عنها يومًا واحدًا .. ومن المصروف الذي كان يرسله أبوه .. أخذ ينفق عليها في المطاعم والبارات والمتنزهات .. مضحيًا بأوقات الدراسة والاستذكار .. وكانت النتيجة الطبيعية رسوبه في أولى سنواته الجامعية .. ونجاحه بتفوق في تعلم لغة الجسد وتشريح مفاتنه .

الأبواب الموصدة

انشغل بهجت حمدان بحياته الأوروبية المتحررة .. واكتشف في نفسه فحولة تغري الفتيات وتسحر النساء .. فلم يعد يقنع بواحدة منهن .. إلى أن ساءت سمعته بين الأوساط الطلابية العربية ..

ولما علم أبوه بنبأ رسوبه أصيب بخيبة أمل .. وبرر له الابن أسباب فشله التيأرجعها إلى صعوبة اللغة الألمانية واختلاف الطقس وظروف الحياة .. فسكت الأب على مضض .. وحذره من تكرار الرسوب مهددًا بأنه سيضطر إلى قطع المصروف عنه .

لكن الشاب العابث لم يبد رغبة بينه وبين نفسه فى تغيير مساره الشائن .. إذ استمر على حاله فى المجون .. حتى جاءت الامتحانات .. ورسب للمرة الثانية .. وأخذت الجامعة بتقارير أساتذته التى تصفه بأنه سلبى لا يبذل جهدًا يذكر فى تحصيل العلوم فتم فصله .. وأرسلت الجامعة بصورة من قرارها إلى والده بالقاهرة فصدم .. وكتب فى الحال إلى ابنه يطلب منه الرجوع ليعاونه فى أعماله التجارية ..

فهل انصاع الابن .. ؟

وهل قبل وداع حياة التحرر هكذا بسهولة .. ؟

بالطبع كان الأمر شديد الوقع على نفسه .. فهو لم يعد يتخيل كيف يرضى بالعيش فى مجتمع القاهرة المغلق بعد ذلك ..

كان مجرد التفكير فى ذلك يؤرقه .. ويدفعه لأن يقاوم رغبة والده فى العودة .. فقد ألف الحياة الأوروبية بكل صنوفها وأشكالها .. وفى حرمانه منها الظلم والموت البطىء .

ومنذ تلك اللحظة .. اتخذ قراره بألا يعود إلى مصر ومقاومة تهديدات والده بإثبات ذاته من خلال الإنفاق على نفسه .. وساعدته ظروف علاقاته المتشعبة فى العمل بإحدى الشركات التجارية .. وهيأ له راتبه حياة مجون لا تقل عما كانت عليه من قبل .. فداوم على البحث عن ملذاته .. وأصبح زبونًا دائمًا ومألوفًا بشوارع شتافوس وشتراسة وشوانبخ [1] حيث المومسات متراصات فى الفتارين وعلى النواصى يساومن المارة .

وما إن هل عام ١٩٥٥ حتى طرأ حادث جديد على حياته .. إذ تعرف بالحسناء « إنجريد شوالم » الألمانية الرقيقة وأحبها .. وبادلته الفتاة الحب بإخلاص وسعت لانتشاله من الفشل الذى توجه .. والحياة الرخيصة التى انغمس فيها .. وبعدما تزوجها حرصت إنجريد على تحفيزه لدراسة الهندسة إرضاء لأسرته فى مصر ..

هكذا وقفت زوجته إلى جواره لا هم لها سوى الارتقاء به لأجل حياة أفضل .. فقد مرت سنوات قليلة على انتهاء الحرب العالمية الثانية .. التى خرجت منها ألمانيا مهزومة محطمة .. مقسمة .. وكانت بحاجة إلى كوادر علمية وفنية لإعمارها من جديد .. والدخول بها إلى دائرة التنافس الاقتصادى والصناعى .

(١) شوارع الدعارة فى ميونيخ .

لكن فتانا كان قد توصل إلى هدف جند كل حواسه لتحقيقه .. وهو الإثراء بشتى الطرق ليكون من رجال المال والأعمال المشهورين .. ولأنه بلا خبرة .. ولا تدعمه شهادات علمية .. فشل فشلاً ذريعًا في أن يكون إنسانًا ناجحًا ومرموقًا .

وفي عام ١٩٥٨ حصل بطرق ملتوية على شهادة في الهندسة الإنشائية .. قام بتوثيقها في السفارة المصرية وعاد بها إلى القاهرة ومعه زوجته .. فأثلج صدر أبيه وغمره بالفرحة ..

أحبت إنجريد الأسرة الجديدة وعشقت جو القاهرة .. وسرعان ما تأقلمت مع العادات الاجتماعية وأصبحت جزءًا من نسيج الأسرة ..

وأمام ضغوط أبويه وإلحاحهما المستميت .. وافق بهجت على البقاء للعمل والعيش في القاهرة .. وبمساعدة الأب التحق بوزارة الإسكان .. وعمل في مشروع « الخمس سنوات » الذي جندت له الحكومة وقتذاك إمكاناتها الهائلة لإنجاحه .

كانت ظروف العمل الجديد تتيح لبهجت أن يغش ضميره .. ويفتح يديه لتلقي المال الحرام .. فعاودته من جديد أحلام الثراء التي تكسرت في ألمانيا .. وأراد تحقيقها في بلده .. ذلك لأن راتبه الضئيل لا يمكنه من ارتياد المراقص .. والظهور أمام زوجته بمظهر أعلى يفوق موارده ..

لهذا عرف طريق الرشاوى مستغلاً مركزه الوظيفي .. وتقرب كثيرًا من أصحاب الشركات الأجنبية بالقاهرة .. وأطلعهم على أسرار المناقصات والعطاءات التجارية فأغدقوا عليه بالأموال .. حتى فاحت رائحته بين الموظفين ، واشتم فيه المسئولين فساد الذمة ففصل من العمل .. وأغلقت في وجهه أبواب الحياة في مصر .. فغادرها إلى لبنان يائسًا ومعه إنجريد الحزينة ..

وفي لبنان أدركه الفشل في الحصول على عمل مناسب .. فاقترحت عليه زوجته أن يعودا إلى ألمانيا حيث فرص العمل متوفرة هناك . لكنه رفض بشدة .. فهي لا تدري شيئًا عن شهاداته الدراسية المزورة التي لا يستطيع إبرازها في ألمانيا .

ومع احتدام الخلاف بينهما .. حملت إنجريد حقيبتها غاضبة حانقة وسافرت إلى ميونيخ وحدها .. بينما طار هو إلى باريس يمنى نفسه بالمال الوفير .. والباريسيات الفاتنات ذوات القدود المائسة والأنوثة والدلال .

جاسوس للبيع

كانت باريس في ذلك الوقت من صيف ١٩٦٠ تضج بالحياة والحركة والجمال .. حيث يرتادها مشاهير العالم بحثًا عن الجديد في عالم الأزياء .. أو لالتماس الهدوء بين ربوعها .. وتنتشر بشوارعها شتى الوجوه والألوان والغرائب .. فهي عاصمة النور في أوروبا .. ومأوى الفن .. وملاذ الصعاليك .. وهواة تصيد الفرص على مقاهيها .. وأيضًا .. وكر آمن لصائدى الجواسيس والخونة لكل أجهزة المخابرات .

نزل بهجت حمدان بفندق « ستار » بوسط المدينة .. وهو فندق بسيط يرتاده شباب المغتربين - وغالبيتهم أفارقة وآسيويون - لرخص سعره ولقربه من قلب العاصمة حيث المطاعم الرخيصة والمقاهى .. وسهولة المواصلات ..

ومنذ وطئ بهجت فرنسا ضايقته مشكلة اللغة .. فهو يتكلم الألمانية بطلاقة وبعض الإنجليزية .. أما الفرنسية فكان يجعل مفرداتها البسيطة التي لا تمكنه من التحرك بثقة وسط أناس يرفضون التعامل بغير لغتهم .

وفي اليوم التالى فوجيء بموظف الاستقبال يرحب به باهتمام .. وتحدث معه بالعربية السليمة .. واصفًا له السنوات التي قضاها في بورسعيد موظفًا بإحدى شركات الملاحة حتى غادرها إبان أزمة ١٩٥٦ .

كان الفرنسي اليهودى يعمل مخبرًا لرجال الموساد في باريس .. تنحصر مهمته في التعرف على العرب النازحين الباحثين عن عمل .. أو أولئك الذين قدموا للسياحة أو الدراسة .. ويتولى بعد ذلك تقديمهم - كل حسب حالته - إلى رجال الموساد .. فلما اطلع على ظروف بهجت أدرك بأنه صيد سهل .. فهو يمر بأزمة مالية ويواجه مشاكل مع زوجته الألمانية بسببها .. فضلاً عن وظيفته السابقة في مصر التي قربته من الكثيرين من رجالاتها في مختلف المواقع :

لذلك .. رتب له دعوة للعشاء بأحد المطاعم الراقية .. وهناك قدمه إلى صديقه « جورج سيمون » ضابط الموساد الذي ظهر بشخصية رجل الأعمال ..

استشعر بهجت الأمان بعض الشيء .. واطمأن باله وهو يتجاذب بالألمانية أطراف الحديث مع جورج سيمون .. وطال الحديث بينهما في مجالات كثيرة تخص أحوال مصر اقتصاديًا وتجاريًا .. حتى تطرقا إلى مشروع « الخمس سنوات » وفوجيء سيمون بمحدثه يخبره بأنه يمتلك ملفات كاملة عن المشروع يحتفظ بها في القاهرة .. وكذا تقارير اقتصادية خطيرة تدرسها الحكومة المصرية خاصة بوزارة الإسكان .

وبعد عدة لقاءات وسهرات في النوادى الليلية – بأموال الموساد بالطبع – قام جورج سيمون أثناءها بعملية «تشريح» متكاملة لفريسته .. من حيث ميوله ورغباته ونقاط ضعفه .. فتبين له أن الشاب المصرى المفلس « يعبد القرش » .. ولديه أسباب قوية لأن يطرق كل السبل من أجل الحصول على المال :

لذلك لم يكن من الصعب استقطابه .. وإحاطته بشعاعات من أمل في العمل والثراء .. وجاء الرد حاسمًا من تل أبيب :

« مطلوب تجنيده وبأى ثمن » ..

وكان الثمن زهيدًا جدًا عندما سلمه عميل الموساد ألفًا وخمسمائة فرنك فرنسى .. على وعد بإيجاد عمل محترم له إذا ما كتب تقريرًا وافيًا عن مشروع « الخمس سنوات » .. والخطوات التى تمت بشأنه .. والمعوقات التى تواجه مصر في تنفيذ سياساتها الاقتصادية .. وكانت هذه الخطة أولى محاولات تجنيد بهجت حمدان .

إن عملية تجنيد جاسوس جديد تعد من أكثر النشاطات المخابراتية صعوبة وخطورة .. ومنذ اللحظة الأولى في هذه العملية يجد صائد الجواسيس نفسه في موقف صعب .. فالشخص الذى اختاره لتجنيده ربما يفطن إلى الحيلة .. وبذلك فقد كشف عن شخصيته له قبلما يتأكد من استجابته .

لذلك .. فالمهارة هنا لها الدور الأساسى في عملية تجنيد الجواسيس الجدد .. بمعنى أن العميل يجب أن يكون واثقًا من تقديره للموقف .. وأن يكون حذرًا للغاية حتى يتمكن من التقهقر في الوقت المناسب إذا ما حالفه الفشل ..

ولكى يضمن جورج سيمون إحكام حلقته حول بهجت حمدان .. رتب له لقاءً حارًا في « مصيدة العسل » مع سكرتيرته المتفجرة الأنوثة .. وهذا الأسلوب تميزت به الموساد عن

سائر أجهزة المخابرات للسيطرة على المطلوب تجنيدهم .. وتفننت فى استخدامه بتوسع .. حيث يتم تصوير هؤلاء فى أوضاع شاذة .. وتسجيل حوارات سياسية تدينهم .. فتنهار أعصابهم حين مواجهتهم ولا يستطيعون الخلاص أو الفكاك .

وما إن ووجه بهجت بالأفلام العارية التى تحوى مشاهد مؤسفة .. وأحاديث مليئة بالسباب للعرب وقادتهم .. حتى بهت الصياد وتفصد عرقًا .. نعم .. بهت لأنه فوجىء بما لم يتوقعه أو يحدث له من قبل .

لقد صرخ بهجت حمدان فى وجهه قائلاً :

– إن تصويرى فى الفراش مع يهودية لن يضرنى بشىء .. فأنا – أولاً وأخيرًا – رجل بمعنى الكلمة .. والشريط الذى بحوذتكم يؤكد ذلك .. والشتائم التى سجلت أمر تافه .. فالمرأة تسب أهلها وهى بين أحضان عشيقها .. والرجل كذلك .

أُخذ عميل الموساد للمفاجأة الغريبة وراح يردد :

– لم نكن نقصد تهديدك أو ..

قاطعه بهجت بثقة :

– اسمع مسيو سيمون .. إن لدى زوجة ألمانية أجمل من فتاتكم . وأنا لا أبحث عن امرأة .. إنما أسعى لجلب المال .. فوفر عليك إرهاقك فى محاولة تهديدى وابتزازى .. لأننى لا يهمنى مع من أنت .. لكن شاغلى هو المال .. المال فقط ..

متلعثمًا قال سيمون :

– إن لدينا منه يا سيدى الكثير .. ونحن بحاجة إليك .

أجاب بهجت :

– اعطنى مالاً .. أكن لك كما تريد ..

الصفقة الناجحة

كان اللعب قد أصبح مكشوفًا بين الصياد والفريسة .. وكانت الخطة تقتضى أولا أن يسافر بهجت إلى فرانكفورت حيث الانطلاقة من هناك .. بعد ذلك يتم عمل « ساتر » يختفي وراءه .

وفي فرانكفورت استقر الجاسوس الجديد بأحد فنادقها .. وأرسل إلى زوجته إلجريد فأسرعت إليه سعيده بقدومه .. وأنبأها بأنه التقى في باريس برجل أعمال كبير وعده بإيجاد عمل له في بورصة الأوراق المالية .. ومكثا معًا عدة أيام في نزهات خلوية صافية .. إلى أن زاره « صموئيل بوتا » الخبير في أعمال البورصة والتجارة الدولية .

بدأ بوتا في تعليم بهجت كل ما يتصل بأعمال البورصة ودراسة السوق المصرفية ، وعرَّفه بالعديد من رجال الأعمال وهيأ له المناخ الملائم لكي يستوعب هذا النوع من العمل الذى يتطلب قدرًا عاليًا من الذكاء والمهارة .. وناضل ضابط المخابرات الإسرائيلية من أجل خلق رجل أعمال مصرى ناجح .. للدفع به في الوقت المناسب إلى مصر .. فيتعرف على علية القوم ورجال الأعمال بها .. مما يتيح له التغلغل بين الأوساط الراقية وذوى المناصب الحساسة.

إن المخابرات الإسرائيلية لا تصرف الآلاف من نقودها هباءً .. بل تدرك بحق أن المنافع التى ستعود عليها بعد ذلك ستكون رائعة .

واستمرارًا لخطة صنع جاسوس محترف .. انتقل بهجت حمدان إلى مدينة « بريمن » حيث قدمه بوتا للعديد من أصحاب شركات البترول والتجارة .. وعمل لديهم لبعض الوقت فاكتسب خبرات هائلة .. وصداقات متشعبة بصفته مواطن ألمانى متزوج من ألمانية .

وفي عام ١٩٦٧ ، تأكد للإسرائيليين أن « الجاسوس النائم » بهجت حمدان أصبح ذا دراسة وعلم كبيرين بأمور التجارة الدولية .. وأعمال البورصة .. تعضده جنسيته الألمانية في اقتحام مجالات التجارة والتصدير في أسواق الشرق الأوسط دون أية شكوك أو صعوبات تعترض طريقه .

وابتدأ عمله التجسسى بأن أرسل لشركة « مصر للبترول » يعرض عليها استيراد شحنات من البترول المصرى بصفته مندوبًا لإحدى الشركات الألمانية .. وسافر إلى القاهرة ليدرس العرض مع الشركة ..

كانت نكسة يونيو قد تركت آثارها على شتى النشاطات فى مصر .. وحطمت المناخ العام شعبيًا وعسكريًا وسياسيًا .. وفى القاهرة أخبره والده بأنه منى بخسارة فادحة فى تجارته .. فأغدق بهجت على أسرته بالهدايا الثمينة فى كل مرة يجيء فيها إلى القاهرة للتفاوض مع الشركة .

وبرغم فشله فى عقد صفقة واحدة مع مصر للبترول بسبب طمعه الشديد فى نسبة عمولة عالية .. اتجه – بتوجيه من بوتا – إلى تجارة السلاح .. فدرس هذا المجال باستفاضة .. وأخذ يبحث كيفية تقديم عروض للدول العربية لبيعها صفقات أسلحة .. خاصة .. وظروف المنطقة المشتعلة بالصراع تتطلب ذلك .

أعجبته الفكرة تمامًا .. وابتدأ بالأردن ، لكنه فشل فى أولى محاولاته لأن الأردن لا يبتاع السلاح عن طريق وسطاء . فعاد إلى القاهرة يحدوه الأمل فى النجاح هذه المرة .. وتقدم إلى المسئولين بعدة عروض لتوريد بعض المهمات والمعدات اللازمة لقطاعات هامة فى الدولة .. وفوجيء بموافقة مبدئية على أحد العروض .. ولكن طلب منه تأكيد جدية العرض باستيفاء بقية الأوراق .. ومنها سابقة الأعمال .

كان بوتا – وهو الضابط الخبير – قد احترز جيدًا فى عمل « الساتر » للجاسوس المتحمس .. وقام بتكوين شركة مساهمة تحمل اسم « نورد باو » للأعمال الإنشائية والتوريدات .. مديرها بهجت حمدان ورئيس مجلس إدارتها « ألبرت فيزر » ضابط المخابرات الإسرائيلى الذى يحمل جواز سفر ألمانى .. وكان هذا الساتر مأمن لبهجت ونقطة ارتكاز لتثبيت أقدامه .. بعيدًا عن شكوك رجال المخابرات المصرية الذين يتشككون فى كل شيء ..

وبناء عليه .. سافر بهجت حمدان إلى ألمانيا لإطلاع بوتا على سير الأمور .. وكان على ثقة من نجاح الصفقة التى سيربح من ورائها عشرات الآلاف .. فهنأه بوتا على الصفقة الجديدة وأمده بسابقة أعمال وتوريدات مزورة حملها إلى الحكومة المصرية .. واصطحب معه ألبرت فيزر لمناقشة الأسعار المقدمة :

وفى القاهرة طلب المسئولون منهما عينات ومبلغ ٢٠ ألف دولار كتأمين .. وتمت الصفقة فى نجاح أذهل الإسرائيليين .. ذلك لأن عميلهم المدرب نال ثقة المسئولين المصريين على اعتبار أنه مصرى يسعى لخدمة وطنه .

بائع الوطن

لم تضيع الموساد وقتًا .. فظروف عميلها بهجت حمدان فى القاهرة تتيح له العمل بأمان ونشاط .. وكان عليها استثماره جيدًا ليس بإمدادها بمعلومات فقط .. بل بتكوين شبكة واسعة من أتباعه الذين يلمس ظروفهم عن قرب وينتقيهم بنفسه .

نظر بهجت حواليه وبدأ ينصب شباكه حول أولى ضحاياه .. وهو المهندس محمد متولى مندور زوج شقيقته .. الذى يعمل بشركة المقاولون العرب بمنطقة القناة ، ونظرًا لظروفه المادية السيئة فقد كان من السهل اصطياده بدعوى توفير فرصة عمل له فى الخارج بواسطة شريكه «فيزر» فى حال نجاح مشروعاتهما المرتقبة فى مصر .

لأجل ذلك .. تفانى مندور فى خدمة الخائن وشريكه .. ولكى يضمن كسب ودهما أكثر وأكثر استجاب لرغبتهما وأطلعهما على أسرار بعض العمليات الإنشائية السرية التى تتم على الجبهة بواسطة شركة المقاولون العرب .

طمعت الموساد فى الحصول على رسومات هندسية لتصميمات الدشم والقواعد والمطارات العسكرية التى تقوم بها الشركة . ولتنفيذ ذلك – تعمد بهجت الابتعاد قليلاً عن مندور ومماطلته فى أمر تشغيله فى الخارج .. وأخيرًا ، صارحه بأن شريكه يريد الاطمئنان على مدى كفاءته وخبرته . وطلب منه بعض الرسومات الهندسية العسكرية للاطلاع عليها لتأكيد مدى تميزه وخبرته فى العمل والوقوف على مستواه العملى .. فلم يعترض مندور وسلمه بالفعل الكثير من هذه الرسومات التى تعتبر سرًا عسكريًا هامًا لا يجب البوح به . بل تمادى فى شرح الأعمال الإنشائية التى يقومون بها على خط القنال وبمناطق أخرى بالصعيد والوجه البحرى . وكان بهجت يسأله بخبرة الجاسوس الخبير ويسجل أقوال صهره أولاً بأول وينقلها إلى «فيزر» الذى لا يكف عن طلب المزيد والمزيد من المعلومات والرسومات .

وفى يوم الجمعة ٢٢ مايو ١٩٦٩ عاد بهجت من ألمانيا يحمل قائمة طويلة من أسئلة الموساد ومطلوب إجاباتها من خلال المهندس مندور .

من أجل ذلك .. أخبره بهجت بأنه فى سبيل الحصول على موافقة نهائية من الشركة للعمل بها براتب قدره مائتى جنيه[١] .. وبالتالى أراد مندور ألا يضيع هذه الفرصة التى ستبدل

(١) كان راتبه حينذاك لا يتعدى «٢٥» جنيهًا شهريًا .

حالته المتعثرة إلى نعيم وازدهار ..فتمادى فى إمداده بعشرات اللوحات الهندسية والتصميمات العسكرية السرية جدًا ، ومعلومات غاية فى الدقة سجلها الجاسوس واحتفظ بها لـدى شقيقته الأخرى . ليسافر بها إلى ألمانيا .

ولكى يوسع من شبكة الجاسوسية بدأ بهجـت يحوم حول جمعة خليفة المحامى صديق العائلة . وبإغراءات تعيينه مستشارًا قانونيًا للشركة فى مصر وتسفير ابنه لإكمـال تعليمه فى ألمانيا – دخل أخيرًا وكر الجواسيس . وسافر إلى بون لرؤية ابنه الذى يدرس الهندسة بالفعل . وجلس مع فيزر لعدة جلسات يتناقشان فى العقبات القانونية التى تقف أمام الشركة فى مصر. واكتشف ضابط الموساد أن جمعه تربطه علاقات قوية برجال يشغلون مناصب رفيعه . فكلفه بالبحث عن بعض العسكريين « الكبار » الذين يتركون القوات المسلحة لاستخدامهم كمستشارين فنيين .

كان الغرض من ذلك تكوين شبكة تجسس قوية من خلال هؤلاء العسكريين .. واستدراجهم فى الحديث للإفصاح عن الأسرار العسكرية دون أن يعلموا أن كل كلمة ينطقون بها تصل رأسًا إلى الموساد .

هؤلاء القادة العسكريون كانوا حلم الأحلام بالنسبة لبهجت . إنهم سيمنحونه شلالاً متدفقًا من المعلومات الغزيرة التى لا تنتهى . حيث سيمنحهم رواتب ضئيلة قياسًا بآلاف الجنيهات الحرام التى ستملأ جيوبه .

فى هذه الأثناء كانت إنجريد زوجته الألمانية تعيش حياة رغدة فى ألمانيا .. وتسكن شقة فاخرة فى شارع راينهارت وتقود بنفسها سيارتها ماركة فورد ، وتزخر شقتها بأروع التحف وأجمل السهرات مع صويحباتها .. يملؤها الفخر بزوجها رجل الأعمال الناجح الذى أغدق عليها حبًا ومالاً وهدايا ثمينة من كل بقاع الأرض .

زادت الأموال بين يدى بهجت حمدان فازداد إنفاقه وازداد طمعه .. وسيطرت عليه شهوة المال الحرام فسعى إليه يطالبه ببيع أمن وطنه وأرض وطنه وأهل وطنه .. دون أن تتحرك لديه نبضة من ندم أو خلجة من شعور .

اصطياد قائده

كانت إسرائيل فى تلك المرحلة وبعد انتصارها فى يونيو ١٩٦٧ تبث دعايتها على أنها ذات جيش لا يقهر .. وكانت طائراتها الحربية تصعد عملياتها الهجومية لتمتد إلى طول الجبهة من قناة السويس شمالاً إلى خليج السويس جنوبًا . فى ذات الوقت الذى استخدمت فيه قوات الكوماندوز المحمولة جوًا فى عمليات جريئة واسعة النطاق فى عمق الأراضى المصرية[1] فأظهرت أوجه الخلل والعجز فى النظام الدفاعي المصرى وأصيب عبد الناصر بعدها بأزمة قلبية من فرط الغضب والانفعال .

كان الجاسوس بهجت حمدان يشعر بنشوة غامرة كلما دكت طائرات العدو قواعد الجيش المصرى .. الذى لم تقف قيادته عاجزة بشكل كلى عن التعامل مع العدو . بل واجهته لحد كبير بنفس أسلوبه .. وهاجمته فى منطقة شرقى الدفرسوار وكبريت وأغارت عليه فى مقر داره ودمرت قطعه البحرية فى إيلات .

كل ذلك وكانت آلة الدعاية اليهودية تعمل بكفاءة شديدة وتبث الإحباط فى نفوس العرب .

من أجل إرهابهم إذا ما أقدموا على عمل حربى موسع ضد إسرائيل .

وبينما كانت القوات المسلحة تعيد تنظيم صفوفها .. كانت المخابرات العامة المصرية تراقب تحركات بهجت يوسف حمدان .. الذى قدم إلى مصر وغادرها اثنتى عشرة مرة إلى ألمانيا . ولاحظ رجال المخابرات كثرة لقاءاته بصهره المهندس مندور وجمعه المحامى .. وبعض رجال القوات المسلحة السابقين .

وبعد مراقبات وتحريات مكثفة .. تبين لرجال المخابرات أن هناك شبكة تجسس يرأسها بهجت .. وعلى الفور جرى اعتقالهم جميعًا يوم ٢ يونيو ١٩٦٩ ، وفى مبنى المخابرات العامة ووجه بهجت بأدلة تجسسه فانهار فى خلال عدة ساعات ، وأفصح عن دوره الحقيقى ودور كل فرد من أفراد شبكة التجسس .

---

(١) فى الساعات الأولى من ليل ١٩٦٨/١١/١ ، استخدم العدو طائرات الهليوكوبتر بعيدة المدى من طراز «سيكورسكى» ، و «سوبر فريلون » ، فى اختراق الدفاعات الجوية ، والوصول إلى منطقة نائية فى نجع حمادى ، ودمر أحد الأبراج الرئيسية لكهرباء الضغط العالى بأسلاكه ، فانقطع التيار الكهربائى عن القاهرة والوجه البحرى شمالاً . وكان الغرض من العملية هو إحداث الشلل فى مصادر الطاقة فى مصر .

ومن مبنى المخابرات أرسل إلى فيزر طالبًا منه الحضور إلى القاهرة على وجه السرعة .. حيث وافقت الحكومة المصرية على العروض المقدمة إليها وأنه بانتظاره للتوقيع على العقود وبدء النشاط . وعندما جاء فيزر كانت المخابرات المصرية بانتظاره على سلم الطائرة .

وأثناء التحقيق مع أفراد الشبكة بواسطة العميد إسماعيل مكى ظهرت مفاجأة لبهجت .. إذ اكتشف أن ضابط المخابرات الإسرائيلى « بوتا » يهودى مصرى عاش بالإسكندرية وغادر مصر بعد عدوان ١٩٥٦ مباشرة .. وأنه زاول العمل فى مصر كسمسار للقطن فى بورسطة الإسكندرية لعدة سنوات قبل مغادرتها .

اكتشف أيضًا أن المخابرات الإسرائيلية كانت تثق بنفسها أكثر من اللازم ويتملكها غرور قاتل . فبرغم احترافه لمهنة الجاسوسية بعد تدريبه الطويل فى أوربا .. وعدم تركه لدليل واحد يساعد على كشفه .. إلا أن المخابرات المصرية استطاعت اصطياده وأفراد شبكته بسهولة شديدة وفى وقت قياسى . وهذا يعد دليلاً أكيدًا على يقظة رجالها الذين برعوا فى إلقاء القبض على عشرات الجواسيس فى تلك المرحلة العصيبة .

وبعد حوالى العام من اعتقال الجواسيس الأربعة .. أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بالأشغال الشاقة المؤبدة على الخائن بهجت حمدان « زواجه من إنجريد وحصوله على الجنسية الألمانية أنقذه من الإعدام » وبالسجن لمدة خمس سنوات لكل من ضابط الموساد والمهندس مندور وجمعه المحامى .

كانت لهذه الحادثة آثارها المرعبة فى الموساد ، فمعنى اعتقال أحد ضباطها من قبل المصريين ، تكشف حقائق أساليب العمل المخابراتى الإسرائيلى فى التجسس على البلاد العربية ، بما يعنى تغيير أنماط العمل المختلفة فى النشاط الاستخباراتى .

كان هناك أيضًا الأثر النفسى الذى أصاب ضباط الموساد والعملاء العاملين خارج إسرائيل ، إ تخوف كل هؤلاء من المتعاملين معهم من الخونة العرب ، ومن محاولات اصطيادهم بالخديعة والدهاء كما حدث للضابط الخبير فيزر ، الذى وقع فى شرك المخابرات المصرية .

لقد تندرت وسائل الإعلام العالمية بخيبة رجال الموساد ، الذين قادتهم الثقة الزائدة إلى كشفهم . وكان بهجت حمدان بحق هو أول جاسوس في العالم يصطاد قائده .. بعملية خداعية ذكية مكنت المخابرات المصرية من الحصول على معلومات ثمينة .. جاءت على لسان الضابط الأسير .

عمر حمودة .. كيف سقط فى جامعة عين شمس ..!!



بطل هذه الحكاية .. نوع حقير جدًا من البشر ، ويعد من أقذر الجواسيس المصريين الذين عملوا لصالح إسرائيل على الإطلاق .. إذ تجمعت فيه كل صفات الشذوذ واللوطية ، وفقد انتمائه للرجولة .. والوطن .

استغل أخطاء الجاسوس شاكر فاخورى وذهب بنفسه إلى القنصلية الإسرائيلة فى استانبول عارضًا خدماته .

لكنه فى غفلة منه .. فوجىء بسقوطه فى سرعة مذهلة . وبنفس الخطأ الذى وقع فيه الجاسوس السابق .

إنه أول وآخر جاسوس مصرى ألقى القبض عليه بالمدينة الجامعية للطلاب ، وأيضًا .. أشهر جاسوس يعشق القيام بدور امرأة !!

البحث عن طريق

إذا كان الجاسوس الشاذ شاكر فاخورى – أول مصرى سلم نفسه للسفارة الإسرائيلة فى قبرص ليعمل جاسوسًا على مصر – فهذا هو محمد عمر حمودة – شاذ آخر – أعجبته فكرة الحصول على المال بالطريق السهل ، وسلم نفسه أيضًا برضاء تام إلى القنصلية الإسرائيلية فى تركيا ، معتقدًا أنه قام بدراسة قصة زميله الشاذ ، وعرف مواطن الخلل التى أدت إلى سقوطه ، وأنه سيأمن كل تلك الأخطاء ليظل بذلك بعيدًا عن أعين وآذان المخابرات العربية .. ويعمل فى صمت لصالح المخابرات الإسرائيلية .

حصل عمر حمودة على الثانوية العامة سنة ١٩٧١ بمجموع هزيل لم يحقق له أدنى طموحاته . وكانت أعظم أمانيه فى تلك المرحلة من العمر ، أن يهنأ بعلاقة مع شاب شاذ يشاركه شذوذه ، ويستمتع معه بالحرية الجنسية التى يحلم بتحقيقها .

كان عمر حمودة على العكس من الجاسوس السابق .. شاذًا سلبيًا[1] . أى يفضل أن يقوم بدور الأنثى .

هذا الشذوذ كبر معه منذ الصغر ، واستفحل الداء عنده للدرجة التى لا حل معها . وقد ضربه أبوه مرات كثيرة بعدما انتشرت حكاياته وفضائحه ، وكان فى العادة يبكى بعنف لوالده ويعده بأن يلتزم ويتأدب . لكن لا فائدة .. إذ كبر شذوذه وفشل معه علاج الطب وعلاج الضرب والإيذاء . فكم تكوم الشاذ فى أحد أركان « البلكونة » عقابًا له عشرات الليالى مكبلاً ومحرومًا من الطعام والماء ، وبمجرد إطلاق سراحه « يسرح » فى الخرابات ودور السينما يبحث عن صيد شاذ .

---

(١) علماء الطب العقلى والنفسى قسموا الجنسين المثليين إلى ثلاثة أنواع :

١ – الإيجابى : الذى يلعب دور الذكر ، والأنثى التى تلعب دور الأنثى .

٢ – السلبى : الذكر الذى يلعب دور الأنثى ، الأنثى التى تلعب دور الذكر .

٣ – النوع المتخلط الأكثر شيوعًا الذى يلعب الدورين معًا .

ويقدر الجنسين المثليين الذكور بحوالى ٢٪ من المجتمع ، وهى فى الإناث أكبر من هذه النسبة .

وعندما طلب لتأدية الخدمة العسكرية سر كثيرًا . لكن .. سلموه شهادة الإعفاء وقالوا له « الجيش يطلب رجالاً فقط » فعاد مقهورًا .. ومرت به الشهور كئيبة . إذ قلما عثر على ضالته لضيق ذات اليد بعدما أمسك والده عنه مصروفه الذى ينفقه على شذوذه . وكثيرًا ما خلا إلى نفسه يبكى ضعفه ويرجو خلاصًا له من العار ولكن هيهات ، فداء الشذوذ عنده أقوى من نداء التوبة .

أخيرًا لملم أشلاء عقله المنهك وقرر أن يغير خطة حياته كلها .

وجاءه هذا القرار بعدما قرأ عشرات التقارير عن الشواذ فى الجيش الإسرائيلى ، وشواذ أوروبا الذين لا يخجلون من شذوذهم ، ويجهرون به بدعوى الحرية . وامتلأت رأسه بأفكار كثيرة تقوده فى النهاية إلى حتمية الحياة فى مجتمع متفتح يستطيع فيه أن يمارس شذوذه دون إحساس بالنقيصة أو بالانزواء .

وعندما أعاد قراءة قصة الجاسوس شاكر فاخورى – الشاذ الإيجابى – وكيف طرق بنفسه باب السفارة الإسرائيلية فى نيقوسيا – أدرك أن هناك خطأ ما قاده إلى مصيره المظلم وأن بإمكانه – هو – ألا يخطو خطوة واحدة ، دون حساب للخطوة التى تليها . ودفع عن رأسه فكرة محاكاة شاكر . لكن عقله المشوش غامت به الأفكار واحتفظ لنفسه بما قرره ، وأعد أوراقه للسفر إلى حيث تبدأ حياة جديدة ، بعيدًا عن مجتمع يقهر فيه رغبته وشذوذه .

تسلم عمر حمودة جواز سفره وحجز تذكرة بالطائرة إلى استنابول .. وأسكرته حقيقة وجوده على أرض أجنبية بلا رقيب يحد من سلوكه أو يراقبه .. واستنشق لأول مرة هواء حريته وتحرره حتى كاد أن يصرخ فرحًا أمام ساحة المطار .. فأضواء المدينة من بعيد كانت تتراقص كأنها حبيبات من اللؤلؤ السبراق .. وتصدح بأذنيه أغنيات لا يفهمها ولكن إيقاع الموسيقى يتناغم مع شرقيته ويدعوه إلى الانتشاء .

استقل سيارة إلى بنسيون « بورال » الواقع فى منطقة شعبية تفيض زحامًا وضجيجًا ، وقذف بحقيبته داخل الغرفة وخرج كالملهوف يجوب شوارع المدينة الساحرة الواقعة على بحر مرمرة المخنوق ما بين مضيقى البسفور والدردنيل .

تراقصت حواسه تلذذًا بفعل السعادة الغامرة التى تملكته عندما وصل إلى أحد الميادين الشاسعة ، ودلف إلى الحديقة المظلمة التى تقتطع جزءًا كبيرًا منه ، واقترب من عشرات « الهيبيز » من الجنسين الذين اتخذوا من الحديقة منتدى لهم ومأوى ، ووسط هذا الخضم من المزيج حاول أن يبحث لنفسه عن مكان بينهم . لكن حاجز اللغة منعه وصدمه فى بادىء الأمر ، حتى اكتشف أن هناك لغة خاصة جدًا لا يفهمها سوى الشواذ أمثاله ، ومن خلالها تقرب بأحدهم واختلى به جانبًا يتذوق على أرض تركيا طعم الحرية التى حرم من مذاقها علانية فى مصر .

إن لغة الشواذ لا تنطق بلغة واحدة .. بل تنطق بكل اللغات بلا حروف أبجدية أو قواعد . إنها لغة الإشارات التى تحس وتفهم تمامًا فيما بين مجتمع اللواطين الذين يجوبون كل مدن أوروبا ، ويتخذون من شوارعها وحدائقها منفسًا لإفراغ مخزون قيودهم .. وعقدهم فيتحللون من قواعد السلوك السوى ويتلاوطون كالكلاب الضالة .

أربعة أيام مرت وعمر حمودة يتعاطى الشذوذ فى حدائق استانبول ، إلى أن سرقه أحدهم فخلت جيوبه من النقود ، وفى الحال قرر تنفيذ خطته التى رسمها مرات ومرات فى خياله قبل أن يغادر مطار القاهرة .

وعندما سأل موظف الاستقبال فى البنسيون عن مكان السفارة الإسرائيلية قال له إن السفارة فى العاصمة أنقرة ، أما القنصلية الإسرائيلية فمقرها فى إستانبول .

كانت نيته مبيتة بالفعل على اتخاذ خطوته المجنونة .. لذلك لم يحاول البحث عن عمل أو يسعى من أجل ذلك .. فالفكرة كانت قد اختمرت برأسه وأصبح من الصعب أن يتراجع . وعندما شرع فى التنفيذ ، لم يطلب القنصلية تليفونيًا بل ذهب إليها بنفسه فوجد بابها موصدًا ، وفكر فى الرجوع ثانية إلى البنسيون لكنه بعدما خطا عدة خطوات عاد ثانية ودق الجرس ، فانفتح الباب فجأة وصدمته المفاجأة ، لكنه تسمر مكانه أمام حارس الأمن الذى كرر السؤال عليه عدة مرات :

ماذا تريد ؟

وفشل فى أن يجيب إجابة مفهومة وتعثر فى النطق بينما كانت يده تبحث عن ورقة تنقذه من ورطة الموقف .

ذاهب بقدميه

نظر الحارس في الورقة الصغيرة ثم رفع وجهه إلى هذا الطارق الغريب ، وقام واقفًا وهو يرمقه متفحصًا بدهشة ، وتركه بالباب مهرولاً إلى الداخل ليعود بعد لحظات برفقته رجل في نحو الخامسة والأربعين ، صافح عمر حمودة وباندهاش سأله بالعربية :

هل أنت مصرى ؟ قال له :

نعم . فجذبه إلى الداخل وانفرد به بعيدًا في مكتب أنيق وقال له :

قلت في الورقة أنك تريد مقابلة أحد المسئولين لأمر هام . فماذا تريد ؟

أخرج حمودة جواز سفره وقدمه إلى الإسرائيلى وهو يقول :

أنا لا أريد العودة إلى مصر . لقد كرهت مصر وكل ما فيها وكثيرًا ما فكرت في البحث عن دولة أخرى أعيش بها وهداني تفكيرى إليكم .

فقال له الإسرائيلى متعجبًا :

لماذا نحن بالذات ؟ ولماذا لم تلجأ لدولة عربية بدلاً من إسرائيل التى هى في حالة حرب مع مصر وكل دول العرب ؟

أجاب حمودة :

أنا أحلم بالحياة في إسرائيل حيث الحرية بلا حدود وفرص العمل متوفرة والعائد المادى كبير جدًا قياسًا بكل دول العرب .

لم يستغرق الحوار دقائق قليلة كما كان حمودة يعتقد .. بل امتد لساعات طويلة في حجرة أخرى مجهزة بأحدث الأجهزة التنصتية ، وكاميرات تنقل كل ما يدور لحجرة أخرى بها أجهزة التسجيل ، وجىء بعدة أوراق انكب الخائن على كتابة سيرة حياته منذ البداية وتفاصيل وأسماء أقاربه ووظائفهم وآرائه في كل شىء في مصر .

وفي مثل هذه المواقف يعمد ضباط المخابرات إلى إظهار عطفهم ، وإضفاء روح التقارب مع الخونة لإزالة حاجز الخوف والرهبة وبث الطمأنينة في نفوسهم . وقام ضابط الموساد في

القنصلية بترتيب غرفة رائعة بفندق فخم نزل بها الخائن ضيفًا على القنصلية الإسرائيلية عدة أيام .

كان القصد من تركه هكذا بمفرده تحليل الواقعة تحليلاً منطقًا ونفسيًا ، خوفًا من أن يكون حمودة عميلاً للمخابرات المصرية يقود الإسرائيليين إلى شرك محكم . وبعد مراقبته مراقبة لصيقة ، ثبت لهم أنه شاب لا انتماء وطنى لديه ، وبإمكانهم استغلاله فى القيام بما يطلب منه مقابل المال .

ونتيجة لما توصلوا إليه ، زاره أحد الضباط وعرفه باسمه « النقيب سامى » ودارت بينهما حوارات طويلة ، قال خلالها حمودة إنه تأثر بقصة شاكر فاخورى الذى وقع فى قبضة المخابرات المصرية ، وكيف أخطأ شاكر عندما أغدق على الضابط المصرى بالهدايا الثمينة فى محاولة لتجنيده دون أن يحسب حسابًا لوطنيته .

أخذ ضابط الموساد يعدد للخائن الخدمات التى قدموها لشاكر فاخورى ، وكيف أنهم عرضوا استبداله بعدد من الأسرى المصريين والعرب ، وعندما رفضت الحكومة المصرية عرضوا مقابل الإفراج عنه ملايين الدولارات[1] فرفضوا أيضًا . لكنهم - على حد زعمه - مارسوا ضغوطًا دولية جادة وعنيفة من أجل إنقاذه من حبل المشنقة .

أسهب النقيب سامى - كذبًا - فى تبرير محاولات إسرائيل شراء الجواسيس العرب الذين اكتشف أمرهم ، مدعيًا أنه لولا وقوف إسرائيل إلى جانبهم لأعدموا ، لكن الحكومة المصرية والحكومات العربية - نظرًا لوجود أسرى حرب - فصفقات تبادل الجواسيس عادة ما تتم فى السر بعيدًا عن الأضواء وأجهزة الإعلام .

عندها قال حمودة معقبًا :

نعم .. نعم .. فلذلك جئت إليكم بنفسى أعرض خدماتى ، وأضع نفسى تحت إمرتكم على أن تسمحوا لى بالعيش مدى الحياة فى إسرائيل .

---

(١) بالطبع كانت تلك مجرد أكاذيب لإضفاء نوع من النزاهة على سلوك المخابرات الإسرائيلية إزاء جواسيسها الذين يقعون فى قبضة المخابرات العربية . والغرض من ذلك معروف . فالصيد الجديد كان مدفوعًا لأن يصدق كل ما يقال له ، وما كان يعلم أن الموساد هى الأشهر بين أجهزة المخابرات العالمية ، بل هى حالة متفردة ، فى التخلى عن أعوانها وتجاهلهم بعد انقضاء مهامهم ، والمتتبع سيجد لذلك أمثلة كثيرة لا حصر لها .

لم يعقب ضابط المخابرات بل أعطاه النقود وقال له :

أنت شاب مغامر لم تجئنا اعتباطًا بل لأنك تعرف جيدًا أن المخابرات الإسرائيلية أقوى جهاز مخابرات فى العالم . وأن إسرائيل هى واحة الحرية فى منطقة عربية محاصرة بالتخلف والقهر والدكتاتورية .

وأضاف النقيب سامى :

سننظر فى أمرك باهتمام بالغ ، ولكننا الآن نريد منك أن تساعدنا فى مهمة بسيطة ستسافر لإنجازها فى لبنان لنتأكد من مدى إخلاصك لنا .

فى الحال وافق حمودة وأعلن سعادته بهذا التكليف . وبدأ الضابط اليهودى فى تدريبه على أعمال التجسس خاصة فيما يتصل بالمهمة المحددة التى سيكلف بها .

خلال ذلك كان حمودة لا يكف عن زيارة حديقة الهيبز حيث يلتقى بأمثاله من الشواذ ، وكانت هذه اللقاءات هى المصدر الأول لسعادته ، إذ إنه بعد كل لقاء كان يصفو ذهنيًا ويهيأ لتلقى جرعة الجاسوسية اليومية والتدريبات المهارية ، وتتشكل لديه أمام بريق الدولار روح المغامرة والفدائية فيقدم على هضم الدورة المكثفة التى يدرسها فى حجرته بالفندق . وعندما ركب الطائرة إلى بيروت كانت لديه جرأة عجيبة للعمل لصالح الموساد . وابتدأت المهمة .

مهمة فى بيروت

أفرزت نكسة يونيو ١٩٦٧ عاملاً مهمًا على الصعيد العربى يتمثل بالالتفاف الشعبى الهائل حول المقاومة الفلسطينية ، خاصة فى الوقت الذى أصبحت فيه هذه الظاهرة نقطة بارزة فى عملية الصراع العربى – الصهيونى . بالإضافة إلى ما أحرزته المقاومة من ضربات ناجحة ضد العدو فى أكثر من موقع ، وفى مختلف المجالات .

لذلك عمدت الاستخبارات الإسرائيلية إلى ملاحقة المقاومة الفلسطينية ، عبر زرع العملاء والجواسيس فى مختلف الأقطار العربية التى تتواجد فيها قواعد المقاومة ، بهدف الحصول على المعلومات الضرورية حول تحركاتها ومراكزها وتسلحها وتنقلات قادتها . كما لجأت إلى إحداث عمليات تخريبية سياسية وطائفية لبلبلة الأوضاع فى البلاد العربية . فتوجه

بذلك أصابع الاتهام إلى المقاومة ، وتولد ضدها موجة من العداء والكراهية تستهدف عرقلة مسيرتها وتقدمها .

من هذا الاتجاه .. ركزت الاستخبارات الإسرائيلية جهودها على القرى اللبنانية الحدودية التي يتسلل الفدائيون الفلسطينيون عبرها لتنفيذ عملياتهم ضد مؤسسات العدو ومنشآته وأفراده . ونجحت هذه الاستخبارات في تجنيد بعض الخونه من سكان هذه القرى الحدودية التي تمثل نقطة عبور إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة ، وكان من بين هؤلاء العملاء الخونة - نايف المصطفى - اللبناني من قرية « البستان » الحدودية الذي قبض ٤٠٠ ليرة مقابل خيانته كل شهر . كان هناك أيضًا - أحمد ضاهر من قرية « عيترون » ونايف البدوي من « يارين » وخميس أحمد بيومي وجميل القرح والعشرات غيرهم .

كل هؤلاء الخونة أغدقت عليهم المخابرات الإسرائيلية واشترتهم ، واستفحل الأمر كثيرًا حتى أن علي حسن سلامة[1] اكتشف بنفسه ٢٤ عميلاً للموساد جرى إعدامهم في غضون شهور قليلة ، مما يؤكد تغلغل الموساد بكثافة داخل الأراضي اللبنانية ، لحماية حدودها الشمالية من هجمات الفدائيين الذين لم يكفوا عن التسلل إلى الأرض المحتلة .

كانت مهمة عمر حمودة في لبنان مهمة محددة ، وهي الانضمام إلى إحدى المنظمات الفدائية لجمع أكبر قدر من المعلومات عن الفدائيين .

وللأسف الشديد جرى تدريبه على استعمال السلاح والمتفجرات في معسكر تابع لإحدى المنظمات الفلسطينية تمهيدًا لإرساله إلى الأرض المحتلة للقيام بعمليات فدائية داخل المستوطنات الشمالية . وكان الجاسوس الجديد الذي وثق به رجال المنظمة يسجل كل صغيرة وكبيرة في لبنان .. فيما يتعلق بالمقاومة ومسئوليها ومواقع تدريباتها وأسلحتها وعناصرها ، بل وعناوين بعض قادتها في حي « الفكهاني » ببيروت والذي يقيم به جمع غفير من الفلسطينيين .

كانت هناك أيضًا دلائل على اشتراكه في جمع التحريات والمعلومات عن ثلاثة من قادة منظمة أيلول الأسود الذين جرى اغتيالهم في بيروت في ٩ أبريل ١٩٧٣ .. وكانوا يقيمون

---

(١) قائد الفرقة (١٧) الخاصة بحراسة عرفات ، ورئيس جهاز أمن منظمة التحرير الفلسطينية .

في عمارة واحدة[1] واشتركوا معًا في تدبير مذبحة ميونيخ في ٥ سبتمبر ١٩٧٢ والتي راح ضحيتها ١١ إسرائيليًا .

وبعد أن جمع عمر حمودة حصيلة هائلة من المعلومات أراد السفر بها إلى استانبول على وجه السرعة ، فادعى لقادة المنظمة أنه مضطر للسفر إلى القاهرة للتصديق على شهادة الثانوية العامة التي يحملها للالتحاق بإحدى كليات جامعة بيروت العربية إلى جانب عمله الفدائي في المنظمة .

بسهولة بلا تعقيد وافقوا بالطبع على سفره ، ومن مكتب سفريات « بلانكو » في ساحة البرج في بيروت استقل سيارة إلى دمشق عبر جبال لبنان المكسوة بأشجار الأرز والفاكهة . وفي دمشق زار صديقًا له في ضاحية « دوما » ثم استقل أتوبيسًا إلى حلب بالشمال مارًا بمدينة حمص أشهر المدن السورية في طيبة أهلها ، وتحاك حولهم النكات اللاذعة كأهل الصعيد في مصر ، وفي حلب الشهباء توقف لزيارة أحد معارفه في القصر العدلي ثم عبر الحدود السورية إلى تركيا حيث ينتظره في استانبول ضابط المخابرات الإسرائيلي – النقيب سامي – فسلمه ما لديه من معلومات وخرائط تفصيلية هامة ، توضح الطرق الجبلية التي يسلكها الفدائيون المتطوعون من سوريا إلى لبنان ، بالإضافة إلى معلوماته الأخرى عن منظمة التحرير .

سر ضابط الارتباط كثيرًا لنجاح المهمة الأولى ، ونجاح تلميذه المدرب في العودة بحصيلة رائعة من المعلومات من لبنان . وتركه في جناح فاخر بالفندق الفخم حتى تصل أوامر جديدة بخصوصه من تل أبيب . وبعد عدة أيام زاره يحمل إليه هذه المرة خطة جديدة ومهمة أخرى في القاهرة .

(١) هؤلاء الثلاثة هم كمال ناصر ، وكمال عدوان ، ويوسف النجار ، وكان على رأس فريق القتلة رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إيهود باراك ، حيث كان يتقمص شخصية امرأة ترتدي ملابس خليعة .

إلا القاهرة

أحتج عمر حمودة بشدة على أوامر المخابرات الإسرائيلية ، وحاول كثيرًا ألا يوافق عليها .. إذ كيف له أن يعود إلى القاهرة وهو الهارب منها ؟ وبعد جلسة عاصفة استسلم مرغمًا . ففي عالم المخابرات والجاسوسية لا يتنصل عميل من مهام أوكلت إليه على الإطلاق . إذ ليس في الجاسوسية هرج ولا في عمل المخابرات هزل .

كان يدرك أنه وقع لا محالة بين فكي رحى لو هرب من هذه ، طالته تلك . وكانت مهمته في القاهرة كبيرة ومتعددة . فقد كان المطلوب منه أن ينجح في القاهرة مثلما نجح في بيروت وحقق بها أكثر مما هو مطلوب منه فاستحق مكافأة سخية من المخابرات الإسرائيلية مع رضاء عن عمله .

ولكي ينجح في مهمة القاهرة .. كان لابد له من معرفة وثيقة بكل مجريات الأحداث داخل أسوار الجامعات ، وأيضًا الحركات الطلابية التي نشطت كثيرًا في مصر بزعامة طلاب عملوا على بث الروح الوطنية في نفوس زملائهم ، وتحفيز الغالبية على الثورة على النظام القائم في مصر حينذاك بعدما كثرت الوعود البراقة بالانتقام من إسرائيل وضربها .

لقد كانت المنشورات الحماسية وقتها تجد مناخًا صحيًا بين فئات الطلاب ، فتنتشر وتؤثر ، وبرزت المبادىء الناصرية الحماسية لدى الغالبية منهم ، وكلما اعتقلت الداخلية النشطاء البارزين برز غيرهم ، واتخذت المواجهات الطلابية مع الشرطة طابع الندية ، وعم إحساس مرير بالذلة وبالعار . وضرورة الثأر من إسرائيل .

وفي وسط هذا الجو المشحون جاء الجاسوس الشاذ إلى مصر في أول إبريل ١٩٧٣ ، يحمل عدة آلاف من الدولارات وبعض الحقائب الكبيرة المنتفخة .. تحوى هدايا لأسرته ، وخاصة لأخيه عبد الحميد الطالب بالسنة الرابعة بكلية التربية جامعة عين شمس .

كان عبد الحميد يقيم بالمدينة الجامعية المجاورة لوزارة الحربية ولمسجد الزعيم جمال عبد الناصر[1] ، ولكثرة تردده على شقيقه تعرف بالطبع على زملائه بالمدينة الجامعية ، الذين أظهروا حفاوة كبيرة بشقيق زميلهم وأكرموه ، وأنسوا إليه وإلى حكاياته عن تركيا و «بنات»

(١) إنها المدينة الجامعية التي ماتزال قائمة حاليًا بشارع الخليفة المأمون .

استانبول حيث أفاض في سرد أكـاذيب ملفقـة عـن علاقتـه بهـن وسـهولة تكويـن الصداقـات والعلاقات « الخاصة » معهن .

وبعد عدة زيارات للمدينة الجامعية للطلاب .. أحس الجاسوس بمدى التقارب الذى نشأ بينه زملاء شقيقه عبد الحميد ، فتطرق بعد ذلك إلى موضوعات سياسية أكثر « سخونة » وينصت مستمعًا إلى ما يلقوا به على مسامعه من أخبار وتحركات وغليان داخل أسوار الجامعة. فكان يبدى اندهاشه كثيرًا أمام تلك الأخبار ، وكلما اندفعوا بحماسهم ازداد حماسًا هو الآخر ، وقد أضفى على نفسه هالة من البطولة والوطنية مدعيًا بأنه ضد النظام القائم في مصر مثل غالبية المصريين ، بل إن حماسه اشتعل أكثر وأكثر وزعم أنه كُلّف من قبل المخابرات الإسرائيلية بحرق القنصلية المصرية في بني غازى ، وذلك في هوجة المظاهرات المعادية لمصر التي وقعت في ليبيا في تلك الفترة .

وبهدوء شديد انتبه الطلاب لما يقوله ، وأظهروا له أنهم صدقوه عندما رسموا على وجوههم ملامح الدهشة لوجود « بطل » بينهم قام بأعمال خطيرة ، من شأنها أن ترفعه إلى مصاف « الوطنيين المخلصين » . وعندما كلفهم بكتابة تقارير مفصلة عن الحركة الطلابية داخل الجامعة لكي يقرأها « على مهل » بعد ذلك ، ازداد يقينهم أن في الأمر ثمة لغز ، وأن هذا الشخص يخفي وراءه الكثير .

تظاهر الطلاب بالموافقة على كتابة التقارير ، وحملوا شكوكهم إلى اللواء سيد فهمى رئيس مباحث أمن الدولة ، الذى كلف اللواء أحمد رشدى[1] مدير مباحث أمن الدولة بوضع خطة محكمة ، بالتعاون مع هؤلاء الطلاب ، لإلقاء القبض على الجاسوس والحصول على أدلة مسموعة ومكتوبة تدينه .

بعد وفاة الزعيم

منذ تولى أنور السادات الحكم في مصر خلفًا للزعيم جمال عبد الناصر في ٢٠ ديسمبر ١٩٦٩ ، اتجه في سياسته كلية إلى استراتيجية المصالحة مع إسرائيل التى كانت في اعتقاده الشخصى هى أسهل الطرق وأقربها للوصول إلى الزعامة العربية التي ينشدها عن طريق حل سلمي لمشكلة الشرق الأوسط بمشاركة أمريكا ، وما يتبع ذلك من حقن للدماء ورخاء .

(١) اللواء أحمد رشدى عين بعد ذلك وزيرًا للداخلية .

ولم يكن السادات يهتم كثيرًا بمضمون السلام أو ضماناته ونتائجه بقدر ما كان يبحث عن زعامة شعبية تفوق زعامة جمال عبد الناصر .

عمد السادات أولاً إلى الإطاحة برموز السلطة الموالية لعبد الناصر فى مايو ١٩٧١ ، وتفرغ بعدها كلية لفتح قنوات الاتصال السرى مع الولايات المتحدة الأمريكية ، والانفراد وحده بالسلطة بعد تغيير الهدف الاستراتيجى للدولة ، وتهويل خسائرنا فى الأرواح والمعدات فى حالة الحرب ، واستخدام وسائل الإعلام المختلفة لنبذ الحرب وإشهار أسلوبه الجديد فى معالجة أزمة الشرق الأوسط والصراع العربى الإسرائيلى . وكان على السادات أن يقضى على أى صوت معارض لآرائه ، واتجاهاته .

لذلك تكونت قوة معارضة داخلية أقلقت مضجعه . إلى جانب معارضة الاتحاد السوفييتى لسياسته ، فقام بطرد الخبراء السوفييت من مصر ، وتسربت الأنباء عن نية السادات فى الموافقة على اقتراح لموشى ديان بأن تسحب إسرائيل قواتها شرق القناة لمسافة تتراوح بين ٣٠ – ٤٠ كيلو مترًا فى مقابل عودة الملاحة إلى قناة السويس .

وبرغم تنديد السادات للاقتراح الإسرائيلى إلا انه فكر كثيرًا فى هذا الحل الذى سيعطيه بريقًا وزعامة لانسحاب اليهود دون إراقة نقطة دماء واحدة .

ولأن المعارضة الداخلية علا صوتها ، وطالب النبض الجماهيرى بالثأر للكرامة العربية ، واسترداد الأرض عملاً بمقولة عبد الناصر « ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » ، كانت معارضة الطلاب فى الجامعات المصرية تتخذ أشكالاً متعددة . نجمت عن تفريخ خلايا ناصرية قوية مؤمنة بمبادىء عبد الناصر وخطه السياسى ، فظهرت المنشورات السرية بين الطلبة تفيض بالوطنية ، وتندد بسياسة السادات ورؤيته للأزمة ، وعم الشعور الوطنى سائر الطلاب فى أنحاء الجمهورية ، وتعددت بالتالى مطالبهم بالسير على نهج الزعيم السابق لاسترداد الحق المسلوب .

كانت إسرائيل هى الأخرى فى حالة غليان لا ينقطع ، فالأنباء والتقارير الوافدة إليها لا تكاد تبين الرؤية الحقيقية ، أو النهج الاستراتيجى الذى تتخذه الحكومة المصرية إزاء مواجهة الرفض الشعبى لموقفها الغير واضح من الأزمة .

ومن هنا .. نشط جواسيسها في القاهرة لجس النبض العام المؤثر في الشارع المصرى ، وهم الطلاب ، الذين حملوا على عاتقهم دائمًا منحنيات السياسة والقرار المصرى . وكان هؤلاء الجواسيس بالعشرات في تلك الحقبة يمثلون شبكات منفصلة تعمل جميعها لأجل دولة إسرائيل ، ومن بينهم كان الجاسوس الشاذ عمر حمودة الذى أرسل خصيصًا إلى القاهرة لإعداد تقارير عن الطلاب داخل الجامعات المصرية ، بعد نجاحه في مهمته السابقة بجدارة في لبنان ، واكتسابه خبرة مخابراتية ومهارية عالية ، تؤهله للعمل في مصر دون أن يكشفه جهاز المخابرات المصرى .

سقوط الجاسوس

اختلط عمر حمودة بالمجتمع الطلابى بالمدينة الجامعية ، واستطاع أن يدخل الحرم الجامعى في عين شمس الذى يضم كليات الحقوق والعلوم والآداب والتجارة . ومن خلال تردده المستمر تعرف بفتاة في السنة الثالثة بكلية الآداب ، تدرس بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية - أعرق أقسام الكلية - وحاول أن يوهمها بحبه . لكنها لاحظت كثرة حديثه عن إسرائيل واشتراكه في مظاهرات معادية لمصر في الخارج ، فتخوفت منه الفتاة خاصة بعدما حاول مرارًا أن يعرف من خلالها نبض الطلاب لكونها عضوة في اتحاد الطلاب ، ففشل فشلاً ذريعًا معها .. في ذات الوقت الذى كان فيه زملاء شقيقه عبد الحميد ، بالاشتراك مع مباحث أمن الدولة ، يرتبون أمر الإيقاع به على وجه السرعة .

وحسب الخطة المرسومة أعد له الطلاب جلسة سمر في حجرتهم بالمدينة الجامعية بعد تزويدهم بجهاز تسجيل دقيق ، وجلس الخائن بينهم يستعرض أعماله البطولية « الوهمية » في ليبيا معترفًا بأنه « عمل حاجة جامدة » وأقر صراحة بعلاقته بالقنصلية الإسرائيلية في تركيا[1] وتدريبه بواسطة الموساد ، وعرض عليهم خدماته المادية والمعنوية فيما لو أمدوه بصفة دورية بأنشطة الطلاب المعادية لإسرائيل ، وبالمنشورات التى توزع داخل الجامعة . وحوت الجلسة تهجم الجاسوس على الأوضاع عامة في مصر وشتمه للمسئولين وللحكومة .

(١) هذه الأخطاء الفادحة في عالم المخابرات والجاسوسية ، إنما تدل على تسرع المخابرات الإسرائيلية في الحكم على هؤلاء الذين يتم اختيارهم للقيام بمهام تجسسية ، ودون تدريب كاف كان يتم الدفع بهم بلا تحسب للنتائج ، مما يظهر مدى غباء رجال الموساد ، وخوفهم في الوقت نفسه من تطور الأحداث في البلاد العربية تجاه قضية الأرض المغتصبة .

وبعد عدة ساعات من السمر ذهب الخائن إلى حجرة شقيقة في مبنى « د » بينما حمل الطلاب شريط الكاسيت إلى فريق مباحث أمن الدولة المتواجد بالقرب منهم ، وبعد الاستماع إلى الشريط وعرض الأمر على المسئولين ، أصدرت النيابة أمرًا فوريًا بالقبض عليه .

وفى الساعة الثالثة من صباح يوم ١٩ مايو ١٩٧٣ توجهت القوة المكلفة باعتقاله إلى المدينة الجامعية واقتادته للتحقيق . وعندما تبين للخائن انكشاف أمره للسلطات المصرية ، أخذ يضرب رأسه بقبضته ثم لطم خديه وبتفتيش أوراقه عثر على قائمة بالتكاليف التى جاء لأجلها وتضم « ١٢ » تكليفًا بخط يده بجمع معلومات عن الحركة الطلابية فى مصر ، والحصول على نسخ من المنشورات التى توزع داخل الجامعات ، والعناصر التى تسيطر على الطلبة ، ومعلومات عن الوضع الاقتصادى والسياسى ، وأماكن الصواريخ على القناة ، ورغبة الشعب المصرى فى الحل السلمى أو العكس ، ومعلومات عن الطلبة الفلسطينيين فى مصر ، وعن الوحدة الاندماجية . ونصحه النقيب سامى قبل سفره بتمزيق ورقة التكليفات لكن الجاسوس نسى ذلك أو سخر من نصيحته .. وعثر لديه أيضًا على فاتورة الفندق فى استانبول ومكتوب عليها « دفعت من قبل القنصلية الإسرائيلية » .

اعترف الجاسوس بكل شيء أمام محكمة أمن الدولة العليا ، برئاسة المستشار مصطفى عبد الوهاب خليل ، وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . برغم أن التحقيقات أكدت على أنه لم ينقل أية معلومات عن مصر ، وأن المعلومات التى ضبطت معه لا تشكل خطورة .

وكان من المحتمل نقله إلى لبنان لمحاكمته لو أن الحكم عليه جاء بأقل من المؤبد ، ولكن ٢٥ سنة بين جدران السجن – عمر آخر – كفيل بأن يدمر ويبنى أشياء كثيرة فى حياة خائن ، شاذ !!

الفصل الثانى

فى العـــــراق .. !!

« إن دولة إسرائيل مفتوحة أمام الهجـرة اليهودية وجمع الشـتات – فـالهجرة إلـى إسرائيل حق مقدس لكـل يهـودى فـى أى بقعة مـن العـالم .. حيث تمنـح الجنسـية آليًا لكل يهودى يهاجر إليها .. »

قانون « العودة »

الذى تبناه الكنيست فى ٥ يوليو ١٩٥٠

الجذور الأولى

يمكن للباحث المدقق أن يستخلص بسهولة ، اختلاف منهج الجاسوسية الإسرائيلية فى العراق عنه فى سائر الدول العربية الأخرى . ذلك أن مخابرات إسرائيل ابتعدت تمامًا عن اللجوء إلى جواسيس « غرباء » من داخل القطر العراقى .. بل استثمرت – وبذكاء شديد – وجود الآلاف من اليهود العراقيين ، فى « تخريج » كوادر قادرة على تنفيذ أهدافها وسياساتها ، مستغلة فى ذلك تغلغلهم داخل نسيج المجتمع العراقى كله ، من البصرة جنوبًا ، إلى الموصل شمالاً .

فمنذ قيام الدولة اليهودية ، حرص حكام إسرائيل على كسب تعاطف يهود العراق ، وبناء جسور من الود والتواصل بينهم لتحقيق هدفين أساسيين :

أولهما : لتشجيعهم على الهجرة إلى إسرائيل ، لسد الفراغ الناشىء عن فرار السكان العرب بسبب المذابح الوحشية ، وخلو قرى عربية بكاملها من سكانها .

ثانيهما : التجسس على العراق ، جيشًا ، وسياسة ، واقتصادًا .

ولكى تضمن إسرائيل ولاء يهود العراق الكامل لها ، والسعى إلى الهجرة إليها ، عمدت إلى استخدام أساليب شيطانية ماكرة لإرهابهم ، وتفجير بعض معابدهم ، وقتل العديد منهم لإلقاء التبعية على السلطات العراقية ، فنجحت بذلك فيما سعت إليه .

لقد كان اليهود فى العراق لأحقاب طويلة خلت ، ينعمون بالأمن وبالأمان ، ويمارسون حياتهم وأعمالهم وطقوسهم فى حرية بلا منغصات أو أحقاد ، إلا أن خطط حكام إسرائيل ، صورت لهم الحياة فى العراق على أنها جحيم ما بعده جحيم .. ورسمت فى أذهانهم صورة مثالية للحياة فى « الوطن » الجديد .

ولأننا لسنا بصدد دراسة تاريخ وأحوال اليهود فى العراق ، فإنه يلح علينا السؤال :

– لماذا تتجسس إسرائيل على العراق الذى لا يشترك معها فى الحدود ؟ ولا يعد من دول الواجهة ؟

وللإجابة على ذلك نقول : إن العراق يمثل بالنسبة لإسرائيل عدو مبين ، ومطمع ثمين ، فشل تيودور هرتزل – أبو الصهيونية – فى تحقيقه ، منذ كتب فى ٤ يوليو ١٩٠٣ إلى عزت باشا العابد – رئيس الوزراء العثمانى – يذكره بمقترحات سبق أن بعث بها إليه فى مارس ١٩٠٢ ، حول قروض يهودية للإمبراطورية العثمانية ، مقابل تحقيق الوعد الذى قطعه على نفسه للمنظمة الصهيونية ، بالسماح بإقامة مستعمرات يهودية فى العراق ، وفى لواء عكا ، عن طريق فتح الباب أمام الهجرة اليهودية .

فمنذ تحركت العصابة الصهيونية العالمية فعليًا ، بعد مؤتمر بال بسويسرا عام ١٨٩٧ ، رسمت مخططات شرسة للسيطرة على الاقتصاد العراقى ، وإحكام القبضة اليهودية عليه ، بواسطة أعداد اليهود الضخمة فى العراق ، التى اتجهت الغالبية العظمى منها – كما فى بقية الدول العربية والعالم – إلى العمل بالتجارة والاستثمار ، والاستحواذ على أنشطة بعينها ، تحكم من خلالها السيطرة على عصب الحياة الاقتصادية فى الدولة ، بامتلاك ناصية أمور التجارة والصرافة .

ونظرًا للمناخ الآمن الذى يعيشون فيه ، فكان أن تغلغلوا ببطء شديد داخل البنية الأساسية للحياة على العراق ، وصاروا بالفعل جزءًا حيويًا مهمًا فى عجلة الاقتصاد .

وبرغم ابتعادهم عن الزراعة ، إلا أنهم إمعانًا فى الامتزاج والتداخل ، اشتروا مساحات شاسعة من الأراضى ، وشغلوا قرى وإقطاعيات بكاملها ، حتى امتدت أراضيهم للمناطق الشمالية فى نينوى ، فتمركزوا بكثافة كبيرة فى « دهوك » شمالى الموصل ، وانتشر الآلاف منهم فى بغداد . يمتهنون الحرف المختلفة ، ويتبوأون المراكز الاقتصادية الهامة بصبر وسعى عجيب . بعض هؤلاء كانوا هم الركيزة الأساسية للجاسوسية الإسرائيلية فى العراق .

من ناحية أخرى ، بذلت إسرائيل جهودًا جبارة منذ قيامها ، لكسر الطوق العربى المحيط بها ، عن طريق الدخول فى علاقات مصالح متشابكة مع إيران وتركيا ، والدول الأفريقية الأخرى ، لتطويق الدول العربية ، وحصارها من الشمال والجنوب والشرق .

ففى الشمال والشرق ، وهو ما يهمنا الآن ، أسست المخابرات الإسرائيلية أواخر عام ١٩٥٨ ، منطقة ثلاثية تسمى « ترايدانت TRAIDANT » بالاتفاق مع جهاز الأمن الوطنى التركى « المخابرات » ، والمنظمة الوطنية للاستخبارات « السافاك » فى إيران . وبتوقيع هذه الاتفاقية ، توفرت للموساد علاقات حميمة إضافية بهذين الجهازين ، حيث نصت

بنود الاتفاق على تنظيم تبادل مستمر للمعلومات ، بالإضافة إلى اجتماعات شبه دورية على مستوى رؤساء الأجهزة الثلاثة . وأيضًا ، نص الاتفاق الأصلي مع تركيا ، على إضفاء الشرعية على الارتباط الاستخباراتي بين البلدين ، على أن تقدم الموساد معلومات حول نشاط عملاء السوفييت في تركيا ، وكذا العملاء الذين يعملون ضد الأتراك في الشرق الأوسط ، مقابل إمداد الإسرائيليين بمعلومات حول ما يمكن أن يؤثر على أمن الدولة اليهودية من النوايا السياسية والعسكرية للدول العربية ، وحول نشاط وشخصيات عملاء « الجمهورية العربية المتحدة » – « هكذا في النص » – الذين يعملون ضد إسرائيل .

إن الغرض الأساسي للعلاقة الاستخبارية بين إسرائيل وتركيا ، يكمن في تطويق العراق وسوريا من الشمال ، وأيضًا ، تطويق العراق من جهة الشرق ، بإقامة علاقة وطيدة بالنظام في إيران .

هكذا عملت الدولة اليهودية على تنمية سياساتها مع الإيرانيين لمعاداة العرب ، ودخلت في « عمليات » مشتركة مع السافاك الدموى منذ أواخر الخمسينيات ، ودعمت أكراد العراق لزعزعة استقرار الحكم في بغداد .

ولكي ترتكز الموساد على أرض صلبة في إيران ، قدمت للسافك معلومات وافيةعن اتجاهات السياسة في العراق ، والنشاط الشيوعي في البلاد العربية المؤثرة على إيران .

لقد تصاعدت علاقة التنسيق الاستخبارى بين الجهازين ، لتصل إلى القمة في منتصف الستينيات ، خاصة بعدما ازداد التوغل السوفييتي في المنطقة العربية ، مما اضطر شاه إيران لفتح الأبواب السرية المغلقة لرجال الموساد ، وإسباغ صفة الشرعية على عملياتهم الاستخبارية ضد العراق ، إذ جعل من المناطق المتاخمة للحدود العراقية نقاط انطلاق ، ومراكز لتجنيد وتدريب الجواسيس العراقيين على اختلاف الملل والاتجاهات ، بل وكانت توجد بهذه المناطق محطات استقبال لاسلكية للمعلومات المتدفقة من بغداد .

لكل ذلك ، أمكن لضباط المخابرات الإسرائيليين ، أن ينعموا بالأمن والانتشار والتحرك ، بمعاونة ضباط من السافاك ، فاستطاعوا تكوين شبكات جاسوسية خطيرة ومتشعبة، تمد الموساد بما يشبه خريطة سير العمل اليومي ، وسجل للحياة المختلفة في العراق ، كما تقوم بتنفيذ المهام والأوامر التي تكلف بها ، لرسم خطط السياسة الإسرائيلية واستراتيجيتها لكل مرحلة .

إن أهم ما كانت تسعى إسـرائيل إليـه هـو العمـل على هجـرة يهـود العـراق . لذلـك ، اعتمدت وبشكل أساسى على عملائها فى بغداد لضرب اليهود أنفسهم ، والقيـام بعمليـات إرهابية ضدهم ، تشككهم فى نوايا العراقيين ، فيندفعون وبقوة إلى الهجرة ومغادرة مواطنهم الأصلية غير آسفين .

هذه كانت خطة الموساد ضد اليهـود الآمنين ، الذين استقروا وامتزجوا بالحياة بشتى صورها ، حيث كان الإصرار على جلب اليهود يرتبط ارتباطًا قويًا بالرغبة العارمة فى اقتلاع الشعب الفلسطينى من أرضه ، وتشريده ، إما فى الداخل كما حدث لمسيحيى قريتى «أقرت» و«كفر برغم»، وإما إلى خارج الحدود كما هو الحال بالنسبة للفلسطينيين النازحين إلى الـدول العربية المجاورة، هربًا من المذابح الجماعية الإرهابية، التى اتخذها اليهود دستورًا لإقامة دولتهم.

لقد أرادوا « صهينة » فلسطين ونزع طابعها العربى عنها ، وذلك بزرع المستوطنين الآتين من كل بقاع الأرض – ولا صلة بينهم إلا الدين ولا رابطة إلا العنصرية – مكان سكان البلد الأصليين .

لهذا السبب ، لجأوا إلى الإرهاب الذى لم يقتصر على الشعب الفلسطينى وحده ، بل تعداه ليشمل كل العرب ، والبريطانيين ، والأمم المتحدة ، حتى اليهود أنفسهم . ولأن العشرات من القرى العربية خلت من سكانها ، فكان المطلوب ، والهدف ، هو إعمار هذه القرى المهجورة باليهود الجدد .

لقد وقع على الاستخبارات الإسرائيلية عبء هذا الأمر .. ومن أجل ذلك ، تأسست فى العراق عام ١٩٤٢ منظمة سرية عرفت باسم : « حركة الرواد البابليين » ، مهمتها تعليم الشباب اليهود كيفية استعمال الأسلحة وصنع المتفجرات ، فتكون بذلك منظمة مستقلة لها أسلحتها ومجندوها ، ومستعدة للعمل فى أية لحظة طبقًا لبرنامج محدد مدروس . إلا أن ظهور معارضة شديدة بين يهود البلاد العربية ضد الحركة الصهيونية ، أدى لانزعاج قادة الفكر الصهيونى وأداة سياساته .

وخوفًا من انتشار موجة المعارضة ، كان اللجوء للإرهاب هو أقصر الطرق وأفضلها لوأد أية أصوات مضادة ، تعرقل مسيرة الاستلاب والاحتلال .

من هنا .. تحركت المخابرات الإسرائيلية سريعًا ، وأوكلت إلى أحد عملائها فى العراق مهمة تشكيل شبكة جاسوسية ، تأخذ على عاتقها مسئولية تهجير اليهود .

فماذا فعل العميل الإسرائيلى ؟ .

إنها قصة عجيبة من قصص المخابرات والجاسوسية فى العراق .. !!

إعدام الستة

ميدان « العلاوى » فى بغداد يعتبر من الميادين الكبيرة .. المزدحمة .. تقع بأحد جوانبه محطة الأتوبيس الدولى عمان / بغداد ، حيث تصطف عدة مقاه فسيحة ، يملك إحداها يهودى عراقى ، جذب إليها الكثيرين من اليهود الذين اعتادوا التلاقى بها . فكانوا يشكلون أغلب روادها ، ولذلك سميت مقهى « اليهود » .

وفى أحد أيام مارس ١٩٥٠ ، وفد إلى المقهى « زبون » غامض ، كان يجلس بالساعات يشرب الشاى ويقرأ الصحف ، واضعًا حقيبته الجلدية السمراء أسفل المائدة ، متعمدًا ألا يحادث أحدًا أو يترك فرصة سانحة لذلك .

كان سخيًا جدًا مع الجرسون ، كثير الاستئذان للخروج تاركًا حقيبته ليجرى مكالمة هاتفية ، سرعان ما يعود بعدها إلى مكانه صامتًا .. تغطى نظارته السوداء التى حرص ألا يخلعها ملامحه .

وذات مرة ، ترك حقيبته وصحيفته وخرج . وبعد دقائق ، دوى انفجار شديد دمر المقهى عن آخره ، أسفر عن مقتل سبعة عشر يهوديًا وأصيب ضعفهم أو يزيد .

الحادث المجهول ألقى الرعب فى قلوب اليهود ، خاصة والشرطة عجزت عن القبض على الفاعل ، أو الاستدلال على شخصيته ، إلا أنه لم تكد تمر عدة أيام ، حتى انفجرت قنبلة أخرى فى المعبد اليهودى المعروف باسم « ماسودا شيمتوف » .. أدت إلى مقتل طفل يهودى دون العاشرة ، كان يلهو بالردهة الداخلية التى انفجرت بها القنبلة .

أسرع الموجودون بالمعبد بالفرار يحفهم الرعب ، وأصيب العديد منهم أثناء الهرب . وللمرة الثانية ، وقفت الشرطة عاجزة عن فك اللغز المحير .

وفى ذات الوقت الذى انطلقت فيه أبواق الدعاية الصهيونية ، تصور الحادث على أنه مذبحة مدبرة من العراقيين ضد اليهود ، توالت الانفجارات لترويع الآمنين ، وكان لفشل رجال الأمن فى إيقافها أو القبض على الجناة ، عامل مساعد لتأكيد الإشاعات التى ملأت أرجاء العراق ؛ وتناقلها اليهود فى دهشة وهلع .

وبعد عام من الحادث الأول ، كان « باسم الصايغ » يمشى بأحد شوارع بغداد عند الظهيرة .. يحمل أطنانًا من المعاناة والهموم ، فهو شاب فلسطينى أجبر على الفرار من فلسطين ، هربًا من مذابح العصابات الإرهابية التى نكلت بأفراد أسرته .

وبينما هو يمشى فوجىء بما لم يتوقعه أبدًا ، إذ شاهد ضابط مخابرات إسرائيلى ينتظر أمام فاترينة أحد المحلات . تمالك الشاب الفلسطينى‌نفسه وظل يراقبه عن بعد ، وبحذر شديد اقتفى خطواته إلى أن رآه يدلف إلى مقهى ، ويجلس بركن قصى .

كان باسم يثق تمامًا فى ذاكرته ، فهذا الضابط كان أحد أفراد فرقة « الهاجاناة » الإرهابية التى قتلت عمه وابن عمه أمام عينيه ، فصورته المتوحشة لم تغب أبدًا عن مخيلته ، وللحظة .. فكر باقتحام المقهى وقتله ثأرًا ، لكن حسه الوطنى منعه ، فالإسرائيلى ما جاء إلى بغداد حتمًا إلا لمهمة سرية .

ومن أقرب تليفون ، اتصل « باسم » بالشرطة التى جاءت على الفور وأقلت القبض على الضابط الإسرائيلى .

ضد التعذيب .. !!

أخضع الضابط الإسرائيلى لتحقيقات أمنية مطولة ، لم تسفر عن شىء فى البداية ، برغم مواجهته بهويته السورية المزيفة ، حيث لم ينهار أو يعترف ، فأعيد استجوابه بأسلوب « التعامل » مع المجرمين ، إذ جرد من ثيابه ، وأودع حجرة ضيقة جدًا ، سلطت عليه فيها لمبات كهربائية شديدة الوهج ، كفيلة بأن تجز مقاومته .. لكنه ظل يقاوم .

لقد دربوه فى أكاديمية الجواسيس فى الموساد على تحمل شتى أنواع التعذيب البدنى والنفسى ، بما فيه الجوع والعطش ، والحرمان من النوم لفترات طويلة ، فكان برغم قسوة « التعامل » معه ، يبدو فى كامل صلابته وإرادته .

لكن ضابطًا عراقيًا خبيرًا – كان قد جاء لتوه من موسكو وقد تدرب جيدًا على كيفية استجواب الخونة – أمسك بالكماشة ونزع ظُفر إصبعه الوسطى ، فاندهش أمام ذلك الخنزير الذى لا يحس بالألم . وتساءل الضابط العراقى فى نفسه : ألهذا الحد دربوه فى إسرائيل ؟ أظافر يده اليسرى بكاملها انتزعت ، ولا يزال مصرًا على أنه سورى من « السويداء »

في الجنوب . وعندما غمس الضابط العراقي يده في الماء المملح ، لم يتحمل الإسرائيلي صاعقة الألم التي نهشت بدنه ، فصرخ وهو يتلوى ، ويصيح في ذعر بأنه ضابط مخابرات إسرائيلي ، جاء إلى العراق بأوراق مزورة للاتصال بأحد العملاء اليهود .

وبالقبض على العميل العراقي « يعقوب الكالب » بمنزله القريب من ساحة الوثبة بحي الرصافة ، لم يستغرق التحقيق معه وقتًا طويلاً ، إذ انهار حين مواجهته بالضابط الإسرائيلي ، واعترف في الحال على أعوانه الأربعة في شبكة الجاسوسية ، التي قامت بعمليات التفجير المروعة في بغداد وأدلى « الكالب » بتفاصيل مذهلة عن نوايا الموساد ، والمخططات المرسومة لترويع اليهود لدفعهم إلى الهجرة . كما أرشد عن مخابيء الأسلحة والذخيرة والمفرقعات بداخل المعابد اليهودية نفسها ، وببعض المخازن على أطراف بغداد .

وأثناء محاكمة الجواسيس الستة بتهمة التجسس لصالح إسرائيل ، تبارت الصحف العراقية ووكالات الأنباء العالمية في نشر أخبار المحاكمة أولاً بأول ، إلا أن إسرائيل خرجت كعادتها تنفي علاقتها بتفجيرات بغداد ، أو بشبكة الجاسوسية ، بل وادعت بأن « الضابط » الإسرائيلي لا صلة له بالمخابرات ، فهو ينتمي لمنظمة متطرفة محظور نشاطها ، واستمرت أبواق الدعاية الصهيونية تؤكد بأن السلطات العراقية تزج باسم إسرائيل في مشاكلها الداخلية ، دون الاستناد إلى حقائق أو أدلة . وأصرت إسرائيل – لتضمن عطف اليهود – على موقفها حتى بعد ما أدين الستة وحكم عليهم جميعًا بالإعدام .

هكذا .. سقطت أولى خلايا المنظمة السرية الصهيونية في العراق ، التي تحركها الموساد ، وتؤيدها سياسة إسرائيل . واستفادت المخابرات الإسرائيلية كثيرًا من أخطاء شبكة «الكالب» التي أدت إلى سقوطها ، وأعد خبراؤها تقارير حوت ملفات عديدة عن كيفية التعامل مع العراقيين ، وتلافي سقوط شبكات مستقبلية في قبضتهم .

لقد كان هناك صراع مرير ، شرس . صراع عقول ونظريات وسياسيات ، أو لنقل إنه صراع « أدمغة » يحمل الشر ونقيضه ، يبدأ في تل أبيب ، وينتهي في بغداد .

فهل وقفت الأدمغة في إسرائيل موقف المتفرج السلبي ؟

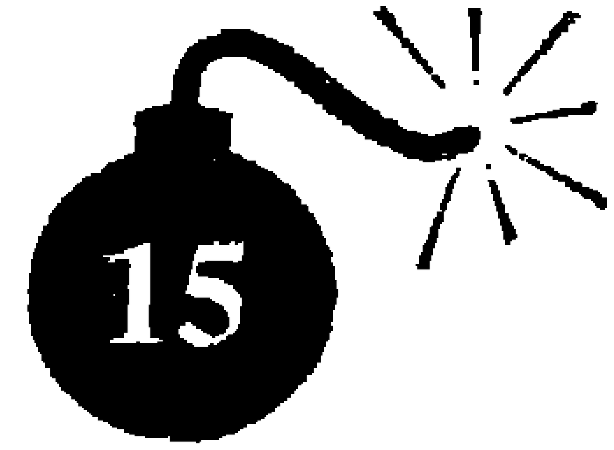
لا ، فهى أعادت تنظيم خططها ، وهاجمت من جديد .

وفي بغداد .. كانت « الأدمغة » أيضًا تتوقع كل شيء .. وتعمل .

لذا ، اشتد الصراع ، وحمي وطيسه بين الجانبين .

فتعالوا إلى ساحة المعركة ، لنشهد معًا وقائع التراشق بالنظريات في عالم المخابرات والجاسوسية ، تحسمها أسلحة الذكاء .. !!

زكى حبيب .. الزاحف على الممر..!!



كان إنسانًا مريضًا .. لا علاج أبدًا لمرضه .. فهو يعشق الشذوذ لدرجة الإدمان .. وبسبب ذلك ظل يسعى حول فرائسه فى كل مكان .. إلى أن أوقعه حظه السيىء فى نفق مظلم .. أوصله إلى النهاية .. !!

الانتصار الهزيل

سبق أن قلنا إن إسرائيل ترى فى العراق العدو المبين ، وهى بالطبع لن تقف موقف المتفرج السلبى أمام مصالحها ، لذلك فلا عجب إن هى أعادت الكرة مرات ومرات فى محاولات محمومة ، لإجهاض « العقول » التى تقف ضد أطماعها ومصالحها وسياساتها فى العراق .

لقد أفقدتها لطمة إعدام الضابط الإسرائيلى والعملاء الخمسة توازنها ، إذ كان لا مفر من القيام بعملية ناجحة فى بغداد تحفظ ماء وجهها . وتعيد الثقة لعملائها هناك ، الذين تملكهم الرعب خوفًا من الإعدام كزملائهم السابقين . وكان انتصار الموساد فى عملية واحدة، كفيل بأن يعيد ثقة هؤلاء المهتزة ، فى حتمية التعامل معهم . وما هو إلا شهور وجيزة ، إلا ونصبت شباكها حول « زكي حبيب » التاجر اليهودى الشاذ .

كان حبيب شابًا يافعًا ثريًا، تعدى السابعة والثلاثين من عمره يعمل تاجرًا للملبوسات، اشتهر بميوله الشاذة مع الأطفال ، وكثرة إنفاقه على هوايته بإغداق الهدايا على ضحاياه .

وحدث أن تمكن صبى يهودى من سرقة مبلغ كبير من خزانته انتقامًا لاغتصابه ، فجن جنونه ، وألهاه البحث عن الصبى عن تجارته ، فتعرض لخسائر أخرى أغرقته فى الديون وأوشك على الإفلاس . وساقت إليه الصدف صائدًا ماهر ، يبحث عن ضعاف النفوس للإيقاع بهم فى فخ الجاسوسية والخيانة .

ولأنه ضعيف بطبعه أمام نزواته ، وخائن لا يعرف الأمان طريقًا إليه ، كان من السهل اصطياده . فانخرط فى الجاسوسية لصالح الموساد دون جهد يذكر ، بعدما حصل على المال اللازم لتسديد ديونه ، مستغلاً متجره بشارع الرشيد – أكبر شوارع بغداد – فى إدارة عمله التجسسى ، مستعينًا بعدد لا بأس به من العملاء اليهود الذين يسكبون المعلومات بين يديه كل يوم .

لقد كان مكلفًا بجمع أكبر قدر من المعلومات العسكرية عن الجيش العراقى ، وإمداداته ، وتشكيلاته ، وقواعده . وكذا ، معلومات عن الضباط الذين كانت تربطهم به بعض العلاقات. وانصب محور اهتمامه على القطاع الشمالى والغربى من العراق ، حيث كانت قواعد الصواريخ والرادارات والدفاع الجوى .

وبعدما قطع شوطًا في عمله ، جاءته أوامر قاطعة بالكف عن البحث في الأمور العسكرية ، وتوجيه نشاطه لدفع حركة الهجرة اليهودية لإسرائيل .

ابتهج حبيب لذلك كثيرًا ، ففي النشاط الجديد تكمن غاية لذته .. كيف .. ؟

استغل حبيب رغبة أعداد كبيرة من فقراء اليهود في الهجرة ، وأقام محطات « تجميع » سرية لهم بأماكن مختلفة خارج بغداد . وإذا ما وجد ضالته بين أطفال إحدى الأسر ، انتهز الفرصة ومارس هوايته الشاذة تحت التهديد بإيقاف ترتيبات الهجرة ، فيضطر الأباء إلى غض الطرف عن أفعاله ، في احتجاج صامت جريًا وراء الحلم الأكبر ، حلم الوطن القومي والخير الموعود .

هكذا ظل العميل الإسرائيلي طوال عام ١٩٥١ يتصيد الفقراء ويأويهم ، في انتظار الوقت المناسب ، لتسريبهم عبر شط العرب إلى إيران فإسرائيل ، منتهزًا الفرصة بين آونة وأخرى للانفراد بالصغار ، إلى أن حدث ووقع في خطأ داهم ، عندما اغتصب صبيًا يهوديًا عنوة اسمه « عقيد » ، يتيم الأبوين تملؤه الرغبة في الهجرة للحاق بخالته في حيفا .

وما أن تخلص منه الصبي ذو الأربعة عشر عامًا ، حتى أسرع من فوره إلى الشرطة ، واعترف بما حدث له من حبيب ، ونشاطه السري في تهريب اليهود .

استشعر العميل الإسرائيلي الخطر ، واستطاع الهرب في آخر لحظة والاختباء لدى أحد أعوانه بمنطقة نائية ، وعلم فرع الموساد في « عبادان » بأمر الجاسوس الهلوع ، فأُبلغ أن يظل بمخبئه إلى أن يجدوا له وسيلة آمنة لإخراجه من العراق .. حتى لا تثار فضيحة أخرى تهدد خطة تهجير اليهود .

ولأن المخابرات البريطانية دأبت طوال عهدها على خدمة الصهيونية ، فقد تطوعت بالمساعدة ، وتحملت هي وحدها مسئولية العملية كلها .

أمضى رئيس فرع المخابرات البريطانية في بغداد وقتًا طويلاً مع ضباطه للتشاور والبحث ، وأسفر الأمر في النهاية عن وضع خطة دقيقة محكمة ، يقوم فيها أعوان زكي حبيب بدور رئيسي لإنجاحها .

في ذلك الوقت كانت فرق كاملة من الشعبة الثانية (المخابرات) ، تمشط بغداد وضواحيها بحثًا عن الجاسوس الهارب وأعوانه ، الذين لا يعرف الصبي « عقيد » سوى أشكالهم فقط ؟ لذا فقد كان ضيفًا مقيمًا لدى الشعبة الثانية ، يجوب الشوارع والأحياء مع رجالها في محاولة للتعرف على أحد هؤلاء العملاء المجهولين .

هذا في الوقت الذي استقل فيه حبيب شاحنة بضائع ، انطلقت به في سواد الليل وأنزلته بجوار سور مطار بغداد ، فارتقاه في غمضة عين ، وظل يزحف لمسافة طويلة على أرض المطار باتجاه طائرة بريطانية كانت تقف على ممر فرعي في طريقها إلى لندن .

كان باب الشحن مفتوحًا ، وثمة عمال يجيئون ويذهبون بعربات البضائع القطارية يفرغونها ببطن الطائرة ، ومن خلال إحدى النوافذ بالطائرة ، كانت هناك عيون ترقب الزاحف المتربص ، الذي سنحت له الفرصة أخيرًا ، فقفز في سرعة مذهلة إلى عنبر البضائع ، واندس بين الأمتعة حابسًا أنفاسه . بعدها ، تحركت الطائرة وأسرعت جريًا على الممر ثم صعدت إلى السماء ..!!

استقبل العميل الهارب بحفاوة في لندن من قبل رجال الموساد ، الذين سفّروه رأسًا إلى تل أبيب ، حيث استقبل هذه المرة بضجة إعلامية مثيرة ، ومنح اسم « مردخاي بن بوارت » وألحق من فوره بالعمل في جهاز الموساد ..

أما صورته فقد وضعت بداخل برواز زجاجي ضخم بمدخل مبنى المخابرات ، يضم « الأبطال » الذين قدموا خدمات عظيمة لإسرائيل .

كانت الضجة الإعلامية في إسرائيل على أشدها ، واحتلت قصة « بن بوارت » صدر الصفحات الأولى في الصحف والمجلات ، إذ أحيطت عملية هرب الجاسوس بهالة مبهرة من الثقة والتفاخر ، أوصلت بأحد ضباط الموساد إلى التصريح عبر الإذاعة بأن يد إسرائيل الطولى تطوق أعوانها أينما كانوا ، وأن لا شيء يصعب على مخابرات إسرائيل ، في أي موقع من العالم .

وفي خضم النشوة المسكرة ، أعلن فجأة في بغداد نبأ هو بمثابة اللطمة القوية التي أفقدت الموساد توازنها للمرة الثانية ، وضيّعت عليها نشوة الانتصار الهزيل الذي تحوّل إلى انتكاسة ، وفضيحة مدوية ..

يا جو .. لم ينجُ .. !!

كان الصبى « عقيد » يجوب شوارع بغداد برفقة رجال مكتب الشعبة الثانية ، بحثًا عن أىّ من أعوان زكى حبيب ، وتوقفت بهم السيارة بالقرب من مدخل شارع النهر الموازى لشارع الرشيد ، وترجل الفريق ليلتحم بزحام الشارع التجارى المشهور .

لم يكن «عقيد» يهتم بالفرجة على السلع والبضائع ، فمهمته صعبة ومحددة – التفرس فى وجوه المارة – لعلى وعسى . وبشرفة أحد المكاتب التجارية بالشارع ، جلس يتابع أفواج البشر التى تملأ المكان ضجيجًا وحركة .

وبينما هو كذلك ، لمح ضالته المنشودة ، فصرخ لمرافقيه الذين انطلقوا كطلقة مدفع ، إلى رجل كان يشق طريقه بصعوبة وسط الزحام . أمسكوا به فتعرف عليه الصبى عن قرب ، واقتادوه مكبلاً إلى مبنى الشعبة الثانية ، حيث عثروا بمحفظته على جيب سرى . به كمية من سم « الساكسيوتوكسين » ، الذى يسبب الموت الفورى بسبب شل أجهزة التنفس والعصب والعضلات .

أنكر المعتقل فى البداية معرفته بالصبى أو بزكى حبيب ، وادعى بأنه ترك اليهودية وتنصر ، لذلك ، فهناك مؤامرات تحاك ضده من اليهود الذين يطاردونه وينغصون عليه حياته ، وبرر سبب وجود السم معه بأنه يعانى مشاكل نفسية سيئة ، كان سببها موت ابنته بالحمى التيفودية ، وبوار تجارته ، وتراكم الديون عليه مما دفعه للتفكير بالانتحار كثيرًا ؛ وعجز عن إيضاح كيفية حصوله على السم .

وبتضييق الخناق حوله تفجرت مفاجآت مذهلة ، إذ انهارت أعصاب « سعيل يا جو » على حين بغتة ، بعد تجويعه لأربعة أيام فى حبس انفرادى ، وطلب منهم راجيًا ألا يعدموه ، مقابل أن يدلى باعترافات تفصيلية عن النشاط الاستخبارى الإسرائيلى فى العراق . وبعدما وعدوه ، اعترف بأنه عضو بإحدى شبكات التجسس ، وأنه اشترك بالفعل فى تهريب اليهود مع زكى حبيب ، كما أدلى بسيل جارف من الأسماء والعناوين ، والأسرار التى لم تخطر ببال .

وخلال ساعات معدودة منذ لحظة اعترافه ، استطاعت المخابرات العراقية القبض على ٣٤ يهوديًا عراقيًا ، تضمهم عدة شبكات ، يمتهنون التجارة والتدريس والطب والمحاسبة .؛ ويعيشون حياتهم بشكل طبيعى فى المجتمع .

وبعد اكتمال التحقيق معهم ، أعلنت وسائل الإعلام الخبر الذى تلقته إسرائيل كالصاعقة . وأصيب رجال الموساد بخيبة أمل كبرى ، إذ اكتشفوا وقوعهم فى خطأ مخابراتى جسيم ، عندما سمحوا لعملائهم بالعمل مع أكثر من شبكة جاسوسية فى آن واحد ، يقودها أفراد معروفون للجميع .

نقلت وكالات الأنباء العالمية وقائع المحاكمة العلنية فى بغداد ، وتكشفت أمام العالم أجمع نوايا إسرائيل القذرة تجاه العراق ، وقوبل الأمر باستنكار شديد من الجمعيات الأهلية اليهودية فى بغداد والبصرة ، التى رأت أن تدخل إسرائيل فيه إفساد للمناخ المستقر لليهود فى العراق .

وكانت الفاجعة الكبرى لإسرائيل ، هروب جواسيسها الباقين فى بغداد إلى إيران ، خشية سقوطهم فى قبضة المخابرات ، فيلقوا مصير من سبقوهم إلى حبل المشنقة .

أما الصبى « عقيد » ، فقد تحول إلى بطل قومى ، تسابقت الوزارات والهيئات والمؤسسات لتكريمه ، وبعدما أدرك بنفسه حجم المؤامرات الصهيونية التى تحاك ضد اليهود العراقيين ، وقف أمام جمع غفير من الصحفيين والمراسلين الأجانب ، ليعلن على الملأ بأنه يهودى عراقى يحب وطنه ، ولن يفكر يومًا بالهجرة إلى إسرائيل لأنها دولة إرهابية ، ووجه نداءًا لخالته هناك لتعود ثانية إلى العراق .

لقد انهالت التبرعات عليه من كل صوب ، وتحول فجأة إلى ثرى يمتلك المنزل الفاخر والأرصدة . وفى عام ١٩٥٥ عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، أشهر إسلامه وتحول إلى « عبد الرحمن » .

لكن .. هل انتهى أمر الموساد فى العراق بعد سلسلة الفشل المتلاحقة التى أصابت عملياته ؟

لا .. لم تنته بعد فصول الرواية الطويلة ، ولم نقرأ معًا سوى فصل واحد قصير من فصولها !!

ويشتعل الصراع

عانى جهاز الموساد من إحجام عملائه الباقين فى العراق عن العمل . وكان العدد القليل المتبقى منهم لا يفى بالغرض المطلوب .

لذلك قام رئيس الموساد بزيارة سرية سريعة إلى إيران ، حيث التقى برئيس المخابرات « السافاك » ، وطلب منه « تسهيل » دخول بعض ضباط الموساد لإيران ، لتدريب كوادر جديدة من العراقيين .

كانت إيران فى ذلك الوقت ، يدفعها حافز قوى فى إزالة معالم العروبة عن « الخليج العربى » ، الذى أطلقت عليه « الخليج الفارسى » فأرادت أن تنسبه إليها ، متجاهلة نصف دستة من الدول العربية تطل عليه ، ولها فيه أكثر ما لإيران .

ومدفوعًا .. كان الشاه يريد أن يتحول الخليج العربى إلى « بحيرة » إيرانية ، ليفرض سطوته على المياه والشواطىء ، وسكان الدول وحكوماتها ، ووجدها فرصة سانحة من خلال إسرائيل ، التى سارع بالاعتراف بها عند قيامها . إذ وعدته إسرائيل بالقيام على خدمة مصالح إيران ، للهيمنة على آبار النفط فى الخليج ، وتنظيم مرور الناقلات ، وبمساندتها له ضد العراق بتأليب الأكراد العراقيين ضد السلطات ، بل وشجعت الشاه على الاستحواذ والسيطرة على ميناء الفاو ، وشط العرب ، المنفذ الوحيد للعراق على الخليج .

لكل هذه الاعتبارات مُنحت المخابرات الإسرائيلية صلاحيات كثيرة فى إيران . وتحولت مدينتى « عبادان » و « المحمرة » إلى مركزين لانطلاق الجواسيس إلى العراق عبر شط العرب إلى البصرة ثم لسائر المدن . وأقيمت لذلك مراكز متعددة لتدريب الجواسيس على أعمال النسف، والتخريب ، وتسميم المياه ، وتدمير المراكز الحساسة والمبانى الهامة فى بغداد، وإشعال الحرائق فى المعابد اليهودية والمقاهى لترويع اليهود والمواطنين ، وتزييف العملة ، وترويج الإشاعات الكاذبة .

من ناحية أخرى ، استعان جهاز السافاك بخبرة رجال المخابرات الإسرائيلية ، فى كيفية إجهاض المظاهرات ، وأساليب القمع والتعذيب الوحشية لتطبيقها على معارضى نظام حكم الشاه . وكان هناك عدد ضخم من ضباط الموساد على أرض إيران ، منهم ستة عشر ضابطًا يقيمون بصفة دائمة فى الأراضى المحاذية للعراق ، يشرفون على عمليات التجسس ، ويوجهون شبكات الجواسيس داخل القطر الآمن .

وبرغم يقظة المخابرات العراقية ، وجهاز مكافحة التجسس بها ، إلا أن الموساد كلما سقطت لها شبكة جاسوسية ، تقيم أخرى مكانها ، معتمدة على الجالية اليهودية التى يصل عددها لسبعين ألف يهودى . وكان سلاحها دائمًا وأبدًا المال والجنس ، مستغلة تعدد الطوائف المذهبية والديانات والتعصب .

ذلك أن الدين أو المذهب يسهل من خلاله التغلغل ، إذا ما كان هناك عدم استقرار سياسى يقابله اضطراب بين أفراد العقائد المختلفة .

فالعراق هو القطر العربى الأول – قبل سوريا – الذى يعج بأصحاب الملل والمذاهب المتعددة ، الذين يمارسون طقوسهم فى حرية لا يشوبها القلق ، مهما ارتجت مقاعد السلطة .

ففى العراق جنبًا إلى جنب يعيش المسلمون من أهل السنة ، والشيعة ، والأكراد ، والزيديون ، والمسيحيون ، واليهود ، والصابئة ، وعبدة الفرج ، وعبد النار ... إلخ . تعدد عجيب فى الديانات والمذاهب والنحل ، هو بمثابة مناخ خصب لنمو بذور ضعاف النفوس ، ومرتعًا سهلاً لهواة تصيد الجواسيس ، الذين أجادوا اللعب على أوتار العقائد .

فإسرائيل تتعامل مع العراق – شأنها كشأن مصر – بحذر شديد ، نظرًا لما تملكه من ثروة بشرية واقتصادية كبيرة ، وجيش منظم مدرب مسلح .

لقد كان النمو الاقتصادى المضطرد ، مع وجود الجيش المدرب فى العراق ، أمرًا مفزعًا حقًا لإسرائيل . خاصة مع وجود سبعين ألف يهودى عراقى ، لازالوا يحتفظون بولائهم الشديد للوطن الأول ، ولم تغرهم الدعايات الصهيونية الكاذبة عن واحة الديمقراطية فى الوطن العربى التى هى إسرائيل .

لذلك .. لم تتوان الدولة اليهودية للحظة ، عن الدفع بأعداد هائلة من الجواسيس داخل نسيج المجتمع ، وتعويض الشبكات التى تسقط بأخرى أكثر تدريبًا وحرفية وفنًا . واستمر التقاتل بالأدمغة فى حرب شرسة لا هوادة فيها بين جهازى المخابرات . فطالما هناك إغراءات ، يتواجد الخونة ، ويشتعل الصراع .

وفى بداية عام ١٩٦٦ ، حدثت مفاجأة لم تتوقعها الموساد أبدًا ، ولم تحسب لها حسابًا من قبل . إذ كانت الخسائر فادحة جدًا ، والدوى يجلجل صداه فى جنبات الكرة الأرضية .. !!

غرام الأفاعي

رصدت أجهزة المراقبة الإلكترونية في المخابرات العراقية ، انبعاث رسائل لاسلكية متكررة ، يبثها أحد الجواسيس في ساعة محددة كل أسبوع . وكان البث يستغرق من خمس دقائق إلى نصف الساعة تبعًا لفحوى الرسالة .

تشكلت على الفور عدة فرق ضمت أكفأ الفنيين ، مهمتها البحث عن جاسوس إسرائيلي في بغداد ، واختصت كل فرقة بحي من أحياء المدينة الكبيرة . ولأن أجهزة التتبع اللاسلكية المتنقلة لم تكن متوافرة لدى الجهاز ، فقد كان على كل فريق حصر أجهزة الإيريال الهوائية فوق أسطح المنازل . ذلك أن إيريال اللاسلكي يختلف كلية عن الإيريال المعتاد .

وبينما فرق البحث تمشط أحياء المدينة ، ويصادفها الفشل في الوصول إلى مصدر الإرسال ، ألقى القبض على فتاة يهودية شابة ، تعمل سكرتيرة بإحدى الشركات الإنشائية الكبرى . أبلغ رئيسها سلطات الأمن بأنه يشك في « إخلاصها » ، حيث دأبت على إغرائه لإقامة علاقة خاصة معها . فوقع بالفعل في حبائلها ، لكنه لاحظ كثرة أسئلتها ، واهتمامها بالعمليات الخرسانية التي تنفذها الشركة داخل الوحدات العسكرية ، والتي يحتفظ بملفاتها وخرائطها الهندسية بنفسه داخل خزينة مكتبه الحديدية . وفوجىء ذات صباح في مقر عمله ، باختفاء مفاتيحه الخاصة من درج مكتبه .

ولما أعياه البحث عنها ، تبين له أن سكرتيرته اليهودية « زالة » خرجت كغير عادتها ، ثم عادت بعد دقائق ، فتشاغل عنها للحظات تمكنت خلالها من إرجاع المفاتيح إلى مكانها . لذلك فهو يشك في كونها غير آمنة ، فأوصوه بألا يظهر لها شكوكه ، وأن يستمر في علاقته بها بشكل طبيعي دون أن تلحظ تبدلاً في تصرفاته .

وما أن كانت الشركة تغلق أبوابها حتى تخضع لمراقبة شديدة ، ويرابض بها بشكل سرى عناصر من رجال الأمن ، تحسبًا لمحاولة تسلل يقوم بها عميل لإسرائيل . كما وضعت شقة « زالة » أيضًا تحت المراقبة المستمرة .

وبينما فريق المراقبة يقوم بعمله ليلة الخميس بعد الإبلاغ بثلاثة أيام ، فوجىء بالفتاة اليهودية تخرج مسرعة في منتصف الليل ، لتركب بجوار رجل كان ينتظرها بسيارته على بعد خطوات من المنزل . فتابعهما فريق المراقبة بحذر . وأمام مقر الشركة ، توقفت السيارة ،

وغادرتها الفتاة بمفردها ، بينما جلس الرجل يراقب المكان . لحظات وأطبق عليه رجال الأمن، في ذات الوقت الذى سمعت فيه صرخة مدوية أطلقتها الفتاة ، التى ما إن فتحت الباب بمفتاحها المصطنع حتى وجدتهم بانتظارها بالداخل .

اقتيدت الفتاة وحدها للتحقيق دون شريكها ، إذ إنه أصيب بصدمة عصبية مات على إثرها حال مفاجأته بالقبض عليه .

ولأنها حديثة العهد بالجاسوسية ، اعترفت في الحال دون ضغوط بأنها تعمل لصالح الموساد ، وكشفت عن أسماء بعض شركائها .

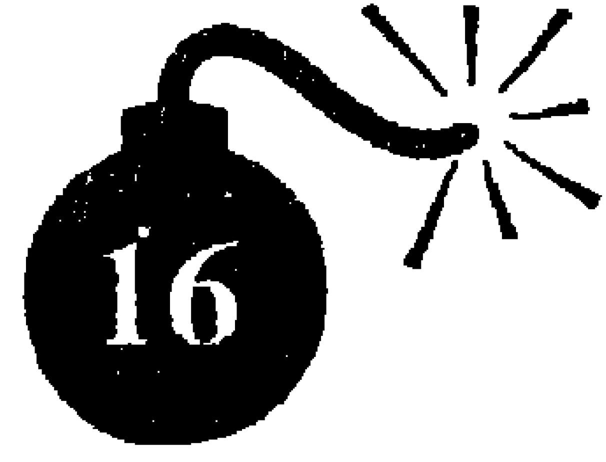
وبتوالى إلقاء القبض عليهم واحدًا بعد الآخر واستجوابهم ، تمكنت المخابرات العراقية من كشف تسع شبكات للتجسس دفعة واحدة .

وفى ١٦ يناير ١٩٦٦ ، أعلنت العراق النبأ الذى أذهل « عقول » رجال الموساد ، فجحظت عيونهم لهول الفاجعة ، وأحس أكثرهم بأن مصيرهم ومستقبلهم كله سيتحدد خلال أيام قليلة . فقد ارتكب عملاؤهم في العراق ذات الخطأ الذى أوقع بالكثيرين منهم من قبل ، ألا وهو نظام الاتصال ، والانضمام إلى خليتين في آن واحد .

بالفعل ، أجريت تحقيقات عاجلة لتفسير أسباب هذا السقوط المتكرر ، وحدثت تنقلات وتعديلات داخل شعبة القسم العربى في الموساد ، وتم استبعاد من ثبت خطؤه في سقوط الشبكات التسع ، التى هى عماد الجاسوسية الإسرائيلية في العراق .

ومن بين الشبكات التسع – اخترنا ما هو أكثر إثارة .. وغرابة .. وتشويقًا .. !!!

عيزرا خزام .. وهدم المعبد..!!



توقف ذات نهار بسيارته فى إحدى إشارات المرور .. وبينما ينتظر الإشارة الخضراء .. لمح فتاة ساحرة تفوق الإلهة عشتروت جمالاً .. فطاردها بإصرار صياد لا يهمد .. ولو أنه كان يعلم وقتها أن حياته مرهونة بنبضات المشاعر .. لما سمح لقلبه أن يهوى .. أو تخفق جوانحه .

ذلك أن الصدفة العابرة - أحيانًا - قد ترسم مصير إنسان .. فتقوده ربما إلى حياة هانئة منعشة .. أو تقذف به إلى حالك الظلام والنهاية المفجعة ..!!

قراءة الأبعاد

قديمًا قالوا « الحب يصنع المعجزات » ، وفى هذا القول حقيقة تنطبق على أبطال هذه القصة . ففى حى الكاظمية ببغداد ولد عيزرا خزام عام ١٩٢٤ لأسرة ثرية تعمل بتجارة الذهب والمشغولات الثمينة . ونشأ منذ طفولته نشأة يهودية تقليدية ، منكبًا على كتبه الدراسية بعيدًا عن مهاترات الشباب وطيشهم ، إلى أن التحق بكلية الطب فى بغداد وتخرج منها عام ١٩٥٣ ، ليعمل طبيبًا بالمستشفى المركزى ، مرتقيًا السلم الوظيفى والمهنى سريعًا نظرًا لمهارته الفائقة فى عمله .

وفى المستشفى تقابل مع إحدى الممرضات اليهوديات وتدعى « جنة » التى تسلمت عملها حديثًا ، فانبهر بجمالها الفتان وأنوثتها الفتاكة ، وغرق فى حبها دون أن يدرى .. أو يقاوم . ففى ذلك الوقت ، كانت ضغوط أسرته ليتزوج تزداد يومًا بعد يوم .. واختار له والده ابنة تاجر يهودى ثرى ، رآها عيزرا عدة مرات فى المناسبات الدينية والعائلية ، لكنها لم تترك لديه أثرًا يدعوه ليتقرب إليها . فصارح والده بمشاعره تجاه ابنة صديقه ، وانشغل بعمله وبحبه لممرضته الحسناء .

وحدث ذات مرة أن تجرأ وأعلنها بحبه ، فاستكثرت ذلك منه للفروق الشاسعة بينهما ، فهى ابنة يهودى فقير ، يمتهن النحت والنقش على النحاس ، ولا قبل لأسرتها به . لكنه تناسى كل الفروق غير عابئ بفقرها ، فهى غنية بالجمال الوفير .. وهذا يكفيه .

استجابت جنة لعواطفه ، وانقادت هى الأخرى تجاهه ، مانحة إياه مشاعرها وقلبها عن قناعة . لكن حبه لها كان أضعاف ما تكنه هى من حب . لذلك كان شديد الغيرة ، يطاردها فى ردهات المستشفى ، وفى كل مكان . ولما صارحته بأنها لم تعد تطيق تصرفاته ، عرض عليها الزواج فى أسرع وقت ، فرفضت بإصرار دون أن توضح لذلك سببًا .

تحير الدكتور عيزرا فى أمر حبيبته ، وساورته الشكوك والريب ، لكنها قطعت عليه الطريق ، واعترفت له بأنها قررت ألا تتزوج فى بغداد مهما امتد بها العمر ، إذ هى تحلم بالحياة فى إسرائيل ، والزواج هناك بمن يحبها ، ويريدها .

أسقط في يده ، ولم يسعفه عقله ليقول أى شىء . فلما طال صمته ، همت بالانصراف ، لكنه جذبها بشدة وبعينيه شعاعات من تحد ، وقال إنه يوافق على زواجها في بغداد ثم يسعيان معًا بعد ذلك للهرب إلى إسرائيل . رفضت جنة ما أبداه من رأى .. ذلك لأن أسرته لن توافق على زواجهما ، وبالتالى سيخسر الكثير وهو الذى اعتاد الحياة الناعمة بما يغدقه عليه والده من أموال .

وتمر الأيام وحبيبته فى تبدل مستمر تجاهه ، فينفطر قلبه ، ويسير كطفل رضيع يسعى لحضن أمه الدفىء ، يتلمس بين أحضانها الأمن والحنان . فكانت ترقب حبه الطاغى لها فى تدلل ، حريصة على ألا تمنحه ولو جرعة قليلة من أمل فى زواجهما ببغداد .

لقد بدَّد إصرارها على الهجرة أمنه ، وأحال ليله إلى كابوس مقيم خوفًا من صدمة اختفائها المفاجىء . لذلك أسرع بتأجير شقة جديدة بشارع السعدون كعيادة ، ورجاها أن تقبل العمل معه لتكون بقربه طوال اليوم ، فوافقت واثقة من شدة تعلقه بها ، وكانت تضمر له أمرًا .

لقد تحينت الوقت المناسب ، وصارحته بأنها تعمل لصالح الموساد الإسرائيلى منذ مضى العام ، وتنتظر انتهاء المهام المكلفة بها ليتحقق حلمها بالهجرة .

هزه الأمر وبعثر عقله ، واضطربت له قسمات وجهه وحياته كلها ، ولأنه يحبها لدرجة الجنون ، لم يشأ أن يرفض مسلكها فيخسرها . لحظتئذ .. عانقته فى امتنان ، وأذاقته قبلة كالبركان أذهبت بإرادته ، فكبلته معها بسلاسل من إثارة أنثوية فضحت ضعفه وخضوعه .

وبعد مرور عدة أيام – كانت أثناءها تختلى به كثيرًا لتمنحه المزيد – طلبت منه أن يستقبل رئيسها فى « العمل » . ومثله .. مغيب العقل والإرادة ، لم يستطيع أن يرفض هذا الأمر .

وفى اللقاء الأول بينهما ، شرح له العميل الإسرائيلى الكثير عن معاناة السواد الأعظم من اليهود فى العراق ، ورغبة الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة فى العمل على تهجير أكبر عدد منهم ، إشفاقًا لحالهم أولاً ، ولحاجة الدولة اليهودية إليهم ثانيًا .

هكذا تم اللقاء بينهما فى هدوء .. ولم يغادر « الرئيس » العيادة إلا وأقنع الدكتور عيزرا ، بضرورة الانضمام للمنظمة السرية الصهيونية ، التى تنتشر فروعها فى كل العراق .

لقد كان للحب أثره العجيب .. إذ رحب الدكتور عيزرا بالعمل مع المنظمة ، واتخاذ عيادته مقرًا للقاءات السرية ، بعيدًا عن أعين رجال المخابرات ، الذين ينقبون عن الخونة في كل مكان .

يا إلهي .. ماذا فعل العراق بهؤلاء لينتقموا منه هكذا ؟

جيوش من الخونة تفتك بأمنه ، ويعملون فيه مباضعهم بلا رحمة ، كأنهم رضعوا الخيانة متوارثة في جذورهم البعيدة المتوغلة في التاريخ السحيق .

باع الدكتور عيزرا وطنه بخسًا للصهيونية ، وكأنه ما ولد وعاش وتعلم على أرضه ، وشرب من مائه ، وتنسم هواءه . وأخضع لدورة تدريبية على أعمال التجسس ، بواسطة ضابط إسرائيلي تسلل خصيصًا عبر شط العرب لتدريبه ، ثم سافر إلى البصرة للحصول على دورة أخرى في استعمال جهاز اللاسلكي ، ورجع إلى بغداد يحمل حقيبته الطبية ، بداخلها الجهاز الثمين .

لقد اشتد إيمانه - كيهودي - بمهمته ، وتعاظم حبه لإسرائيل متوازيًا مع حب جنة ، قانعًا بضرورة الهجرة اليهودية لتشتد الدولة ، وتقوى أمام الجبروت العربي والجيوش التي تتسلح سرًا لتدميرها .

ثم انقلب اهتمامه بقضية التهجير ، إلى البحث في خبايا القوة العسكرية العراقية . هذا الأمر شغله تمامًا واستحوذ على تفكيره . فقد كان يرى أن لديه قدرات هائلة ، للعمل في مجال الأسرار العسكرية ، التي تتنامى في الخفاء . أما مسألة التهجير فبإمكان آخرين أقل حرفية منه القيام بها .

كانت حبيبته وعشيقته جنة توافقه في رأيه ، وتؤيده ، وتدفعه دفعًا بغريزة الخيانة التي ولد بها اليهود ، فأقنعته بضرورة استخدام جسدها معبرًا للوصول إلى معرفة نوايا العراقيين ، وخطط التسليح التي يضعونها للجيش ، بالسيطرة على أعصاب عدد من الضباط ، يتم الإيقاع بهم في حبائلها .

إن تعدد الانقلابات العسكرية للوصول إلى الحكم ، منذ الإطاحة بالملكية عام ١٩٥٨ ، جعل من الجيش العراقي لغزًا يصعب التكهن به . فكل رئيس جديد - وهو عسكري بالطبع - له بعده السياسي وقراءته الخاصة لخريطة الجيش وتضاريسها . ولقصر مدد الحكم ، أصبح من

العسير وضع رؤية محددة تترجم السياسات والنوايا . فالعراق يأتي في المرتبة الثانية بعد سوريا ، في عدد مرات الانقلابات التي وقعت منذ استقلاله ، حتى وصول صدام حسين إلى الحكم .

من هنا ، ولهذه الأسباب ، انشغل الدكتور عيزرا بأسرار السياسة والجيش في العراق ، بعدما تبين له أن هناك دلائل قوية ، تشير إلى مساع جادة لتسليح الجيش بأحدث الأسلحة السوفييتية ، لمساندة دول المواجهة في صراعها ضد إسرائيل من جهة ، وللوقوف ضد أطماع إيران من جهة أخرى .

فسياسة التخويف التي اتبعها الشاهنشاه محمد رضا بهلوى في المنطقة ، كانت سببًا مهمًا للبحث عن مصادر السلاح ، وتدريب الجيش ، ورفع درجة كفاءته واستعداده وتأهبه .

فكيف طوع الدكتور عيزرا جسد حبيبته لخدمة الجاسوسية ؟

ثــور آشــــور

البداية كانت بطريق الصدفة البحتة ، عندما لاحظت جنة نظرات ذات مغزى تفهمها الأنثى ، لأحد المترددين على مكتب المحامي المواجه للعيادة . فلم تعر الأمر انتباهًا في البداية ، لكن بعدما شاهدت الشخص نفسه بعد عدة أيام ، وهو يرتدى البزة العسكرية برتبة عقيد ، رمقته بسهم من لحاظها فأردته قتيلاً ، وفوجئت به يدلف إلى العيادة كالمنوم التائه ، يطلب منها مستأذنًا استعمال التليفون . كانت حجة واهية تفضحها نبرات صوته ونظراته العطشى ، أزادتها ثقة في مواهبها ، وطغيان أنوثتها .

ولأنه صيد ثمين لا يقاوم ، تعاملت معه برقة متناهية ، مبدية إعجابها بزيه العسكرى المهندم . فأذكت غروره ، وأيقظت لديه روح المغامرة ، والشوق إلى العشق والاندفاعات الشباب ، فداوم على الاتصال بها تليفونيًا يسمعها كلمات الإطراء ، بينما هي تصده في دلال جاذب ساحر .

أطلعت عيزرا على ما تنتويه للإيقاع بالعقيد عبد الجبار ، فوافقها معربًا عن سعادته بإخلاصها للعمل ، ورسما معًا خطة اصطياده المحكمة .

أعدت إحدى حجرات العيادة إعدادًا جيدًا ، حيث زودت بأحدث كاميرات التصوير والأجهزة اللاقطة للصوت ، ولما اتصل بها عبد الجبار ذات مساء أنبأته أنها بمفردها بالعيادة لسفر الطبيب . ابتلع الضابط الطُعم ، وعرض عليها أن يتناولا العشاء سويًا فأجابته باستحالة ذلك لأنها تنتظر مكالمة هامة من الدكتور عيزرا . حينئذ عرض عليها أن يحمل العشاء إلى العيادة ليتناولاه معًا ، فرحبت بعد تمنع خبيث . وهكذا ذهب برجليه إلى النهاية .

فبعد العشاء سحبته إلى الحجرة « الملغمة » ، واكتشفت أن العقيد الفارع الطول ، ذو الوجه العسكرى الصارم والشارب الكث ، يعانى ضعف رجولته . إلا أن العميلة المحتكة ، أشعرته بأنه فحل من فحول « نينوى »[1] ، وثور من ثيران « آشور » القديمة . فأقبل عليها نهمًا كالجائع المجوع ، لا يمل مذاقها أبدًا ولا يشبع .

ولأنه يعرف « قدر » نفسه جيدًا ، أراد تعويض هشاشة رجولته بالظهور بمظهر الضابط الكفء ، لذلك استجاب لتساؤلاتها ، متباهيًا بأهميته وعلمه بأمور الجيش وأسراره ، تتدفع منه المعلومات العسكرية كالشلال المحبوس ، لا شيء يصده ، أو يمنعه ، للدرجة التى جعلت عيزرا يستغيث برؤسائه فى « عبادان » ، أن يبعثوا بمن يتسلم عشرات التقارير الغاية فى الأهمية ، والتى لا يستطيع اختزالها وبثها لا سلكيًا .

لقد تحول العقيد عبد الجبار لكلب طيع أليف ، أوهمته جنة بفحولته فعوضها بأدق الأسرار العسكرية ، وحمل إليها خرائط تفصيلية لقواعد الصواريخ ، والدفاع الجوى والمطارات ، ليستعين بها فى شروحه . فكانت تبدو متغابية أمامه ليسترسل أكثر فى فضح ما برأسه من خبايا الجيش ، وتتضاعف بذلك أشرطة التسجيل والأفلام التى تحمل إلى إيران ، ثم تنقل فورًا لإسرائيل .

اتسعت عضوية شبكة الدكتور عيزرا ، بفضل جسد الحبيبة المثير ، لتشمل فئات أخرى عديدة فى المجتمع الراقى ببغداد .

خمس سنوات كاملة اكتسب خلالها الطبيب اليهودى خبرات واسعة فى فنون التجسس ، وكيفية تجنيد العملاء والسيطرة عليهم ، ملتزمًا بالحس الأمنى العالى ، والسرية المطلقة لتحركاته . فتعدى نشاطه التجسسى نطاق الجيش ، والتسليح ، وانشغل بكل ما يخدم مصالح إسرائيل فى العراق .

(١) نينوى Nineveh عاصمة للملكة الآشورية فى أزهى عصورها فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

وبفضل علاقاته وتشعب مهامه ، أمكن لـه تهريب أكثر مائتي يهودى عبر « الفاو » وشط « العرب » إلى ميناء عبادان ، وتسريب تقارير اقتصادية وعسكرية لإسرائيل لا تقدر بثمن ، فأغدقت عليه مخابراتها بالمال الوفير الذى ينفق منه بسخاء علـى أعوانه ، ويشترى به ذمم الضعفاء فى كل موقع يريد اقتحام أسراره .

هكذا استمر عيزرا يعمل فى الخفاء ، ملتزمًا بمبادئه كيهودى يعمل لصالح وطنه الجديد ، مشجعًا لحبيبته في استدراج ضعاف النفوس إلى فراشها ، حيث تنزف الرجولة وتنسل مع غياب العقل كافة الأسرار سهلة بلا ضوابط .

لقد سخر نفسه ووقته وحياته للجاسوسية ، ونسى فى خضم التزاحم أمر الحب والغرام ، على العكس من « جنة » التى التصقت به ، ولم تنس للحظة أن هناك اتفاقًا بينهما على الزواج فى تل أبيب .

كانت تحس أحيانًا كثيرة بأن آمالها مجرد سراب كاذب . فبعد سنوات فى الجاسوسية ، لا شيء يتحقق ، ولا أحد يحس بمعاناة خوفها . فالعمر يجرى وتذبل فيه أوراق الشباب ، وتنطفيء رويدًا .. رويدًا ، أغاريد الجمال وروعة الأنوثة .

تساءلت كثيرًا : ما النهاية ..؟ . ما المصير .. ؟ وهل تحدث معجزة ويتحول الوهم إلى واقع ؟

الشهور والسنوات الطويلة فى انتظار الأمل أرهقتها ، ودمرت بداخلها البهجة ، وقطعت حبال الصبر والثقة ، وزعزعت إيمانها بالعمل الذى « كان » مقدسًا ، إذ تملكها إحساس مقيت بأنها مجرد داعرة حقيرة ، تخلع ثيابها تلقائيًا لكل عابر فى سبيل ماذا ؟

إسرائيل ؟

وهل يحس من تعمل لصالحهم بمعاناتها .. ؟ بامتهانها لذاتها .. ؟ بجسدها الرخيص المنهك .. ؟ بالقرف الذى يصيبها بالغثيان وهى تشم رائحة الأفواه النتنة ، والعرق اللزج المتعفن الذى يزيد التصاق الأجساد العارية كل ليلة ؟ ..

أعداد من البشر لا تستطيع حصرها ، من كل لون وحجم ، هتكوا ستر أنوثتها ، وذبحوها ضحية لأمزجتهم الشاذة .

كل ذلك من أجل من ؟ الأمل المنتظر بعيد المنال ؟ عيزرا الحبيب ابتعد هو الآخر . لم تعد تشغله أو تثيره كما كانت من قبل .. فقد فترت غيرته ورغبته فيها ، ولم تعد تمثل لديه أى شيء . فقط .. تحولت فى حياته إلى مجرد « معاونة » تساعده فى خدمة الموساد ، وامرأة تستجيب له بلا تمنع كلما أرادها .. ونادرًا ما كان يفكر بذلك طوال الفترة الأخيرة .

.. قتامة بشعة عششت بأفقها، وطحنتها رحى الفكر بعدما أضحت هشيم امرأة تتعذب، تتشقق ألمًا ، لكنها آمنت بألا تخسره .

حساباتها المعقدة أوصلتها إلى تلك النتيجة ، فتمنت أن يرجع إليها الحبيب ، العاشق ، الغيور ، وأن يعاود عرض رغبته بالزواج . لو فعلها ونطق .. لوافقت فى الحال ، لقبلت يديه ورأسه وقدميه فرحة مطمئنة ، لكن .. هل ينطقها بعد سنوات من الصمت ؟ إذن .. فلتحاول هى ، فلازالت تملك قدرًا من جاذبية ، وسحر ، بل هى تملك ينابيع من حنان . كان عليها أن تهدأ قليلاً لكى تستعيد توازنها وتتكلم معه ، فتستريح .

لكن .. يا لسخرية الأقدار ، فعندما تتعارض الرغبات وتتصادم الأمانى ، فالخسائر عندئذ بالقطع فادحة . والنتائج ، قد تكون مهلكة .. !!

هدم المعبد

حوادث بسيطة قد تمر بحياتنا ، لكن لا أحد يتصور أنها قد تجرفنا إلى طريق آخر ، ربما نجد فيه سعادتنا ، أو ينتهى بنا إلى كارثة لا نتوقعها .

بديهيات فشل الفيلسوف فردريك نيتشه فى تعرية مشاعره والتسليم بها ، إذ أضاع عمره كله مؤمنًا بفلسفة « القوة » ، والدعوة لمجتمع « السوبر مان » ، بمعنى أن تعمل الحكومات على التخلص من الضعفاء والمرضى ، وتبقى فقط على الأقوياء الأصحاء لكى ترتقى وتزدهر . فالضعفاء يستهلكون جهد الأقوياء . ووقتهم ، وفى هذا استنزاف لثروات المجتمع .

وعندما كان فى زيارة لشمال إيطاليا ، رأى حوذيًا يضرب حصانه بلا هوادة لأنه عجز عن جر العربة فى طريق صاعد . فأشفق نيتشه على الحصان ، وأسرع بدفع العربة مع المارة ،

صابًا جام غضبه على الحوذى غليظ القلب ، ثم اكتشف لفجأة فداحة خطئه ، فندم ندمًا شديدًا ، وتراجع عن فلسفته التى أذهبت بعقله .. وقتلته .

أما الدكتور عيزرا خزام ، فلم يكن يشك للحظة أن « جنة » التى تعشقه لدرجة العبادة قد تسعى لتدميره ، وقتله . لذلك .. استعذب تلهفها عليه وتذللها له .. وفى أعماقه كان يغمره انتشاء محبب كلما رآها خاضعة مستسلمة .. خائرة أمام حبها .. وخوفهامن ذلك المجهول المتوثب المنذر بالخطر .

كان طوال خمس سنوات قد مل مذاقها ، وأصبح هاجسه الأكبر هو السعى بإخلاص لخدمة إسرائيل . لهذا .. نبذ حبه القديم منذ اقتحم عالم الجاسوسية ، وخطا فيه خطوات تفوق ما كان يعتقد فى نفسه ، وقدراته . إلا أن حادثًا عابرًا بدل فجأة كل شيء ، وعجل بالنهاية .

لقد توقف ذات نهار بسيارته فى إحدى إشارات المرور ببغداد . وبينما ينتظر الإشارة الخضراء ، لمح فتاة ساحرة تعبر الشارع ، كانت قسماتها تفوق الإلهة « عشتروت » جمالاً ، خطواتها الرشيقة كظبى ، يحجل طربًا فيزداد حسنًا . فتسمر مكانه يتابعها بناظريه منجذبًا . وطاردها من بعدها بإصرار صياد لا يهمد .

كانت الفتاة قبطية تدعى « زهيرة » ، صبية فى ريعان شبابها ، غضة بضة ، تسلب العقل والفؤاد . تقدم الدكتور عيزرا لخطبتها باذلاً أمواله لاسترضاء أهلها ، مستعدًا للتخلى عن يهوديته فور إعلان الموافقة .

أحست جنة بنفوره منها ، برغم مشاعر الحب الفياضة التى تغدقها عليه ، وبحاستها الأنثوية أدركت بأن هناك امرأة . وبدأت رحلة البحث عنها حتى وقفت على الحقيقة المرة ، فصعقتها الصدمة ، وزلزلت ما بقى عندها من أمل ضعيف . ولما طالبته بأن يقطع علاقته بزهيرة ويتزوجها ، سخر منها قائلاً :

– المرأة التى اعتادت كل الرجال يشق عليها أن تكتفى برجل واحد .

صرخت فى حدة :

– عيزرا .. ماذا تقول ؟ أنت تعرف بالقطع أنه « عملى » .. وليس حبًا فى الرجال .

قال فيما يشبه التهكم :

– نعم ..أعرف ذلك .. وأعرف أيضًا أن «عملك» انقلب إلى « هوس » ما له من علاج .

صارخة وقد تحشرج صوتها :

– هوس ؟ أتسمي ما يحدث بننا هوسًا ..؟

– جنة ..

تقاطعه :

– خمس سنوات وأنا أمنحك نفسي .. أتظنني « مريضة » لا حل لي ؟ .. ماذا .

قال في حدة :

– جنة .. أرجوكي ...

– ألأني أحبك أكثر من نفسي .. وأعمل كل ما يرضيك ويسعدك توصمني بالشذوذ ؟

إذن .. ماذا كنت تظنني أفعل مع طوابير أتباعك وزبائنك ؟ أأكون الداعرة المهذبة ؟ هم يرونني مهووسة .. فكنت أفتعل ولا أنفعل .. كنت أُمنح ولا أَمنح .. أنت بنفسك طلبت مني مرَّات ومرَّات أن « أُمثِّل » جميع الأدوار .. أنسيت ذلك .. ؟ أم أنك زهدت فيَّ ؟

– أحببتك يومًا ما وطلبتك للزواج فتمنعت

– « يومًا ما » ؟ أكنت تكرهني طوال السنوات الفائتة ؟ لماذا إذن كنت تعاشرني حتى شهر مضى ؟

– كفي .. كفي .. جنة ..

– لا .. أريد أعرف يا عيزرا .. أرجوك ، لا تخجل من مصارحتي .. أرجوك قلها لأستريح .

– لا وقت للحديث الآن .. وراءنا عمل ينتظرنا ..

– عيزرا .. سأنسى كل ما قلته الآن .. لكن ، عاهدني أن تكون لى .. ستجدني خادمة لك .. أنا أحبك فلا تذبحني بسكين بارد أكثر من ذلك ..

– جنة .. قلت لك كفي الآن . فما عساك تريدين ؟

– نعم يا عيزرا .. هذا يكفي ؛ لكن عليك أن تعلم أنني متعبة وبحاجة للراحة بالمنزل ، فلا تطالبني بأى عمل الآن على الأقل .

ومصدومة ، محطمة ، منكسرة ، لملمت بقاياها ، وذهبت إلى السلطات تطلب السماح لها بالسفر إلى إيران للعلاج[1] . وبعرضها على القومسيون الطبي ، تبين أنها سليمة من الأمراض التي تستدعي السفر إلى الخارج .

لزمت جنة بيتها في محاولة « لتجميع » ذاتها المهترئة ، إلى أن حدثت كارثة يناير ١٩٦٦ ، عندما ألقى القبض على « زالة » العميلة اليهودية ، أثناء اقتحامها مقر شركة الإنشاءات ليلاً .

لقد اعترفت « زالة » بحداثتها في عالم الجاسوسية ، وبأن شريكها الذى مات بالسكتة القلبية في الشارع لحظة القبض عليه ، هو رئيسها المسئول عنها « ضابط الحالة » .

وأن التكليفات تجئ من عبادان لباقي أعضاء الشبكة الذين لا تعرفهم .

ومع إعادة التحقيق معها عدة مرات ، أوضحت بأن هناك طبيبًا يهوديًا لا تعرف اسمه الحقيقي كان يأوى رئيسها الذى مات .

قامت أجهزة الأمن باعتقال عدد كبير من الأطباء اليهود المشكوك في تصرفاتهم وولائهم ، ووضعتهم رهن التحقيق والاستجواب . وكان من بينهم الدكتور عيزرا خزام .

ولما علمت جنة بأمر اعتقال عيزرا ، سيطر عليها الرعب والهلع ، وفكرت في نهايتها إذا ما اعترف . وباتت تنتظر كل لحظة طرقات رجال الأمن على بابها . فانضوت هلوعة ، ذابلة ، زائغة البصر .

(١) حتى وقت قريب كان السفر إلى الخارج ، في العديد من الدول العربية ، سواء للعلاج أو السياحة أو الزيارة ، يتطلب تصريحًا من الجهات الأمنية بالموافقة .

وبينما تقلب الصحف بحثًا عن أخبار تهمها ، قرأت تصريحًا لمسئول كبير تعهد بمكافأة سخية لكل من يدلى بأية معلومات ، تؤدى للقبض على جاسوس ، وحماية أى عراقى يبلغ عن تورطه فى أعمال جاسوسية ، مهما كان حجمها .

قامت جنة على الفور وبدلت ملابسها ، ثم غادرت منزلها إلى وزارة الداخلية ، وطلبت مقابلة المسئول الكبير لأمر هام فسمح لها .. وأحست بصدق نبرته وهو يعيد تأكيد ما صرح به للصحف . فاعترفت تفصيليًا بأمر الدكتور عيزرا ، وقصتها مع الخيانة .

هكذا كشفت كل الأسرار والخبايا ، وهدمت المعبد على من فيه ، إذ ألقى القبض على أثنى عشر جاسوسًا فى شبكة عيزرا وتكشفت حقائق مذهلة عن تورط العديد من اليهود العراقيين ، وانخراطهم فى عمليات تجسس ليس بنية العمل على تهجير اليهود فحسب ، إنما طالت الأسرار العسكرية وكل نواحى الجيش فى العراق .

وكانت وقائع المحاكمة عجيبة .. والأحكام التى صدرت أعجب .. فقد صدر الحكم بإعدام الدكتور عيزرا وعبد الجبار رميًا بالرصاص ، والشنق والحبس للباقين الأحد عشر .. أما جنة المصدومة ، فقد حكم عليها رأفة بالسجن خمسة أعوام .

أما زهيرة ، فقد عادت من جديد تجوب شوارع بغداد كغزال شارد ، تطاردها الأعين الجائعة ، فلا تلتفت أو تنصت ، خوفًا من الوقوع فى غرام جاسوس .. آخر .. !!!

ناجى زلخا .. ثعبان وحية فى شوارع بغداد ..!!



عندما رآها مقبلة هتف فى نفسه :

« يا إلهى .. من أى سماء أتيت ؟ .. ومن أى بطن ولدت ؟ .. أمثلك يمشى علـى الأرض مثلنا ويلوك الشعير ؟؟ » .

ولكى يفوز بها ، اشترط أبوها مهرًا غاليًا .. خيانة الوطن . فتزوجها .. واستطاعت بأنوثتها الطاغية ، أن تجند « جيشًا » من الخونة .

ومثلما قتلت زوجها عشقًا .. وخضوعًا .. قادها هو بنفسه إلى حبل المشنقة ، ليخنق الحب والجمال .. والحياة .

ويسدل الستار على أغرب قصة حب بين ثعبان وحية .. داخل حجرة الإعدام .. !!

كلهم عيزرا

بانكشاف أمر الدكتور عيزرا خزام وأعوانه ، توالى سقوط شبكات الموساد فى العراق ، نتيجة الخطأ الجسيم فى نظام الاتصال بين الشبكات .

ذلك الخطأ الذى أفاد العراقيين ، ومكنهم بسهولة من كشف تسع شبكات دفعة واحدة، مما أحدث فراغًا مخابراتيًا كبيرًا فى إسرائيل ، بسبب توقف سيل المعلومات عن الحياة المختلفة فى العراق .

لقد ألقى القبض على رءوس الأفاعى وأعوانهم ، ففضحت اعترافاتهم المذهلة المخططات الإسرائيلية فى المنطقة العربية ، وتكشف لليهود أنفسهم ، أن إسرائيل ما هى إلا دولة الباطل والأكاذيب .

كان « عيزرا ناجى زلخا » أحد هؤلاء الرءوس .. واحدًا من أشرس الجواسيس وأمهرهم ، الذين قادوا الصراع بالأدمغة بين المخابرات الإسرائيلية والمخابرات العراقية ..

فهو يهودى عراقى ، ماكر كالثعلب ، وديع كالأرنب ، شرس كالنمر ذو ألف مخلب ، سهل جدًا أن يتلون كالحرباء وفقًا للظروف والمواقف ، لكنه على كل حال ثعبانى الخطر ، قلما يفلت مخلوق من لدغته .

ولد عيزرا ناجى زلخا بالموصل شمالى العراق أول يناير ١٩٢٧ ، وحصل على شهادة متوسطة أهلته للعمل موظفًا فى أرشيف وزارة التجارة ببغداد .

تعرف بمعلمة يهودية اسمها « ملاذ » فى المعبد اليهودى ، لا تحمل قدرًا كبيرًا من الجمال ، لكنها رقيقة تفيض عذوبة وحنانًا . فأحبها بإخلاص وتزوجا عام ١٩٥٢ ، وعاشا معًا هانئين ترف حولهما السعادة، إلى أن أصيبت فجأة بالحمى التيفودية التى سرعان ما فتكت بها، ورحلت بعد عام واحد من الزواج ، فعاش حياته من بعدها وحيدًا ، مهمومًا ، منشغلاً عن متع الحياة بالسباحة فى بحر الذكريات .

أشفق عليه نفر من صحبه ، وفى محاولة لمساعدته ليخرج من محنته ، دفع دفعًا للعمل فترة مسائية بأحد المختبرات الطبية ، فاستنزفه العمل ليل نهار ، لكنه برغم ذلك ، ظل وفيًا لزوجته الراحلة ، لم يغتنم فرصة واحدة للتجاوب مع أية امرأة أخرى تتقرب إليه .

وفى أحد الأعياد اليهودية ، حمل باقة زهور إلى قبرها . استند برأسه إلى جدار القبر ، وهجمت عليه الذكريات كالأعاصير . فاستغرقته تمامًا ، وتلبد حاله لينخرط فى بكاء مرير ، حفرت دموعه الثخينة أخدودين نازفين على خديه .

التفت فجأة إلى صاحب اليد الحانية التى تربت على كتفه ، فوجد رجلاً قارب الستين نحت الزمن آثاره على وجهه . جذبه الكهل فمشى إلى جواره يقص عليه حكايته ، وأحزانه فتأثر الرجل وطالبه بالصبر ، وأخذ يقص هو الآخر حكايات ومأثورات ليخفف عنه ، ثم حدثه عن نفسه وعن زوجته فائقة الجمال ، التى ماتت هى الأخرى فى شبابها وهى تلد ، فلم يعثر على من تماثلها جمالاً ، وعاش بلا زوجة واهبًا حياته لابنته الوحيدة التى أنجبها .

كان اليهودى الكهل – واسمه « بوشا » – يعمل تاجرًا متجولاً بين أحياء بغداد الشعبية ، يبيع بضائعه المختلفة بالأجل ، فاشتهر بين النساء الفقيرات اللاتى أقبلن على سلعه ، باسمات فرحات بحديثه العذب ، ومداعباته الرقيقة لأطفالهن .

وكانت زيارة عيزرا لبوشا لأول مرة .. بداية مثيرة لقصة من قصص الحب، والجاسوسية، والتوحش .

فبوشا التاجر المتوسط الحال ، وقع منذ زمن فى شرك الجاسوسية ، وانضم لإحدى الخلايا السرية التى تعمل لصالح إسرائيل . وكانت مهمته جمع المعلومات عن فقراء اليهود فى الأحياء الشعبية ، ظروفهم المعيشية ، وأعدادهم ، وتعليمهم ، وحرفهم ، واتجاهات الرأى عندهم فى مسألة الهجرة . فكان لذلك يكثف من زياراته للأحياء اليهودية ليكتب تقاريره عنهم . ويتردد على القبور لتصيد الأخبار من أفواه المكلومين . دون أن تعلم ابنته بنشاطه التجسسى ، أو يحاول هو جرها إلى العمل معه .

ذهب عيزرا مطمئنًا إلى صديقه الجديد بوشا الذى استقبله بترحاب كبير ، وصارحه بأنه مغتبط لوفائه العظيم لزوجته الراحلة مثله . ونادى على ابنته ، فأقبلت .. أقبلت « روان » .. كأنما أقبلت معها رائعات الحياة جميعها ، وتجمعت فى وجهها الرائق الصافى الساحر .

كالأبله فغر فاه ، لا يصدق أن هناك من بنى البشر من هى بمثل ذلك الجمال الفتان .

مدت يدها مرحبة بالضيف فارتبك عقله ، إذ سلب بريق عينيها النجلاوين ما بقى عنده من إدراك . ومست أصابعها يده فمست فؤاده .. ووجدانه .. حتى النخاع . وهتف في نفسه :

« يا إلهي .. من أى سماء أتيت .. ؟ ومن أى بطن ولدت .. ؟ . أمثلك يمشى على الأرض مثلنا ويلوك الشعير .. ؟.. !! » .

رجع عيزرا إلى مسكنه إنسانًا آخر ، يشعر في قرارة نفسه بأن ابنة بوشا دحرته ، وانتصرت على ذكرى الراحلة . فها هى قدماه تقودانه رغمًا عنه إلى « روان » . وها هو القلب يدق كلما ذكرها في خياله ، أو جلس قبالتها . إن شرايينه عادت تنبض بالعشق من جديد . في تحنان وانتعاش ، حتى الحياة كلها من حوله ، تبدلت فيها الصور .. وتجملت .

زار بوشا ذات مساء وكانت روان بمفردها .. دعته ابنة السابعة عشر للدخول فلبى ، وجلس إليها كالتلميذ الغبى البليد الذى يجهل النطق والكلام .

تمنى لحظتئذ أن يصارحها بحبه . أن يضمها بين أحضانه ويدفن رأسه بين شعرها المنسدل كأستار الليل . أن يلثم أناملها وراحة يدها ، ويتأمل هذا الوجه الساحر عن قرب .

استجمع جرأته وسألها هل تقبل به زوجًا ، ضحكت كطفلة بريئة ملأى أنوثة ، وقالت له : إن هذا الأمر بيد والدها لا بيدها ، فصارح بوشا برغبته ، ولحظتها .. ضحك العجوز ساخرًا ، وسأله كم دينارًا يملك مهرًا لها ؟

فأجابه عيزرا بأنه يدخر ألف دينار ، ولديه سكنًا وعملاً حكوميًا ، وراتبه يفى بمتطلبات الحياة الزوجية .

قهقه اليهودى الذى يدرك مدى هيامه بابنته ، وأخبره أن مهر ابنته الوحيدة عشرة آلاف لا تنقص دينارًا واحدًا .

وجم عيزرا العاشق الموله ، وغادر المنزل مقهورًا ، تسبح روان بدمه وتسيطر على عقله ، وفؤاده ، وأعصابه .

مرت به ليال طويلة مريرة وهو يفكر ما العمل ؟ وصدق حدس بوشا عندما زاره عيزرا عارضًا ألفى دينار مهرًا لروان .

سأله العجوز يحبث عن مصدر الألف الثانية فقال إنه تقدم إلى العمل بطلب « سلفة » تخصم من راتبه . ولما رفض طلبه للمرة الثانية ، عرض عيزرا أن يستكتبه صكًا بألف دينار أخرى . لكن بوشا وافق أن تكون قيمة الصك ثمانية آلاف دينار .. على شرط .

سأله عيزرا عن شرطه الأخير ، فأحكم اليهودى الخبير خنقة الشد ، عندما عرض عليه مساعدته في إقناع من يعرفهم من اليهود للهجرة إلى إسرائيل . فبان تحديد موعد زواجهما مرهون بمدى ما يبذله من جهد في هذا المجال .

وافق عيزرا على الفور طالما أزيلت عثرة المهر ، أما مسألة هجرة اليهود فذاك أمر واجب ولا يعد تضحية في نظره . فالدولة اليهودية كانت عبر إذاعتها العربية ، تبث دعايتها ليل نهار بأحقية يهود العالم في أرض الميعاد . وهو كيهودى .. تمنى أن يسافر لإسرائيل ليراها فقط قبل أن يقرر . فالدعاية المضادة في الإعلام العربى ، كانت تصف إسرائيل أنها دولة الإرهاب والمذابح ، وتصور الحياة بها كأنها الجحيم ، وتنشر الكثير من الحوادث المؤسفة ، تفضح إدعاءات إسرائيل التي واجهت كل ذلك بالرفض والاستنكار ، متهمة الإعلام العربى بأنه يكذب ، ويدعي ، ويتحايل ، لخداع اليهود ، والكذب عليهم ليحجموا عن الهجرة .

كانت الحرب الدعائية دائمًا في حالة غليان لا يتوقف . وكان إيمان عيزرا ناجى زلخا بقضية الوطن – إسرائيل – مزعزعًا . فهو ما عرف سوى العراق وطنًا .. آمنًا ، يضم عشرات الآلاف من اليهود على أرضه ، وينعمون جميعًا بالحرية وبالأمن .

وتساءل : لما لا تكون إسرائيل صادقة فيما تدعيه ؟ إن اليهود عاشوا على أرض فلسطين منذ آلاف السنين ، ولهم حق تاريخي في فلسطين . فلماذا يحاربهم العرب ؟

ثم ماذا سيخسر ليكسب روان .. ؟ إن مجرد « إقناع » بعض اليهود بالهجرة ليس بالأمر الصعب . فالفقراء الذين سيتكلم معهم ، يحسون بالضيق لسوء أحوالهم المعيشية ، وقد يروا في الهجرة مخرجًا لهم من أزمتهم . إذن .. ماذا سيخسر ؟

هكذا استطاع بوشا اصطياد عميل جديد للموساد ، يعمل « مجانًا » عن قناعة .. واثقًا من إخلاصه للعمل ، لكي يفوز بابنته الرائعة بعد ذلك ..!! .

كانت تعـرف

في تلك الفترة التي تأهب فيها عيزرا للعمل .. حدث انقلاب كبير على الساحة العربية. إذ وقع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، واحتلت إسرائيل شبه جزيرة سيناء ، وبتدخل الولايات المتحدة انسحبت الجيوش المعتدية .

كان احتلال سيناء أمرًا مدهشًا لليهود العرب ، فقد ارتابوا كثيرًا من قبل في قدرة الجيش الإسرائيلي على مواجهة الجيوش العربية ، وتراجعوا عن فكرة الهجرة ، ثقة في القوة الرادعة العربية .

أما وقد حدث العدوان واحتلال سيناء ثم الانسحاب – فقد اهتزت الصور .. واعتقد أكثر اليهود فهمًا لأمور السياسة ، أن العرب فوجئوا بالقوة العسكرية الإسرائيلية .. وهم بلا شك يستعدون ، ويتحينون الفرصة المناسبة لضرب إسرائيل والقضاء عليها بعدما أضحت خطرًا على المنطقة كلها .

هذا الرأي انتشر كانتشار النار في الهشيم بين اليهود العرب في سائر الأقطار . وبدلاً من الثقة في القدرة اليهودية ، انعكس الأمر ، وتحول احتلال سيناء إلى نكسة مدمرة لاستراتيجية إسرائيل السياسية والعسكرية .. فتراجع أكثر اليهود عن رأيهم ، وبالتالي .. أخفقت محاولات كثيرة للتأثير على اليهود وحثهم على الهجرة .

لهذا تعمدت المخابرات الإسرائيلية إذاعة حديث إبراهام دار بطل عملية « توشيا »[1] – وهي أجرأ عملية قام بها لتهريب ٦٥ يهوديًا من بورسعيد إبان العدوان الثلاثي – وكان المقصود بإذاعة حديثه عبر البراديو لعدة أيام مغزى مخابراتي .

واكب ذلك مقتل تاجر يهودي عراقي بيد لصين اقتحما داره . وأشاع عملاء الموساد أن العملية مدبرة لبث الرعب في قلوب اليهود .

انتهز بوشا حادث مقتل اليهودي لإثارة حمية عيزرا .. وتهيئة المناخ النفسي لإيقاظ حماسته . فانفعل عيزرا بغريزته كيهودي حامل لفيروس الخيانة ، وأخلص كثيرًا في عمله .

(١) إبان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، تمكن ضابط المخابرات الإسرائيلي إبراهام دار من تهريب «٦٥» يهوديًا مصريًا عبر بور سعيد إلى إسرائيل ، بمساعدة يهود محليين ، وسجلت له الإذاعة حديثًا وصف فيه مغامرات عملية « توشيا » البطولية .

وإن هي إلا شهور قليلة حتى كان رصيده اثنتي عشرة أسرة يهودية ، تمكن من إقناعها بالهرب إلى إيران .. ومنها إلى إسرائيل . ورحلة الهرب كثيرًا ما كانت تبدأ من الشمال الشرقي ، حيث يقوم فيها بعض العملاء من الأكراد بدور رئيسي وفعال . إذ يقودون الهاربين عبر الجبال والسهول والممرات الوعرة إلى الحدود الإيرانية .. حيث يتعهدهم حرس الحدود وضباط الموساد .

هكذا ابتدأ عيزرا العمل ، يداخله إحساس بالبطولة ، والفخر بقدراته الخداعية التي مكنته من مؤازرة إسرائيل . فاستهوته اللعبة الخطرة المصيرية .. وقطع فيها شوطًا منحه الثقة في ألا يتراجع . لذلك كافأه بوشا بحق عندما زوجه روان .

أيام جميلة وعيزرا في العسل يمتص النعيم مصًا .. ويخوض بحور اللذاذات سباحة وغرقًا بين أحضان عروسه . ولم تكد تمر فترة وجيزة حتى مات بوشا .. فمات بالتالي الدين الذي صكه .

وأثناء تشييع جنازته ، اقترب منه رجل لا يعرفه .. همس له ببضع كلمات واختفى . وعادِ إلى منزله تشوبه ملامح القلق . وسألته روان عما بداخله فصارحها بأمر أبيها ومعاونته له في تهريب اليهود . « إذن أنت بطل » .. هكذا كان تعليقها وهي تعانقه ، وتفجر القنبلة التي كان يمسكها بيده عندما قالت : كنت أعرف .

لقد اختصرت الطريق عليه .. وطالما هو بطل في نظرها فكل شيء يهون .

وفي مقهى قاسم جاءه الرجل الغامض . منحه خمسمائة دينار وطلب منه أن يتلاقيا بعد أسبوع في ذات المكان والساعة .

إنه أحد عملاء الموساد في العراق . مهمته تدريب الجواسيس الجدد ، وحصد المعلومات منهم وتجميعها ، والربط بين الشبكات .

توالت لقاءاتهما بأماكن مختلفة ببغداد ، وأخضع عيزرا لدورات في فنون التجسس . وفي غضون مرحلة قصيرة تعلم الكثير .. وأقبل على مهمته في شغف بالغ وقد تخرج في مدرسة الموساد جاسوسًا مدربًا ملمًا بهذا العالم المثير العجيب .. عالم الجاسوسية .

لقد انصب عمل عيزرا على تكثيف جهوده لتهريب يهود العراق . وفي خلال عامين تمكن من تهريب أكثر من أربعمائة منهم إلى عبادان عبر شط العرب . وسلك في ذلك أساليب

شيطانية أنجحت مهمته ، برغم التواجد الأمنى المشدَّد ، فأصبح بذلك أمهر جواسيس الموساد في بغداد .

وبينما عيزرا يتقدم في عمله بنجاح ، كانت روان مشغولة بأمر فشلها فى الإنجاب ، يملؤها الحنين إلى طفل يضيء حياتها .

وبرغم صمت زوجها وعدم اهتمامه بالأمر ، إلا أنها سعت للأطباء واهتمت بالوصفات الشعبية دون فائدة . فأكلها الهم ومزقها الأسى ، وحدثتها نفسها أن تفاتح زوجها برغبتها فى الهرب معًا لإسرائيل ، حيث تداولت الأقاويل إمكان علاجها هناك .

لقد ظلت كثيرًا تقلب هذه الفكرة في رأسها إلى أن تشجعت وعرضت الفكرة عليه ، فثار رافضًا في البداية ثم عاد وطلب منها الانتظار حتى « يأذنوا » له بالهرب . وانتهز الفرصة وتكلم مع مندوب الاتصال الذى يلتقى به في مواعيد محددة . فطلب منه مهلة ليعرض الأمر على رؤسائه في الموساد .

بالطبع لم يكن من السهل على الموساد أن تسحب عيزرا بعدما أتقن عمله وأجاده بحرفية عظيمة .. فعملية سحب العملاء تخضع لحسابات معقدة أهمها أن تصل درجة ثقة العميل فى نفسه إلى حد الغرور .. مما قد يوقعه في خطأ فادح يكشفه ، نتيجة الثقة الزائدة فى قدراته ، والاستخفاف بقدرات رجال الأمن فى القطر الذى زرع فيه . لم يصل عيزرا إلى حد الخوف عليه بعد . فالمنتظر منه لازال آتٍ بالطريق .. ولابد من استغلاله و « استهلاكه » قبل الإذن له بالتوقف ، أو السماح له بالمغادرة .

جاءه الرد كما كان متوقعًا .. فحزن كثيرًا لأجل روان ، وتملكه الزهو عندما أُعلم بأنه منح رتبة عسكرية فى الجيش الإسرائيلى ، تضمن له ولأسرته معاشًا محترمًا عندما ينتهى من مهمته ويفر إلى إسرائيل . وأخضع لدورة تدريبية جديدة لتعلم كيفية استعمال اللاسلكى فى الإرسال بعدما سلموه جهازًا لاسلكيًا متطورًا ..ولا يمكن رصده بأجهزة تتبع الذبذبات التى لم تكن موجودة أصلاً بالعراق .

بذلك .. وثق عيزرا فى أهمية دوره لخدمة مصالح إسرائيل فى العراق ، فطور كثيرًا من مهامه التجسسية لتشمل جمع التقارير الاقتصادية المهمة التى يحصل عليها من عمله فى وزارة التجارة .

أيضًا نجح فى تنمية علاقاته ببعض المسئولين . وطلب الإذن بتجنيد ما يراه منهم فلم يأذنوا له . وبقدر ذهول مرءوسيه فى الموساد لمهارته فى البث اللاسلكى .. أذهلهم أكثر تغلغله داخل فئات المجتمع وإرسال تقارير غاية فى الأهمية عن الاقتصاد والزراعة .. وأصبحت المعلومات التى يبثها إلى تل أبيب تقيم فى الفئة (أ) التى تستحق عن جدارة مكافآت مالية ضخمة أتخمت بها جيوبه وبدلت نظام حياته وإنفاقه .

أشفق عيزرا على حال روان التى انزوت بين همومها بسبب حنينها إلى طفل . فعرض عليها من باب « التسرية » مشاركته .. أيضًا .. طمعًا فى المزيد من أموال الموساد . وكان المطلوب منها أن تبدى بشاشة لموظف بوزارة الخارجية صادقة أخيرًا .

بدت المهمة صعبة فى البداية ، فهى لم تعرف بعد حدود تلك البشاشة ، إذ ترك لها تقدير الموقف بنفسها .. وهذا يعد إذنًا لها بأن تمشى فى الطريق إلى نهايته ..

وطنى أكثر من اللازم

حاولت روان ببساطة الأنثى المثيرة التى تعد أمرًا .. وبسهولة شديدة أوقعت الموظف المسيحى فى حبائلها .. فأوهمته بأنها تحبه ، وبأنها أصبحت لا تفكر بالهرب إلى إسرائيل من أجل أن تظل إلى جانبه .

انزعج « كامل » عند سماع اسم « إسرائيل » ولكى تذهب عقله وتشل تفكيره ، أسلمت له نفسها فانزلق بين أحضانها يحسو الخمر نشوانًا .. لا ينفك يطلب المزيد والمزيد . وهل امرأة صغيرة رائعة مثلها يشبع منها رجل .. ؟ أو يفيق من سكره .. ؟

ففى غيبة الإدراك أعلنها كامل صريحة بأنه معها فى أى مكان .. ولو فى إسرائيل . ولما تأكدت من إتمام سيطرتها عليه .. طلبت منه الثمن .. ثمن دخولهما إسرائيل .. فتدفقت الوثائق والتقارير من أرشيف الوزارة السرى . وكلما سلمها عشرات الوثائق الخطيرة ادعت بسخرية تفاهتها .

ومرت بهما الأيام وقل حديثها عن الحب والهرب .. إذ شغل الحديث عن مغامراته لجلب الوثائق كل المساحة بينهما .

لقد أدرك كامل بأنه وقع لأذنيه في بئر الخيانة .. فانغمس غصبًا عنه لا يستطيع التراجع .. أو الخلاص .

واستلذت روان اللعبة .. والمغامرة ، والقتل بسلاح أنوثتها ، إنها لعبة مثيرة ترضى غرورها .. وتبعدها عن التفكير في الإنجاب . فانساقت في الطريق وقد استهواها العمل واستغرقها .

أما عيزرا فلم يضيع وقتًا طويلاً في الثناء على شريكته الجديدة . إذ كلفها باصطياد ملازم أول بمطار بغداد مغرور ببزته الرسمية وبالسيارة الحكومية التي تذهب به وتجيئه كل يوم .

ولأنه يسكن بالمنزل المواجه .. كان الأمر هينًا جدًا . عندما أشهرت روان أسلحتها الأنوثية الفتاكة في وجهه ، فاستسلم .. وتقرب إلى عيزرا الذى هيأ له المناخ الصحى للسقوط .. فسقط الشاب الصغير بلا تفكير .. وتدفقت من خلاله المعلومات الأكثر سرية عن المطار ، وطائرات الشحن المحملة بالمعدات العسكرية ؛ التي تفرغها بداخل حظائر خاصة تخضع لإجراءات أمنية صعبة ، وكذا، وأعداد الخبراء السوفييت والتشيك الذين يتوافدون ويغادرون . والرحلات السرية لطائرة الرئاسة .

معلومات أشد سخونة كان يبثها عيزرا فتثير شهية الإسرائيليين .. وتدهشهم جرأة عميلهم الذى امتلك قلبًا من فولاذ .. لا يقهره خوف .. أو يرتجف رعبًا إذا ما قرأ بالصحف العراقية عن سقوط جواسيس للموساد أو إعدامهم .

كانت التحذيرات تجيئه آمرة إياه بألا يقرأ تلك الأخبار « الكاذبة » التي يروجها العراقيون . لكنه لم يكن يأبه لتلك المخاوف ، بل كان يقرأ ليستفيد من الأخطاء التي أدت لسقوط الجواسيس ، فيتجنبها ؛ وتتضاعف بذلك خبراته .. وثروته .. بفضل حسه الأمنى .. وبالمعلومات الثمينة التي يتحصل عليها بفضل جسد زوجته . خاصة وقد أخبرهم بأمر انضمامها إلى العمل .. وقدراتها الفائقة على السيطرة وتجنيد عملاء جدد . فكان ردهم بأنهم يقدرون ذلك .. وأن روان قد تم منحها هي الأخرى رتبة ملازم أول في جيش الدفاع الإسرائيلي .. تقديرًا لتعاونها المشرف .. !!

ولأسباب أمنية بحتة .. اشترى عيزرا منزلاً جديدًا من طابق واحد فـي حي الكاظمية .. كان بالمنزل حديقة خلفية ذات أشجار كثيفة .. وباب يؤدى إلى منطقة مهجورة مليئة بالأحراش . وبواسطة تلسكوب مكبر كان « يمسح » المنطقة المحيطة المؤدية إلى منزله قبل خروجه .. أو قبل زيارة عميل مهم .

هذا المنزل تحول إلى غرفة عمليات خطيرة .. وتتم فيه عملية السيطرة على من يراد تجنيدهم .

وخلال ثلاث سنوات من انخراط روان فى الجاسوسية ، استطاعت وحدها تجنيد ثلاثة عشر موظفًا عاما فى مواقع مهمة . أربعة منهم ضباط برتب مختلفة فـ الجيش العراقى .. وضابط بأمن المطار .. وستة آخرين يشغلون مناصب إدارية بالوزارات المختلفة . جميعهم سقطوا فى قبضة روان بفضل لغة الجسد والإثارة . وتدفقت بواسطتهم أسرار العراق أولاً بأول إلى إسرائيل .

وحدث أن نصبت روان شباكها حول طبيب بالجيش يحمل رتبة نقيب .. وكانت خطة استدراجه بواسطة أحد العملاء لتوقيع الكشف على زوجها . إذ تهيأت الحية الرقطاء وبدت كأن الفتنة كلها حلت بذاك الجسد .. فطابت ثمارها شوقًا لقاطفها .

ولما جاء الطبيب الأعزب تسمر مكانه .. وبدا كطفل جائع تتلوى أعضاؤه وترتجف .. فثوبها العريان لم يخف من مفاتنها أكثر مما كشف . وجسدها الأملود كان ينادى : أيها الجائع المبهوت .. هيا .. تذوق اللذاذات براكين من الفوران .. قناطير من النعيم السرمدى ، والقطف .

وكمثل سابقيه .. فقد الطبيب مقاومته وغرق فيها عشقًا وذوبانًا .. وشوقًا إلى الذروة .. فلم تكن تمنحه إلا بمقدار .. حتى تجيء اللحظة التى يفقد فيها العقل تمامًا ، فتبدأ معه المبادلة .. فكل شيء له مقابل .. وثمن .

ولما جاءت لحظة المكاشفة .. والسقوط .. لم يصدق النقيب الطبيب حسين على عبد الله أنه بين أحضان جاسوسة محترفة ، فى وكر للجواسيس . فانتفض بين أحضانها وقد غاصت نشوته وقام فزعًا يرتدى ملابسه ويتوعدها بمصير مظلم .

هددته بتسجيلاته الجنسية معها فرد عليها بأنه رجل ولا عار عليه فهي تؤكد رجولته . هددته ثانية بما تفوه به في السياسة والعسكرية وأن مستقبله بيدها . فبصق علها قائلاً إنهم سيكافئوه بالترقية لأنه سلمهم جاسوسة إسرائيلية . وهجم عليها محاولاً تكبيلها واقتيادها للسلطات ، لكنه فوجئ بعيزرا أمامه يشهر مسدسه .

أحس بخطئه الكبير كرجل عسكري ، فقد كان يجب عليه مسايرتها حتى يخرج من بيت الأفاعي . لكنه « كان يعتقد » أنهما بمفردهما .

لم يترك له عيزرا فرصة للتعامل معه . بل انطلقت الرصاصات إلى رأسه ، وتناثرت شظايا عظام جمجمته على جدران الغرفة .

صرخت روان في هلع .. وكتمت صراخها عندما بحلق فيها غاضبًا .. بعينين ترسلان نظرات كاللهيب ، وتكورت ترتجف في أنين خافت ..

أخذ عيزرا يسبها لأنها عجزت عن السيطرة عليه كسابقيه .. وتسرعت كثيرًا في مكاشفته ثقة في جمالها .

وبخوف يشع رعبًا دافعت عن نفسها ، مؤكدة له بأنها طوعته جديًا لكنه « وطني مخلص أكثر من اللازم » وظلا طوال الليل يحفران قبره في الحديقة الخلفية .. ثم أهالا التراب فوق الجثة .. وانكمشت روان يفتك بها الهلع .. فهي تنام بين أحضان قاتل .. وعلى بعدة خطوة من فراشها .. يرقد قتيل .

الطيار القتيل

.. حلت الكآبة بالحية تفتت عقلها .. لكن الثعبان السام لم يكن ليستسلم .. فالمجد ينتظره في إسرائيل .. وهو الآن يصنع تاريخه ..

ومضى الجاسوس الداهية في طريقه قدمًا تحفه الثقة ويملؤه الغرور . تسع سنوات كان لا يكل ولا يخاف .. وأعوانه منتشرون في كل مؤسسات العراق الحيوية .. يمدونه بما يذهل الإسرائيليين من معلومات عن أحشاء العراق ، وشرايين الحياة المختلفة به .

وفى رسالة التكليف التى تلقاها بواسطة الراديو .. كان الأمر مختلفًا عليه . فقد كان المطلوب تجنيد طيار عسكرى عراقى – وبأى ثمن – يقبل الفرار بطائرته الحربية ميج ٢١ إلى إسرائيل .

بدأ عيزرا رحلة البحث عن طيار خائن .. ومن خلال الخونة العسكريين أعضاء شبكته ، تعرف عيزرا – بشكل يبدو عفويًا – بالنقيب طيار شاكر محمود يوسف[1] . المولود فى « محلة حسن جديد باشا » عام ١٩٣٦ ، وسبق له أن التحق بدورات تدريبية فى موسكو ولندن لزيادة كفاءته كطيار للميج ٢١ القتالية الاعتراضية التى ترعب إسرائيل .

التقى به عيزرا وزوجته فى إحدى الحفلات .. وحاولت روان بأسلحتها الأنثوية الطاغية أن تلفت انتباهه لكنه تجاهلها .. فاغتاظت وتملكها الضيق وشكت فى كونها أنثى لا ترد . حتى إذا ما استجمعت نفسها بعدها بأيام ، أعلنت عيزرا بقرار اعتزالها مهمة اصطياد عراقيين جدد .

لكنه فاجأها ذات مساء حينما جاء وبرفقته شاكر . وأسر لها بأن الطيار الشاب تجاهلها فى الحفل لوجود زوجته معه . وأن « الوسيط » استدرج شاكر ورأى منه الرغبة فى التعرف إليها .. فتظاهر بمصاحبته وبدأت الاتصالات بينهما .

وما كادت روان تسترجع من جديد ثقتها فى جاذبيتها وسحرها .. وتوشك أن تسيطر على أعصاب الطيار الولهان ، حتى سافر فجأة إلى أمريكا للحصول على دورة فى « قيادة التشكيل » فى تكساس .

هناك تولت المخابرات المركزية أمره .. فدفعت بجية أخرى فى طريقه .. جئ بها خصيصًا على وجه السرعة من النمسا حيث تعمل كممرضة بالمستشفى الأمريكى بفيينا .

إنها « كروثر هلكر » .. فاتنة الحسن طاغية الجمال .. التى عملت كمشرفة فى نادى الطيارين الشرقيين فى قاعدة التدريب الجوية بتكساس .. ونصبت شباكها حول شاكر يوسف لوقع فى حبائلها لا حول له ولا قوة . فقد كان يريدها عشيقة مؤقتة بأمريكا ، بينما كانت

(١) تفاصيل الحرب السرية الشرسة لاختطاف الميج ٢١ السوفييتية الجبارة ، جاءت بكتابنا : «العملية 007» وهروب أول طائرة حربية عربية لإسرائيل . وجاء بالكتاب أيضًا سرد تفصيلى لعملية اغتيال الطيارين العراقيين الثلاثة ، شاكر يوسف ، وحامد ضاحى ، ومحمد رغلوب ، بعد فشل عملية تجنيدهم للهرب بالطائرة إلى إسرائيل .

تريده زوجًا لتكتمل الخطة .. رفض رغبتها بالطبع لأنه متزوج ويحب زوجته .. لكنها لم تيأس .. وظلت تحاول .. مرات ومرات إلى أن فشلت .. ووضح جيدًا جهل الموساد و الـ C.I.A فالعسكريون العرب محظور عليهم الزواج بأجنبيات .

لكن تملكت الإسرائيليين والأمريكان رغبة عارمة فى السيطرة عليه وتجنيده .. ليهديهم سر أسرار الطائرة السوفييتية اللغز .. ولما عاد إلى بغداد دون أن يحقق حلمهم .. طارت كروثر خلفه ونزلت بفندق بغداد الدولى واتصلت به .

ولأنها حضرت لأجله – تحرج كشرقى – واستأجر لها شقة مفروشة بمنطقة الكرادة الشرقية تطل على نهر دجلة . وأخذ يتردد عليها خفية ، محاولاً إقناعها بالعودة لأنه متزوج ويعول طفلاً فلم تنصت إليه .

وعندما حدثته عن « منظمة السلام العالمى » المهتمة بنشر السلام حول العالم ، صرخ فيها وهددها بأن تسافر فورًا خارج العراق ، وإلا فهو مضطر لإبلاغ السلطات بسعيها لتجنيده لصالح جهات أجنبية .

عند ذلك .. ولأنها تحمل تصريحًا بالقتل ، رأت أنه لابد من تصفيته فى أسرع وقت خشية افتضاح الأمر . وتنكشف بذلك نوايا الأمريكيين والإسرائيليين . فيمنع الطيارون الذين أوفدوا فى بعثات للخارج من قيادة الميج ٢١ . وصدرت الأوامر لعيزرا ناجى زلخا بالتخلص من النقيب طيار شاكر يوسف .

وهنا قد يتساؤل البعض :

– ما علاقة عيزرا جاسوس الموساد بكروثر هلكر جاسوسة الـ C.I.A ؟

الإجابة بسيطة جدًا .. فالموساد والـ C.I.A ترتبطان معًا بعلاقات وثيقة ترسمها المصالح والنوايا المشتركة . وسواء جند طيار عربى بواسطة الموساد أو بواسطة الـ C.I.A . فسوف يهرب بطائرته إلى إسرائيل . ليفحصها الأمريكان .

من هنا .. لجأت الـ C.I.A لمعاونة الموساد فى تصفية شاكر بواسطة عملائها ببغداد . وبثت الموساد أمرًا عاجلاً لعيزرا بالاتصال بكروثر التى تجيد العربية . وتم الاتفاق بينهما على الخطة ..

وأثناء زيارة النقيب شاكر الأخيرة لهلكر بالشقة المفروشة ، عمد كما فى المرات السابقة إلى ترك سيارته على بعد شارعين تحسبًا لأى طارئ . واحتدم النقاش بينهما فهددته بأفلام وصور جنسية أخذت لهما فى أمريكا فلم يهتم .

وفى آخر محاولة لإبقائه حيًا ، عرضت عليه مليون دولار ثمنًا لطائرة ميج ٢١ يفر بها لإسرائيل .. فلطمها على وجهها لطمة قوية انبثق لها الدم من فمها . وقبل أن يخرج من الحجرة ثائرًا لإبلاغ السلطات ، فاجأه عيزرا بطلقات مسدسه الكاتم للصوت ، وسقط شاكر فى الحال قبلما يتمكن من استعمال مسدسه .

وبينما هلكر تعد حقيبتها للحاق بالطائرة المتجهة إلى لندن ، انشغل عيزرا بإزالة الآثار والبصمات . وجر جثة الطيار لأسفل السرير ملفوفة ببطانية . ثم فتح أجهزة التكييف(١) .. وغادر الشقة .

اكتشفت الجثة فى ٦ يوليو ١٩٦٥ بعد وقوع الجريمة بأسبوع . كان عيزرا فى ذلك الوقت يمضى أسوأ أيام حياته على الإطلاق . إذ نشرت الصحف العراقية نبأ مقتل كروثر هلكر بأحد فنادق لندن فى ظروف غامضة ، بعد يومين من مغادرتها لبغداد . وصرح مسئول أمنى أن الجثة وجدت ممزقة ، وبها ثلاثون طعنة بعدد سنين عمرها . هكذا تخلصت الـ C.I.A من كروثر لإخفاء معالم الجريمة إلى الأبد . فماذا عنه هو ؟ .

دارت الدنيا بعيزرا وضاقت به على وسعها . وصور له خياله أن الموساد سوف تقتله أيضًا لأنه سترًا للجريمة .. وما كان يعلم أن أسلوب قتل العملاء بعد انتهاء مهامهم تستخدمه الـ C.I.A فقط . أما الموساد فالجواسيس لديها بمثابة أبطال عظماء تفخر بهم وتخلدهم . لم يكن يعلم ذلك عندما عطّل جهاز اللاسلكى . واختبأ بإحدى الشقق لا يخرج هو أو روان إلا للضرورة .

وبعد احتفالات رأس السنة .. وما إن هلت أيام يناير ١٩٦٦ الأولى ، حتى انكشف أمر شبكته ضمن الشبكات التسع .. وجرى البحث عنه وتعقب آثاره فى كل العراق .

كان يجهل أمر البحث عنه من قبل جهاز المخابرات – المكتب الثانى – فعلاقته بأعوانه كانت منقطعة طوال تلك الشهور الخمسة .

---

(١) فتح أجهزة التكييف القصد منه سحب رائحة جثة الطيار القتيل أولاً بأول ، فتطول بذلك مدة اختفائه ، مما يعطى الفرصة الكافية لهروب القتلة قبل اكتشاف الجريمة .

ولأن المجرم دائمًا يحوم حول مسرح جريمته ، تصادف أن توجه وروان لمنزل الكاظمية حيث يخبىء أجهزة التجسس . فاطمأن على وجودها ، وفي المساء قاد سيارته وحده إلى منزل بوشا القديم . فنام مرهقًا حتى الفجر . وأسرع بالعودة إلى روان مرة أخرى وما كان يدرى بما ينتظره .

ففي غبش الفجر اقتحمت المنزل قوات الأمن ، وكانت روان بمفردها كالشبح .. متكورة كجنين ببطن أمه .. فلم تبد أية دهشة أو تصعق للمفاجأة .

سألوها عن عيزرا قالت بهدوء : « لن يتأخر » ..

واعترفت من تلقاء نفسها بأنها جاسوسة إسرائيلية ، استطاعت أن تجند جيشٍ من اليهود العراقيين وسائر الملل بالغواية والجنس . وأرشدت عن مقبرة الضابط الطبيب بالحديقة الخلفية . وقادتهم إلى مخبأ سرى بداخله جهاز اللاسلكى المعطل وكتاب الشفرة وعدة كاميرات سرية ، وأفلام ووثائق لم تبعث بعد للموساد .

كانت سيارات الأمن قد اختفت من المكان الذى بدا طبيعيًا . واختبأ عدة ضباط بداخل المنزل ينتظرون الثعبان الكبير . وما أن جاء وخطا خطوات قليلة إلى الداخل حتى هوجم وكبل في الحال .. واقتيد إلى مكان سرى للاستجواب . فاعترف اعترافات تفصيلية بنشاطه لمدة عشر سنوات لصالح الموساد . وسدت اعترافاته ثغرات عديدة كانت تحول دون الوصول لبقية الشبكات .

وبينما هو بالقفص ، بانتظار سماع الحكم بإعدامه وروان شنقًا مع تسعة آخرين ، وبالرصاص لخمسة عسكريين ، نظرت إليه روان وقد أكلها الهزال وبرزت عظام وجهها ، وقالت له إنها تشعر بالأسف على كل شيء .. لكنها سعيدة جدًا لعدم إنجابهما أطفال يتعذبون من بعدهما طوال حياتهم .. حيث سيصيح الناس في كل شوارع بغداد : هؤلاء أبناء الثعبان والحية .. !!

يعقوب جاسم .. عاشق فروزندة ..!!



كان يصطاف على شواطئ بحر قزوين فى إيران ، فاصطادته الموساد وأغرقته عاهراتها فى بحور الجنس والمتعة ، ورجع إلى العراق جاسوسًا خائنًا ، برفقته زوجة إيرانية مدربة ، اتبعت حيلاً عجيبة للإيقاع بالضباط العراقيين ، لكشف أسرار المخزن رقم (٣) فى بغداد ، وأسرار الغواصات السوفييتية فى منطقة أم قصر .

إنها أجرأ عميلة استخدمت سم السيانيد لقتل ضحاياها ..!!

حصر كل يعقوب

في يناير ١٩٦٦ وفي إحدى نقاط العبور على الحدود العراقية الإيرانية ، لاحظ ضابط عراقي بعيني خبير مدقق ، أن حالة من الارتباك تعترى أحد العابرين ، فتقدم منه وسأله عن وثيقة سفره ، فازداد ارتباكه ، مما شجع الضابط على ضرورة تفتيشه مرة ثانية بدقة . وكانت المفاجأة التي لم تخطر بباله أبدًا ، إذ اكتشف جيوبًا سحرية في قاع حقيبته ، مليئة بخرائط لمواقع عسكرية عراقية ، وتقارير سرية هامة تمس الجيش والاقتصاد .

انهار الجاسوس في الحال ، وأخذ يصيح بالفارسية بما معناه أنه مجرد « ناقل » للحقيبة ولا يدرى بما بها .

وفي مكتب المخابرات العراقية في بغداد ، أنكر معرفته بالشخص الذى سلمه الحقيبة ، وقال إنه اعتاد مقابلته بمقهى بشارع هارون الرشيد فيتسلم الحقيبة منه وينصرف كل إلى حاله، دون أن يعرف من هو ، أو ماذا بالحقيبة ؟! .

لم يصدقه ضباط المخابرات بالطبع في بادئ الأمر ، وأمام إصراره وتأكيده على أقواله ، أدخلوه غرفة خاصة في بدروم المبنى ، حيث جرى تعذيبه بقسوة ليعترف فأقر بأنه يعمل لصالح المخابرات الإسرائيلية ، وتنحصر وظيفته في الذهاب لمقابلة جواسيسها في العراق لاستلام الوثائق والعبور بها إلى إيران . وتكرر هذا الأمر في بغداد تسع مرات إلى أن قبض عليه .

وفي محاولة أخرى لانتزاع أية معلومات « من فجر عبد الله » ، حبس في زنزانة انفرادية لعدة أيام بلا طعام أو شراب ، وأوهموه بأن حكمًا قضائيًا سيصدر ضده خلال أيام ، وسيعدم لا محالة عملاً بقانون العقوبات العراقي ، الذى يعامله معاملة الجاسوس ، فاعترف فجر بأنه لا يعرف سوى الاسم الأول فقط للعميل الذى سلمه الحقيبة وهو « يعقوب » ، وتذكر اسمه لأنه بينما كانا معًا ذات مرة في مقهى بشارع هارون الرشيد ، أقبل أحد الأشخاص وصافحه مناديًا عليه باسمه « يعقوب » .

أخرج فجر من زنزانته الضيقة إلى أخرى انفرادية أكثر اتساعًا ، وعرضوا عليه أن يساعدهم فى التعرف على « يعقوب » هذا مقابل أن يصنفوه كشاهد فقط ، فوافق فجر على هذا العرض السخى .

ومنذ أن أدلى باسم يعقوب ، وكان هناك سباق محموم للتوصل إلى جاسوس إسرائيل عن طريق السجلات المدنية ، التى تم مسحها بالكامل فى كل العراق لحصر الاسم ، والحصول على صور لكل « يعقوب » عراقى لعرضها على العميل الإسرائيلى .

آلاف الصور عرضت عليه مرة واثنين ، على مدار عدة أيام ، عومل خلالها معاملة حسنة ، فاطعم أطايب الأطعمة وألذها ، ونام نومًا مريحًا على فراش وثير .

وفى اليوم السابع للبحث فى الصور ، تعرف فجر على صورة يعقوب يوسف جاسم – ٣٤ عامًا – الموظف بإحدى محطات الكهرباء ببغداد ، فعرضوا عليه الصورة مرة أخرى بعد خلطها بصور قريبة الشبه ، لكنه تعرف على الصورة نفسها ، وفى الحال قامت قوة من رجال المخابرات بمهاجمة منزله وتفتيشه ، فعثروا على وثيقة سفره التى تبين منها أنه سافر إلى إيران عشرات المرات .

وعندما أخبرهم بأنه متزوج من إيرانية ، لم يلتفتوا إليه ، بل استمروا فى التفتيش إلى أن ضبطوا عدة وثائق عسكرية سرية محشورة فى « رجل » السرير النحاس ، مربوطة بخيط رفيع يتدلى من أعلى « الرجل » الأسطوانية ، التى نسى أن يضع عليها غطاءها كالأرجل الثلاثة الأخرى ، فألقوا القبض عليه وعلى زوجته الإيرانية « فروزندة وثوقى » .

واستمرت عملية التفتيش بدقة متناهية ، بمعرفة خبراء المخابرات الفنيين ، الذين اكتشفوا مخبأ سريًا فى غلاف مجلد كبير عن الشاعر « معروف الرصافى » يحوى رسائل باللغة الفارسية، عبارة عن أوامر من ضابط الارتباط الإسرائيلى فى ميناء عبادن الإيرانى ، يطلب منه موافاته بتقارير وأخبار عن الأسلحة السوفييتية الجديدة التى تصل إلى العراق ، وكذلك عن الغواصات السوفييتية الكامنة فى قاع منطقة « أم قصر » المتاخمة لحدود الكويت ، وحظائر طائرات توبولوف – ٢٢ الحربية المهاجمة ، وعددها ، والمطارات الحربية المتواجدة بها ، ومعلومات تفصيلية عن الطائرة ميج ٢١ ومطاراتها وعدد طياريها ، والخبراء السوفييت فى العراق .

صراع السيطرة

وفى مبنى المكتب الثانى – المخابرات – أخضع يعقوب لاستجواب مطول ، فأنكر فى البداية اشتراك زوجته معه فى أعماله التجسسية التى اعترف بها وبعمالته للموساد ، إلا أن استجواب فروزندة على انفراد أسفر عن اعتراف صريح بدورها فى شبكة زوجها ، بل وأدلت بأسماء بعض أعضاء الشبكة من العراقيين قبلما يعترف بهم يعقوب .

وكان لسقوط شبكة يعقوب أثر بالغ على المخابرات الإسرائيلية ، إذ خسرت بسقوطها العديد من أمهر جواسيسها فى العراق .

كانت لطمة عنيفة للموساد التى لم تتصور أن بالعراق رجال مخابرات أكفاء ، لديهم المقدرة على مطاردة الخونة بمثل هذه البراعة ، وفضح ممارسات إسرائيل والتواطؤ الإيرانى معها من أجل زعزعة الأمن فى العراق ، بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا التواطؤ توجهه الولايات المتحدة الأمريكية وتباركه ، للحفاظ على مصالحها فى الخليج ، للحد من التغلغل السوفييتى فى المنطقة ، خاصة بعد زيارة شاه إيران لموسكو فى يوليو ١٩٦٥ ، التى أزعجت الإدارة الأمريكية وأربكتها .

لقد كان التوسع فى المؤسسة العسكرية فى المنطقة سببًا آخر ، يضاف إلى الخوف الأمريكى والإسرائيلى معًا ، فالتوسع فى المؤسسة العسكرية يعنى تحديث الجيوش ، إدارة ، وتسليحًا ، وتدريبًا ، يترتب عليه توسع فى الطبقة العسكرية ، نظرًا لغياب المؤسسات السياسية المدنية ، فحتمًا ستتحول الطبقة العسكرية إلى فئة ضاغطة سياسيًا ، وذات ثقل فى اتخاذ القرارات .

هكذا كانت النوايا الأمريكية تتجه بزاوية حادة لإجهاض النمو العسكرى فى المنطقة لعدم التداخل مع مصالحها ، والعمل على تأسيس مؤسسات نيابية ، وحكم مدنى نزيه ، يفتح الباب على مصراعيه كى تجد الكفايات المدنية مكانها فى السلطة ، وفى جهاز القرارات العليا، وإلا فستلقى المنطقة – مع هذا النمو العسكرى الحديث – سلسلة من المغامرات والاختبارات المرة ، خاصة إذا لم تكن هناك وقاية من عمليات التلقيح السياسى ، وزرع روح الاحتراف العسكرى وشرفية المهمة العسكرية .

ومنذ الانقلاب العسكرى الذى أطاح بالملكية فى العراق فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ ، والعسكريون يعتلون مقعد الرئاسة ، حيث توالت الانقلابات العسكرية ، وظهرت على الساحة وجوه عسكرية لم تلتزم بخط سياسى عام ، أو استراتيجية مفهومة ، مما أقلق الولايات المتحدة الأمريكية التى تحتفظ بوجود عسكرى فى الخليج العربى منذ عام ١٩٤٩ ، حماية لمصالحها في البحرين والكويت والسعودية ، واعتبار الخليج العربى قاعدة شمالية لأسطولها فى المحيط الهندى .

وواكب تضاؤل حجم الوجود العسكرى البريطانى فى المنطقة ، تزايد عسكرى بحرى سوفييتى فى المحيط الهندى ، مما يستلزم على الولايات المتحدة أن تحافظ على الوجود العسكرى الغربى فى المنطقة ، ذلك أن نصف النفط المستهلك فى غرب أوروبا مصدره الخليج العربى . وتعتمد القوات الأمريكية فى جنوب شرق آسيا ، وقوات حلف الأطلسى على بترول الخليج .

من هنا ، فالسيطرة الأمريكية على الخليج العربى أمر حتمى لتنامى مصالحها به ، خوفًا من وقوعه تحت سيطرة قوى أخرى مناوئة للغرب ، قد تهز ميزان المدفوعات الأوروبى الغربى هزة كبيرة .

ومن جهة أخرى ، يسعى الاتحاد السوفييتى إلى السيطرة على منابع الطاقة ، ومنتجاتها الرئيسية بالنسبة لأوربا الشرقية خشية استقلالها اقتصاديًا عن الكرملين ، وكانت الإمدادات البترولية هى البعد الرئيسى من أبعاد الهيمنة السوفييتية على دول « الكوميكون » أى السوق الاقتصادية لأوربا الشيوعية .. فحصول السوفييت إذن على دور مؤثر فى منطقة الخليج العربى ، يعنى سيطرتهم على أسواق البترول فى أوربا الشرقية ، وبالتالى ضمان ولاء هذه الدول لها .

أدى الصراع بين الدولتين العملاقتين فى المنطقة ، إلى التنافس الشديد فى التواجد الفعلى على أرض الواقع ، عسكريًا أو سياسيًا ، فأغرق السوفييت العراق بالسلاح المتقدم ، وملأ الخبراء الروس مدن العراق وشوارعها فى تظاهرة شبه استعراضية ، بل وتواجدت الغواصات السوفيتية بشكل دائم فى المنطقة ، وأصبحت إحدى معالم ميناء أم قصر العراقى الملاصق للكويت ، حيث نالت البحرية السوفيتية حقوق استخدام التسهيلات المتوافرة هناك .

هذا الصراع المحموم على المصالح ، تسبب فى جعل منطقة الخليج كقنبلة موقوتة ، تهدد بالانفجار ، نظرًا لوجود نزاع بين إيران والعراق على ترسيم الحدود بينهما فى شط العرب ، مما دفع إيران إلى تأليب الأكراد على بغداد ، فلجأ حكام العراق إلى التقارب مع الأحزاب المعارضة فى إيران ، ومع الدول العربية المطلة على الخليج ، وتشكيل لوبى عربى ضد إيران .

هناك أيضًا نزاع حول تسمية الخليج ، فإيران تسميه « الخليج الفارسى » والعرب تطلق عليه « الخليج العربى » .

لذلك .. نجد أن إسرائيل منذ زرعت فى المنطقة العربية ، سعت لمراقبة النمو المضطرد للجيش العراقى ، الذى يسلحه السوفييت بأحدث ما فى ترساناتهم العسكرية ، وفتحت إيران أبوابها على مصراعيها لضباط الموساد ، بل وسمحت لهم بالعمل بحرية ضد العراق انطلاقًا من أراضيها .

لقد كانت أيضًا ، كإسرائيل ، تخشى من التسليح العراقى ، وحكم بغداد العسكرى الذى قد يتعملق ويفرد ذراعيه باتجاه البلدين « إيران وإسرائيل » . لذلك فقد كانت العمليات الجاسوسية الإسرائيلية فى العراق ، خير دليل على مدى الخوف من تنامى القوة ، ويقظة روح الجهاد لدى جيش العراق وحكامه .

رحلة إلى كوكب آخر

فمنذ ترعرع يعقوب يوسف جاسم ، تراوده أحلام العظمة ، وهو يعد أقرانه دائمًا بأنه سيصبح ذا شأن عظيم فى يوم من الأيام .

لكنه تعثر فى الدراسة وحصل على الشهادة الإعدادية بشق الأنفس ، وبرغم ذلك لم تفارقه أحلامه وهواجسه التى سيطرت على حيز كبير من عقله ومسامراته .

وبعد ما استقر به المقام فى عمله بمحطة كهرباء بغداد ، استشعر تفاهته ، وغامت حوله الرؤى ، فالواقع الذى يعيشه لا ينبىء أبدًا بضربة حظ قد تقتلع عذاباته ، أو تصعد به إلى سفوح الوجاهة والعظمة .

لذلك استكان يائسًا مستسلمًا ، نافرًا من واقعه ومن أحلامه ، مودعًا وإلى الأبد مجدًا بناه في الخيال .

وذات يوم من أيام سبتمبر ١٩٦٣ ، حزم حقيبته وعبر الحدود إلى إيران لقضاء أسبوعين على شواطئ بحر قزوين . فهي منطقة تتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة ، التي تمتد من جبال « البورز » إلى البحر ، وتسقط أمطارها صيفًا لتجعل الطقس نديًا رائعًا ، حيث شواطئ « أستارا » و « رامر » وموانئ « بندر بهلوي » و « بابلر » و « نوشهر » ، فتبدو الأجازة بهذه المنطقة كأنها رحلة إلى كوكب آخر ، يتسق فيه لون الماء وخضرة الزروع على درجاتها ، فتشكل قطعة فسيفساء جمعت أبهى مظاهر الجمال والرونق .

وحينما وصل يعقوب إلى شاطئ رامر ، أذهله جمال الفاتنات يرتدين البكيني ، ويمرحن على الشاطئ في دلال .. فقبع صامتًا يتأمل ويغرز سهام رغباته في أجسادهن ، فتعتريه نوبات من أحلامه السابقة ، لكنه سرعان ما يطردها شر طردة .

تحت إحدى المظلات استغرقه تفكير عميق ، نأى به عن بانوراما الحسن التي أمامه ، حتى أفاق على من يقول له :

– « درود برشما ، آيا شما إيراني هستيد » – « السلام عليكم ، هل أنت إيراني ؟ » .

ارتبك يعقوب أكثر عندما بادره الرجل ثانية :

– « أياشما زبان فارسي ميدانيد ؟ » – « هل تعرف اللغة الفارسية ؟ » .

أجاب يعقوب مرتبكًا :

– نه .. من عراقي هستم « لا .. أنا عراقي . أجهل الفارسية » .

انفرجت أسارير الرجل في دهشة وأردف

– « هلا بك في إيران » .

كانت لهجته الشامية بشوشة مرحة ، وعرفه بنفسه قائلاً إنه لبناني واسمه « مازن » يقيم في طهران ويعمل بالاستيراد والتصدير ، وبعد برهة أقبلت سكرتيرته الإيرانية «زالة»[1] ترتدي المايوه الأورانج ، فغاص يعقوب في ارتباكه وهي تصافحه مرحبة ، ودعاه مازن إلى

(١) زالة : باللغة الفارسية يعني الندى ، الطل .

العشاء معه بفيلته المطلة على الشاطىء من عل ، تحاصرها لوحة فنية من الزهور والأشجار ، وتنام رقيقة فى حضن الجبل ، الذى يبدو فى الليل كشلال متدفق من الأضواء الملونة .

كانت الأمور تسير فى يسر حيث استقبله مازن بشوش الوجه ومعه آخر يدعى «رماء»، وأقبلت زالة كعروس من السماء ، بصحبتها إيرانية أخرى تدعى « كوكوش » والاثنتان تتحدثان العربية بطلاقة .

وبعد العشاء دارت الكئوس وثقلت الرءوس ، وألمح إليه مازن أن كوكوش وقعت فى هواه ، وبدا هذا واضحًا من نظراتها واهتمامها الزائد به ، وحينما هم يعقوب بالانصراف إلى الفندق ، أصر مازن على أن يبيت معه ، وكانت نظرات كوكوش المثيرة ترجوه أن يبقى ، وجلست إلى جواره تلاطفه فأذهبت بقية ما لديه من وعىٍ ، ثم صحبته إلى حجرة علوية ، وأغلقت بابها من الداخل ، وشرعت فى خلع ملابسها قطعة قطعة .

أسقط فى يد الأعزب الحالم الثمل ، وبينما كان ينزف رجولته ، كانت هناك كاميرات تصور وأجهزة تسجل الأحاديث السياسية ، وتنقل كل شىء إلى حجرة مازن ورماء ضابطى الموساد .

تكررت السهرات وحفلات الجنس فأيقظت هواجس يعقوب من جديد ، عندما عرضت عليه عميلة الموساد الانضام إلى أسرة العاملين بشركة مازن ، سألها كيف ؟ أجابته بأن الشركة تبحث إقامة فرع آخر ببغداد ، ولكى يتحقق ذلك ، لابد من معلومات وافية عن الاقتصاد العراقى وحركة التجارة . وبيده كتب عدة صفحات تتضمن معلومات كثيرة تشمل نواحى اقتصادية تافهة من خلال قراءاته فى الصحف ، وفوجىء بقبوله للعمل كمدير لفرع بغداد .

لم يصدق يعقوب نفسه ، فها هى أحلامه تتحقق أخيرًا ، وتضحك له الدنيا من جديد ، وبدلاً من الجلوس على الشاطىء للاستجمام ، جلس كتلميذ مؤدب أمام معلمه مازن يشرب فنون الجاسوسية ودروسها الأولى . واستفسر يعقوب باندهاش عن علاقة الجيش والعسكرية ، بشركة تعمل فى مجال الاستيراد والتصدير ، فأجابه مازن بأن الأسرار العسكرية فى العراق مهمة جدًا له . فهو لن يجازف بإقامة فرع ببغداد طالما كانت هناك « نوايا » معينة لدى حكام العراق .

لم يقتنع يعقوب بالطبع ، لكنه اضطر إلى الإذعان أملاً فى رفع شأنه كما كان يحلم منذ صغره .

المخزن رقم (٢)

انتهت مهمة كوكوش عند هذا الحد ، ورحلت إلى طهران بعد انقضاء المرحلة الأساسية. أما يعقوب ، فقد عاد إلى بغداد كشخص جديد ، متقمصًا دوره كرجل أعمال مهم ، بجيبه ١٢٠٠ دينار عراقى مرتب ثلاثة أشهر مقدمًا ، وكان وفيًا جدًا لأستاذه ورئيسه مازن . إذ لم يفصح لمخلوق عن مهمته ، أو عما حدث له على شواطئ بحر قزوين . وانخرط فى جمع المعلومات عن أحوال السوق العراقية ، واتجاهات النمو الاقتصادى فى شتى المجالات .

وبعد خمسة أشهر سافر ثانية إلى طهران ، يحمل هذه المرة تقارير اقتصادية متنوعة ، ويحدوه الأمل فى أن يصبح ذات يوم من أشهر رجال التجارة ببغداد حتى إذا ما قابله مازن ، عرفه بإيرانى اسمه « عبد نابلون » ، اصطحبه إلى فندق كبير بشارع « ...رزش » شمالى « بارك شهر » فى طهران . وشرع فى استجلاء ما لديه من أخبار وتقارير .

كان يعقوب يفيض حماسًا وهو يشرح لنابلون تفصيليًا عن العراق وانفتاحاته التجارية ، مستمدًا معظم تقاريره من أبحاث هامة نشرتها الصحف لكبار العقول الاقتصادية وخبراء التجارة .

لكن عندما عرج نابلون إلى الحديث فى السياسة والشئون العسكرية والتسليح ، أظهر يعقوب جهله وعدم اهتمامه ، حتى إذا ما أحس نابلون بأن الوقت مناسبًا تمامًا لمهمته ، فاجأ يعقوب بالحقيقة . حقيقة أنه يعمل لصالح الموساد ، ولابد له من استثمار كل معلومة ولو كانت تافهة ، ما دام سيحصل على ثمنها .

صعق يعقوب وتلجم لسانه .. بل إنه عجز عن السيطرة على نفسه وقد اندفع بوله ساخنًا بين ساقيه . إذ استغل نابلون أسرع طرق السيطرة بواسطة الصدمة الفجائية . الصدمة التى تذهب بالعقل وبالشعور . ويصبح الإنسان لحظتئذ عاجزًا تمامًا عن التفكير .. أو النهوض .. أو المقاومة .

هكذا سقط يعقوب فى براثن الموساد لا حول له ولا قوة . حاول أن يفك قيود العنكبوت التى كبلته ، لكن نابلون كان واثقًا من نفسه .. ومن قدراته .. ومن مواهبه فى الإخضاع لدرجة الطاعة . فالصور العارية والتقارير التى كتبها بخط يده ، كفيلة بأن تسكت صدى الرفض عنده لأن الإعدام فى بغداد ينتظره إذا لم يذعن . ولم يكن أمام يعقوب

إلا الإذعان ، ضعفًا .. وخضوعًا .. وخوفًا . فلم يعد هناك أى مهرب .. أو سبيل للفكاك .. هكذا تصور .

وجاءت « فروزندة وثوقى » عاملة الفندق – لتقف فى طريق العراقى التائه .. المضلل . جمالها الرائع شغل عقله ، والتصاقها به أيام محنته قربها إليه . فقد كانت هى الملاذ الحنون الذى يحوى انفعالاته .. وشجونه ، ويمتص غضبة الخوف الجاثم فوق حياته .

لذلك .. تحدث معها طويلاً ، وصارحها برغبته الملحة فى الزواج منها ، وساعدته أموال الموساد على الارتباط بالفتاة التى دُسَّت عليه ، والعودة بها إلى العراق .

وبهذا الزواج فُتِحَتْ أمامه أبواب الدخول إلى إيران فى أى وقت ، وضمن الموساد بزواجهما تدفقًا كبيرًا فى حجم المعلومات التى سيحصل عليها ، فالعميلة الزوجة .. مدربة تدريبًا عاليًا على القيام بمهام تجسسية معقدة تعود بالنفع فى النهاية على إسرائيل .

وفى بغداد ، بدأ يعقوب يمارس مهمته فى استكشاف أسرار الأسلحة التى تزود بها العراق الأردن ، أنواعها وأعدادها ووسيلة نقلها إلى عمان ، وعجز الجاسوس فى بداية الأمر عن التوصل إلى أية معلومات ، حتى تقابل معْ العريف « نورى سوار » المجند بإحدى القواعد العسكرية ، فأغراه بالمال ، وبطرق مختلفة حصل منه على قوائم كاملة بالمعدات التى زودت بها الأردن .

وحينما لاحظت فروذندة أن زوجها دأب على اصطحاب نورى معه إلى المنزل ، بغية استنهار جمالها فى تليينه ، تعجبت من غبائه ، فهو لم يشك للحظة أنها عميلة للموساد ، وجاهزة للسيطرة على أى عقل يريد وتركته يلجأ إليها شيئًا فشيئًا لتعاونه فى مهمته ، حينئذ وجدها يعقوب الزوجة المطيعة .. التى توافقه رأيه وتشاركه عمله السرى .

بدأ الاثنان معًا فى البحث عمن يجيء بأسرار المخزن رقم «٣» فى بغداد ، فأمر هذا المخزن حير الموساد كثيرًا ، وفشل جواسيس كثيرون من قبل فى استجلاء سره ، وكانت خطة فروزندة تتلخص فى التعرف على أحد الضباط العسكريين بطريق الصدفة فى شوارع بغداد ، عندها .. تسأله عن مكان ما بلغة عربية ركيكة ، فيضطر الضابط إلى إرشادها ، ويحدث بينهما تعارف أثناء السير .

وخرجت فروزندة لتتصيد ضحيتها الأولى . وكان ضابطًا برتبة نقيب اسمه أحمد رافع ، ما إن استوقفته لتسأله عن أحد الشوارع ، حتى سارع بمرافقتها بأدب . وخلال الطريق حدث تعارف بينهما ، وعندما أوصلها إلى المكان المطلوب ، كان زوجها ينتظرها كما خططا لذلك ، فشكر الضابط الشاب لشهامته وأصر على أن يقبل دعوته للزيارة .

وبعد أيام طرق رافع الباب ليجد فروزندة وحدها ، و « ادعت » أن زوجها سافر إلى الموصل لعدة أيام . ولما هم بالانصراف ألحت عليه أن تقدم له واجب الضيافة . وبالفعل .. قدمت له جسدها ، فتذوق أشهى وجبة من النشوة ، غيبت عقله فأدمنها ، وكان سرعان ما يحن لوجبة ثانية ثم ثالثة ، هكذا أوقعت به في شباكها ، فسلمها ملفًا كبيرًا يحوى كل أسرار المخزن رقم «٣» .

كانت مكافأة يعقوب ألفين وخمسمائة دينار ، ومثلها لفروزندة . أما أحمد رافع .. فقد أصيب بحالة اكتئاب شديد بعدما أفاق إلى نفسه ، وأحس بالجرم الذى اقترفه ضد بلده ، وامتنع عن زيارة فروزندة ، فاستشعرت عميلة الموساد الخطر إذا ما تطورت حالته النفسية سوءًا ، وأقدم على الانتحار فى لحظة ضعف ، تاركًا رسالة تقودها إلى حبل المشنقة .

لذلك .. أرسل لها عبد نابلون بسم السيانيد الفتّاك ، حيث أخذه يعقوب وذهب لزيارة رافع الذي قابله بغضب ، فغافله الخائن ووضع له السيانيد فى العصير ، ولما ظهرت أعراض التسمم غادر يعقوب المنزل ، وفى اليوم التالى مشى فى جنازة ضحيته .

هكذا تفعل الموساد مع ضحاياها الذين يتراجعون فى التعامل معها ، فى لحظة صدق يشعرون فيها بوخز الضمير والندم ، ففى عالم الجاسوسية لا مشاعر أو عواطف ، فالجاسوسية لا تقوم على ضمير أو شرف ، ولا تملك قلبًا يعرف نبضة رحمة تحكمه خفقات الهوى . لكن .. فى تاريخ الجاسوسية العالمية ، هناك حالات نادرة جدًا ثاب فيها الجاسوس إلى رشده ، وأصغى لنداء الحب فلبى النداء . فالجاسوسية والحب .. موضوع شيق للبحث والكتابة

الأطراف المرتعشة

بمقتل النقيب رافع ، اطمأن يعقوب وزوجته ، وإن نضب معين المعلومات العسكرية لديهما . لذا فكرا في البحث عن ضابط آخر من « الكبار » يسهل إغواؤه .. وتنهمر الأسرار منه .

وبينما العقيد جاسر عبد الراضي جالس بسيارته العسكرية المعطلة ، في انتظار سائقه الذي يبحث عن سيارة أخرى تجرها ، اقتربت منه سيدة فائقة الجمال ، تنزلق من عينيها الدموع السخينة . وبلغة عربية ركيكة ، توسلت إليه السيدة أن يحميها من زوجها العراقي الذي لا يكف عن ضربها ، ولأنها إيرانية غريبة لا تعرف ماذا تفعل ، طلبت منه مساعدتها لتعود إلى إيران .

غادر الرجل سيارته مشفقًا عليها وقد أدهشه جمالها الأخاذ ، ووعدها بأن يصحبها لبيتها ليتحدث مع زوجها ، وما إن جاء السائق حتى طلب منه الضابط أن ينصرف بالسيارة ، وركب إحدى السيارات الأجرة مع المرأة الباكية .

انكمشت فروزندة بجوار الضابط الشهم وقد لفها الخوف ، تغزو جسدها نظراته العطشى المتأملة ، حتى إذا ما وصلا إلى المنزل ، قابله يعقوب باحترام شديد وقص عليه حكايات مغلوطة وليدة خطتهما ، فتعهد الضابط بحماية المرأة الأجنبية لما رأى خضوع يعقوب له ، وأقسم على أن يساعدها في العودة لأهلها إذا ما عاد لسيرته الأولى معها .

لقد اعتقد الضابط أنه سيطر على الموقف ، لكن دموع فروزندة كانت أسلاكًا من فولاذ ، كبلت عقله وسيطرت على إرادته ، فلم يقو على نسيانها .

عدة أيام وعاد لزيارتهما فاختفى يعقوب في مكان لا يراه جاسر ، وبدأت فروزندة خطوتها الثانية ، بأن أكدت له أن وجوده إلى جوارها خفف كثيرًا من سلوك زوجها المعوج معها ؛ وشكرته لشهامته في نعومة يلين لها الحديد .

وبعيني أنثى خبيرة ، أدركت أنها قطعت خطوة هامة للإيقاع به . فبعد عدة زيارات لم يستطع المقاومة ، وأفصح صراحة عن رغبته فيها عندما احتواها بين يديه وبدنه يرتعد كفأر في المصيدة ، وأخذ يبثها حبه وهيامه ، متناسيًا كل شيء في سبيل الوصول إليها .

لقد باع وطنه على فراشها المتوقد بنيران أنوثتها ، ولم يبخل بإفشاء أسرار الجيش العراقى ، عندما سلم لعميلى الموساد أسرارًا خطيرة عن الطائرة السوفييتية توبولوف – ٢٢ ، التى تعد الأحدث قياسًا بقاذفة القنابل الأمريكية ب – ٥٢ « التى استخدمت فى حرب فيتنام » ، كما أمدها بوثائق هامة ، تتعلق بالمخزون الاستراتيجى من الذخيرة ، وكشوف بأعداد الدبابات تى ٦٢ ، وحصر عام لبنادق « برنو » التشيكية ، ورشاشات « دوشكا » و « كلاشينكوف » ، وأيضًا رشاشات « سينا » الصينية .

أمدها أيضًا بوثائق أخرى عن نظام الجيش العراقى ، وأفرعه ، وقياداته ، وتشكيلاته ، وتسليحه ، وكذا . خرائط سرية عديدة عن المطارات العسكرية ، والقواعد الجوية الاستراتيجية والهيكلية ونظام العمل بها . كل ذلك مقابل جسد فروزندة الذى كان يناله فى أي وقت ، حتى فى وجود يعقوب .

كان العقيد جاسر عبد الراضى من أسرة عسكرية ، تتزاحم بالمناصب والرتب ، لذلك .. كان يفخر دائمًا بأنه يعلم بأسرار الجيش العراقى ، حيث تصب كلها أمامه من خلال أقاربه العسكريين وزملائه فى المواقع المختلفة .

لقد اكتشفت فيه فروزندة حبه الشديد للتباهي بنفسه ، والتفاخر بمنصبه العسكرى فى الدفاع الجوى ، وإدمانه للخمر والقمار والجنس ، ولأجل ذلك . فهو ينفق راتبه على نزواته ويعيش دائمًا مديونًا .. هاربًا من دائنيه .

اكتشفت فيه أيضًا ما هو أهم من ذلك .. قلة وازعه الوطنى ، وسخطه على الحياة في العراق ، يترجم ذلك سبه الدائم لقيادات حكومته ، وانتقاده العنيف لهم .

لقد برهن بما لا يدع مجالاً للشك ، على عدم ولائه لوطنه ، واستعداده لعمل المستحيل لأجل عيون عشيقته التى أعطته أنوثتها بسخاءٍ فأسكرته ، ومنحته من المال الكثير فأنعشته .

ونظرًا لزواجه من إيرانية ، اعتاد يعقوب السفر إلى إيران مطمئنًا ، حاملاً معه أدق الوثائق العسكرية السرية ، خلافًا لوثائق أخرى كان يجلبها له عميل آخر اسمه عزاوي الجبورى .

هكذا استمر يعقوب يوسف جاسم يعمل فى خدمة الموساد بمعاونة زوجته ، مندفعًا بكل طاقته غير عابىء بالعواقب ، تخيم على عقله غيمة كاذبة من الوهم والثقة ، حتى ألقى القبض على أعضاء الشبكات التسع فى يناير ١٩٦٦ .

ساعتئذ .. ارتجت دعائم ثقته وغامت الحياة من حوله . فأحجم من فوره عن حمل حقيبة الوثائق إلى إيران ، وانكمش مذعورًا يترقب مصيره المجهول .

أما فروزندة .. فقد أنهكها التوتر والخوف . وفكرت .. بل ألحت على يعقوب أن يتركها لتغادر إلى وطنها ، لكنه رفض بحسم . فقد كان بحاجة إلى رفيق يؤازره ، ويشاطره مخاوفه .. وارتعاشة الأطراف لحظة الشنق .

ولما يئس رجال الموساد فى الوصول إلى يعقوب وزوجته ، أرسلوا إليهما بعميلهم فجر عبد الله ، الذى ألقى القبض عليه صدفة ، فأرشد عن يعقوب عندما تعرف إلى صورته التى عرضت عليه بواسطة رجال المخابرات العراقيين .

ففى فجر اليوم الثانى من فبراير ١٩٦٦ ، وبينما يعقوب وفروزندة بحجرة نومهما ، متكورين فى هلع لا حول لهما ولا قوة .. تطرق إلى سمعهما وقع عشرات الأقدام تحيط بالمنزل .

هبت فروزندة مذعورة إلى أحد الأدراج ، وفى اللحظة التىتهشمت فيها الأبواب ودخول سيل من الرجال ، ابتلعت فروزندة كل ما بقى فى أنبوب سم السيانيد . أما يعقوب ، فكان مستسلمًا للقيود الحديدية التى كبلت معصميه ، ينظر إلى فروزندة هلعًا وقد جحظت عيناها ، وارتعشت أطرافها قبلما تهوى إلى الأرض .

هكذا نفذت العميلة حكم الإعدام فى نفسها قبل محاكمتها ، وأتاحت بذلك الفرصة لشريكها أن يرى بنفسه ارتعاشة الموت ، فقد لا يسعفه الحظ ليرى ارتعاشتها وهى تتدلى من حبل المشنقة .

وهذا ما كان بالفعل . إذ نفذ حكم الإعدام فى يعقوب شنقًا بسجن بغداد المركزى فى ديسمبر ١٩٦٦ ، بعد محاكمة استمرت عشرة أشهر ، اعترف أثناءها تفصيليًا بدوره

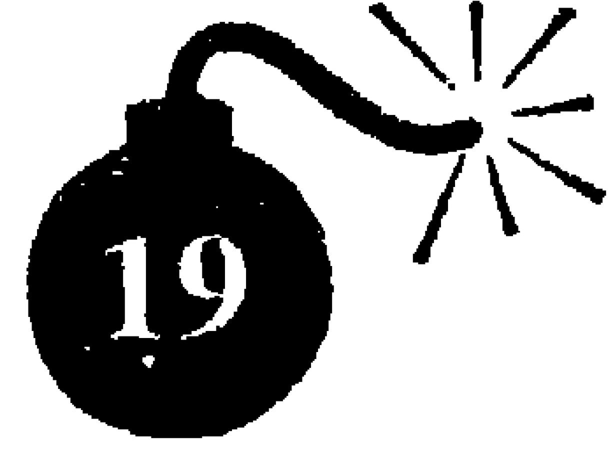
في التجسس مع شركائه لصالح الموساد ، وأبدى ندمه الشديد لذلك . وجاء اعترافه بالندم في لحظة حاسمة ما بين الجد والهزل . فالخونة في كل زمان ومكان خونة لا أمان ولا عهد لهم .

أما عزاوى الجبورى ، فقد ألقى القبض عليه فارًا بالقرب من منفذ العبور إلى الأردن ، وكان هو الذى شهد ارتعاشة أطراف زعيمه يعقوب على حبل المشنقة ، بدلاً من فروزندة .

لكن العقيد جاسر عبد الراضى ، أنقذ جسده من رصاصات منفذى حكم الإعدام ، إذ وفر عليهم مهمتهم ، وانتحر هو برصاص مسدسه الميرى فى جراج منزله . ونال فجر عبد الله حكمًا بالأشغال الشاقة المؤبدة ، بعدما رفضت السلطات العراقية تخفيف الحكم على العميل الإسرائيلى ، حيث طلبت إيران ذلك رسميًا من العراق .

وبذلك .. تفككت شبكات الجاسوسية الإسرائيلية ، وانحصر نشاط الموساد فى العراق فى تقوية شبكات محلية أخرى ، جرى تدريبها وتثبيتها لتحل محل الشبكات التى سقطت . لتستمر حرب المخابرات فى اندفاع مستمر لا يتوقف إلا لكر .. !! .

فيكتور مناحيم.. شبكة عائلية جدًا ..!!



ورأيتها .. كـالبدر كـان جمالهـا يسـبى النَّظَـر
وأنوثـة قـد أينعـت تشـعُ منهـا وتنفَجِـرْ
مسَّت يدى ، فتفجَّرت حِمَم الرغبات تنتشـرْ
قـالت : أريـك والجسـد طـوع البنـان ينتظـرْ
فاسقِنِيهِ ، ليس يُجدى الصمت وفى جسدى وَطَرْ
هيـا ارْوِنـى ، فبـى ظمـأ يُكَـابِدنى فاسـتَجِرْ
واظفر بـه أنت الـذى قـد كنت أول مـن ظَفَـرْ
خـارت قوايـا للأبـد بـين السَّـعير المنصهـر
لأفيق عنـد سجَّانى يلـفّ عُنقـى ويعتصـر ..!!

شايلوك العراقى

أمام تساقط شبكات الجاسوسية فى العراق ، لم تقف إسرائيل مكتوفة الأيدى ، بل أعادت تنظيم شبكاتها العاملة ، ورتبت صفوفها لسد ثغرات الضعف التى تسقط بسببها فى قبضة المخابرات العراقية .

لقد كانت أهم أهداف الجاسوسية الإسرائيلية فى العراق حتى أواخر الخمسينيات ، تهريب اليهود العراقيين إلى إيران ثم لإسرائيل من هناك ، لهذا السبب .. تنوعت شبكاتها من اليهود العراقيين ومن سائر الملل .

ففى منتصف الستينيات ، وبعد تهريب أعداد هائلة منهم ، اتخذت الجاسوسية مسارات أخرى تخدم مصالح إسرائيل وأمريكا ، فازداد بشكل ملحوظ الاهتمام بالنواحى العسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، وأسرار التغلغل السوفييتى فى العراق . إذ كانت هناك نوايا سيئة رتبت لها أمريكا بدفع إسرائيل لتحطيم قوة العرب والإجهاز عليها .

كان العراق فى ذلك الوقت ينمو نموًا كبيرًا فى مجال التسليح ، الذى استحدثت معداته وأدواته بشكل أخاف إسرائيل ، برغم عدم اشتراك البلدين فى الحدود أو الجوار ، إلا أن هذا النمو العسكرى السريع ، ألقى ظلالاً كثيفة على حجم المساعدات السوفييتية والشرقية فى مجال التسليح ، ليس للعراق فحسب ، وإنما لمصر وسوريا أيضًا ، مما يهدد التواجد الأمريكى بالمنطقة العربية ، وأمن إسرائيل كذلك .

وببذخ شديد ، أنفقت إسرائيل على شبكات الجاسوسية على الدول العربية ، لنخل المعلومات الاستراتيجية ، ولمعرفة أدق التفاصيل . وكانت الجاسوسية الإسرائيلية فى العراق ، تعتمد غالبًا على الخونة من اليهود ، فعلى عاتقهم قامت شبكات تضم أعدادًا كبيرة من الجواسيس ، وصلت فى إحداها إلى ٣٦ جاسوسًا ، سقطوا جميعًا فى قبضة الأمن العراقى عام ١٩٦٨ .

ومن الغريب حقًا أن نلاحظ فى الجاسوسية الإسرائيلية فى العراق ، أن الجواسيس الذين يعملون بمفردهم تقل أعدادهم إلى درجة الندرة قياسًا بمصر مثلاً ، ويرجع ذلك إلى وفرة اليهود

بالعراق بأعداد هائلة « حوالى ٨٠ ألف يهودى » ، آمن غالبيتهم بأن مساعدة إسرائيل نوع من التضحية فى سبيل الوطن الجديد ، وانتشرت بينهم مقولة « اليهودى المتدين لا يبخل على إسرائيل بماله وروحه » .

وتحت هذا الشعار الذى روجت إسرائيل له ، تكونت الشبكات منهم عن قناعة ، فلم يكونوا ليبخلوا حتى بأجساد بناتهم تتويجًا لفعل الوطنية والتدين ، وقدّموهن على موائد الجنس وليمة رخيصة شهية ، لاصطياد العراقيين ذوى المراكز الهامة فى شتى المواقع والمؤسسات .

ومن أشهر الشبكات التى طبقت الشعار الإسرائيلى.. شبكة « فيكتور عيزرا مناحيم » ، الذى لم يكن وقتها يملك مالاً يقدمه لإسرائيل ، فقدم بدلاً منه جسد شقيقته وزوجته ، ثم قدم روحه بعد ذلك ليكمل تطبيق الشعار .

ولد فيكتور عام ١٩٣٤ بمدينة « المسيب » ، على بعد ٤٠ كيلو مترًا جنوبى بغداد . وكان أبوه عيزرا مناحيم مرابيًا كبيرًا ، فاق مكر « شايلوك » اليهودى الشهير فى مسرحية وليم شكسبير « تاجر البندقية »[1] .

فقد استغل عيزرا حاجة الناس وظروفهم وكبلهم بصكوك الدين والفوائد الخيالية لأمواله ، فحرقوا منزله عام ١٩٥٥ لتأكله النيران وتتفحم معه زوجته وصكوك الديون ، وينجو ابنه فيكتور وأختيه الطفلتان مليكة « ١١ عامًا » ، وثمرة « ٩ سنوات » . فيشد الرحال بهما إلى بغداد هربًا من كراهية الناس .

هناك .. استأجر مسكنًا متواضعًا فى أحد الأحياء الشعبية الفقيرة ، ويستغل الشهادة المتوسطة التى حصل عليها للعمل بوزارة الصحة .

وكيهودى يبحث عن نقود يعلم جيدًا عماد الحياة فى المدينة الكبيرة ، استطاع بعد سنوات أن يدخر عدة دينارات ، اشترى بها بعض الأقمشة من تاجر إيرانى اسمه « سليمانى بنائى » كان يفد إلى بغداد كل شهر ببضائعه .. وكتب له إيصالاً بالمبلغ المتبقى لحين الزيارة القادمة .

(١) أظهر شكسبير فى مسرحيته من خلال شخصية « شايلوك » مدى قذارة أخلاق اليهود ومسلكهم الاستغلالى فى كافة المجتمعات التى يتواجدون بها .

ولعقود طويلة خلت ، عمل اليهود على محاربة المسرحية بحرق نصوصها ، وتهديد المسارح التى تعرضها فى محاولات مستميتة للحد من انتشارها .

ولأنه تاجر جديد لا يدرك أساليب التجارة وتقلبات السوق واحتياجاته ، خسر فيكتور في أولى تجاربه ، إلا أن سليمانى لم يمارس عليه ضغوطه ، بل أمده ببضائع جديدة إلى أجل ، ولما دعاه لزيارته ببيته ، لبى سليمانى الدعوة ، وبدأت منذ تلك الزيارة أحداث كثيرة تتشكل ، لتصنع فى النهاية قصة عجيبة من قصص الجاسوسية والخيانة .

ذلك أن سليمانى لم يكن سوى عميل للمخابرات الإسرائيلية ، يتخذ من تجارة الأقمشة ستارًا لعمله مع الموساد ، وأحيانًا كثيرة كان يعمل كصائد للجواسيس فى العراق ، لاعتياده التعامل مع العراقيين من اليهود الفقراء ومعرفة الكثير من أسرارهم وخباياهم .

ولد سليمانى فى كرمنشاه بإيران لأسرة يهودية متوسطة الحال ، يملؤه اليأس الشديد لعجز والده عن تدبير حياة أفضل لأسرته كبيرة العدد . فشب ناقمًا على حاله كيهودى يعيش فى مجتمع منغلق وسط بنى جلدته ، وعندما قرر أن يغامر بعيدًا فى طهران ، اصطاده عميل للموساد ودربه ليمارس تجسسه على العراق لعدة سنوات .

ولما تقابل مع فيكتور ، نصب شباكه حوله منذ اللحظة الأولى ، فقد كان يتمتع بأنف كلب صيد مدرب ، يميز جيدًا ويشم نقاط ضعف فريسته . إذ اكتشف أن المال هو ما يسعى إليه فيكتور وينشده . ومن هذا الاتجاه بدأ فى محاصرته والالتفاف حوله .

وفى منزله تحول صياد الموساد الماهر ، إلى فريسة ضعيفة أمام مليكة التى تعدت العشرين بقليل ، فقد استدار جسدها العريض ، ونحت تضاريسه فوران الصبا والنضوج ، وضجت أنوثتها تعلن فى صراحة عن نفسها .

فيكتور اليهودى الطماع وجدها أيضًا فرصة سانحة لتتسع تجارته ، إذ ألمح لشقيقته أن تتلطف مع الزائر المهم ، ولا تبخل عليه ببشاشتها ورقتها ، فاستجابت لأوامر شقيقها و أعطت سليمانى بسخاء كل شيء على طبق من رضاء .. وهذا أمر ليس بجديد ، فاليهودى – فى كافة المجتمعات –لا يعترف بالشرف أمام مصالحه وطموحاته ، مادام جسد ابنته أو أخته أو حتى أمه ، سيفتح له بابًا موصدًا يوصله إلى مآربه وغاياته .

إن تاريخ اليهود المدنس يفضح هذا المسلك الشائن ، الذى انتهجوه دائمًا فى معاملاتهم مع المسلمين والمسيحيين فى فلسطين قبل إعلان قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ .

لذلك فلا عجب أن يضحى فيكتور بجسد شقيقته مليكة ، لكن .. يهوديًا وعميلاً محترفًا مثل سليماني ، لم يكن ليقنع أبدًا بجسد مليكة مقابل ديونه ، فهناك مكاسب أخرى عديدة تنتظره ، إذا ما جند فيكتور لصالح الموساد .

وبعدما ذاق القطفة الأولى وغرق في لذائذها العامرة ، ترك الفتاة تلعق رغباتها بداخلها ، رغبات ملتهبة محمومة استيقظت للمرة الأولى على يديه ، تعلن حاجة الجسد الظامئ إلى من يفك طلاسمه دائمًا ، ويؤجج فيه النيران ويطفئها .

لقد انزعج فيكتور عندما طالبه سليماني بغتة بأمواله لديه ، وسأل مليكة : « هل أغضبت الرجل؟ » فأقسمت بأنها فعلت كل شيء لإرضائه ، واحتار فيكتور أكثر .. ماذا يريد سليماني إذن ؟

وما إن عاد الإيراني حتى سأله عما بدَّله .. فضحك الصياد لفريسته وقال : « إنه السوق لا أكثر » .

استبد الحزن بفيكتور الذى لا يملك مالاً يفي بالدين ، وكان يظن أن دائنه سيصبر عليه ، أو يسقط جزءًا من الديون مقابل جسد أخته .. لكن خاب ظنه .

مشهد الحريق

لم يكن عقله الصغير يدرك بعد أن عالم الجاسوسية مليء بالغموض والخفايا ، مهما كانت الأجساد ملتهبة مثيرة ، فهو عالم خاص له قوانينه التى لا تعترف بالمشاعر ، أو العواطف . ذلك لأن مقاييس علاقته ترتبط أولاً وأخيرًا بالأهداف .. والمصالح .. والمكاسب .

وأمام ضغوط الدائن اليهودى الماكر ، وافق فيكتور على سرقة عدة مستندات من وزارة الصحة ، تبين خطة الدولة لاستيراد الدواء ، كذلك تقرير هام يناقش المتطلبات المستقبلية للمستشفيات المركزية وحاجاتها لاستحداث أقسام جديدة ، وفى اليوم التالى أعاد فيكتور المستندات إلى أماكنها بعدما صورها سليماني بنفسه .

كان هذا أول اختبار عملي لفيكتور تأكد بعده نجاحه بجدارة ، تلاه اختبار ثان وثالث ورابع ، وكانت المحصلة فى النهاية إسقاط الديون كلها عنه ، ومنحه ثلاثمائة دينار مكافأة ،

وكان من الطبيعي أن يفتح هذا المقابل الضخم شهيته للمال السهل على مصراعيها ، فانغمس فيكتور شيئًا فشيئًا في الخيانة والجاسوسية ، فقد أقنعه سليماني بأن اليهودي المتدين لا يبخل على إسرائيل بماله وروحه ، وذكره بأن العراقيين أحرقوا أباه وأمه أحياء وشرّدوه مع أختيه .

كان سليماني يثير أشجانه وينفث فيه سموم الكراهية تجاه العراق ، والإشادة بأموال إسرائيل التي منحها له مقابل الوثائق « الهزيلة » التي لا نفع منها . لكنها « قد » تقوده إلى حبل المشنقة . فكان لتهديده المغلف ، بالإضافة لجرعة الإثارة السابقة ، فعل السحر عنده ، خاصة وقد وعده بالثراء الفاحش ، والأموال الطائلة التي سيهبها له وطنه الأول – إسرائيل – مقابل خدماته التي ستضمن حياة كريمة له ولأختيه .

وفي سباق مع الزمن ، أُخْضع فيكتور لدورة تدريبية أولية ، تعرف خلالها على أهداف التجسس الإسرائيلي على العراق والدول العربية ، وواجبه كيهودي إزاء التكتل العربي الذي يهدد الوطن ، ومناهجه في التجسس لاستكشاف الأسرار العسكرية والسياسية بمساعدة أختيه ، واستكملت الدورة بتعليمه حرفية فن التجسس ، وكيفية الحصول على أدق الأسرار .. بأي ثمن .

حاضر له سليماني كثيرًا عن أساليب السيطرة والإخضاع ، وتلقط المعلومات من السكارى ذوي المناصب الحساسة ، أولئك الذين يفخرون بمناصبهم وبأهميتهم ، وما يملكون من أسرار خطيرة .

استوعب فيكتور الدروس جيدًا وشرع في الحال ينظم حياته الجديدة المقبلة ، يتوج عقله هاجس كبير بأنه وطني مخلص ، يسعى لخدمة وطنه من الخارج ، وواجب عليه أن يضحي بكل شيء لصالحه حتى وإن كانت رقبته هي الثمن ..

إذن .. فجسد أختيه أقل القليل قياسًا برقبته . هكذا فكر واقتنع ، وكان من المستحيل أن يتراجع ، فصراخ والديه والنيران تأكل جسديهما لا يزال حادًا في أذنيه ، وفرحة العراقيين بحرقهما مشهد لن ينساه أبد الدهر .. !!

كان الربيع في بغداد يضحك وقد كسته حلة من بهاء ، ترفل الحقول بها الزروع والطيوز والسماء ، ونسائم من شذى الورود ، تداعب الخيال ، حانية على صفحة دجلة فتطرب الأمواج وتبعث راحة سرمدية تسر النفوس ، وتدغدغ أحلام الشعراء والعشاق .

كان فيكتور لا يرى روعة الطبيعة حواليه ، عندما جلس بشرفة منزله الجديد ، غارقًا فـي سهومه ، كشاعر قريحته حبلى بالقريض ، تصـل لأذنيـه بـين فينـة وفينـة ضحكـات خليعـة من الداخل .

مرقت بالقرب منه حدأة أخرجته من شروده ، فانتبه إلى شبح الزائـر المجهـول يخطو فـي حذر تجاه منزله ، ولم تمر دقيقة إلا وسمع طرقات ثلاث على الباب ، وعندهـا فتـح مطمئنًـا ، فكل الأمور تجرى بتخطيط دقيق .

تبعه الزائر إلى حجرة داخلية ، وأخذ يحدق فى زواياها بعينـى فاحصـة ، فـأخرج فيكتـور من حقيبته كاميرا دقيقة سبق له أن تعلم استخدامها ، وتناولها الزائر وقام بتثبيتها فـى براعـة ، بحيث لا تبدو واضحة . وانصرف كما جاء فى هدوء .

كان قد مر عام ونصف العام ، منذ دخل فيكتور إلى عالم الجاسوسية علـى يـد سـليماني عام ١٩٦٣ . ولم تكن المهام التى أوكلت إليه خلال تلك المـدة صعبـة يقـف أمامهـا عـاجزًا ، بل كانت برغم بساطتها على درجة كبيرة من الأهمية ، لقد انخرط فى الجاسوسية بكل كيانه ، وأصبح ذا شأن فى عالمها السرى المعقد ، تنتظره مرحلة جديدة فـى عملـه التجسسـى ، يؤكـد من خلالها مدى جهاده وتضحياته .

نـادى علـى مليكـة ليستعرض معهـا خطـة العمـل ، وأهميـة دورهـا فـى السـيطرة علـى « الهدف » الأول لتجنيده . وبدت الفتاة شديدة الاقتناع بالدور الذى ستقوم به ، بل يملؤهـا حماس لا حدود له لتحقيق هدفين معًا ، وهما استعراض مفاتنهـا لإغـواء رجـل مهـم ، وتـذوق لحظات متعة حرمت منها بعدما هجرها سليماني .

وكأنها عروس تنتظر عريسها الحبيـب ، استقبلت « سعدون النـاظم » الموظـف الكبير بقطاع الإمداد بالجيش العراقى ، الذى اصطاده شقيقها وجره إلى الكمين المعد له بمنزله . وبعد عدة كئوس مَثَّل فيكتور دور الثمل ببراعة ، فساعدته مليكة للوصول إلى سريره ، وعـادت إلى سعدون المتقد وقد نطقت نظراته لضجيـج بالرغبـة وأفصحت ، فمارسـت رغبتهـا كـأنثى فى التدلل والتمنع ، فازداد ذلك من طفح إثارته ، ولم تكن بحاجة لوقت أطول لتطويعه ، فـالرجل الذى تعدى السابعة والأربعين ، تحول فجأة إلى طفل صغـير ، ليس بمستطاعه أن يكبـح جمـاح رغباته ، فتنهره برفق ليغوص فى ضعفه ، وليركع تحت قدميها ذليل الرغبة التى طيرت عقله .

وخاضعًا .. قادته إلى حجرة النوم ، وعلى فراشها أخذ يحسو قطوفًا من النعيم السرمدى فلا يشبع أو ينتشى ، وتدور عجلة الجوع تفركه فركًا بين أسنانها ، فيعتصر رجولته النازفة فى توحش وجنون .

ذاب سعدون عشقًا .. وخيانة ، ولم يهدده فيكتور بصوره العارية مع مليكة ، ذلك لأنه خضع تمامًا أمام جبروت جمالها وفتنتها ، ونثر بين أحضانها ما خفى من أسرار ووثائق ، وتعاون مع شبكة فيكتور بأمانة شديدة ، جعلته يجلب صديقًا له برتبة نقيب فى إحدى القواعد الجوية ، اسمه شكرى حنا ، فيقدم له فيكتور شقيقته الصغرى « تمرة » التى نفر صدرها واستوى عودها ، يعلن عن أنوثة مبكرة لمراهقة ودعت الطفولة ، وتتشكل لديها أحاسيس جديدة لم تكن تدركها من قبل .

انقض شكرى على جسد الفتاة البكر يختال برجولته ويزهو ، ويصوم عقله عن التفكير ، إلا أن المرأة الصغيرة قليلة الخبرة تعجلت الأمر ، وصارحته بعد عدة لقاءات ملتهبة برغبتها فى الحصول على معلومات عسكرية ، فأفاق شكرى من حلمه ونشوته ، وأدرك المصيبة التى حلت به .

وعندما أراد تصحيح موقفه ، كانت الصور الفاضحة والتسجيلات التى ووجه بها ، عقبة عاثرة أحالت بينه وبين الرجوع . فسقط مترنحًا فى مصيدة الجاسوسية يتعاطى الجنس مع تمرة ، ويزودها بأدق الأسرار العسكرية التى فى متناول يده . ومن خلال هذين العضوين المهمين ، انتعشت شبكة فيكتور بالمعلومات الغزيرة ، وبأموال الموساد .. !!

الحية الرائعة

ماهر جدًا عندما سيطر تمامًا على شقيقتيه ، إذ أقنعهما بحاجة الوطن الجديد – إسرائيل – إلى جهاد اليهود فى كل بقاع الدنيا ليقوى ويشتد ، ولا يمكن أن يتم له ذلك إلا من خلال التضحية والفداء .

هكذا ملأ قلبيهما كراهية للعراقيين الذين فتكوا بوالديهما حرقًا . إلا أن تمرة الصغيرة تمردت على مهنتها كعاهرة لحساب الموساد ، استطاعت إغواء وتجنيد ثلاثة عسكريين فى

غضون ستة أشهر، وارتبطت بعلاقة حب مع شاب مسيحي أردني يدرس الطب بجامعة بغداد ، وعندما رأت تعنتًا من أخيها ، هربت مع حبيبها بأوراق مزورة إلى عمان .

ولظروف العمل .. كان لا بد لفيكتور من البحث عن أخرى تعاون مليكة ، فالمترددون على المنزل كثيرون جدًا ، ولا تستطيع وحدها تلبية « طلباتهم » أو إرضائهم . لذلك فقد رأى في الزواج من فتاة يهودية حلاً مقنعًا ، فاختار شاؤول « شاولا » المتعصبة دينيًا ابنة العائلة المحافظة المتزمتة ، والحريصة على ارتياد المعبد اليهودى بانتظام كل سبت . وكان اختياره لشاولا منطقيًا جدًا من وجهة نظره ، فتدينها سيسهل كثيرًا مهمة التعاون عن قناعة ويقين ، وسرعان ما تزوجها وانتقلت للإقامة معه بمنزله .

بعد أيام قليلة زارهما سليماني ليبارك الزواج ، وانفرد بفكتور ناص[illegible] بالتروى قبل مصارحتها ، كي لا تطيح به وبشبكته ، فالفتاة الأكثر رقة وتدينًا ستصدم بشدة إذا ما اكتشفت الحقيقة ، لكن فيكتور كان يرى العكس تمامًا ، وصح توقعه عندما سنحت الفرصة وقص عليها سيرة حياته ، وما فعله العراقيون بوالديه ، وبكى متأثرًا على صدرها فبكت لأجله ، وطلبت منه أن يصبر وينسى ، فلم يكن أمامها إلا مشاركته معاناته وآلامه .

ولما جاءت اللحظة الحاسمة .. وكان قد هيأها نفسيًا وأخضعها تمامًا .. رحبت على الفور بالتعاون مع الموساد ، ومنح جسدها لكل من يريد خدمة للوطن وللدين ، وتعهدت بها مليكة الخبيرة ، فدربتها على فنون الإغواء والسيطرة بالجسد .

تعهد فيكتور بمهمة اصطياد ضعاف النفوس ، وجلبهم إلى منزله ، فلا يخرجون إلا ورؤسهم قد فقدت العقل والتركيز ، بعضهم سقط صاغرًا أمام موجات النشوة المتلاحقة ، وآخرون أفاقتهم الصدمة الفجائية فتمردوا حينًا ، ثم انهارت مقاومتهم أمام التهديد وإغراءات الجنس والمال .

ومن أغرب قصص تجنيد العملاء ، قصة شاولا و « نهيرة » زوجة « مكرم الصو » ، الموظف بإحدى الجهات السيادية بالعراق . حيث تعارفا بأحد المحلات العامة وتجاذبا أطراف الحديث ، وبعد لقاء آخر أيقنت شاولا أن نهيرة تعانى من مشاكل مالية ، فضلاً عن إحساسها

بالميل إلى النساء « الجنسية المثلية »[1] فأتاحت لها فرصة إخراج ما عندها من رغبات مكبوتة عندما استدرجتها إلى وكر الجواسيس .

وفي حجرة التصوير المغلقة ، شكت لها شاولا إهمال زوجها هي الأخرى ، وبأنها تكاد تشمئز من رائحة فمه وجسده .

استجابت المرأة الشاذة للعميلة الماكرة ، وبعد عدة لقاءات مخلة صورت كلها ، رضخت نهيرة وبدأت تفتش أوراق زوجها وتتنصت على مكالماته التليفونية وحواراته مع زملائه ، لتنقل ما تحصل عليه من معلومات إلى شاولا التي احترفت التجسس ، وسعت بشتى السبل لتجنيد مكرم نفسه .

مارست شاولا ضغوطًا عصبية على نهيرة ، أوصلتها إلى درجة الانقياد التام لأوامرها ، فمهدت لها الطريق الذي كان سهلاً ، وهيأت المناخ المناسب لولادة علاقة جنسية حميمة بين شاولا وزوجها الذي صعق وارتج ، رافضًا بشدة أن يدخل مصيدة الجاسوسية .

لكن امرأة متدينة مثل شاولا تمارس الجاسوسية عن عقيدة وإيمان ، لم تكن لترضى بالهزيمة أبدًا ، إذ قامت على الفور وأخرجت مظروفًا كبيرًا به صور لأوراق ووثائق هامة كانت تحت يده ، ونثرت حوله العديد من صوره وهو عار تمامًا في أوضاع جنسية معها ، وأسمعته صوته وهو في قمة نشوته يسب قيادة بلده ، ويفضي بأسراره كمسيحي يشعر في قرارة نفسه بالدونية .. والاضطهاد من رؤسائه في العمل .

حينئذ ارتسمت على وجه مكرم علامات الرعب والفزع ، وانزوى كطفل يبكي مستعطفًا ألا تفضحه . فتركته شاولا عدة أيام يحاول استرداد ذاته واستيعاب الأمر .

في تلك الفترة قامت حرب يونيو ١٩٦٧ ، وانهزم العرب هزيمة فادحة أحبطتهم ، وأشعرتهم بما يشبه العجز أمام جيش اليهود ، واحتلت إسرائيل أراضٍ عربية جديدة ، تؤكد

---

(١) – الجنسية المثلية Homosexuality – اختيار أعضاء نفس نوع الفرد موضوعًا للجنس . ويشكل هذا الأمر من وجهة نظر الطب النفسي أهم وأخطر انحرافات السلوك الجنسي ، ليس فقط لأن العلاقة الطبيعية هي تلك التي تقوم بين اثنين من الجنسين ، بل لأنها أكثر الانحرافات شيوعًا في كل الأزمان والمجتمعات ، ويتحول إليها الكثير من الأفراد الذين يعتبرون أسوياء ناجحين ، بل عباقرة ، لولا هذا الانحراف في شخصياتهم . والجنس المثلي ليس فقط ضحية تنشئة اجتماعية ، بل هو فريسة الصراع بين الميول الشاذة ومعايير المجتمع .

باحتلالها مدى الضعف العربي ، وكانت صور آلاف الأسرى العرب لدى إسرائيل في صحف العالم ، تمثل قمة المهزلة والمهانة ، فقد كان بعضهم يبكي في فزع ، رافعًا يديه مستسلمًا ممزق الثياب ، حيث استغلت إسرائيل هذه الصور في إبراز قوتها وهيمنتها على المنطقة .

لقد كان لانتصار إسرائيل الأثر الأكبر في رفع الروح المعنوية لجواسيسها في الدول العربية . إذ اتصلت شاولا بمكرم وأمرته بمدها بتقارير هامة عن آثار الهزيمة ، والرؤية الجديدة التي تمثلها إسرائيل لدى القيادة العراقية ، وكذا حجم الإمدادات العراقية من سلاح وخلافه لدول المواجهة . ومضطر أمدها بما أرادت . وكان ما يحير شاولا هو اختفاء نهيرة فجأة ، لكن العثور على جثتها معلقة بحبل من الكتان بسقف حجرة نومها ، آثار العديد من التساؤلات لدى الشرطة وشاولا في ذات الوقت .

إخلاص الخونة

نفت تحريات الأمن شبهة القتل الجنائي ، وسجلت الجريمة انتحارًا بسبب الاكتئاب النفسي الذي كانت تعاني منه ، وترددها على عيادة طبيب نفسي معروف .

ابتعد مكرم عن شبكة فيكتور مؤقتًا ، تقهره آلام فراق زوجته وتقتله الوحدة ، وانشغلت شاولا مع فيكتور ومليكة في إعادة تنظيم الشبكة ، وأسلوب الاتصال بالعملاء ، وتصنيف المعلومات حسب أهميتها للموساد ، وأيضًا .. وضع خطط العمل التجسسي للمرحلة المقبلة .

وكانت أولى الخطط تغيير المسكن بآخر أكثر أمانًا وروعة . والإقلال من أمر تجنيد العملاء بواسطة الجنس والتهديد ، مع التركيز على الحفلات التي تقام للضيوف الذين يتم انتقاؤهم في التقاط المعلومات . فكانت شاولا تبدو في تلك الحفلات شبه عارية ، أما مليكة فمارست هوايتها في الرقص الشرقي بحركات مثيرة فاضحة .

ومع الرقص والخمر واللحم العاري في مجتمع شرقي ملتزم ، كان من الطبيعي ألا تسكت الألسنة ، بل تتحرك وتفصح عن الكثير من المعلومات . وتحولت الحفلات شيئًا فشيئًا إلى حفلات سكر ماجنة ، يمارس أثناءها الجنس بشكل جماعي مع شاولا ومليكة ، وفتيات صغيرات أخريات يسعين للبحث عن المال .

لقد كانت شبكة فيكتور أولى شبكات الموساد فى العراق ، التى استخدمت سلاح الجنس فى الحفلات الجماعية ، كإحدى الوسائل السهلة لمعرفة كل أسرار الدولة والجيش ، وتفوقت بذلك على شبكة وولفجانج لوتز - جاسوس الشمبانيا - الذى كان يضحى بجسد زوجته أيضًا ، وسقطت شبكته فى القاهرة فى ٢٢ فبراير ١٩٦٥ .

اختفى سليمانى صائد الجواسيس وحل محله إيرانى آخر اسمه عبد الزهرة ، كانت مهمته نقل الوثائق والتقارير إلى مكتب الموساد فى إيران ، وجلب آلاف الدينارات إلى فيكتور ليستعين بها فى شراء الذمم ، والإنفاق على حفلاته الماجنة .

إن المخابرات الإسرائيلية تسعى دائمًا إلى إثباتات ووثائق ، تؤكد صدق تقارير عملائها وجواسيسها فى كل الدول العربية ، ويعتقد ضباط الموساد أن العملاء العرب - ولو كانوا يهودًا - يميلون كثيرًا إلى المبالغة ، ويحجمون فى أغلب الأحيان عن إيراد التفاصيل الدقيقة ، لذلك فهم يحثونهم على توفير الصور والخرائط والوثائق التدعيمية الأخرى ، كما أنهم يقومون بعمليات تأكيد مزدوجة من التقارير ، ويستخدمون عادة عملاء آخرين من نفس المنطقة ، لتأكيد صدق المعلومات التى تصلهم .

ونظرًا لعدم وجود مكاتب للموساد يديرها ضباط إسرائيليون فى البلاد العربية ، أو جواسيس لإسرائيل يعملون تحت غطاء دبلوماسى ، فالموساد كما يقول الأمريكيون « ضعيفة فى الحصول على جواسيس فى وظائف عالية فى الأجهزة العربية » ولكن جواسيسها فى البلاد العربية - كما يقول خبراء آخرون - مع عدم وجود سفارات ، شحذوا مهاراتهم وأجبروا على تطوير وسائل سرية للتغلغل فى المجتمع العربى .

فقد استغلوا سلاح الجنس على أوسع نطاق ، معتمدين على العادات والتقاليد العربية المحافظة ، ولجأوا إلى وسائل شيطانية فى تهديد وفضح كل من يرفض التعامل معهم ، إلى جانب الأموال الطائلة التى لم يبخلوا بها على الخونة ، ليخلصوا فى « خيانتهم » وينتزعوا روح الوطنية والانتماء من وجدانهم ..!!

المصيـدة

فجأة .. ألقي القبض على مكرم الصو ، حسبما أشيع ، بسبب بلاغ للأمن من مجهـول ، يتهمه بتدبير جريمة قتل نهيرة . وبعد تحقيقات طويلة على مدار عدة أيام لم يثبـت ضـده دليـل واحد .. فأفرج عنه .

ومنذ ألقي القبض عليه ، أوقفت شبكة فيكتـور نشـاطها وجمـدت اتصالاتهـا ، ومذعـورًا هرب فيكتور وشاولا إلى البصرة ومنهـا تسـللا إلى ميناء عبـادان الإيرانـي ، حيـث سـاعدهما عبد الزهرة – بديل سليماني – في اجتياز الحدود . أما مليكـة ، فقـد رفضـت الهـرب معهمـا إلى إيران ، وأسرعت هاربة بأوراق مزورة إلى شقيقتها تمرة بالأردن .

وظل ضباط الموساد في عبادان يلتقطون الأخبار عن مكـرم ، إلى أن تمكـن أحـد العمـلاء من مقابلته ، وتأكد لديه أن المخابرات العراقية لا تعلم بأمر الشـبكة ، وأن إلقـاء القبـض عليـه كان للتحقيق الأمني ، بخصوص حادث زوجته ، إثر بلاغ مجهول يتهمه بأنه القاتل .

كانت الخطة قد أعدت بإحكام ، وبات أمر إلقاء القبض على فيكتور وحريمه مرهونًا بثقة رجال الموساد في بغداد ، في أن اعتقال مكرم كان للتحقيق في حادث مقتل زوجته لا أكـثر ، وأنه لابد لأحدهم أن يتصل بمكرم إن عاجلاً أو آجلاً ..

وبرغم ذلك تخوف فيكتور من العودة إلى بغداد ، لكن زادت عليه الضغوط من الموساد ، خاصة وعملاء شبكته دائمي البحث عنه . فعاد إلى بغداد هو وزوجته أكثر جبنًا ورعبًا ..!!

وما لم يكن يعلمه فيكتور أو عملاء الموساد في بغداد ، أن مكرم ندم ندمًا شـديدًا علـى خيانته لوطنه ، فعندما كاشفته شاولا بالحقيقة وهددته بالصور الفاضحة ، وأظهـرت لـه العديـد من الأوراق والمستندات السرية الخاصة بعمله ، تملكته الحيرة ، وتسـاءل كثيرًا بينه وبين نفسه ، عن كيفية حصولهم علـى نسخة منهـا ، وفـي جلسـة عاصفـة مـع نهـيرة اسـتدرجها لتعـترف فأنكرت ، ولم يكن يظن أبدًا أنه قد يقتلها ، وذلك عندما كبلهـا – للتهديـد – وشـدها بحبـل يتدلى من السقف ، لكن إصرار نهيرة على الإنكار أصابه بحالة هيـاج مجنونـة ، فيجـذب الحبـل بقوة وهو يحثها على الاعتراف فلم يتلق إجابة ، بل كان هناك فقط صمـت مطبـق مـع ارتجافـة الأطراف المكبلة ، ثم خمدت الحركة إلى الأبد .

وبرغم عدم ثبوت أدلة ضده ، كان يقوم فزعًا كل ليلة وينظر إلى سقف حجرته ، ويئن بصوت مكتوم لمشهد الرعب في عيني زوجته ، وصوت الحشرجة الأخيرة الذي يطارده في اليقظة والمنام .

لقد أراد مكرم أن يستريح فذهب بنفسه إلى الشرطة وأخبرهم بالحقيقة ، ولما ضغطوا عليه ليعرفوا سبب شنقه لزوجته ، اعترف تفصيليًا بأمر شبكة فيكتور ، وكيفية اصطياده وتهديده . فهرب فيكتور وشاولا ومليكة قبلما يتم اعترافه ، واتخذت السلطات الأمنية التدابير اللازمة لضبطهم ، ووضعت لذلك خطة محكمة ، تلخصت في الإفراج عن مكرم لطمأنة أعضاء الشبكة .

هذا ما توقعوه بالفعل . إذ سرعان ما عاد فيكتور وزوجته من إيران لجمع شمل العملاء الذين تفرقوا ، وزارهما مكرم « حسب الخطة المرسومة » .. فأعاد إليهما الأمان ، وشرعا في الاتصال ببقية العملاء من جديد .

الهرب من المشنقة

أما مليكة .. فقد أقنعت ثمرة بالعودة معها إلى العراق بعدما اتصلت بفيكتور وأطمأنت . وعلى الحدود ، أدرك ثمرة زوجها الأردني حانقًا وعاد بها إلى عمان ، وما أن دخلت مليكة الأراضي العراقية حتى ألقي القبض عليها ، ودون أن يعلم فيكتور ، ظلت خاضعة للتحقيقات ثلاثة أيام أفشت أثناءها بكل الأسرار والأسماء .

وعندما اقتحمت قوات الأمن منزل شقيقها ، كان المشهد غاية في العجب ، فقد كانت شاولا ترقص عارية تمامًا كمن ولدتها أمها هي وفتاتان أخريان ، وسط ثلاثة عشر رجلاً كانوا يترنحون بفعل الخمر والنشوة ، وفي إحدى الزوايا كان فيكتور يسجل ما سمعه من أفواه « المساطيل » في عدة صفحات .

وعندما حاول الهرب بالقفز من النافذة ، انقض عليه أحد ضباط وطرحه أرضًا ، واقتيدوا جميعًا مكبلين لمبنى المخابرات العراقية . وأسفرت عملية تفتيش المنزل عن ضبط قائمة

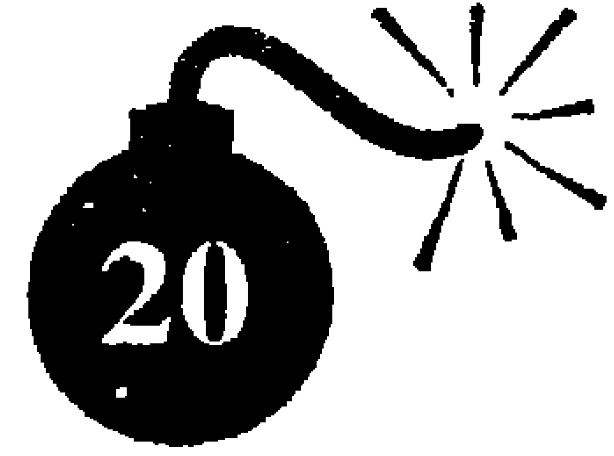
بأسماء بقية الأعضاء ، وإيصالات استلام مبالغ نقدية ، وكشوف بمرتباتهم ومكافآتهم ، وجهاز راديو خاص يستقبل من خلاله الأوامر ، وحقيبة سفر صغيرة تحوى صورًا لمواقع عسكرية ، ومستندات هامة مختلفة ، استطاع فيكتور جمعها خلال أحد عشر يومًا فقط ، هى المدة التي مارس نشاطه خلالها منذ عاد من إيران ، وكان أثناءها تحت السيطرة الأمنية طوال أربعة وعشرين ساعة .

وأخطأ الأمن العراقي الذى لم يراع بعض الضرورات الأمنية الهامة ، عندما ترك مليكة « الحامل فى شهرها الرابع » طليقة دون قيد داخل الزنزانة الانفرادية ، إذ تمكنت بواسطة نتوء فى الجدار من قطع شريان يدها ، وانتحرت فى مارس ١٩٦٨ قبل مثولها أمام المحكمة .

أما فيكتور فقد حوكم ومعه ستة عشر آخرين ليعدم شنقًا فى نوفمبر ١٩٦٨ ومعه شاولا وثلاثة من اليهود ، بالإضافة إلى مكرم الصو .

وبإعدامهم .. لم تتوقف أعمال الجاسوسية الإسرائيلية فى العراق ، فقد كانت شبكة فيكتور مناحيم وحريمه ، مجرد سطور قليلة فى ملفات الخيانة ، وإحدى عمليات الحرب السرية بين المخابرات العراقية وجهاز الموساد الإسرائيلى ..!!

عبد الله الشيعي .. جاسوس الموساد الدميم ..!!



دمامته .. أبعدت الحب عنه والصديق ، فانطوى على نفسه ، تغلفه الوحدة ، وتفتته الحسرة والكراهية ، يود لو أنه يمتلك المال ليشترى أصدقاء ، ومحبين .

لكن إنسانًا على شاكلته .. يعيش منفردًا مزويًا ، لم يجد إلا «الكولية» منفثًا بين أحضان العاهرات . لقد أحب إحداهن بجنون لكنها رفضته زوجًا لدمامته ، فانقلب بعدها وحشًا مسعورًا يبحث عن المال .. حتى ولو كان ببيع الوطن ..!!

بيت الكولية

من النيل إلى الفرات ، خريطة تحتل مساحة كبيرة على أحد جدران الكنيست الإسرائيلى تذكر اليهود بحلم دولة إسرائيل الكبرى ، الذى لم يزل يراود خيالهم . فأرض فلسطين المغتصبة ليست جم آمالهم ، فقط هى نقطة بداية وارتكاز ، يعقبها انطلاق ، وزحف فى غفلة منا ، لتحقيق الحلم الأعظم .

هكذا .. وعملاً بالتعاليم والأهداف اليهودية ، تفشت ظاهرة الخيانة بين يهوديى العراق، واستفحل هذا الداء واستشرى ، خاصة فى الستينيات من القرن العشرين ، الذى نشطت فيه الحروب السرية بشكل لم يسبق له مثيل ، إذ كلما ضبطت الأجهزة الأمنية فى العراق إحدى شبكات الجاسوسية ، تكونت بدلاً منها شبكتان . كأن الجاسوسية حالة إدمان يصعب شفاؤها .

وبرغم الأحكام القاسية والمفترض أن تكون رادعة ، فى ظل قانون حاسم قوى لا يرحم، إلا أن الخونة أخذوا فى الازدياد والتكاثر ، لا ترهبهم قصص الجواسيس المنشورة بالصحف ، أو أحكام الإعدام التى تنفذ ، فالدعاية اليهودية كانت تروج الأكاذيب ، وتدعى أن محاكمات « العملاء » محض افتراء ودعاية محسوبة ، لتخويف المتعاونين المخلصين مع الموساد ، وإرباك تحركاتهم ونشاطاتهم ، وبالتالى الوقوع فى أخطاء قد تقودهم لحبل المشنقة .

من بين هؤلاء الخونة الذين صدقوا الأكذوبة الإسرائيلية .. عبد الله سليمان الشيعى العراقى ذو الجذور اليهودية .

ولد عام ١٩٣١ بمدينة « الحلة » الواقعة على نهر الحلة لأب عراقى وأم إيرانية كان أبوها يهوديًا أعلن إسلامه كذبًا . وعندما وعى عبد الله الحياة ، اكتشف حقارة مهنة أبيه « جَسَّاس المواشى »[١] . لذلك سعى بشدة للتفوق فى دراسته ليلتحق بجامعة بغداد ، بعيدًا عن الحلة التى كره الإقامة بها ، وتحقق حلمه بعد طول معاناة .

---

(١) – جساس المواشى – رجل خبير فى استبيان الحمل عند المواشى من عدمه . وبرغم كونها مهنة للترزق فى العراق وبعض البلدان الأخرى ، لا تعد كذلك فى مصر ، إذ هى إحدى رموز التآلف فى الوجاهة فى الريف المصرى ، ويقوم الطبيب البيطرى بهذه المهام حاليًا بأسلوب علمى متطور .

فبعد أربعة أعوام في الجامعة حصل على ليسانس الآداب ، وعمل بالتدريس بإحدى مدارس العاصمة ، وكان عمره في ذلك الوقت خمسة وعشرين عامًا تقريبًا .

لم يذق عبد الله للحب طعمًا في الجامعة أو قبلها ، فوجهه ذو الأنف الضخم ، الذى يشبه أنف سيرانودى برجراك[1] ، وفكه البارز جدًا أبعد عنه الفتيات ، بل وأخاف الأطفال منه ، لذلك فقد افتقد الحب والصديق ، وانطوى على نفسه تغلفه الوحدة ، وتقتله الحسرة والكراهية .

لقد بدأت معاناته الحقيقية بمأساته فى طفولته المبكرة ، وفى المدرسة الإعدادية بحى الأعظمية ، اكتشف دمامة أخرى في صوته ، جعلت من مخارج الحروف نشازًا يضحك زملاءه بالمدرسة ، ويجعله مصدر سخرية مؤلمة دائمًا ، فاهتزت ثقته بنفسه وملأه الحقد على كل من حوله ، وود لو أنه يمتلك المال الذى يعوض دمامته ، لكنه سرعان ما يدرك مدى افتقاده للاثنين معًا ، ولم يكن من السهل عليه أن يفك عقده النفسية ، أو يحس ببعض الرضا ، فشرنقة من العقد أحاطته ، وحبسته داخل ظلمة لا حدود لها ، حجبت عنه الأمل فى إشراقة تتبدل معها حياته .

إنسان على شاكلته يعيش منفردًا ، مزويًا فى أركان المجتمع ، لم يجد له منفذًا إلا فى « الكولية »[2] حيث عثر على ذاته بين أحضان عاهرة بالغت فى الاهتمام به كزبون دائم لا يضاجع سواها .

ذات مرة .. سألها عما دفعها لتمتهن الدعارة ، فحكت له الكثير عن مأساتها ، وكيف هربت من أهلها بعدما خدعها الحبيب ، الذى مات فى إحدى الحملات العسكرية على الأكراد ، وكانت حاملاً منه ، فلم تجد ملاذًا إلا بيت الكولية .

دموعها وهى تروى قصتها أوهمته بأنه أحبها . وسيطر عليه هذا الشعور الجميل ، فلم ير غضاضة في عرض فكرة الزواج منها ، ولكم كانت صدمته أشد قسوة عندما رفضته العاهرة .. بسبب دمامته .

---

(١) – سيرانو دى برجراك – بطل إحدى روائع الأدب الفرنسى التى ترجمها المنفلوطى . وهى شخصية دميمة الوجه ذات أنف ضخم ، يتمتع صاحبها بالنبالة وبقلب رقيق فياض المشاعر .

(٢) – الكولية – مكان معلوم تمارس فيه الدعارة بأجر . وتوجد بمدن العراق الكبرى كوليات تخضع النساء فيها لكشف طبى دورى ومراقبة صحية مستمرة (!!!) .

حينئذ .. تصاعدت مأساته إلى ذروتها ، وغادر بيت الكولية يجرجر خيبة أمله ، تفوح منه الكراهية للحياة ولسائر الناس ، وفي حجرته وقف أمام المرآة يتأمل وجهه ، واستغرقه ذلك وقتًا طويلاً ليفيق على حقيقة أكدها لنفسه ، أن الثراء أمر حتمي سيقرب الناس منه ، ويجعلهم يتغاضون عن ملامحه الغير مقبولة فإن للمال سحرًا خاصًا ووهجًا حلو المذاق يدير الرءوس ، فلابد إذن من الوصول إليه مهما كانت المصاعب ، وبدأ في تنفيذ سياسة تقشف كتلك التي تلجأ إليها الدول النامية لتحسين أوضاعها ، وأقسم على ألا يفسد خطة حياته المستقبلية ، في أحلك الأزمات عنفًا ، بإنفاق دينار في غير مكانه .

كانت الدنانير الستة والثلاثين . وهي كل راتبه ، مبلغًا محترمًا في ذلك الوقت ، وحسب الخطة التقشفية التي وضعها لنفسه ، استطاع أن يدخر نصف راتبه ، ممتنعًا عن أبسط مظاهر الرفاهية .

ومرت به خمس سنوات عجاف ، اعتاد خلالها الحرمان والجوع والبرد ، ضاربًا بكل إغراءات الحياة عرض الحائط . حتى أقدم على خطبة فتاة فقيرة اسمها « سهيلة » ، عاندها الحظ في اللحاق بقطار الزواج لحول واضح بعينيها ، فوافقت على الزواج منه راضية بما قسم لها ، وعاشا معًا بمسكن متواضع بحي الكاظمية ، كلاهما يشعر ببساطة حظه في الحياة ، واغتراب ليس بمرتحل .

بعدما استنزف الزواج غالبية مدخراته ، هاجت لديه أحلام الثراء من جديد ، فانبرى بسهيلة ذات ليلة يذيقها معسول الكلام ، ثم فاتحها بفكرة راودته طويلاً من قبل ، وهي استئجار مطعم صغير بثمن مصاغها ، تقوم على إدارته بنفسها طوال تواجده بعمله ، لكنها بدلاً من الموافقة أعلنته بخبر مولودهما القادم ، فزلزله الأمر وغرق في تفكير عميق ، فمن أين له بمصاريف الضيف القادم ؟ وأخيرًا لم يجد مفرًا من العمل فترة مسائية ، فجاب شوارع بغداد يسعى إلى عمل إضافي ، إلى أن اهتدى بعد لأي ليهودي اسمه خوجه زلخا ، كلفه بمساعدة ابنته المعاقة في دروسها .

سر عبد الله كثيرًا ولم يضيع وقتًا ، وقال في نفسه إنها فرصة طيبة يجب أن يستغلها جيدًا ، إذ ربما تفتح له أبوابًا أخرى للرزق .

العسل العسول

قادته الخطى إلى حى الرصافة بوسط بغداد ، حيث بيوت الأثرياء ذات الحدائق والأسوار ، وقصور طالما مر أمامها كثيرًا فتثور برأسه آلاف الأسئلة ، ويردد : هل ساكنوها تلسعهم أحيانًا عضات الجوع والعوز ؟

أى أناس هم ؟

وكيف يعيشون على ضفة دجلة ؟

أفاق أمام منزل خوجة زلخا ، وقاده خادم عجوز إلى حجرة الصالون ، فراعه كل ما وقعت عيناه عليه ، وانتبه لخطوات تبدو قادمة ، فقام مسرعًا وتهيأ للقاء ، وبينما يهذب قميصه ويتحسس هندامه ، كانت هى بالباب تبتسم ، اقتربت منه محيية مرحبة فى لطف ، وعندما مدت يدها اليسرى للسلام ، لاحظ قصرًا كبيرًا بيدها اليمنى ، ناتجًا عن عيب سببه لها شلل الأطفال ، دخل فى إثرها زلخا مرحبًا ودودًا ، وهتف قائلاً : « ابنتى إيرينا » التى جئت من أجلها ، أريدك أن تعلمها الإملاء والحساب ، ودعاه لزيارة تلميذته فى أى وقت ، ولا يبخل عليها بعلمه الغزير .

جلس عبد الله كالتلميذ أمام إيرينا ذات السبعة عشر ربيعًا ، ألجم حسنها لسانه ، وانتشى لبشاشتها معه وتبسطها فى الحديث ، ولم يلحظ فى عينيها تلك النظرة الموجعة التى اعتادها طوال سنى عمره الـ ٣٥ ، فأحاط نفسه بأفكار وأوهام عديدة ، صورت له خيالات الحب وارتعاشات نبضاته ، وود لو أنه لثم أظافرها فى خلوتهما التى تطول وتطول ، فلكم كان يتمنى ألا يمضى الوقت لينصرف مغادرًا قصر الأحلام ومليكته ، إلى منزله الرطب الموحش ووجه سهيلة الحولاء .

اختلس ذات مرة لمسة من يدها ، بدت كما لو أنه يعلمها ضبط الحروف ، فاقترب بوجهه منها ، وحانت منه التفاتة إلى صدرها المتكور فى أثناءاتها ، فانتفض بدنه كله لمرأى الوادى الأسيل ، وأسكرته رائحة العطر الفواح يتخلل جسدها المثير ، وشهق كمن يستغيث فانتبهت ، وأدارت وجهها فجأة تجاهه فلامس خدها خده ، لينكب كالثور الجائع على شفتيها يمتص رحيق الشهد ومذاقات العسل العسول .

غابت الصغيرة بين أحضانه مستسلمة وهو يداعب أنوثتها ، ويوقظ لديها رغبات دفينة تأججت نيرانها ، وعاد بعدها زاحفًا إلى بيته لا يدرى كيف حملت ساقاه سكيرًا لم يذق خمرًا ..!؟

لقد نشأ منذ البداية هشًا كارهًا للناس ، ناقمًا على ظروفه ودمامته ، يحلم بالمال الذى سيجلب له العطف والحب ، وعندما أدركهما عند إيرينا المراهقة اليهودية ، أسلم قياده بل حياته كلها رخيصة لأجل لحظة حب .

هكذا يسقط الضعفاء سقوطًا مدويًا سهلاً وقد عصرتهم المعاناة بأشكالها المختلفة ، فهم تمردوا على واقعهم وداسوا القيم ، لأجل لذة ما حرموا منها ، والبحث عن هؤلاء فى خضم البشر المتماوج ، هين عند الخبراء وصائدى الجواسيس ، ذوى الأنوف الماهرة فى التقاط رائحة الضعف لديهم .

وقد يتساءل القارئ : ماذا سيقدم هذا الدميم المزوى المنبوذ إلى المخابرات الإسرائيلية ؟ والمتتبع جيدًا لقصص الخونة ، سيرى أن حالة عبد الله الشيعى ليست فريدة فى عالم الجاسوسية ، فالموساد كغيرها من أجهزة المخابرات العالمية الأخرى ، تتخير جواسيسها من كل الفئات والألوان والثقافات دون تمييز ، فما يهم هنا هو الإخلاص فى العمل .. والولاء اللا نهائى .

فقد كان هناك الجاسوس المصرى سليمان سلمان ، راعى الإبل ابن سيناء ، الذى كان لا يقرأ ولا يكتب ، جندته الموساد بعدما محت أميته ، ودربته تدريبًا مكثفًا على فنون التجسس ، وابتكرت له شفرة خاصة تعتمد على الحروف الأبجدية العربية والصور ، يستطيع بها بث رسائله من خلال جهاز اللاسلكى المتطور الذى سلموه له ، فماذا كانت الموساد تنتظر من هذا الأمى ، الذى سقط وأعدم بسبب خيانته وغبائه ؟ إذن فلا نندهش أمام حالة هذا الجاسوس العراقى الدميم ..!!

فعالم الجاسوسية الغامض المثير ملىء بالأسرار والمتناقضات ، لذا .. فهى حقًا مثيرة جدًا ، قصص الخونة والجواسيس ، تستهوى العقول على اختلاف مداركها وثقافاتها ، وتنقلها إلى عوالم غريبة ، مختلفة ، تضج بعجائب الخلق وشواذ الأنفس ، فعلماء الاجتماع والسلوك عجزوا فى فهم أولئك الخونة ، وفشلوا فى الكشف عن بذور الخيانة لديهم ، أين توجد ؟ .. وكيف تمددت لتتشبث جذورها بالشرايين عندهم والخلايا وتتحول فى لحظات إلى أحراش مظلمة بأعماقهم ؟ فلكل جاسوس قصة ، ولكل خائن حكاية غلفها العجب ، وسربلها

الجنون ، وإنني بالرغم من مئات الكتب والدراسات التي قرأتها عن هذا العالم الغامض المثير ، لازلت أشعر بجهلي الشديد أمام طلاسمه ، ويزيد يقيني بأن وراء كل خائن سرًا غامضًا وداءًا مجهولاً لسنا ندركه ، ودائمًا هناك السؤال : خلايا الخيانة عند البشر .. أهي مثل الذرة تنشطر حتى تغلب العقل كله فتدمره وتسحق الضمير ..؟!!

جاسوس تحت التمرين

لم يدر بخلد عبد الله الشيعي أن هناك عقولاً تخطط كي يسقط ، أو أن إيرينا الصغيرة التي بشت له ، كانت وسيلة جَرّه واصطياده ، وكانت بشاشتها وملاحتها مجرد طعم لاستدراجه إلى وكر الجاسوسية . فبعدما احتواها في المرة الأولى ، استعذب مذاقها وطمع في المزيد ، فنهرته بلطف أقرب إلى تمنع الرغبة .

ففي بيتها التقى باليهودي الإيراني عوازي سليمان ، عميل الموساد المدرب ، ودارت بينهما الأحاديث المطولة ، التي استشف منها العميل أن عبد الله لا يحلم سوى بالثراء ، فلعب جيدًا على هذا الوتر ، وَطَيَّر بخياله إلى أحلام طالما عايشته في اليقظة ، فتهفت نفسه إلى صعود درجات الغنى ، مهما كان الثمن فادحًا .

ولتكتمل خطوط القصة .. أوهمه عوازي بأنه يمتلك عقلية فذة ، وهو بحاجة إليه لإدارة إحدى مؤسساته التجارية التي يزمع إقامتها في بغداد ، ومنحه مائتي دينار مقابل عمل دراسة اقتصادية للسوق .

نشط عبد الله في البحث والتحري ، وكتابة تقارير اقتصادية مستمدة من ملفات وزارة الاقتصاد ، حصل عليها بمساعدة زميل دراسة اسمه جواد مقابل أربعين دينارًا .

أدهشت التقارير عميل الموساد ، إلا أنه أخفى دهشته وادعى تفاهتها ، وفوجيء عندما صارحته إيرينا في انفرادهما بأنها تحبه ، وطلبت منه أن يبذل قصارى جهده في التعاون مع عوازي ، كي تنتعش أحواله المادية فيتزوجا .

فقد عقله أمام اعترافها بحبه ، ولم يسأل نفسه لماذا ؟ أعبقرية فجائية ظهرت عليه ؟ أم أن دمامته تبدلت بوسامة جون كونري ، وجاذبية كلارك جيبل ؟ خاضعًا وعدها بألا يتوانى

في العمل من أجل الفوز بها ، عازمًا على خوض الصعاب بلا ضجر أو كلل . هكذا كانت البداية . ومن هنا تبدأ عملية صناعة الجاسوس !!

كان على قناعة تامة بأنه « أخضر » لم يشب بعد ، ولذلك استسلم لمعلمه عوازى يشرب على يديه حرفته الجديدة ، فأخضعه لدورات أولية في جس نبض الشارع ، واستطلاع آراء العامة من الناس في السياسة والاقتصاد ، وكيفية تلقط الأخبار والأسرار ، زاعمًا له أن هذا مفيد جدًا للمؤسسة التجارية ، حريصًا على ألا يتفهم الجاسوس الجديد طبيعة مهمته ، حتى لا يتصرف بحماقة فتفشل المهمة .

وانطلق عبد الله يجمع المعلومات ويحصدها حصدًا ، لعله ينال رضا إيرينا وعوازى فتتبدل حياته ، ويقترب من تحقيق الحلم . وللمرة الثانية يتهمه العميل الإسرائيلى ، بأنه يجلب معلومات مهمشة لا قيمة لها ولا نفع ، فيسأله عبد الله سؤالاً ساذجًا : ما لهذه الأمور والمؤسسة التجارية ؟

وكأنه ضغط على مفتاح تفجير الديناميت بسؤاله البرىء ، ما الذى جرى ؟ سألت إيرينا محتدة .. تلعثمت الإجابة على لسانه ، وعاوده شعوره القديم بالخوف والضياع ، صرخت به ثانية تسأله : ماذا فعلت ؟ لم ينطق . الدهشة الممزوجة بتقلصات التوتر تملأ وجهه . يتركهما عوازى ويخرج فتعاوده جرأته شيئًا فشيئًا فيسأل إيرينا : ما العمل ؟ تتركه هى الأخرى يغرق في اضطرابه ، وتلحق بعوازى في حديقة المنزل .

كان عوازى هادئًا مبتسمًا على عكس حاله مع عبد الله منذ ثوان . وحدثها ببضع كلمات فعادت إلى تلميذها الخائب ، فما ألطفه من تلميذ يجلس على حافة المقعد يفرك يديه قلقًا .. تستغيث بها نظراته اللهفى ..

برقة فيها ملاحة وذكاء ، أفهمته مدى الخطأ الذى ارتكبه عندما سأل عوازى ، وطلبت منه ألا يعاود السؤال مرة أخرى عما يطلب منه من معلومات أو إيضاحات . فالعمل التجارى سوف يفشل إذا لم تكن هناك دراسة متأنية عن أحوال البلد تجاريًا .. واقتصاديًا .. وعسكريًا .

دخل عوازى الغرفة في تلك اللحظة ليقرأ دهشة عبد الله فيعقب :

« نعم يا صديقى . مهم جدًا أن نعرف كل شىء كى لا نضحى بأموالنا هباء . نحن مجموعة من رجال الأعمال الإيرانيين ، نود إقامة مشروعنا فى أمان ، فماذا لو أن هناك

اضطرابات فـى الســوق العراقـى ؟ ألا يجب أن نطمئـن لنعمـل بثقـة ؟ فاسـتقرار السـوق هنـا واضطرابه له صلة وثيقة بالسياسة . والجيش يتحرك ويتطور تبعًا للسياسة .

وضحت المسألة إذن ؟

سألت إيرينا وأردفت :

قم معى عبد الله اشتقت الآن لدروسى .

أغلقت حجرتها وراءهما قبل أن تستجيب لشراهة قبلته ، وطالبته راجية بألا يقصــر فـى مهمته التى ستعود عليهما معًا بالخير الوفير !! .

منذ ذلك الحين انطلق عبد الله بلا أدنى خوف أو قلـق ، تدفعـه ات إيرينـا ولهفتـه عليها ، وبعد أربعة أشهر اكتشف حقيقة مهمته وظن أنـه يعمـل لصـالح ''ـ'فاك فـى إيـران ، وبرغم ذلك .. لم يتوقف أو يتخذ مسارًا عكسيًا ، فقد كان المال وما يزال حلمه الأول الـذى يسعى إليه . أما إيرينا فكانت حلمه الثانى الذى لن يتحقق إلا بالأول .

تعهده عوازى فى كـل زيـارة لـه بـدورات تصقـل موهبتـه فـى إدارة الحـوار ، وملاحظة الأشياء بعينى جاسوس فاهم ، وكانت لقاءاتهما تتـم كالعـادة فـى منـزل خوجـة زلخا ، الـذى اصطحب أسرته على حين فجـأة إلى إيـران ، ودون أن تودعـه الحبيبـة الصغـيرة إيرينـا الـوداع الأخير .

صدمته كانت قاسية برغم تأكيدات أستاذه بعودتهم ، إلا أن إحساسًا تملكه بأنه لن يراها مرة ثانية ، فقد وقعت نكسة ١٩٦٧ واتسع جرح الألم العربى ، وظلت زوجتـه لأيـام طـوال تبكى فتعجب لأمرها ، وقال لنفسه : لو لم تكن هذه الحرب ما هربت إيرينا . ألا ينتهـى هـذا الصراع وتتوقف الحروب ؟

البحث عن خونة

.. ليس من السهل شراء الذمم فجأة . بل يتم ذلك بعد دراسة مستفيضة لكل الظـروف النفسية والاحتمالات . هكذا يقر خبراء أجهزة المخابرات السوفييتية ، أول من وضعوا قواعـد علمية ثابتة للسيطرة على الجواسيس .

إلا أن رجال الموساد – في حالات كثيرة – يرفضون العمل بنظرياتهم . فبينما يرى السوفييت أن محاصرة الشخص المطلوب تجنيده ومباغتته في أسرع وقت ، دون أن يجد فرصة للتفكير ، أسهل وسيلة لإخضاعه إذا ما كانت هناك أدلة – ولو ضعيفة – تدينه . ونجحوا في تأكيد ذلك من خلال تجنيد دبلوماسيين غربيين ذوى شأن ، سقطوا بسهولة مدهشة في قبضتهم دونما مقاومة .

على النقيض من ذلك نجد أن الموساد قد تلجأ أحيانًا لوسائل وحيل غريبة ، تستغرق وقتًا أطول من اللازم لإخضاع الجواسيس ، والثقة في نظرية « تليين الهدف المتدرج » وعدم اللعب بأعصابه ، أمر مهم عند الموساد .

فهناك خونة كثيرون سقطوا في براثنها دون أن يعلموا بأنهم عملاء لها . إنه إذن فن الإقناع والإيحاء ، ودراسة سلوك العميل ومداركه واعتقاداته ، والمقدرة على تشكيل آرائه وثقافته من جديد ، بما يخدم قضيتهم التوسعية وأمنهم .

هذا التباين في أسلوب السيطرة ومدته ، نلحظه أيضًا في شتى أجهزة الاستخبارات . فلكل جهاز أسلوبه القائم على نظريات وضعها خبراء متخصصون ، ولكنه يؤدى في النهاية إلى اصطياد العملاء وتجنيد الجواسيس ، وهذا هو المهم .

خطا عبد الله خطواته الأولى كجاسوس ، يعتقد بأنه يعمل لصالح المخابرات الإيرانية « السافاك » ونشط جاهدًا في البحث عن أخبار القواعد الجوية القريبة من بغداد – وبالأخص قاعدة الرشيد الجوية – ، وملاحظة التغييرات والتجديدات بها . واستطاع أن يتوصل لأسماء أنواع جديدة من الردارات السوفييتية ، وعندما حمل كاميرا التصوير الصغيرة ، التي في شكل ساعة اليد ، عجز عن تشغيلها بمهارة وارتجف ساعده ، وخبأ الميكروفيلم بقاع سحرى بحقيبة يد صغيرة .

وفي رحلة أخرى لمعاودة التصوير اصطحب معه زوجته ، وفي الطريق بقرب إحدى القواعد العسكرية ، لاحظت سهيلة توتره وإتيانه بحركات غريبة ويده على كتفها .

لم تفهم في بادئ الأمر ، ولما حدقت في الساعة الغريبة بعيني فاحصة ، أدركت الحقيقة . فكتمت سرها وراحت تراقب أفعاله وتصرفاته .. حتى اكتشفت مخبأ « الساعة الكاميرا » في كعب حذائه الجديد ، فأسرعت إلى مخفر الشرطة بالقرب من المسكن ، ولم

يصدق الضابط الصغير اعترافها ، فأبلغ فورًا الأجهزة الأمنية المختصة . وتقوم حملة مفاجئة تكتسح الدار فجرًا أثناء نومها ، فترشد سهيلة عن الكاميرا ، ويصعق عبد الله لا يصدق أنها النهاية ، وبينما عملية التفتيش مستمرة يغافل حراسه ويضرب رأسه في عنف بالحائط ، ويحملونه بأنهار دمائه إلى التحقيق ، وكانت أدلة خيانته المضبوطة ، بالإضافة إلى اعترافه ، تذكرة دخوله لحجرة الإعدام .

هكذا غاصت أحلام الدميم فى قاع الوهم ، وظل طيلة أشهر المحاكمة مصرًا على أنه متورط مع السافاك لا مع إسرائيل . لكن القرائن كلها كانت تدينه ، وتؤكد عمالته للموساد .

إنها الحالة الأولى لجاسوس عراقى ، خدعه أستاذه وأقنعه بأنه عميل لإيران . أو لنقل أنه ربما ادعى ذلك حتى آخر لحظة لينجو من الإعدام .

أيضًا .. إنها إحدى الحالات القليلة لجواسيس يعملون منفردين فى العراق بلا شركاء ، أو شبكة من العملاء المحليين .

وفى زنزانته الانفرادية الضيقة قبل إعدامه بأيام قليلة ، أصيب بمغص حاد كاد يفتك به فنقلوه إلى المستشفى وأجروا له عملية الزائدة الدودية ، ثم عاد إلى السجن ليعدم شنقًا فى ١٩٦٨/٣/٢٨ ، وعثروا فى زنزانته على دفتر صغير سجل به مذكراته ، وضمنه أدق تفاصيل حياته وآماله التى لم تتحقق ، وقد أفرد مساحة كبيرة لوصف حبه لإيرينا ، وثقته بأنها أحبته كما أحبها .

لقد عاش عبد الله سليمان معقدًا .. مطحونًا .. واهمًا ..

وأعدم وهو ما يزال واهمًا .. تحفه خرافات المشاعر ، يأبى أن يصدق أنه كان غبيًا .. أبلهًا .

أما سهيلة ..فقد وصلت أمنيتها لمسئول كبير ، فأرسل بها إلى « يوغوسلافيا » لإجراء عملية جراحية تقضى على « الحول » نهائيًا .. وعادت إلى بغداد معافاة وكان بانتظارها ضابط من المخابرات العراقية ، شد على كفها مهنئًا ، وزف إليها خبر إعدام عبد الله ، فعادت إلى منزلها تترقرق بعينيها الدموع .. دموع الحسرة ، على مصير رفيق حياتها .. الخائن ..!!

إبراهام موشيه .. زعيم شبكة الـ « ٣٦ » .. !!



وقف « روبرتو بيترو » أمام ضابط الجوازات فى مطار بغداد الدولى وهو يقول : لماذا هذا التأخير يا سيدى ؟ أجابه الضابط بأنها إجراءات أمنية بسيطة لن تستغرق كثيرًا .

وسأله : كم مرة جئت إلى بغداد من قبل ؟

سريعًا أجابه الإيطالى المتذمر : إنها زيارتى الأولى للعراق ، وقد جئت مندوبًا عن شركة أنتراتيكو للمقابض فى روما ، لأعرض إنتاجنا على رجال الأعمال هنا ، وأبحث إمكانية إقامة جناح لنا بسوق بغداد الدولى .

سلمه الضابط جواز سفره مصحوبًا بتمنياته الطيبة ، فشكره روبرتو وغادر المطار ، ليستقل تاكسيًا إلى فندق ريجنسى بوسط بغداد . وفى حقيقة الأمر لم يكن روبرتو هذا سوى ضابط مخابرات إسرائيلى .

مولتى تشـــاو

ولد لأب يهودى إيطالى وأم هنغارية ، وعاش سنى مراهقته فى الشمال بمدينة « تريستا » الساحرة المطلة على بحر الإدرياتيك ، وخدعته الدعاية اليهودية عن أفران الغـاز التـى التهمـت ستة ملايين يهودى فى ألمانيا ، وبهرته شعارات الصهيونية والحياة الرغدة لليهود فى إسـرائيل ، فهاجر إليها مع أمه رينالدا بعد وفاة أبيه .

هناك خدم فى جيش الدفاع الإسرائيلى ثم فى جهاز الشين بيت « الأمـن الداخلـى » ، وأظهر كفاءة عالية فى قمع الفلسطينيين ، وتجنيد بعض الخونة منهم لحساب الجهاز بعد إجادتـه التامة للغة العربية .

لكن حادثًا مفاجئًا قلب حياته بعد ذلك رأسًا على عقب ، إذ ضبط أمه عارية فى أحضان يهودى يمنى ، تمكن من الهرب بسرواله تاركًا بقية ملابسه ، فأصيب بانتكاسة نفسـية كبـيرة ، إذ كانت أمه تمثل لديه صورة رائعة لكل معانى الحب والكمال ، ولم يتصور أن امرأة مثلها فى التاسعة والأربعين ، قد تسعى إلى طلب الجنس ، وتتعاطاه مع السائق اليمنى .

لحظتئذ .. قرر ألا يعيش فى تل أبيب ، وقدم استقالته من عملـه وحمـل حقيبتـه عـائدًا إلى مسقط رأسه ، عازمًا على أن يعيش بقية حياته أعزبًا ، فطالما خانت أمه فلا أمان ولا ثقة بـامرأة أخرى ..!!

لكن مايك هرارى(*) ضابط الموساد الإسرائيلى الـذى كـان يبحـث عـن ذوى الكفـاءات المخلصين لـ « يطعم » بهم أقسام الموساد المختلفة ، جد فى البحث عن « روبرتو بيترو » حتى أدركه فى تريستا ، إلا أنه فشل فى إقناعه بالعودة معه إلى إسرائيل ، وتركه أربعة أشهر ورجـع إليه ثانية ليخبره بوفاة أمه ، ويجدد دعوته له بالعمل معه فى الموساد .

استطاع هرارى بعد جهد العودة بروبرتو إلى تل أبيب ، وألحقه فورًا بأكاديمية الجواسـيس ليتخرج منها بعد ستة أشـهر جاسوسًا محترفًا ، يجيـد كـل فنون التجسـس والتنكـر والتمويـه

(*) هرارى هذا بطل فضيحة ليلها مر Lillehammer فى النرويج عام ١٩٧٣ ، حيـث كـان يترأس فريـق القتل الذى طارد الفدائى الفلسطينى على حسن سلامة – بطل مذبحة ميونيخ – وفشل فـى مهمتـه عندمـا قتل بطريق الخطأ شابًا مغربيًا معتقدًا أنه سلامة ، فتسبب فى واحدة من أشهر فضائح الموساد فى أوربا .

والقتل ، عنده القدرة على تحمل صنوف التعذيب المختلفة ، وأساليب الاستجواب الوحشية لإجباره على الاعتراف ، إذا ما سقط في قبضة المخابرات العربية .

لقد اكتشف خبراء الموساد مقدرته الفذة على مقاومة الألم ، إلى جانب ذكائه الشديد وإجادته الإقناع بوجهه الطفولي البرئ ، الذى يخفى قلبًا لا يعرف الرحمة .

كل هذا .. يضاف إلى خبرته التي لا حدود لها في عالم الإلكترونيات ، وتكنولوجيا الاتصالات ، وموهبته الفائقة في تطوير أجهزة اللاسلكى ، التي يستخدمها الجواسيس في بث رسائلهم .

ومنذ وصل روبرتو لفندق ريجنسى ، تتبعه السيارة الماسكوفيتش ، وعقله لا يكف عن التفكير فيمن ذا الذى يراقبه ويقتفى أثره ؟ أيكون ضابط مخابرات عراقيًا ؟ أم أحد أعضاء الشبكة ؟

استبدل ملابسه على عجل وخرج من باب الفندق يمسح المكان بعينى صقر باحثًا عن الماسكوفيتش فلا يجد لها أثرًا ، وفى شارع السعدون توقف أمام إحدى الفترينات وتأكد من خلال زجاجها العاكس بأن هناك من يراقبه ، فاختفى فجأة بمدخل إحدى البنايات وتسمر مكانه في الظلام ، وبعد برهة يدلف شبح مسرعًا فيصطدم به ، وقبل أن تهوى على رأسه قبضة روبرتو الحديدية ، يصيح الشبح على الفور : « مولتى تشاو » .

إنها كلمة السر المتفق عليها ، ليس في بئر السلم ، ولكن بمكتب الخدمات العامة ، الواقع على بعد عدة بنايات ويمتلكه إبراهام موشيه ، الذى كان يراقب روبرتو بنفسه ، وأوشك الأخير أن يحطم فكه بقبضته .

الحب المحرم

لم يكن موشيه يهوديًا عراقيًا فحسب ، بل زعيمًا محترفًا لشبكة جاسوسية إسرائيلية داخل العراق ، استطاع أن يمد نشاطه حتى الكويت وسوريا ، متخذًا من عمله في التجارة والاستيراد ستارًا يخفى وراءه حقيقته ، وكانت له قصة مثيرة تستحق منا أن نسردها ، ونتتبع معًا كيف انجرف مستسلمًا في تيار « الخيانة » منذ صباه ، مضحيًا بكل شيء في سبيل الوصول إلى مآربه ، ضاربًا عرض الحائط بالأمانة والشرف .

كانت بدايته في ضاحية دومًا بالقرب من دمشق . ولد لأم يهودية سورية ، وأب يهودي عراقي يعمل دباغًا للجلود ، امتلك ناصية الحرفة ، وأقام مدبغة في بغداد بعد ستة أعوام من العمل الجاد في سوريا ، إذ هرب فجأة إلى موطنه الأصلي ومعه أسرته الصغيرة ، بعد ما اتهم باغتصاب طفل مسيحي دون العاشرة ، فعاش في بغداد يحاصره الخوف من مطاردة أسرة الغلام أو السلطات السورية . لكنه لم يرتدع بعد هذه الحادثة ، إذ واجهته هذه المرة تهمة اغتصاب طفل آخر في بغداد .

ولأنه أثرى ثراء فاحشًا ، دفع مبلغًا كبيرًا لوالد الطفل رقيق الحال ، فتبدلت الأقوال في محضر الشرطة ، وخرج موشيه ببراءته ، ليمارس شذوذه على نطاق أوسع مع غلمان مدبغته ، إلى أن وجدت جثته ذات يوم طافية بأحد الأحواض المليئة بالمواد الكيماوية المستخدمة في الدباغة ، وكان ابنه إبراهام وقتئذ في الثانية عشر من عمره ، وأخته الوحيدة ميسون على أعتاب السابعة .

باعت أمهما المدبغة وهربت بثمنها إلى مكان مجهول مع السمسار اليهودي الذي جلب لها المشتري ، وتركتهما يواجهان مصيرهما لدى عمهما البخيل ، ويتذوقان على يديه صنوف القهر والقسوة كل لحظة .

وإمام تلك المعاناة .. ترك إبراهام مدرسته ، والتحق بالعمل كصبي بورشة لسبك الفضة يمتلكها تاجر يهودي ، بينما عملت أخته كخادمة بمنزل عمها مقابل الطعام ، واكتشف إبراهام ميلا لديه للسرقة ، فمارس هوايته بحذر شديد في سرقة المعدن الخام قبل سبكه ووزنه دون أن يلحظه أحد .

وما أن بلغ مرحلة المراهقة باندفاعها وطيشها ، حتى ظهرت عنده أعراض الشذوذ كوالده ، وإن كانت تختلف في الأسلوب والاتجاه ، وكانت ضحيته الأولى .. أخته التي كان ينام معها في فراش واحد بإحدى الحجرات المنعزلة ، فكان يحصل منها على نشوته الكاملة وهي تغط في سبات عميق .

وذات ليلة .. استيقظت ميسون على غير العادة ، ولاذت بالصمت المطبق تجاهه عندما أحست به يتحسس جسدها ، فهو شقيقها الذي يحنو عليها ، ويجيئها بالملابس الجديدة والحلوى ، ويدافع عنها ضد جبروت عمه وزوجته ، ويطلب منها دائمًا الصبر على قسوة الظروف ، طائرًا بها في رحلات خيالية بعيدا عن منزل عمهما ، فكانت لكل ذلك تسكت عليه .

ولما ظهرت عليها صفات الأنثى وعلتها مظاهر النضوج ، استشعرت لـذة مداعباته التى أيقظت رغباتها ، فتجاوبت معه على استحياء شديد فى البداية ، إلى أن استفحل الأمـر بينهما للمدى البعيد العميق ، فهرب بها إلى البصرة ، بين أمتعتهما صنـدوق عجزا عـن حمله ، كـان بداخله خام الفضة الذى سرقه على مدار عشر سنوات كاملة من العمل بالمسبك .

وهنـاك .. معتمـدًا علـى خبرته الطويلة ، أقام مسبكًا خاصًا به بحصيلة مسـروقاته ، واكتسب شهرة كبيرة بين التجار ، وأثرى ثراء فاحشًا بعد أربع سنوات فى البصرة .

كانت ميسون فى ذلك الوقت قد تعدت التاسعة عشرة ، جميلة يانعة تحمل صفـات أمها الدمشقية ، ذات جسد ملفوف أهيف ، ووجه أشقر تتوجه خيوط الذهب الناعمة ، عيناها الناعستان كحبتى لؤلؤ تتوسطهما فيروزتان فى لون البحر ، وفم كبرعم زهرة يكتنز بـالاحمرار والرواء ، وأنوثة طاغية تشتهيها الأعين وما ذاقها إلا إبراهام .

بيد أن الحب له طعم آخر ، ولسع بديع يداعـب الخيال ، فتعزف الخفقات سيمفونية رائعة من أغانى الحياة .

فعندما أحبت ميسون جارها وتمكنت منها المشاعر ، هربت كأمها مع الحبيـب إلى أقصى الشمال .. إلى الموصل ، فتزوجته مخلفة وراءها إبراهام يلعق الذكريات ويكتوى بنار الوحـدة ، تنهشه أحزانه فيتخبط مترنحًا ، وتقيد بـه الخطوات تسعى إلى حيـث لا يـدرى ، ويتحـول إلى إنسان بائس .. ضعيف وحيد .

فى هذا المناخ يسهل جدًا احتواؤه بفتاة أخرى ، تشفق عليه وتقترب منه عطوفة رقيقـة ، وهذا بالفعل ما حدث . إذ قربته « راحيـل » إليهـا ، ولازمته فـى قمـة معاناتـه للدرجـة التى يصعب عليه الابتعاد عنها .

ولأنها ابنة يهودى يعمل لحساب الموساد، وكان لها دور فعـال فـى نشـاطه التجسسـى ، استطاعت أن تضمه بسهولة إلى شبكة والدها. ولم لا .. ؟ إنه خائن بطبعه منذ الصغر ، استلذ الخيانة عشر سنوات مع صاحب المسبك ، وخان الشرف والأمانة عندما انتهـك حرمـة أختـه ، ذابحًا عفافها غير مبال بالدين أو القيم ، فإن مثله معجون بالخيانة ، ليس يصعب عليـه أن يخون الوطن أيضًا ، فكل القيم عنده طمست معالمها وغطاها الصدأ .

لقد بدت سهلة رحلته مع الجاسوسية بعدما تزوج من راحيل ، وأخضع لدورات عديدة صنعت منه جاسوسًا ، فانتقل إلى بغداد ليمارس مهامه الجديدة . ولم يكن يدرك أبدًا أن شبكته التى سيكونها فيما بعد ، ستكون أشهر شبكات الجاسوسية فى العراق قاطبة .

شاخص الداهية

فى بغداد استأجر إبراهام منزلاً رائعًا ، وافتتح مكتبًا وهميًا للتجارة بشارع السعدون ، والتحق بأحد المعاهد المختصة بتعليم اللغة الإنجليزية ، وجند أول ما جند شابًا يهوديًا يعمل مترجمًا للغة الروسية ، له علاقات واسعة بذوى المناصب الحساسة فى الدولة ، كثير السفر إلى موسكو بصحبة الوفود الرسمية ، كان دائمًا ما يجيء محملاً بالسلع والكماليات ، معتمدًا على إبراهام فى تصريفها .

كان تجنيده بعيدًا تمامًا عن الجنس أو المال . إذ كان « شوالم » غالبًا ما يحكى لإبراهام أسرار سفرياته وتفاصيل ما يدور هناك بين الوفدين العراقى والسوفييتى ، ولم يكن يخطر بباله أن أحاديثه مع إبراهام كانت كلها مسجلة .

وعندما استدرجه ذات مرة للخوض فى أدق الأسرار ، تشكك شوالم فى نواياه فامتقع وجهه واستبد به الخوف ، وعلى الفور عاجله إبراهام بالحقيقة ، وأكد له بأنه استفاد كثيرًا من أحاديثه ونقلها حرفيًا للإسرائيليين ، فحاول الشاب أن يفلت بجلده من مصيدة الجاسوسية ، لكن شرائط التسجيل المسجلة بصوته كبلته ، فخضع مضطرًا لابتزاز عميل الموساد .

كانت تجربته الأولى الناجحة قد زادته ثقة فى نفسه ، وأخذ يبتز شوالم إلى آخر مدى .

فمن خلاله تعرف إبراهام على مهندس يهودى ، يعمل بأحد مصانع الأسمنت فى بغداد، تردد كثيرًا على منزله برفقة شوالم فى بادئ الأمر ، ثم بمفرده بعد ذلك حيث شاغلته راحيل برقة متناهية ، وأوحت إليه نظراتها وابتساماتها السحرية بعالم آخر من المتعة ، لكنها لم تعطه شيئًا مما أراد ، وأيضًا لم تتجاهله . فحيره أمرها كثيرًا ، وما بين شكوكه فى تصرفاتها حياله ، واستغراقه فى تفسيرها ، أدمن رؤيتها طامعًا فيما هو أكثر ، ليستسلم فى النهاية صاغرًا ، ويستجيب لأوامرها عندما طلبت منه معلومات عن المواقع العسكرية التى تتسلم حصص الأسمنت .

وعندما سلمته أربعمائة دينار مقابل خدماته ، صدمته الحقيقة التى تكشفت لـه ، فهونـت عليه الأمر وشرحت له الكثير عن واجب اليهود إزاء وطنهم الجديد ، إسرائيل ، وأمـام فتنتهـا القاتلة لم يتبرم أو يعترض ، بل تطوع – إرضاء لها – بجلب المعلومات الحيوية دون تكليف منها ، عازفًا عن العمل بمقابل مادى لقاء خدماته ، علـى أمـل الهجرة إلى إسرائيل فـى أقرب فرصة ، وتوفير فرصة عمل له هناك .

ولما أدركت هى ما يصبو إليه ، لعبت على أوتار أمنيته ، ووعدتـه بتحقيقها فـى القريـب العاجل .

استتر إبراهام خلف مكتبه التجارى ، وزيادة فى التمويه .. قام بشحن كمية من فاكهـة البرتقال إلى الكويت ، بواسطة سيارة نقل كبيرة « برادة » ، يقودها سورى عربيد من السويداء ، يعشق الخمر العراقى[1] والنساء ، له زوجة سورية فى درعـا ، وأخـرى عراقيـة فـى المقدادية ، وثالثة إيرانية فى كرمشاه .

كان السائق زنديقًا لا ديانة له ، اسمه « خازن » وشهرته « شاخص » لشخوص واضح فى عينيه ، استطاع هذا الخازن أن ينال ثقة إبراهام خلال فترة وجيزة من العمل لديه فـى نقـل الفاكهة إلى الكويت ، ولأنـه سـائق فقـط علـى البرادة ، تسـلل إبراهـام إلى عقلـه ووجدانـه ، ووعده بأن يمتلك مثلها إذا أخلص إليه « وتعاون » معه .

فى إحدى زياراته لزوجته السورية ، تمكن شاخص من الحصـول علـى بعض المعلومـات التى تتصل بالتحركات العسكرية السورية على الجبهة ، وبعض القواعـد الجويـة التى تطورت منشآتها وتحصيناتها ، كما وطدد علاقته بأحد المتطوعين فى الجيش السورى من أقرباء زوجتـه، استطاع بواسطة الهدايا التى أغدقها عليه ، أن يتعرف من خلاله على أسرار هامة ، تمس أمـورا عسكرية روتينية ويومية ، قام بنقلها إلى إبراهام بأمانة شديدة ، فمنحه مبلغًا كبيرًا شجعه علـى أن يكون أكثر إخلاصًا فـى البحـث عن المعلومـات العسكرية ، ليـس فـى سـوريا فحسـب ، بل وفى الكويت أيضًا .

(١) الخمر العراقى يعرف هناك باسم « العرق » ويصنع من التمر الخمر .

كانت الكويت فى ذلك الوقت إمارة صغيرة غنية ، سمحت للعديد من العراقيين والإيرانيين بالإقامة وبعض حقوق المواطنة[1] ، فضلاً عن العديد من أبناء الجنسيات العربية الأخرى الذين تواجدوا بها منذ سنوات طويلة . ومن بين هؤلاء كانت توجد نفوس ضعيفة يسهل شراؤها ، خاصة أولئك الذين يشعرون بالدونية وبأنهم مواطنون من الدرجة الأدنى .

استطاع خازن أن يستثمر ذلك جيدًا فى شراء ذمم بعضهم ، وحصل على معلومات دقيقة عن أنواع الأسلحة المتطورة فى الكويت ، ومخازنها ، ونظم التدريب عليها ، وعدد المنخرطين فى الجيش الكويتى ، وبعثات الطيارين فى الدول المختلفة . وامتد نشاطه الأفعوانى إلى دول الخليج العربى وإماراته الأخرى . فمكن بذلك إبراهام من تجميع ملفات كاملة ، تحوى الكثير من المعلومات العسكرية والاقتصادية والتجارية عن الكويت ومنطقة الخليج .

ميسون عادت

تحير ضباط الموساد فى أمر عميلهم إبراهام ، فإخلاصه يزيد كثيرًا عن الحد المعهود ، ونشاطه التجسسى يتطور ويمتد ليشمل بخلاف العراق دول الخليج وسوريا . وكان لابد من حمايته كى لا يغتر بنفسه فيكشف أمره ، وحمايته ليست بالطبع بواسطة حراس مسلحين ، وإنما بتدريبه تدريبًا خاصًا لرفع الحس الأمنى لديه ، والوصول بكفاءته كجاسوس محترف إلى درجة أعلى فى الخبرة والمهارة ، فاستدعى للسفر إلى عبادان على وجه السرعة ، حيث كان ينتظره خبيران من الموساد أحدهما روبرتو بيترو ، جاء خصيصًا من أجله ولأنه يحمل ترخيصًا تجاريًا ، لم تواجهه مشكلة فى مغادرة العراق .

مكث إبراهام معهما تسعة عشر يومًا ، أخضع أثناءها لدورات مكثفة فى كيفية فرز المعلومات وتنقيتها ، والسيطرة على هذا الكم الهائل من العملاء الذين يدينون بالولاء لإسرائيل ، هذا فضلاً عن تدريبه على كيفية الإرسال بالشفرة ، بواسطة جهاز لاسلكى متطور

(١) – هؤلاء .. لم تمنحهم الكويت إلى اليوم الجنسية ، ويطلق عليهم فى الكويت الـ « بدون » ولا يتمتعون بالحقوق الطبيعية للمواطن الأصلى . حتى وإن كانوا قد حصلوا على إقامة مستديمة . وهذه المشكلة تعد من أكثر المشاكل الاجتماعية تعقيدًا فى الكويت .

أمدوه به وجهاز راديو لاستقبال الأوامر . ورجع إبراهام إلى العراق يزهو بالحفاوة التى قوبل بها ، وبالتدريب الجيد الذى ناله ، وبالأموال الطائلة التى ما حلم بمثلها يومًا .

سرت راحيل بالهدايا الثمينة التى حملها إليها . وجهاز الراديو الترانزستور الحديث بين أمتعته ، والذى هو فى الأصل جهاز لاسلكى تتعدى قيمته عشرات الآلاف من الدولارات . وفى أولى رسائله إلى الموساد طمأنهم على وصوله بسلام ، وبثهم تحيات زوجته ، وتلقى ردًا يفيد استلام رسالته ، وتمنياتهم الطيبة لهما بعمل موفق .

فى الحال شرع إبراهام فى الاتصال بأعضاء الشبكة ، وطلب منهم معلومات محددة كل حسب تخصصه ، وأمدهم بآلاف الدينارات ليغدقوها على عملائهم ، فأثبت كفاءة عالية فى إدارة شبكته بمهارة .

وذات يوم بينما كان فى الموصل ، لم يصدق عيناه وهو يقف وجهًا لوجه أمام ميسون فى أحد الميادين ، وحين ألجمتها المفاجأة أسرعت بالفرار وسط الزحام تتلفت خلفها ، بينما غادر سيارته الماسكوفيتش ملهوفًا وأسرع وراءها ، تمر برأسه ألوان من الذكريات البعيدة لم يستطع نسيانها . فلما أدركها ، ملتاعة صرخت ، فطمأنتها نظراته المليئة بالحب والشوق ، ومشت معه إلى السيارة ترتعد ، وقد انحبست الكلمات فى حلقومها .

وفى الطريق إلى منزلها .. عاتبها كثيرًا ، وشكا لها قسوة المعاناة التى عايشها من بعد هروبها ، وعلى المقود هجمت عليه أشجانه ، وغلبته دموعه فاستسلم لها ، فى حين شهقت أخته باكية تستعطفه ، وترجوه أن ينسى ما كان بينهما ، وأشارت إلى بطنها المنتفخ قائلة إنه الابن الثالث لها .

لكن يهوديًا خائنًا وشاذًا مثله ، لم يكن مؤهلاً لأن يستجيب لرجفة الخوف والضعف عند عشيقته الأولى فى حياته .. أخته . فما إن وصلا إلى منزلها ، وكان خاليًا من زوجها ، إلا وطالبها بحمل مستلزماتها وولديها والعودة معه إلى بغداد . رفضت ميسون مسترحمة ، فانهال عليها ضربًا وركلاً غير مبال بصراخ الصغيرين ، وأمام إصرارها على الرفض طالبها بحقه .. فيها .. !!

ألم نقل بأنه يهودى خائن ، تبرأت منه النخوة واعتلاه الجمود ؟ .. هكذا نال ما أراده منها ، مدعيًا بأنه حق مكتسب وواجب عليها أن تؤديه كلما طلبها .

رجع لبغداد مكدرًا ليجد راحيل تعانى آلام الحمل الأول فى شهوره الأخيرة . وبعد أسبوع يأخذها فى الفجر إلى المستشفى ، فتلد جنينًا ميتًا سرعان ما تلحق به هى الأخرى بسبب حمى النفاث ، كأنما أراد الله أن يقطع ذريته إلى الأبد ، ويحرمه من مشاعر الأبوة فيظل وحيدًا كشجرة جافة بلا جذور ، تطيح بها الأنواء فتتكسر .

ولأول مرة منذ هجرته ميسون فى البصرة ، تفتك به الوحدة وتعتصره الأحزان ، فتختنق لديه مباهج الحياة ، وتبثه اللوعة تكوى عظامه وتزلزل عقله ، فيفقد شهيته للعمل ، وينزى فى ضعف يسربله الخوف والوهن ، وتفر منه اندفاعات الجرأة إلى حيث لا مستقر .

اللاسلكى المهشم

فى تل أبيب اجتمع ضابط الارتباط بمرؤسيه ، وقرأ عليهم رسالة عاجلة بثت فى بغداد تقول :

« دوف : أمر بظروف نفسية معقدة .. لا أستطيع الاستمرار فى العمل.. لن أكون ذا نفع لكم من الآن .. ابعثوا بمن يقود المجموعة .. سأنتظر ردكم بلا أوامر فى الميعاد شالوم » .

وجم الجميع ، فإشارات الرسالة ورموزها السرية صحيحة ، بما يفسر عدم وقوع العميل فى قبضة المخابرات العراقية . ماذا حدث إذن ؟

كانت هناك شكوك فى فحوى الرسالة ، فهى إحدى المرات القلائل ، الوحيدة التى يتسلم فيها الموساد رسالة غامضة كهذه من عميل نشط . وفسر البعض ذلك بأنه ربما كشف أمره واعترف بكل شىء ، وضبطت بنوتة الشفرة رموز الاستهلال والختام السرية المتفق عليها . لكن ضابط الارتباط استبعد ذلك ، فالعميل يحفظ الرموز جيدًا عن ظهر قلب ودرب كثيرًا على ذلك فى عبادان . ولو أن أمره قد انكشف وأجبر على بث الرسالة ، لعكس الأرقام . وكان لابد من معرفة حقيقة الوضع فى العراق .

عندئذ بعثوا إليه برسالة مغلوطة سرعان ما جاءهم رده يطلب إعادة البث مرة أخرى ، ولما عجز عن فك رموزها ، أيقن أن هناك خطأ ما ، فبث رسالة تأكيدية أخرى ضمنها إشارات سرية بديلة أراحتهم وطمأنتهم .

على الفور أرسلوا إليـه بإيراني خبيث ، يدعى طباطبائي حبرون يعمـل لحسابهم فـى طهران ، تسلل إلى العراق بأوراق مزورة تحمل اسم رضائى عبد الرضا ، التقى بإبراهـام الـذى كان شارد الذهن منكسر المزاج ، واستطاع بعد لأى أن يعيد إليه توازنه ، ويقنعه بالاستمرار فى العمل ، خاصة وإسرائيل فى تلك الفترة كانت تمر بظروف مختلفة ، بعدما انتصرت على العرب فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، هذه الظروف كانت تستدعي العمـل بجد ترقبًا لـرد عربى وشيك ، قد يدمر إسرائيل ويقضى عليها .

لقد وعده طباطبائى بحياة رغدة فى إسرائيل بعد انتهاء مهامـه ، فحرك فيـه روح الحمية والعداوة ضد العراقيين ، الذين أمدوا الجيوش العربية بالسلاح والعتاد لضرب إسـرائيل ، فلمـا نجح الخبيث فى مهمته مع الجاسوس المحبط ، عاد من حيث أتى ، فلقـد استرد إبراهـام طاقته ومواهبه من جديد ، ومارس الجاسوسية على أوسع نطاق ، إلى أنْ وقع حادث خطير زلزل كل شيء .

فبينما كان يحمل جهاز اللاسلكى متوجهًا به إلى مخبئه بسطح منزله – وقد انتهى لتوه من بث رسالة لتل أبيب – زلت قدمه على السلم ، فسـقط منـه الجهاز الثمين وتبعثرت محتوياته الداخلية .

حينئذ أصيب إبراهام بـالفزع ، واعـتراه اضطـراب رهيـب . وكتـب علـى الفـور رسـالة بالحبر السرى إلى الموساد فى أثينا ، يطلعهم على الخبر الصاعقـة ، وكـانت صاعقة بـالفعل قـد أصابت العقول المتابعة فى تل أبيب .

وعقد على الفور اجتماع ضم نخبة مـن خـبراء الموسـاد ، اتخـذ فيـه قـرار نهائي بإرسـال روبرتو بيترو إلى بغداد لإصلاح الجهاز المعطل .

اطلع ضابط الموساد على المهمة التى كلف بها ، وحسب الخطة الموضوعة سافر إلى رومـا حيث تسلم وثيقة سفر إيطالية ، وتمت تغطية شخصيته الجديدة كمنـدوب لشـركة انـتراتيكو الإيطالية للمقابض ، حيث سجل اسمه فى جميع الدوائر ، توقعًا للسؤال عنـه مـن قبـل مكتـب المخابرات العراقية فى روما .

فما إن وطأت قدماه مطار بغداد الدولى ، حتى كانت عيون مخابراتها ترصـده عـن بعـد . فالجواسيس فى تلك الفترة كانوا كمرتـادى دور السـينما ، لا عـدد لهـم ، أغلبهـم مـن يهـود العراق الذين ينعمون بالأمن ، وأبوا إلا أن يعترفوا بإسرائيل وطنًا أولاً لهم . فباعوا أمن العراق وهتكوا ستره ، ونقبوا عن أسراره لحساب الموساد .

حصاد المشانق

ما أن رصدت أعين المخابرات العراقية مطاردة إبراهام لروبرتو حتى كثفت من رقابتها ، فهناك أمر ما يجمعهما معًا . وتأكد لهم ذلك من لقاء بئر السلم بشارع السعدون . وبينما البحث يجرى فى روما عن حقيقة روبرتو المجهول ، كانت الأجهزة اللاقطة قد زرعت بمكتب إبراهام ، الذى تسلل إليه روبرتو دون أن يلحظ وقوف سيارة « فان » سوداء ذات ستائر غليظة ، بداخلها أحدث أجهزة التنصت التى تنقل أنفاس من بالمكتب ، إضافة إلى عربة جهاز تتبع الذبذبات اللاسلكية التى جيء بها من موسكو . فقد كانت تطوف بالمكان بلا انقطاع .

بعد قليل سمع بوضوح رنين جرس الباب ، ووقع أقدام تتحرك ، وفجأة .. انبعث صفير حاد عطل عملية التنصت . فخبير الموساد المدرب ، وبحسه الأمنى العالى ، أدار جهاز التشويش الذى جلبه معه ، تحسبًا .

وعلى مدار تسعة أيام فى بداية عام ١٩٦٨ ، لم تسفر المراقبة عن شيء ذى قيمة . فإبراهام ماكر للغاية ، وضيفه يقوم بمناورات عجيبة للتخفى استدعت تغيير فرق المراقبة والرصد كل عدة ساعات ، فضلاً عن جهاز التشويش الإلكترونى الطنان ، الذى أفشل عملية التسجيل .

وبالرغم من أن التحريات التى جاءت من روما أكدت بأن روبرتو إيطالى لا شك فى ذلك ، لكن الأمر كان يبدو محيرًا حقًا ، فالساعات التى كان يقضيها بالمكتب مع إبراهام ، كانت دائمًا تثير شهية الاقتحام .

وبينما كان الجو مشحونًا بالقلق والاضطراب ، فجأة ، ودون توقع .. التقط جهاز كشف الذبذبات اللاسلكية إشارات متقطعة لا تكتمل ، تبث لاسلكيًا من منطقة السعدون ، فصرخ أحد الخبراء قائلاً إنها تشبه إشارات جهاز لاسلكى معطل ، ويجرى إصلاحه وتجربته ، وعلى الفور صدرت أوامر عليا بمداهمة المكان . وكانت المفاجأة كما توقعها الضابط العراقى ، حيث وجد روبرتو منهمكًا فى إصلاح اللاسلكى ، وإبراهام يرقبه عن قرب ..

صعق العميلان .. ولهول الصدمة تسمرا فى مكانيهما ، فانقض عليهما الرجال وكبلوهما واقتيدا مغميان لمبنى المخابرات ، حيث جرى استجوابهما فى ذات ليلة ، فيعترف إبراهام بكل شيء ، بينما التزم روبرتو الصمت رغم التعذيب المميت الذى لاقاه ، كأن جسده قد من صخر ، لا رابطة بينه وبين مخه .

وبعد ثلاث ليال من التجويع والعطش انهار روبرتو تمامًا ، وأقر بأنه ضابط مخابرات إسرائيلى ، جاء لمهمة إصلاح الجهاز « فقط » لا للتجسس ضد العراق ؟!

وأسفر التحقيق مع العميلين عن مفاجآت عجيبة لم تخطر ببال العراقيين أبدًا ، فقد تبين أن شبكة إبراهام تضم ٣٦ جاسوسًا ، هم فى مجموعهم خليط عجيب ، يهود عراقيين ، وإيرانيين ، وإسرائيليين من جنسيات مختلفة ، ألقى القبض على غالبيتهم فى غضون أربعة أيام ، وقدموا لى المحكمة العسكرية العليا ، وكانت هى المرة الأولى ، فى تاريخ الجاسوسية الإسرائيلية فى العراق ، التى يحاكم فيها ستة وثلاثون جاسوسًا ، تضمهم شبكة جاسوسية واحدة .

وبقدر سعادة رجال المخابرات العراقية لضبط هذه الشبكة الخطيرة ، كانت الصدمة قاسية جدًا فى إسرائيل ، وأمهر رجالها يعدمون فى سبتمبر ١٩٦٨ ببغداد ، غير آسفة تحصدهم المشانق والبنادق .

إنها صدمة ما بعدها صدمة ، إذ أفقدت الموساد الثقة بأن رجالها أذكى رجال المخابرات فى العالم ، وتأكد لها بما لا يدع مجالاً للشك ، أن هناك فى العراق ، وفى سائر الوطن العربى ، رجال أشد ذكاء وضراوة وخبرة ، بما يؤكد استمرار حروب الجاسوسية والمخابرات بين العرب وإسرائيل ، حروب شعواء ينتصر فيها الأقوى ، والأمهر ، والأذكى ، والأشرس ، ويندحر فيها المريض الضعيف !! .

الفصل الثالث

فى لبنـــــان .. !!

« .. خلال خمسين عامًا لم تكن إسـرائيل هى القوية .. ولم يكن جيشها هو القـوى .. بقدر ما كان العرب هم الضعفاء .

فالجندى الإسرائيلى لديه جُبن لا مثيل لـه فـى العـــالم .. ونحــن لدينــا شــجاعة المجـــاهدين .. وتعشـــق قلوبنـــــا الشهادة .. !! »

حسن نصر الله

الأمين العام لحزب الله

قوانين رقيقة

لم يسلم لبنان .. ذلك القطر العربى الصغير على مدار حقبة طويلة من تاريخه ، من مكائد الصهيونية وأطماعها ، فمنذ أخذت الحركة الصهيونية تستعد لإقامة الدولة اليهودية فى فلسطين ، وضعت فى مقدمة برامجها التوسعية .. السيطرة على مناطق حيوية فى لبنان خاصة المناطق الجنوبية منه .. حيث منابع مياه نهر الأردن ، ومجرى نهر الليطانى ومصبه ، وما تمثله تلك المنطقة من أهمية بالنسبة لأمن الدولة الصهيونية .. واستراتيجيتها العسكرية .

لقد جاء فى التلمود « إن الله أعطى عهدًا لإسرائيل باحتلال أراضى الجبلين وجميع أنحاء لبنان، وتقسيم هذه الأراضى على أبناء إسرائيل » . لذلك نجد أن المطامع التوسعية فى لبنان الجنوبى تحتل المرتبة الأولى فى مخططات الصهيونية منذ حقبة طويلة .

وعقب الحرب العالمية الأولى ترأس اليهودى « هربرت صموئيل » وفد بريطانيا فى مباحثات السلام ، ونادى بمد حدود الدولة اليهودية فى فلسطين إلى شمالى صيدا وإدخال مدينة « صيدون » القديمة ضمن أراضى اليهود . وبذا يشمل الساحل الفلسطينى ضواحى تتبع مدينة بيروت نفسها . وتسارع بريطانيا بتأييد هذا المطلب وتعين صموئيل كأول مندوب سام لبريطانيا فى فلسطين .

وبعد ترسيم المنطقة فيما بعد بواسطة فرنسا وبريطانيا ، أظهرت الصهيونية سخطها على الاتفاق المعقود بين الدولتين ، ذلك الاتفاق الذى أفقد الصهيونية « الليطانى ، والأردن الأعلى، وجبل الشيخ ، وحوران » . ولم تتراجع الصهيونية عن محاولتها للاستيلاء على تلك المناطق ، مدفوعة بالعقيدة الصهيونية والتاريخ المزيف ، ومدفوعة أيضًا بالحاجة الاقتصادية والسيطرة العسكرية .

كان من الطبيعى إذن أن تستغل إسرائيل شتى السبل لابتلاع الأرض العربية من أهلها الأصليين ، ومن بين تلك السبل - الجاسوسية - والإجرام . إذ إنه مع بداية عام ١٩٢٠ بدأ التحول الكبير فى تاريخ المنطقة العربية بانتقال الصهيونية إلى مرحلة أرقى من ذى قبل . تلك المرحلة التى حملت روح العقيدة الإجرامية المتمثلة « بالتجمع والاقتحام » واستخدام السيف والدمار، وتشكيل الهيئات السرية والمنظمات الإرهابية .

إنه عام أطلق عليه « عام الدماء الأولى » حيث قتل فى هذا التاريخ «يوسف ترمبلـدور» رفيق « جابوتنسكى » بعد اشتباكات مع العرب قرب الحدود الشمالية . وحـزن عليـه اليهـود حزنًا شديدًا كما تعاهدوا على الأخذ بثأره ؟ وهذا ما دفع جابوتنسكى لاقتراف مذبحة « يـوم النبى موسى » فى ٤ أبريل ١٩٢٠ .

ولما اعتقل جابوتنسكى بحجة التسلل وتهريب السلاح ، تدخل هربرت صموئيـل وأفـرج عنه ، فأطلقوا على صموئيل - المندوب الســامى البريطانى - اسـم « أمير إسـرائيل الأول » ولقبوه أيضًا بعيزرا الثانى « بعد السبى البابلى » .

وجاء مؤتمر « سان ريمو » بعد واحد وعشرين يومًا من « مجزرة الدماء الأولى » ليكـرس اتفاقية . « سايكس - بيكو » تكريسًا قانونيًا ، توزع بموجبـه الانتدابـات علـى دول المنطقـة ، وليجعل فلسطين من حصة بريطانيا . فتعاون الصهيونية مع نظام الانتداب الجديد بحرية أكثر ، وتنتهز الفرصة تلو الأخرى حتى يتم لها السيطرة وإقامة دولة إسـرائيل ، وأسـفر هـذا التعـاون عن ظهور تنسيق كامل بينهما فى المصالح والرغبات ، وإنشاء مراكز تجسيسية فى المنطقة تخدم مطامعهما المشتركة .

مؤامرة قصر يلدز

« إذا تجزأت إمبراطوريتى يومًا ما ، فإنكم قد تأخذونها بلا ثمن . أما وأنا حى فإن عمل المبضع فى بدنى لأهون على من أن أرى فلسطين قد بـترت مـن إمبراطوريتى . وهذا أمر لا يكون » .

هكذا أجاب السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى « ١٨٧٦ - ١٩٠٩م » على مطلـب تيودور هرتزل[١] بمنح اليهود حق سكنى فلسطين واستثمارها .. فى أول وآخر مقابلـة بينهمـا عام ١٨٩٧ .

ولما فشل اليهود مع السلطان عبد الحميد الثانى بأسلوب المكر والخديعة والرشوة ؛ بدأوا فى تنفيذ مخططاتهم السرية التى جاءت فى « بروتوكـولات حكمـاء صهيـون » Brotocolso of Learned Elders of Zion والتى نشـرها بالروسية لأول مـرة « سـيرجى نيلـوس عـام

(١) يطلقون على تيودور هرتزل لقب « أبو الصهيونية » .

١٩٠٢ » ، فافتضحت نيات اليهود الإجرامية ، وجن جنونهم خوفا ورعبًا ، وعمت المذابح ضدهم في أنحاء روسيا ، حتى لقد قتل منهم في إحداها عشرة آلاف يهودى مرة واحدة ، واشتد هلعهم لذلك كله فقام هرتزل بإنكار ما جاء بالبروتوكولات ، والادعاء بأنها ليست من عملهم .

ومع محاولات اليهود الجبارة إخفاء أمر البروتوكولات ، انتشرت تراجمها بلغات مختلفة ، فأقبلوا يشترون نسخ الكتاب من أسواق الدول بأى ثمن.. وعجزوا برغم نفوذهم وتهديداتهم. وانتشرت في ذلك الوقت مقولة « اليهودية فوق الجميع » Jewry ueber Alles بدلاً من « ألمانيا فوق الجميع » الذى جعلته ألمانيا شعارها أيام ازدهارها ، وظل اليهود يعملون في الخفاء لتقويض نفوذ السلطان العثماني .. الذى أصدر قرارات تمنع استيطان أى يهودى جديد في فلسطين ، وتمنع الهجرة اليهودية إليها .

فكان بذلك يقف حجر عثرة أمام أطماعهم وحلمهم الأعظم في بناء الدولة الصهيونية ، إلى أن قام اليهودى « عمانوئيل قره صو » – أحد موظفى قصر يلدز Yaldes العثمانى – بتسليمه قرار خلعه عام ١٩٠٩ ، لتحاك بعد ذلك أبشع مؤامرة لابتلاع أرض فلسطين وتشريد شعبها .

بيد أن ذلك ما كان يتأتى لليهود إلا بالدسائس والمؤامرات والرشوة ، والاستعانة بيهود الدونمة[1] وبأمهر الجواسيس ، لتفحص مواضع الضعف في جيش الإمبراطورية بمعاونة جهاز المخابرات البريطانية ، حيث كانت أطماع البريطانيين في المنطقة العربية لا حدود لها .

لذلك فقد أثارهم التعاون الوثيق بين ألمانيا والإمبراطورية العثمانية ، وقيام المهندسين الألمان بإقامة خطة سكة حديد برلين – بغداد ، وهو الخط الذى كان مقدرًا له أن يصل إلى البصرة على الخليج العربى . وكانت البصرة في ذلك الوقت ميناء البترول الذى تتحكم فيه شركة البترول الإنجليزية الإيرانية . فكان معنى ذلك أن نفوذ ألمانيا في تركيا – صاحبة الولاية في المنطقة – سيؤدى حتمًا إلى تقلص الوجود البريطاني .. والقضاء على أطماع البريطانيين في الشرق .

(١) يهود الدونمة : طائفة من اليهود في تركيا دخلت في الإسلام كذبًا لأجل أغراض شيطانية دنيئة ، وتغلغلت داخل نسيج المجتمع الإسلامى التركى ، وقصر الخلافة ، تحت عباءة الإسلام . وكانت تقيم شعائر اليهودية في السر .

لذا فقد كان من الضرورى العمل على تثبيت اليهود فى المنطقة . وما كان ليتم ذلك للبريطانيين إلا بالخديعة وعمل المخابرات والجاسوسية .

ونظرًا لتشابك الأطماع والمصالح – فالتعاون بين البريطانيين والصهيونية –Zionism– أمر مفروغ منه . حيث برع اليهود دائمًا على مر الأزمان فى اللجوء إلى المكر والخديعة والتجسس .. لاستخلاص مصالحهم والوصول إلى مآربهم .

وإذا تعرضنا للجاسوسية الصهيونية فى لبنان أثناء الحرب العالمية الأولى ، إبان حكم الدولة العثمانية ، لرأينا مدى تشدد الأتراك حينذاك فى مسألة الاختراقات والتجسس ، وتعقب أعوان الصهيونية من الجواسيس وإعدامهم بلا شفقة ، بل إن محاكمات البعض منهم كانت لا تستغرق سوى سويعات فقط ، ينفذ بعدها حكم الإعدام فى الحال ، حتى أن بعضهم – فى حالات قليلة – مات دون محاكمة أثناء التعذيب القاسى الشديد ، مما يدل على مقت الأتراك للجاسوسية ، ومحاولة ردع العملاء والخونة بعقوبات قاسية لا ترحم ، ولا تحتمل التخفيف أو التسويف .

ولرأينا أيضًا أن حالات خاصة جدًا ، كان مصير الجواسيس فيها بشعًا إلى أقصى تصور كمصير الجاسوس الصهيونى « التر ليفى » الذى قطعوا جسده وهو حى بالساطور ، وإبراهام واتنبرج – الأعرج – الذى أبقوه مزروعًا فوق خازوق لعدة أيام فى عالية بيروت .

غيرهما كان هناك جواسيس آخرون لاقوا نهايات تفنن فيها الأتراك تنكيلاً بعدما زاد عدد عملاء الصهيونية وتفشى خطرهم .

لكن الحال تبدل فى لبنان منذ استقلاله . فالعقوبات الجنائية التى سنها المشرع – الخاصة بمحاكمة الجواسيس – إذا قيست بغيرها فى الدول العربية ، لوجدناها لا تفى بالمطلوب منها وهو الردع القاسى لمرتكبى جريمة التجسس . ذلك أن لبنان بلد اقتصادى حر ، لديه حرية تامة للالتقاء بمختلف التيارات الفكرية والحزبية .

إذ عمد منذ استقلاله على الانفتاح على العالم ومنح الحرية فى الإقامة والتنقل ، وسرية الحسابات فى البنوك ، فضلاً عن الاهتمام بالعملية السياحية والترفيهية للزوار .. الذين يقوم اقتصاده على مقدار ما ينفقونه فى الملاهى والفنادق .

لكل تلك الأسباب ، ضجت بيروت بالجواسيس مع انشغال الأمن العام هناك بالحفاظ على إيقاع الهدوء ، والانفراجة السياحية التي تشهدها البلاد الأكثر تفتحًا في الوطن العربي واستمر ذلك حتى يونيو ١٩٦٧ . .

ففي أعقاب النكسة تغيير الوضع كثيرًا .. خاصة بعد تدفق الفصائل الفلسطينية المسلحة إلى لبنان ، والتسلل من جنوبه صوب إسرائيل للقيام بعمليات فدائية وتفشى موجة من التفجيرات أرقت الشارع اللبناني(١) .

تغير الوضع أيضًا بعدما حدث نوع من التعاون الوثيق بين أجهزة المخابرات السورية واللبنانية والفلسطينية ، أثمر نتائج مدهشة عندما سقط العشرات من عملاء إسرائيل في لبنان ، جميعهم استفادوا من القوانين غير الرادعة ، والعقوبات التي قد تصل في النهاية إلى طرد الجواسيس خارج البلاد(٢) .

---

(١) بانتشار عملاء الموساد في بيروت ، اشتدت العمليات التفجيرية الإرهابية لضرب مفاصل التنظيمات الثورية الفلسطينية بلبنان ، وطالت هذه العمليات المكاتب الإدارية للمنظمات المختلفة ، كما حدث في صباح الثلاثاء ١٩٧٤/١٢/١ عندما انفجر مكتب منظمة التحرير في كورنيش المزرعة ، وعثر على سيارة فيات تقف بمواجهة المبنى وعلى سطحها قاعدة لإطلاق أربعة صواريخ ٣,٥ بوصة تعمل بنظام التايمر أتوماتيكيًا ، ثم توالت ثلاثة انفجارات أخرى بذات الأسلوب في أماكن مختلفة ، مما حدا بالسلطات اللبنانية أن توجه نداء بالصحف للذين يزرعون القنابل والصواريخ ، بإعلان (الهدنة) لمدة ٤٨ ساعة تبدأ قبل رأس السنة بيوم واحد .. وكان هذا النداء من أعجب وأغرب نداءات الرجاء المشهورة ..!!

(انظر عنوان : « صواريخ السيارات » بالصفحات التالية) .

(٢) في فبراير ١٩٧٣ ألقى القبض في بيروت على العميل الإسرائيلي « إيف رينيه دى توري » وكان المخرج الجزائري « محمد بوضياء » وقتها في لبنان وقام بالمساعدة في استجواب العميل وترجمة أقواله .. لكن حدثت ضغوط شديدة وطرد العميل إلى فرنسا .. وبعدما عاد بوضياء إلى باريس حيث يعمل بمسرح « كويست » الطليعي ، كتب إلى الفلسطينيين يقول : ليس من قبيل الصدفة أن ألتقى بـ « دى توريس » في كل مكان أذهب إليه في باريس . وفي صباح ٢٨ يونيو ١٩٧٣ انفجرت به شحنة ناسفة وضعت أسفل مقعده بالسيارة فقتلته .. واعتقد البوليس الفرنسي أن بوضياء قتل نفسه بواسطة عبوة ناسفة كان يحملها .

لقد انتبه المشرع فى لبنان لميوعة المواد العقابية المتعلقة بأعمال الجاسوسية ، فعدلت بعض القوانين فى يناير ١٩٧٥ لإحداث نوع من التوازن ما بين الجرم والعقاب ، لكن التعديلات لم تنص صراحة على إعدام الخونة والجواسيس[1] ، لبنانيين أو أجانب .

وإذا عدنا إلى الوراء ، وبالتحديد إلى الخمسينيات من القرن الماضى ، لرأينا كم كانت الجاسوسية الإسرائيلية فى لبنان منتشرة على أوسع نطاق ، وتستخدم كل طرق التفشى والانتشار لخلق أرضية واسعة من الخونة اللبنانيين ، تدفع بنشاطها إلى الديناميكية من أجل التغلغل بين الأوساط الاجتماعية المختلفة ، مستخدمة فى ذلك شتى أساليب السيطرة بالمال والجنس ، أعتمادًا على فتيات يهوديات يتميزن بجمال مفرط ، وأنوثة يانعة طاغية ، وقوانين عقابية لا تقل رقة ووداعة عن نسائها .

---

(١) هناك أحكام بالإعدام نفذت بالفعل فى حالات فردية واستثنائية جدًا ، أثناء حكم إلياس الهراوى رئيس الجمهورية الذى بدء فى ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩ ، حيث نفذ حكم الإعدام فى ستة لبنانيين آخرهم الجاسوس الإسرائيلى أحمد عبد البديع الحلاق ، وقد أعدم بالرصاص فى ساحة سجن رومية ببيروت فى ٢١ سبتمبر ١٩٩٦ .

خميس بيومى .. جاسوس بلا قلب ..
أحرق بيروت وفاء لدينه ..!!



عندما تريد أجهزة المخابرات أن « تصنع » عميلاً متخصصًا فى الاغتيالات والتخريب . فهى تنزع من قلبه خلايا الحب والشفقة والندم ، وتزرع مكانها الغلظة والقسوة والجفاف ..

إلا أن نداء الطبيعة يظل يقاوم التطبع ، فتنمو لدى بعض العملاء خلايا الحب وتتشكل من جديد ، وحينما ينضج ذلك الإحساس الرائع المنزوع قسرًا ، يكون العميل تحت تأثيره هشًا ، ضعيفًا .. لا يملك زمام أمره .

حينئذ .. إما أن يعترف لحبيبته نادمًا ، أو قد يستسلم لتفاعلات صراعاته فينتحر . إنه صراع آخر بين الضلوع .. صراع مرير .. لا يحسه إلا الخونة والجواسيس ..

جواسيس بلا قلب

عرفنا كيف اتبعت الموساد شتى الأساليب لاقتفاء حركات المقاومة الفلسطينية ، وقتلها في المهد ، كذلك شرحنا بالتفصيل كيفية عمل الجاسوس المنفرد ، وأخيرًا نظام الشبكات التي يوجهها خبراء محترفون في الموساد .

وفي هذه القصة نتطرق معًا لملف آخر أكثر سخونة ، وشديد الخطورة .. لعمليات الموساد القذرة في لبنان ، وهو ما يعرف بشبكات « التخريب – Destruction » التي ينحصر نشاطها في بث الشقاق والعداوة ، وزعزعة الاستقرار الداخلي بإشعال الفتن والضغائن بين العشائر .

وشبكات التخريب عمل مخابراتي مهم ، نما وتعملق في القرن العشرين مع تطور استخدام المتفجرات ، وبروز التنافس السيادي بين الأمم والإمبراطوريات .

إنها شبكات خاصة جدًا تظهر وتختفي وفقًا للمصالح والظروف السياسية ، يقوم على إدارتها وتوجيهها نخبة من الخبراء على أعلى درجات الكفاءة والخبرة والذكاء ، تعمل بمباركة القيادة العليا – عسكرية أو سياسية – و تخضع لها مباشرة .

ولأن المهمة جد خطيرة ، فجاسوس شبكات التخريب ينتقى بعناية فائقة .. وفق شروط صعبة معقدة .. حيث يتم إخضاعه لدورات تدريبية أشد تعقيدًا عن تلك التي ينالها الجاسوس المكلف بجلب الأخبار .. فهو « يغسل » تمامًا لتنسلخ عنه مشاعر الإنسانية .. وتخنق فيه عواطفه الفطرية .. وتجز إرادته فيتحول بعد « غسله » إلى « روبوت » بلا قلب ، يتحرك الوحش الكامن فيه بالأمر ، و يسكن بداخله بالأمر .

لذا ، فالسيطرة عليه تحتاج إلى عقل خارق لتطويعه ، وتغييب طبيعته ، فالجاسوس قبل أي شيء بشر ، يقسو ويحنو ، ويتألم ضميره أحيانًا ، أو قد يصحو محاولاً التمرد على وحشيته ، لكن ، هذا لا يحدث كثيرًا .

معنى ذلك أن هناك حالات حدثت ، بالطبع هي حالات استثنائية جدًا ونادرة ، ولأنها كذلك ، فهي مثار تحليلات ودراسات مطولة يعكف عليها المحللون .

وقد ظهر رأى يقول بأن أجهزة المخابرات عندما تريد أن « تصنع » عميلاً متخصصًا في الاغتيالات والتخريب . تنزع خلايا الحب والشفقة والندم من قلبه ، وتزرع مكانها الغلظة والقسوة والجفاف ، إلا أن نداء الطبيعة يظل يقاوم التطبع فتنمو لدى بعض العملاء خلايا الحب وتتشكل من جديد .

وحينما ينضج هذا الإحساس الرائع – المنزوع قسرًا – معلنًا عن نفسه صراحة وبعنف ، يكون الجاسوس تحت تأثيره هشًا ، ضعيفًا ، معرضًا لإفشاء سره ، أو قد يستسلم تمامًا لتفاعلات صراعاته ، فينتحر . !!

إن ملفات المخابرات والجاسوسية تحفظ لنا قصصًا عجيبة لا يصدقها عقل ، تصف معاناة بعض هؤلاء القتلة الذين وهنوا وصرعهم التوتر والخوف والندم ، فعاشوا أسوأ لحظات حياتهم إلى أن كتبوا نهاياتهم بأيديهم .

وتذكرنى الآن قصة « بوجداين ستاسنسكى » رجل الاغتيالات الأول فى جهاز المخابرات السوفيتية ـ الذى علموه فى أكاديمية الجواسيس بموسكو كيف يكون آلة تسمع فتطيع ، فلم يكن ليشعر قط بالأسف أو الندم ، بعدما يقتل معارضى دولته بالسم الزعاف ، حتى أنه كان ينام هادئًا دون أن تطارده أشباح ضحاياه ، وانقضت سنوات وسنوات ويداه تقطر منهما دماء الأبرياء ، إلى أن تجف فجأة أمام دفقة الحب الأول فى حياته ، فتملكه ندم شديد ، وبكى كطفل على صدر حبيبته الألمانية وهو يفشي لها بسره ومعاناته ، واختفيا عن الأنظار منذ عام ١٩٦٥ ، حيث لم يظهر لهما أثر حتى اليوم .

لقد تفوقت المخابرات السوفييتية عن سائر أجهزة المخابرات فى هذا المجال ، واحتفظت بالصدارة دائمًا منذ بداية القرن الماضى وتليها المخابرات البريطانية فالفرنسية ، إلى أن ظهر الجستابو الرهيب فى ألمانيا .. وأخيرًا كانت المخابرات الأمريكية فالسافاك الإيرانى .. لكن على حين فجأة ظهرت المخابرات الإسرائيلية ، فتفوقت على جميع الأجهزة واحتلت رأس القائمة ولازالت ؛ واشتهرت بعبقريتها الفذة فى ابتكار أعجب الوسائل الإجرامية فى الإرهاب والمذابح والتصفيات الجسدية والتفجيرات . للدرجة التى دعت العديد من الدول الأجنبية للاستعانة بخبراتها فى هذا المجال ..

فمنذ قامت المنظمات الإرهابية فى فلسطين ، توسلت العنف الدموى مع المدنيين العزل، واستعانت بعلم نفس الإجرام فى التعامل معهم لقمع إرادتهم وإصابتهم بما يشبه الذهول المصحوب برجفات الرعب ، والهلع .

بين الشرق والمغرب

في عام ١٩٦٥ عقد مؤتمر القمة العربي في القاهرة ، الذى تقرر فيه تحويل روافد نهر الأردن ، وبحثت فيه الإجراءات العسكرية الواجب اتخاذها من أجل مواجهة أى رد فعل إسرائيلى ضد عمليات التحويل .. فقدمت القيادة العربية المشتركة خطة موحدة .. تشرح الإمكانيات العسكرية التى يجب أن تتوافر لدى كل دولة من الدول العربية المتاخمة لإسرائيل ، حتى إذا ما وقع أى هجوم إسرائيلى يتصدى له رد جماعى عربى .

كان نصيب لبنان من هذه الخطة سربًا من الطائرات ، ورادارًا .. على اعتبار أنه يملك مناطق استراتيجية عسكرية مهمة على رءوس قمم الجبال . وخوفًا من وقوع هجوم على لبنان يدمر طائراته وراداره ، تقرر إعطاؤه أيضًا بطاريات صواريخ أرض / جو . وبعد أن وزعت الخطة انتقل البحث إلى التكاليف .. وتحديد الجهات العربية التى ستتولى التمويل .

ولأسباب سياسية رفض لبنان شراء الأسلحة السوفيتية .. وطالب بإعطائه الثمن على أساس سعر السلاح السوفييتى ليشترى السلاح من فرنسا .

وبالفعل ، سارت الأمور بعد ذلك بشكل طبيعى ، وبدأ لبنان مفاوضاته مع فرنسا لشراء الميراج والرادار وصواريخ الكروتال ، إلى أن وقعت حرب ١٩٦٧ فانقلبت كل المقاييس .. وتبدلت الظروف .. فألغيت القيادة العربية الموحدة من جهة ، ومن جهة أخرى نسف مشروع تحويل الروافد بعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية ، وبالتالى ، تخلت الدول العربية عن التزاماتها بدفع ثمن السلاح اللبنانى .

ذلك أنه بعد تبدل الظروف عقب النكسة ، وتبدل الاستراتيجية العسكرية العربية ، بدأ التفكير اللبنانى يتجه بالتشاور مع الدول العربية نحو إبدال السلاح الفرنسى بآخر سوفييتى يتوافق مع ظروف مرحلة ما بعد يونيو ١٩٦٧ ، ومع أوضاع لبنان وظروفه ، بحيث تكون لديه صواريخ نقالة وغير ثابتة تكون عرضة لعمليات نسف إسرائيلية .

وقوبل هذا التبدل فى السياسة والتسليح بغضب أمريكى .. فقد رفض سيسكو مساعد وزير الخارجية الأمريكية مقابلة السفير اللبنانى ثلاث مرات ، ودفع الدكتور إلياس سابا وزير الدفاع الوطنى اللبنانى ثمن مغامرته بشراء أسلحة سوفييتية بأن أبعد عن منصبه .

وخلال عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٢ عاش لبنان مأساة خلافه مع الفلسطينيين ، ووقعت حوادث مايو ١٩٧٣ وتدهورت علاقاته مع الدول العربية ، لكن هذه السياسة ما لبثت أن تبدلت بعد ذلك ، وتساقطت نظرية الاعتماد على الحماية الأمريكية ، وعاد لبنان بعد حرب أكتوبر إلى اعتماد سياسته الأولى وهى سياسة الانفتاح على العرب، وعلى المقاومة الفلسطينية، واعتبار ما يتعرض له لبنان إنما هو قدره ، وأنه لابد من التنسيق مع العرب والمقاومة للذود عن أجوائه وسيادته .

وتجلت هذه السياسة الجديدة بذهاب الرئيس سليمان فرنجيه إلى الأمم المتحدة ليقول كلمة العرب فى القضية الفلسطينية ، وتجلت أكثر بتخلى لبنان عن فكرة إخلاء المخيمات الفلسطينية من الأسلحة الثقيلة ، وساد شعور ضمنى بأن هذا السلام فى المخيمات هو قوة للبنان ، واللبنانيين .

لم تقف إسرائيل ساكنة أمام تلك التبدلات ، فقد استشعرت بأن لبنان بدأ يسير بخطى ثابتة للانتقال من مرحلة الدولة « المساندة » إلى مرحلة الدولة « المواجهة » ، وبالتالى فإن هذا يسقط اتفاقية الهدنة التى وقعت بينهما عام ١٩٤٩ ، وهذا التحول على أهميته البالغة جاء صريحًا فى كلمة فيليب تقلا وزير الخارجية اللبنانى أمام لجنتى الدفاع والخارجية بالبرلمان ، حيث أكد على ضرورة أن يتسلح لبنان ويدافع ، ويحارب ، إذ لم يعد له خيار سوى ذلك ، لأن لإسرائيل أطماعها فى لبنان سواء أكانت هناك مقاومة فلسطينية أو لم تكن .

السفير الأمريكى المذلول

وبينما خطوط السياسة اللبنانية الجديدة تتشكل .. كانت إسرائيل تراقب فى قلق وحذر، فمعنى أن يلجأ لبنان إلى « الشرق » تلاحمًا مع دول المواجهة أن تفتح جبهة عربية خامسة ضد إسرائيل ، تضطرها إلى تغيير استراتيجيتها العسكرية كلها ، ويحل بذلك السخط الإسرائيلى والأمريكى على لبنان .

لقد كان الرئيس اللبنانى سليمان فرنجية يعلم جيدًا أن أسلحة جيشه قديمه ومهترئة ، يعود عهد صناعتها إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية ..(!!).. ويعلم أيضًا أن لا قبل للبنان بمحاربة إسرائيل ، أو مواجهتها ، أو صد هجماتها الاستعراضية .

كان لا يزال يذكر ما قاله الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لمسئول لبنانى كبير ، طلب منه احترام وضع لبنان الخاص .. وإبقائه خارج دائرة الصراع العربى الإسرائيلى .

لقد استرسل عبد الناصر فى عرض وجهة نظره وأجاب :

« لا أريد أن أسأل إلى متى يستطيع لبنان أن يتحمل عبء هذا الوضع الخاص . ؟ فى مؤتمر الإسكندرية طلبتم منى أن أساند موقفكم يوم هاجمكم الرئيس العراقى عبد السلام عارف .. واتهمكم بأنكم تعيشون تحت حماية المظلة الدولية ، ولقد نجحت فى عزلكم عن التزامات الدفاع بحجة العودة إلى برلمانكم .

لقد دفعت مصر كثيرًا ثمن الالتزام بالمادة الأولى من الدستور .. والتى تقول بأن مصر جزء من الأمة العربية . والدستور اللبنانى يقول « لبنان ذو وجه عربى » ، والالتزام بشعارات هذه العبارة لا يعنى أن لبنان عربى فى السلم ، وعربى أثناء المطالبة بودائع البترول ، وعربى لتأمين الخدمات التجارية والسياحية والسوق الحر ، بل هو عربى أيضًا فى أوقات الحرب » .

مقولة عبد الناصر تلك كانت تهز فرنجية من أعماقه ، لذلك ، دفع بلبنان للحضن العربى بكل قوته ، متحديًا التهديدات الغربية بخنقه اقتصاديًا ، بل ومتحديًا مطالبة الأمريكيين له بعدم الاتجاه « شرقًا » وإلا فسيطلقون عليه وحش إسرائيل وثعابينها .

وفى أول رد فعل له ، ثأر فرنجية لسفيره بأمريكا الذى أهانه سيسكو « مساعد » وزير الخارجية ثلاث مرات ، ورفض هو الآخر مقابلة السفير الأمريكى « جودلى » مرات ومرات ، برغم أنه يحمل رسالة هامة من الرئيس جيرالد فورد ، يعرض فيها رغبته فى زيارة لبنان ، فأذل بذلك السفير الأمريكى ، وأوقع فورد فى حرج دولى بالغ ، بل وحطم العنجهية الأمريكية التى احتلت بوروتوريكو مائة سنة لأن ضابطًا من البحرية الأمريكية قد ضُرب فى الشارع هناك .

لكل ذلك ، أعطت أمريكا الضوء الأخضر لإسرائيل لتعربد فى لبنان ، وتضرب النبطية ضربات مستمرة متلاحقة ، ويتسع نطاق ضرباتها لتشمل مخيمات اللاجئين حتى فى بيروت نفسها .

وبدأ دور المخابرات الإسرائيلية فى عرقلة التبدلات اللبنانية ، وقطع خطوط التوافق والتمازج بين لبنان والعرب ، مستغلة أزمة إحراج الرئيس الأمريكي ومذلة سفيره باللجوء لأسلوب شبكات « التخريب » حيث رأت أنه الحل الأسرع ، والأصوب ، والأسهل ، ذلك لأنها جربته كثيرًا ، ونجحت ، ولها عشرات السوابق في ذلك أهمها فضيحة « لافون » في مصر ، وفضيحة تهديد وقتل علماء الصواريخ الألمان فى مصر أيضًا .

وكان أن جندت اللبناني خميس أحمد بيومي – ٣٤ عامًا – ودربته على أن يكون جاسوسًا بلا قلب . منزوع المشاعر وحشيًا في إجرامه ، لتنفيذ سياستها التخريبية في لبنان والضرب بلا رحمة في الصميم .

ضد لبنان نفسه

بالقرب من جامع الزعترى على المدخل الشمالى لمدينة صيدا ، ارتفعت البنايات الرائعة التى تقع على البحر مباشرة بطريق بوليفار ، المتفرع من الطريق السريع صيدا – بيروت .

بإحدى هذه البنايات ولد خميس بيومى لأسرة ميسورة جدًا كثيرة العدد ، فوالده مقاول كبير يملك مكتبًا فخمًا يموج بعشرات الإداريين .

وفي محيط هذا الثراء عاش خميس مدللاً ، مرفهًا ، منعمًا ، لا يعلم من أمر الدنيا سوى اللهو والسهر فى حانات بيروت ومواخير صيدا برفقة من يماثلونه ثراء ، وخواء . فنزف عمره بحثًا عن المتعة ومطاردة الحسان ، متجاهلاً نصائح والده الذى فشل فى الاعتماد عليه فى إدارة أعماله ، فتركه لحاله يائسًا ، غاضبًا ، على أمل أن يومًا سيأتي ويفيق إلى نفسه .

لكن أمله لم يتحقق في حياته ، إذ مات فجأة في حادث سيارة ، وانخسفت الأرض بأسرته لما تبين لها أنه مدين بمبالغ طائلة للبنوك ، وأفاق المُغيَّب على واقعه المؤلم وقد صفعته الصدمة وزلزلته الكارثة ، خاصة وقد تهرب منه أصدقاء الطيش وليالى النزق .

هكذا وجد نفسه العائل الوحيد لأمه ولإخوته الستة ، وكان عليه ، وهو الخاوى ، أن ينبذ ماضيه ليعبر بهم خضم الفقر ، والعوز ، والمعاناة .

فعمل كأخصائى للعلاج الطبيعى بأحد مراكز تأهيل المعوقين بصيدا ، وبعد مرور أربعة سنوات فى العمل ، اكتشف أنه كثور يجر صخرة يصعد بها إلى الجبل ، وفى منتصف المسافة تنزلق الصخرة ، فيعاود الكرة من جديد دون أن يجنى سوى الشقاء .

لذلك كره نفسه وكره واقعه ، وفكر بالهجرة إلى كندا وبذل جهدًا مضنيًا لكن محاولاته فشلت ، فخيمت عليه سحابات الغضب واليأس ، وانقلب إلى إنسان قانط ، عصبى ، عدوانى مكروه فى محيط عمله .

كانت تلك هى حاله ، إلى أن سقط وهو فى قمة ضعفه فى مصيدة الموساد بلا مقاومة ، وكانت قصة سقوطه سهلة للغاية ، وجاءت بدون ترتيب أو تخطيط طويل .

فذات صباح التقى بسيدة أرمينية مسنة ، جاءت لتسأله عن إمكانية عمل علاج طبيعى لابنتها المعاقة بالمنزل ، وأعطته العنوان لكى يزورها بعدما أطلعته على التقارير الصحية التى تشخص حالتها .

قرأ خميس فى حديثها وملبسها علامات الثراء ، فزار منزلها حيث كانت ترقد «جريس» بلا حركة ، طفلة فى التاسعة من عمرها بعينيها شعاعات الأسى والبراءة .

لعدة أسابيع .. دوام على زيارتها للعلاج إلى أن تصادف والتقى بخالها « كوبليان » تاجر المجوهرات ببيروت ، فتجاذبا معًا أطراف الحديث ، وقص خميس حكايته مع الشراء وليالى بيروت ، وصراعه المرير مع الفقر لينفق على أسرته ، وسأله كوبليان سؤالاً واحدًا محددًا ، عن مدى قدرته للإقدام على عمل صعب ، بمقابل مادى كبير ، فأكد خميس استعداده لعمل أى شىء فى سبيل المال .

سافر كوبليان إلى بيروت وقد خلف وراءه صيدًا سهلاً ، ضعيفًا ، يأكله قلق انتظار استدعائه .. وما هى إلا أيام حتى فوجىء كوبليان بخميس جاء يسعى إليه فى بيروت ، يرجوه أن يمنحه الفرصة ليؤكد إخلاصه ، فهو قد ضاق ذرعًا بالديون والحرمان ومتاعب الحياة .

رحب به عميل الموساد واحتفى به على طريقته، فقد أراد الشاب الحانق أن يجدد ذكرياته فى حانات بيروت، ولم يكن الأمر سهلاً بالطبع فسرعان ما انجذب خميس لماضيه ، وترسخت لديه فكرة العمل مع كوبليان كى لا يحرم من متع افتقدها .

كانت آلاف الليرات التى تنفق عليه فى البارات دافعًا لأن تزيد مـن ضعفه وهشاشته ، ونتيجة لحرمانه ، ورغبته ، لم يعارض مضيفه فيما عرضه عليـه ، وكـان المطلوب منه حسب ما قاله ، تهديد المصالح الأمريكية لموقفها مع إسرائيل ضد لبنـان ، وضد العرب ، ولما أنقده خمسة آلاف ليرة – دفعة أولى – قال له خميس إنه مع النقود ولو كان ضد لبنان نفسه .

ترويض القتلة

فى إحدى الشقق ببيروت ، أقام خميس أحمد بيومى ينفق من أموال الموساد على ملذاتـه ، وتعهد به ضابط مخابرات إسرائيلى ينتحل شخصية رجـل أعمـال برتغـالى اسمه « روبرتـو » ، يجيد التحدث بالعربية . فدربه على كيفية تفخيخ المتفجرات وضبـط ميقاتهـا ، وكـذا التفجير عن بعد ، وأساليب التخفى والتمويه وعدم إثارة الشبهات .

كانت عملية إعداد العبوات الناسفة من مادة T.N.T شديدة الانفجار صعبـة ومعقـدة ، تستلزم تدريبًا طويلاً . خاصة وخميس لم يسبق لـه الالتحـاق بـالجيش ، ولا يملـك أيـة خبرات عسكرية تختصر دروس التدريب .

وفى أولى عملياته التخريبية ، صدرت إليه الأوامر بتفجير السفارة العراقية ببيروت .

سكت خميس ولم يعلق ، فقد تحسس جيبه المتخم بالنقود ، وحمل حقيبة المتفجرات بعدما ضبط ميقاتها ، وتوجه إلى مبنى السفارة فى هدوء وثقة ، وغافل الجميع عندما خرج من المبنـى بدون حقيبته التى تركها بالصالة الرئيسية خلف فازة ضخمة ، ووقف عن بعـد ينتظر اللحظة الحاسمة .

نصف الساعة وملأ الحى دوى الانفجـار ، وقتـل تسعة بينهـم خمسـة لبنـانيين[1] .ولاهثًا خائفًا عاد إلى شقته ، ولحق به روبرتو ليجده على هذا الحال ، فيصفعه بعنف قـائلاً إنـه يعـرض نفسه بذلك للخطر .

وقف خميس مكانه ساكنًا شاحبًا ، بينما تنهال عليه كلمات اللـوم والتقريع والسباب ، ومعنى سكونه ما هو إلا خضوع وليـس بنـدم ، فالسيطرة عليـه كـانت مطلوبـة عنفًا ولينًا ، ترهيبًـا وترغيبًـا ، منحًـا ومنعًـا ، فتلـك أمـور يجيدهـا خبـراء السيطرة والالتفـاف فـى أجهـزة المخابرات ، وهم أدرى الناس بكيفية التعامل مع الخونة والجواسيس .

---

(١) قتلت فى الحادث بلقيس زوجة الشاعر نزار قبانى .

ذلك أنهم يخضعون تصرفاتهم وردود أفعالهم وفقا لنظريات علمية مدروسة ومحسوبة بدقة ، وليس لمجرد هوى فى النفس .. فترويض الخونة فى شبكات التخريب أمر بالغ التعقيد والصعوبة بمكان ..!!

وعندما أذاع التليفزيون حادث التفجير ، وملأت صور الضحايا والمصابين الشاشة ، كان روبرتو يراقب خميس عن قرب ، ويدرس تفاعلاته وانفعالاته ، وكانت المسألة مجرد تدريب على وأد مشاعره ، وقتل أية محاولة للرفض ، أو التمرد ، أو الندم .

كانت إسرائيل تقصد من تفجير السفارة العراقية ببيروت إشعال الشقاق بين الدولتين ، وتأجيج الخلاف بينهما . فالعراق كان يسعى وبشدة لتقوية أواصر العلاقة بين لبنان والاتحاد السوفييتى ، ويؤيد لبنان فى خطواتها نحو الاتجاه إلى « الشرق » ، وكانت إسرائيل تقصد أيضا توجيه الاتهام إلى المقاومة ، مما يفقدها التأييد اللبنانى والمساندة .

ونظرًا لظروفه السيئة .. أغدقت الأموال على خميس بيومى فكفر بعروبته ، وتحول بعد مدة ليست بالطويلة إلى دموى يعشق القتل والدم ، بل إنه استطاع تجنيد لبنانى آخر اسمه « جميل القرح » كان يعمل مدرسًا وطرد من عمله لشذوذه مع تلاميذه الأطفال . فتصيده خميس وجره إلى نشاطه التخريبى ، وبارك روبرتو انضمامه للشبكة ، ولم يستغرق تدريبه هو الآخر وقتًا طويلاً ، فلسابق خدمته فى الجيش كان أكثر تفهمًا لخطوات التدريب .. وأعمته الموساد بالأموال أيضًا فغاص لأذنيه فى التفجير والتخريب وقتل الأبرياء .

هكذا انضم قاتل إلى قاتل ، وشكلاً معًا فى النهاية شبكة من الإرهاب هزت أعمالها بيروت .

صواريخ السيارات

وفى التاسعة صباح الثلاثاء ١٠ ديسمبر ١٩٧٤ بينما عدد كبير من موظفى مكتب منظمة التحرير بمنطقة كورنيش المزرعة ، يقومون بأعمالهم اليومية الاعتيادية ، هزهم انفجار قوى ، تبين أنه حدث فى الطابق الأول من المبنى حيث يوجد معرض « ذبيان وأيوب » للمفروشات . وعثر رجال الأمن على السيارة فيات «١٣٢» بيضاء اللون تقف على الرصيف المواجه .. ووجدوا على سطحها قاعدة لإطلاق أربعة صواريخ - أر . بى . جى - بلجيكية

الصنع عيار «٣» بوصة ونصف ، مركزة على لوح خشبى متصل بأسلاك كهربائية منها انطلقت الصواريخ .

ووسع رجال الأمن دائرة التفتيش ، فعثروا على بعد ٦٥ مترًا من السيارة الأولى ، على سيارة ثانية فيات أيضًا .. وعلى سطحها صندوق خشبى آخر تخرج منه أسلاك كهربائية متصلة ببطارية السيارة .

أخليت مكاتب المنظمة وسكان البناية ، وقبيل مجيء خبير المفرقعات ، شوهد الصندوق الخشبى يفتح أتوماتيكيًا لتنطلق منه ستة صواريخ آر . بى . جى ، فتصيب مباشرة مكاتب المنظمة وتحطم واجهاتها ومحتوياتها .

فى الوقت نفسه تقريبًا ، تعرض مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير ، والكائن بالطابق الثاني من بناية الدكتور راجى نصر ، فى شارع كولومباني المتفرع من شارع أنور السادات ، لهجوم صاروخى مماثل ، إذ انفجرت داخله أربعة صواريخ دفعة واحدة ، انطلقت من على سطح سيارة «أودى١٨٠» ، وعثر إلى جانبها على غليون خشبى ، وأسفرت العملية عن تدمير القسم الأكبر من مكتبة المركز التى تضم أكثر من ١٥ ألف كتاب وإصابة العديد من المواطنين والسيارات .

وبعد مرور عدة دقائق من هذه الانفجارات ، تعرض مكتب شئون الأرض المحتلة فى الدور الأول من بناية الإيمان لصاحبها جعيفل البنا ، والكائنة بشارع كرم الزيتون إلى هجوم رابع مماثل بأربعة صواريخ .

لقد كان خميس أحمد بيومى ذا دور فعال فى التفجيرات الأربعة ، يشاركه جميل القرح وثلاثة جواسيس آخرين استطاع القرح تجنيدهم وضمهم إلى الشبكة الإرهابية ، وكان أسلوب منصات صواريخ السيارات أسلوبًا جديدًا لم تعرفه بيروت من قبل ، أو أية عاصمة عربية أخرى .

ولم يقف الأمر عند تفجير سفارة العراق ومكاتب المنظمات الفلسطينية ، بل تعداه إلى ما هو أبعد بكثير ، إذ طالت الانفجارات الكنائس والمساجد لإثارة الفتن بين الطوائف ، وإظهار عجز رجال الأمن اللبناني عن اكتشاف الجناة ، أو إحباط المؤامرات التى تحاك فوق الأرض اللبنانية .

ولأسباب كثيرة ، أولها أن الأجهزة اللبنانية ترى أن التعاون مع أجهزة الأمن الفلسطينية أمر معيب ومسيء لسمعتها . وثانيها ، أن الدولة اللبنانية لاتزال تفضل السياحة على الأمن ، والسبب الثالث ، التأرجح ما بين دولة المساندة ودولة المواجهة ، لتلك الأسباب ، كانت شبكة خميس بيومي والعديد من الشبكات التخريبية الأخرى ، تعمل في لبنان بحرية مطلقة ، وينسل أفرادها من بين رجال الأمن كالرمال الناعمة .

هكذا أوقعت شبكات التخريب لبنان في مستنقع عميق ، وتأزمت العلاقة مع الفلسطينيين بسبب اللامبالاة اللبنانية في مطاردة العملاء ومحاكمتهم .

وحدث أن ألقت قوات الأمن الفلسطينية القبض على بلجيكي قبل أيام من التفجيرات الأخيرة ، بعدما تأكد لديها أنه جاسوس إسرائيلي ، وأثناء التحقيق معه قامت القيامة ، واشتد الضغط اللبناني لإطلاق سراحه ، فسلموه للسلطان الأمنية مع ملف يحتوى اعترافاته ، ليطلقوا سراحه بعد ٢٤ ساعة .

أما الذين سمح للفلسطينيين بالتحقيق معهم ، فقد اعترفوا اعترافات كاملة بأنهم عملاء للموساد ، وثار الشيخ بهيج تقي الدين وزير الداخلية اللبناني للملاحقة الفلسطينية الدءوبة للجواسيس الأجانب ، واشتدت الأزمة واستحكمت حلقاتها بعد موجة التفجيرات التي هزت لبنان كله ، لدرجة توجيه نداء في الصحف يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر ١٩٧٤ للذين يزرعون القنابل والصواريخ ، أن يعلنوا « الهدنة » لمدة ٤٨ ساعة تبدأ قبل رأس السنة بيوم واحد ، تمامًا كما حدث في بريطانيا من قبل مع ثوار إيرلندا ، وكتبت الصحف في لبنان أنه : أمام عجز الدولة عن إلقاء القبض على أي متهم بزرع القنابل ، لا مفر لديها من أن تلجأ إلى عاطفته الإنسانية ، و « ترجوه » أن يتوقف ليومين أما إذا لم يستجيب زارعو القنابل لرجاء الحكومة ، فلا مانع من إعلان بيروت مدينة مفتوحة لمدة يومين ، وليتحمل زارعو القنابل مسئوليتهم أمام الضمير الإنساني ، والتاريخ . « !!! » .

إنه أغرب نداء ، ورجاء ، لكن ، هذه هي الحقيقة المؤلمة ، هذا ما حدث بالفعل في لبنان عام ١٩٧٤ .

وفي التاسع من يناير ١٩٧٥ ، وبينما الندف الثلجية البيضاء تتطاير في الهواء ، ثم تتهادى كالرزاز لتستقر فوق الأرض ، وعلى أسطح المنازل وأغصان الشجر ، ألقى رجال

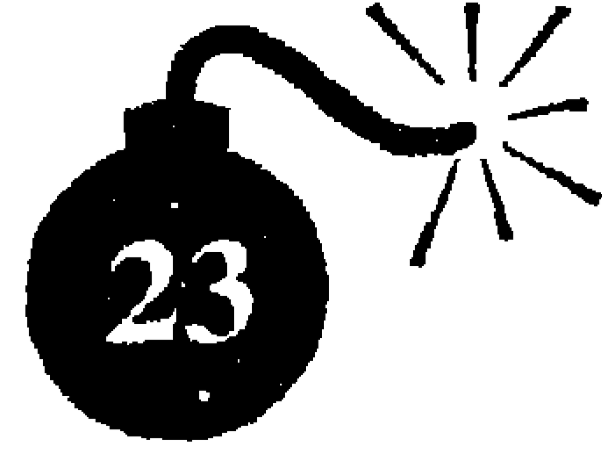
الأمن الفلسطينيون القبض على خميس بيومي بشارع كورنيش المزرعة ، عندما كان يرسم لوحة كروكية لأحد مباني المنظمة الفلسطينية .

وأثناء التحقيق معه استخدم كل أساليب المراوغة والدهاء .. واحتاط لعدة أيام كي لا يقع في المحظور . لكن الاستجواب المطول معه أصاب مقاومته في الصميم ، وتلاشت رويدًا رويدا خطط دفاعاته وهم يلوحون له باستخدام طرق التعذيب معه لانتزاع الحقيقة .. وبوعد منهم بعدم إيذائه اعترف بكل شيء ، فألقى القبض على جميل القرح الذى مات بالسكتة القلبية قبلما يعترف بأسماء أعوانه الثلاثة الآخرين ، هكذا كتبت لهم النجاة حيث لا يعرف خميس إلا أسماءهم الحركية ، أما روبرتو فقد اختفى ولم يقبض عليه أبدًا ، وتسلمت السلطة اللبنانية خميس بيومي وقدمته للمحاكمة وعوقب بعشر سنوات في السجن ، «!!!» .

تلك كانت محصلة إحدى شبكات التخريب في لبنان ، زرعتها إسرائيل لزعزعة استقراره ، واستنفار العرب منه ، وجره بعيدًا عن « المواجهة » ، و « الشرق » .

فهل نجحت إسرائيل ؟ ، عليكم أنتم بالإجابة . !! .

أحمد ضاهر .. جاسوس نظرية الصدمة .. !!



سقطت مغشيًا عليها .. وسقط الجنين .. وتكر السنون تطرحها على كل الشواطيء فلا تنسى .. فالنار تأكل فؤادها .. وعقلها .. وتلتهم جذور صبرها بلا هوادة .

استغل هو معاناتها .. وضغط بقوة على براكين آلامها .. ففجَّرها .. وأشعل بداخلها ثورة من جنون غاضب .. متمرد ، وصرخت : سأحرق قلوبهم وأنسف أفراجهم .. إنني أتشوق للعمل معكم بشرط ألا أتعرى .. أو أضاجع حيوانًا منهم مهما كان مركزه .

هكذا بدأت « نورما عسَّاف » في لبنان ..

رحلة الانتقام .. والثأر .. والكراهية ..!!

شبكات التعقب

عندما تتجسس المخابرات الإسرائيلية على الدول العربية ، فهي إنما تسعى لمعرفة أدق الأسرار الحربية والسياسية والاقتصادية لتبنى استراتيجياتها المختلفة . أما في لبنان ، وفي حالة الجنوب اللبناني بالذات ، فالوضع يختلف كل الاختلاف ، إذ إنها تتعامل مع منظمات ثورية وجماعات فدائية دائمة التنقل والحركة ، تخطط لعمليات هجومية وانتحارية فجائية يصعب رصد مقدماتها أو توقيتها ، مما يشكل عبئًا ثقيلاً على القوات الإسرائيلية ، التي تظل في حالة طوارىء مستمرة توقعًا لكل شيء .

لهذا سعت الموساد لتجنيد أكبر عدد من سكان القرى الحدودية لإمدادها بأخبار فورية عن الفدائيين ، معتمدة في ذلك على أسلوبين من العمل التجسسي :

١ – جاسوس يعمل منفردًا ، موثوق في إخلاصه وصدق معلوماته وأخباره ، غير مطالب بالبحث عن خونة آخرين لتكوين شبكة جاسوسية « وهو يختلف عن جاسوس المهمة الواحدة » .

٢ – شبكة جاسوسية تضم أكثر من عميل في عدة مواقع .

والشبكة عادة ما تتكون إما عن طريق جاسوس ماهر أعطى أمرًا بتجنيد آخرين لمعاونته ، وإما بإلحاقه تحت إشراف جاسوس آخر ، أو شبكة مؤلفة سلفًا .

لقد انفردت لبنان – عن بقية الأقطار العربية بكثافة عدد الجواسيس داخل الشبكة الواحدة . فعندما ضبطت السلطات الأردنية إحدى شبكات الموساد ، وتبين أن أعضاءها وصل عددهم لـ «٣٧» جاسوسًا ، تملكنا العجب . لكن .. أن تسقط في لبنان أوائل العام ١٩٩٩ شبكة واحدة مؤلفة من «٢٠٠» عميل للموساد ، فذلك هو الأعجب حقًا .. والدليل الذى لا يحمل تأويلاً على ازدهار النشاط التجسسى الإسرائيلى في لبنان .. مما يعطينا مؤشرًا لمدى الرعب الإسرائيلى والهلع من عمليات الفدائيين الفجائية ، برغم وجود ثلاثة آلاف عميل يتألف منهم جيش لبنان الجنوبى .

لكل ذلك نخلص إلى حقيقة جلية ، أن الجاسوسية الإسرائيلية في لبنان هي عماد الأمن الذي تنشده ، ومن هنا تتعامل الموساد مع ما بثته اللاسلكيات في لبنان بشكل مغاير تمامًا لمثيلاتها في الأقطار العربية الأخرى . إذ تتخذ الاستعدادات الأمنية الضرورية بمنتهى السرعة في سباق مع الزمن . فالتحركات الفدائية تتسم دائمًا بسرعة الحركة والفعل .. ولا وقت للتريث ريثما يتأكد صحة البلاغ أو الخبر .

تمامًا ، عكس الشبكات في الدول العربية الأخرى التي لا تأخذ الموساد أخبارها بمحمل الجد ، إلا إذا جاء ما يؤكدها من خلال شبكة أخرى داخل القطر نفسه . لكن هناك حالات استثنائية جدًا ، كانت فيها الموساد تثق في صدق المعلومة المبثوثة إليها دون أدنى مراجعة ، للثقة العالية في مصدرها[1] .

وفي القصص السابقة تعرفنا على العديد من حالات التجسس المنفرد .. ونتعرف من خلال هذه القصة على نموذج آخر لأساليب التجسس الإسرائيلي ، وهو نظام شبكة الجاسوسية المكلفة بتتبع الفدائيين والتغلغل في مهارة داخل نسيجهم للحد من عملياتهم وتسللهم عبر الحدود . فتلك هي وظيفتها الأساسية ، بعيدًا عن القيام بأعمال تخريبية في لبنان، أو ترويج الإشاعات ، أو المساعدة في تسهيل مهام الاغتيالات لزعماء الثورة الفلسطينية .

راقصة المونتريكال

بداية .. أشير إلى أن المقاومة الفلسطينية في الجنوب اللبناني بالذات لم تتوقف أو تكف عن إنهاك إسرائيل منذ قيامها ، وكان ذلك من خلال عمليات محدودة وغير منظمة . استمر هذا الوضع حتى أعلنت منظمة التحرير عن نفسها عام ١٩٦٥ ، فاشتعلت المقاومة ، وتضاعفت حدتها ضراوة بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، ثم ازدادت اشتعالاً بعد أحداث أيلول الأسود ١٩٧٠ ، وطرد المقاومة من الأردن إلى لبنان .. فقد تصاعدت العمليات الفدائية بشكل انتقامي متصل ومنظم ، لا يهدأ سواء عبر الحدود ، أو بدفع لنشات الفدائيين عبر البحر المتوسط للمدن الساحلية والمستعمرات الإسرائيلية ، والقيام بعمليات غاية في الجرأة والجسارة داخل الأرض المحتلة .

---

(١) (هذا ما كان يحدث بالضبط مع إيلي كوهين في سوريا ، والرائد فاروق الفقي ، وولفجانج لوتز في مصر وغيرهم . فهناك حسابات معقدة وراء تلك الأمور) .

كان الأمر بحق مرعبًا في إسرائيل ، ولهـذا لجأت الموساد لأسلحتها الفتاكة المعتادة – الجنس والمال – للحد من هجمات الفدائيين ، وبرعت في تصيد عدد كبير من الخونة لإمدادها بتحركاتهم وخططهم ونواياهم . وكان من بين هؤلاء الخونة « أحمد ضاهر » ٣٧ عامًا من بلدة « عيترون » الواقعة على بعد خمسة كيلو مترات من الحدود الإسرائيلية جنوبي لبنان .

فمن هو أحمد ضاهر؟ وما الظروف التي دفعت به إلى السقوط في مصيدة الخيانة ؟ وكيف استطاع تأليف شبكته الجاسوسية ؟

إنها قصة طويلة مثيرة بدأت أحداثها في بيروت عام ١٩٦٩ .. عندما قرر أحمد ضاهر فجأة أن يغلق دكان بقالته في « عيترون » ويهجر حياة البساطة إلى أضواء بيروت ، يراوده حلم الشهرة في عالم الغناء والطرب .

وما أن احتوته المدينة الجميلة الساهرة ، حتى اجتاحه إحساس جميل بمستقبل مشرق ينتظره .. وشعور بالأمان طالما افتقده منذ أنهى الخدمة في الجيش اللبناني – كرقيب متطوع – إثر حادث سيارة ترك بصماته بعظام ساعده الأيمن . واستطاع وقتها ، بالمكافأة المادية التي حصل عليها ، أن يفتتح محلاً بسيطًا للبقالة في قريته .

إلا أن مطالب أمه العجوز وزوجته رباب وأولاده الأربعة كانت أكبر من دخل دكانه ، مضافًا إليها مجموع ما ينفقه على شراء أسطوانات الأغاني والمجلات الفنية ، التي تقربه دائمًا من عالمه الذي يسبح فيه خلال إرهاصاته ليل نهار .

وجمعته هواية الفن بشاعر حالم اسمه « كمال المحمودي » ، دأب على السهر معه ، وانتقاء ما يصلح من أشعاره للغناء . فامتزجا معًا يحلمان بالشهرة وبالمجد ، ويبعثران أحلامهما عند انقضاض الواقع ، ولما سافر كمال المحمودي إلى بيروت يبحث عن فرصة تحقق لهما الأمل ، كتب إلى صاحبه ليلحق به . وأقاما معًا بشقة صغيرة تتألف من حجرة واحدة في حي بئر العبد ، الواقع ما بين المطار الدولي جنوبًا والمرفأ من الشمال ، يفصلهما عن حي الحمراء الشهير المدينة الرياضة ، وصبرا ، والمزرعة ، وتل الخياط .

مسافة كبيرة يقطعانها سيرًا على الأقدام في أحيان كثيرة ، يحملان معاناة المجد والحياة والأضواء التي أثقلتهما وأنهكتهما . فرحل الشاعر يائسًا إلى باريس ، وبقي أحمد ضاهر وحده ببيروت يصارع اليأس والجوع والتعب .

أربعة أشهر وهو ينقب عن فرصة للغناء فى كباريهات المدينة ، تعرف خلالها بفتاة ترقص الدبكة فى ملهى «مونتريكال» فى « جونية »[1] وقدمته لإدارة الملهى كمطرب من الجنوب . لكنهم عرضوا عليه أن يعمل كبودى جارد ، وأمام حاجته إلى المال ، وافق على العرض . وظل يعانى صراعًا داخليًا مريرًا أوصله إلى درجة السآمة .

فوار أنطلياس[2]

فى إحدى الليالى بينما يجتر حاله ، خرجت إحدى الزبونات تترنح لا تدرى أين أوقفت سيارتها . فساعدها فى البحث عنها لكنها لم تكن بحالة تسمح لها بالقيادة ليلاً . وأجابها بنعم عندما سألته عما إذا كان بمقدوره القيادة وتوصيلها لمنزلها .

وفى السيارة تأمل لأول مرة السيدة الحسناء التى عن يمينه ، وقد انحسر ثوبها الناعم القصير عن ثلثى ساقيها . وارتعش ثدياها النافران فى تمرد سافر لاهتزازات الطريق ، فأربكته لفتتها وقد قرأت فى عينيه أفكاره ، وسألته بصوت خفيض عذب مثير :

– بيظهر نظرك ممتاز .

أجابها وقد تمكن منه الإعجاب :

– يالطيف بحالى ، صوتك مثل اللوز الفرك ، بيقرش قرش

ضحكت فى تأوه لذيذ وهى تقول :

– شو ؟ تغنيلى قصيدة ؟

تذكر فى الحال حلمه الضائع ، فنسى جسدها المرمرى المثير وانطلق يحدثها عن أمانيه ، وحلم الهجرة إلى الشمال أملاً فى الغناء . وانتبهت إلى حديثه كأنما أفاقت من سكرها قليلاً وقد أخذ يشدو بصوت رخيم :

وكم أهوى سواد الليل فى العينين

حورية

(١) جونية : مدينة ساحلية رائعة تقع على بعد عشرين كيلو مترًا تقريبًا شمالى بيروت .

(٢) فوار انطلياس : بقعة رائعة الجمال تقع فى الشمال من بيروت بالقرب من الطريق إلى جونية .

وكم أهوى .. جنون الوهم .. أحياه

بأشواقى البدائية ..

عن الدنيا حكايات ..

عن الأنثى ..

عشيقاتى

الأساطير الخرافية

صاحت فى دهشة :

– صوتك شو حلو .. إنشالله بتغنى فى « الكوت دو روا »[1] ، ما تحير بالك .

وبدلاً من أن يواصل إلى بيروت – حيث تسكن فى حى الأوزاعى الراقى – أمرته أن ينحرف بالسيارة حتى وصل إلى مفرق ضيق دخل فيه بين غابة من الصنوبر ثم استقر أمام مقهى كبير تظلله الأشجار فقال :

– أين نحن الآن ؟

قالت وهى تهم بمغادرة السيارة .

– فوار أنطلياس .

تقدمته إلى ركن قصى ، وجلسا متقابلان على طاولة يجرى بموازاتها جدول صغير تترقرق موجاته مع حركة النسيم الرقيق .

مالت إلى الطاولة فظهر خليج صدرها الناصع يغور إلى الظلام ، وسألته عن اسمه وموطنه وظروفه فأجاب . فطلبت كأسين آخرين من « الجين » ، وبنظرة منها آمرة رفع كأسه وشربه . ومترددًا سألها عن اسمها فأجابته :

« كارلا » .

حاول ان يعرف المزيد عن شخصها فشردت ببصرها ورجته أن يؤجل ذلك لمرة قادمة .

---

(١) ملهى شهير ببيروت .

كانت برغم جمالها الأخاذ وأنوثتها الفتاكة في الأربعين من عمرها أو يزيد بقليل . يهودية لبنانية الأصل اسمها الحقيقي « نورما عساف » هاجرت مع أبويها وأختها « لـيز » إلى أمريكا عام ١٩٥٧ وهي في الثلاثين . فقد أعرضت عن الزواج بعد مقتل زوجها عام ١٩٥١ على يد الفلسطينيين ، عندما ضبطوه يتجسس على مواقعهم بالقرب من « قلعة شقيف »[١] كانت قد اقترنت به وعمرها تسع عشرة سنة عام ١٩٤٧ بعد قصة حب مجنونة اشتهرت في « أهدن »[٢] ولما جاءها نبأ مقتله كانت حاملاً في شهرها الثاني ، فسقطت مغشيًا عليها ، وسقط الجنين ، وضاعت فرحتها منذ تلك اللحظة .

ولمدة طويلة انغلقت على نفسها وتعثرت دراسيًا بالجامعة الأمريكية ببيروت ، إلى أن تماسكت شيئًا فشيئًا ، فامتثلت للحقيقة وأكملت دراستها في الفلسفة وعلم الاجتماع ، لكنها كانت في كل حظة تضعف فيها عند هجوم الذكريات ، تزداد يقينًا بأنها لم تنس الحبيب والزوج القتيل .

تكر السنوات وتطرحها موجات الحياة على الشواطيء فلا تنسى ، وتظل حبيسة الماضي الذي يأبى أن يغادرها . واعتقد أبواها بأن الهجرة قد تنسيها معاناتها ، وتمزجها بالمجتمع الجديد بعيدًا عن لبنان ، لكنهما كانا واهمان . فابنتهما كانت مكبلة بماضيها بحبال من فولاذ وصورة زوجها ماتزال تتدلى على صدرها ، أما خطاباته الغرامية فقد أودعتها علبة مزركشة برسوماته لا تغلق حتى تفتح . كانت هداياه أيضًا منثورة بكل أركان حجرتها ، وملابسه تحتل مكان الصدارة في دولابها . حتى أحذيته .. فكثيرًا ما كانت تتلمسها برفق وحنان وشوق مسعور . وضحكت ذات يوم وقد حدثتها أمها مترددة في أن تصحبها إلى الطبيب النفساني . فقالت لها :

« أتحسبينني جننت ؟ كنت أحب زوجي ولازلت ، ولن أسمح لرجل قط أن يلمس جسدي من بعده » .

---

(١) قلعة شقيف : قرية تقع في الجنوب اللبناني بها قلعة أثرية قديمة فوق مرتفع ، تطل على عدة طرق حيوية، اتخذ منها الفدائيون موقعًا استراتيجيًا لانطلاق عملياتهم ضد المستعمرات الإسرائيلية في الشمال .

(٢) أهدن : مدينة لبنانية تعد من أجمل المدن وتقع على منحدرات جبل المكمل بطرابلس .

كارلا استيفانو

فى شارع Multrie عاشت نورما بمدينة « شارلستون »[1] ، وافتتح أبوها مطعمًا بالقرب من الميناء يقدم الأطعمة الشرقية للبحارة العابرين . وفى منتصف ١٩٥٨ وفد إلى المدينة زائر تبدلت مع مقدمه حياة نورما تمامًا ، إنه « روبى » إبن عم زوجها ، الذى أنبأها بأنه هاجر إلى إسرائيل ، وقد وجاء إلى أمريكا ليتدرب فى أحد المصانع ، واندهش الشاب أمام تعلق نورما بحياتها فى الماضى وعدم رغبتها فى الخروج منها . وحاول معها كثيرًا لكنه فشل .

وفى زيارته التالية لم يجئ وحده ، بل كان بصحبته مراسل صحفى إسرائيلى ، عرض عليها للخروج من أزمتها أن تسعى للانتقام من قتلة زوجها ، وأن تطاردهم أينما كانوا .

جذبها حديثه وحرك فيها كوامن الثأر التى كم راودتها لكنها عجزت عن إيجاد الوسيلة لذلك . ولما سألته كيف تنتقم وتثأر (؟!!) أجابها بأن هناك وسائل شتى للانتقام وإراحة أعصابها ، ووعدها بأن يجيئها بالشخص الذى يعاونها .

وبعد أيام قلائل ، كانت تنصت باهتمام شديد لرجل لبق أنيق ، استغل معاناتها جيدًا وضغط بقوة على براكين آلامها ففجرها ، إنه « إبراهام مردوخ » ضابط المخابرات الإسرائيلى ..

لقاء واحد بينهما أشعل إبراهام بداخلها ثورة من جنون الغضب ، والحقد الأسود والكراهية للفلسطينيين ، ولم تنتظره ليعرض عليها العمل مع الموساد .. بل هى التى ضغطت فكيها توعدًا وصرخت فيه :

« سأحرق قلوبهم كما فعلوا بى ، سأنسف أفراحهم وأحلامهم .. إننى أتشوق للانتقام والثأر ، فألف كلب منهم لن ترويني دماؤهم » .

أجابها فى هدوء .

« سيدتى .. الغضب فى عملنا قد يكلفنا حياتنا . نحن نعمل بلا أدنى اندفاع ، فالحرص والذكاء هما مفتاح مهامنا وقوتنا ، وأساس عملنا فى جهاز المخابرات .

---

(١) شارلستون : Charleston أشهر مدن ولاية نورث كارولينا على ساحل المحيط الأطلنطى وبنيت عام ١٧٨٠م .

قالت :

إننى على استعداد تام للعمل معكم ، لكن بشرط . ألا أتعرى لرجل ، أو تضغطوا على لأضاجع حيوانًا عربيًا ، مهما كان مركزه ، لأجلب منه أسرارًا تريدونها .

ابتسم مردوخ ابتسامة باهتة لا تحمل معنى وعقب قائلاً :

« ليكن فى معلومك سيدتى إن الجنس أمر غير وارد فى عملنا ..(!!).. لكننا نلجأ إليه مع بعض العرب الذين يعيشون حالة شرسة من الجوع الجنسى ، والبعض الآخر يكتفون بالمال فقط للتعاون معنا . وعلى كل ، أعدك بألا نُعرّضك لأولئك الجوعى . فعندنا فتيات مدربات جيدًا للتعامل معهم » .

انتهى اللقاء بينهما .. وكان عليها أن تنتظر بضعة أيام ليجيئها الأمر بالسفر إلى تل أبيب. وقد حدث ، وطارت تسعمائة كيلو مترًا إلى نيويورك حيث التقت بمردوخ ، الذى شرح لها خطواتها القادمة ، وأطلعها على ما يجب أن تفعله فى روما .

فى روما كان ينتظرها شخص ما تسلم منها وثيقتها اللبنانية وسلمها وثيقة أخرى باسم « كارلا ستيفّانو » ، وظل يتابعها من بعيد حتى وهى تصعد سلم الطائرة الإسرائيلية المتجهة إلى مطار اللد

كانت تشعر بسعادة غامرة وقد أدركت أن هناك تغيرات جديدة اقتحمت حياتها . يحفها إحساس بالنشوة وهى مقبلة على الانتقام لزوجها ، وثمة تبدلات لذيذة اجتاحت مشاعرها عندما حلّقت الطائرة فى دائرة كاملة فوق تل أبيب ، قبل أن تهبط باللد على بعد سبعة عشر كيلو مترًا ، وهتفت :

ها هى إسرائيل أخيرًا .. الوطن الجديد والحلم والمعاناة . الوطن الذى قتل من أجله الحبيب ، ومن أجله أيضًا تسعى للثأر بقدميها .

حيّة بين الأفاعى

– أهلا بك فى إسرائيل مسز نورما .

صافحت اليد الممدودة فى سعادة ، وتأملت وجه الرجل البشوش اللطيف القسمات وهو يقول :

– نأمل أن تكون الرحلة طيبة .. من فضلك دعينى أحمل حقيبتك .. السيارة قريبة من هنا .

كان الاستقبال حافلاً وحارًا كطقس سبتمبر ١٩٥٨ . وأخبرها مرافقها أنها ستقيم بفيلا رائعة على شاطئ البحر فى « نتانيا » وأنها بعد الغد ستكون ضيفة شرف على مائدة أيسير هاريل[1] الرئيس الأعلى للمخابرات الإسرائيلية ، فى احتفال يقام بمناسبة مرور ستة أعوام على رئاسته للمخابرات .

---

(١) كان بن جوريون قد اختار هاريل فى ٢٠ سبتمبر ١٩٥٢ بسبب عقليته المتشككة ، من بين مزايا أخرى، بعدما عرف عنه أنه صائد ماهر للجواسيس ، طوال فترة رئاسته للشين بيت « الأمن الداخلى » .

ولد هاريل فى عام ١٩١٢ باسم « إيسير هالبيرين » بمنطقة « فولوزهين » فى روسيا القيصرية ، وكان أصغر أربعة أطفال لرجل أعمال ثرى ، وشب ذكيًا قصير القامة ، نشيطًا جدًا . التحق فى مراهقته بمنظمة صهيونية يسارية اسمها « هاشومير هاتزاير » – الحراس الشبان – تطورت فيما بعد وأصبحت حزب « مابام » اليسارى .

وفى عام ١٩٣٠ سافر إلى فلسطين وعمل فى إحدى الكيبوتسات . وبعد خمس سنوات .. غادر المزرعة الجماعية ومعه زوجته – رفقة – وبدآ عملهما الخاص بهما فى صناعة الخل وتغليف البرتقال . ومع نشوب الحرب العالمية الثانية ، انضم إلى منظمة الهاجاناة الإرهابية ، التى ارتكبت أبشع المذابح ضد الفلسطينيين ، ودخل فرع المخابرات فيها « شاى » وبعد ثمانى سنوات حقق تدريبًا كبيرًا ، لفت انتباه بن جوريون رئيس الوزراء ، فاختاره وهو فى السادسة والثلاثين أول رئيس للشين بيت «١٩٤٨–١٩٦٣» .

وفى الأربعين من عمره ، عين رئيسًا للموساد خلفًا لـ « روفن شيلواه » (أو روبين شيلواك ١٩٥١–١٩٥٢) ، وظل فى منصبه لأكثر من عشر سنوات ونصف السنة ، إلى أن قدم استقالته فى ٢٥ مارس ١٩٦٣ إثر فضيحة جوكليك الشهيرة بسويسرا .. ويرجع إليه الفضل فى إعادة تنظيم المخابرات الإسرائيلية .

انبهرت نورما بهاريل عندما قام لاستقبالها ، منحنيًا أمامها في احترام وهو يقبل يدها ويدعوها إلى مائدته .. وسرت بيدنها رجفة زهو سيطرت عليها بصعوبة .

التفت بوجهه الوديع ناحيتها وقال لها :

لتغفرى لى سيدتى أننى لم أكن فى شرف استقبالك بالمطار . إننى لفخور جدًا أن تنضم سيدة رائعة مثلك إلى أسرتنا فى الموساد .

ازدادت ارتباكًا لرقة حديثه وذوقه فى انتقاء كلمات الإطراء ، وتمتمت ببضع كلمات خجلى بدت غير واضحة ، فأخرجها من خلجها عندما وقف قائلاً :

« اسمحى لى مسز نورما أن أقدمك إلى كبار رجال الدولة فى إسرائيل » .

مشت إلى جواره ثم تأخر عنها خطوة وهو يقدمها لأكبر ضيوفه : بن جوريون رئيس الوزراء الذى قبل يدها وهنأها على سلامه الوصول . ثم قدمها لجولدا مائير وزيرة الخارجية ، ولبن زيون بنكوس وزير المواصلات ، ولشمعون بيريز وموشى ديان ، ولشخصيات عامة أخرى منهم إسحق يزير نيتسكى[1] ، ويهو شافاط هاركابى[2] ، ومائير يارى زعيم المابام ، والجنرال آموز مانور[3] ، والجنرال مائير باميت[4] ، وليلى كاستيل[5] ، وإلياهو ساسون ، وبنيامين بلومبيرج ، وغيرهم من مؤسسى إسرائيل وكبار رجالاتها .

أحست نورما عساف بأهميتها رغم ضآلتها . وأسلمت قيادها لفريق من أكفأ رجال الموساد قاموا على تدريبها وتلقينها فنون التجسس ، وطرق اصطياد الخونة وأساليب السيطرة عليهم .

أربعة أشهر كاملة فى نتانيا أخضعت أثناءها لدورات مكثفة فى التمويه والتخفى ، واستعمال المسدس ، واستخدام جهاز اللاسلكى فى البث بشفرة معقدة ، تستند إلى حروف من كلمات رواية « الأرض » للأديبة العالمية « بيرل بَكْ » وأطلعوها أيضًا على ملف كبير يحوى أعمال زوجها القتيل فى خدمة إسرائيل .

(١) زعيم عصابة ستيرن الذى غير اسمه لإسحاق شامير ، وتولى رئاسة الوزراء بعد ذلك .

(٢) رئيس المخابرات العسكرية « أمان » ١٩٥٥ – ١٩٥٩ .

(٣) تولى رئاسة « الشين بيت » لمدة ستة أشهر ، مارس – سبتمبر ١٩٦٣ .

(٤) تولى رئاسة الموساد خلفًا لهاريل فى مارس ١٩٦٣ حتى عام ١٩٦٨ .

(٥) أشهر النساء فى تاريخ الموساد ، عملت ابتداء من ١٩٤٥ ، وأطلق عليها لقب الأسطورة الحية ، وكان هاريل يعتمد عليها فى أعقد العمليات السرية ، وماتت إثر حادث فى عام ١٩٧٠ .

هكذا شحذوا همتها وأشعروها بأهمية دورها في لبنان ، وذلك للحد من العمليات الفدائية المتكررة التي تجيء عبر الحدود مع إسرائيل .

وفي ٢٣ يناير ١٩٥٩ غادرت نورما تل أبيب إلى روما ، وكان في استقبالها الشخص نفسه الذي قابلها عند مجيئها من نيويورك ، فتسلمت منه وثيقة سفرها اللبنانية وطارت إلى بيروت .

عشر سنوات في لبنان تطارد الفلسطينيين وتنقب عن ضعاف النفوس بين سكان الجنوب ، تساعدها في مهامها فتيات ذوات حسن وجمال أخاذ ، ينتشرن في كل أرجاء لبنان، منتدياتها ، وكباريهاتها ، وشواطئها ، وفنادقها . البعض منهن يهوديات يعرفن حقيقة نورما عساف ، والأخريات إما مارونيات أو أرمينيات يجهلن شخصيتها ، ينقدن لرغباتها أمام سطوة المال وسحره ، ويجتهدن في اصطياد الجنوبيين في بيروت ، والفلسطينيين اليائسين أيضًا .

عشر سنوات وشبكة نورما تبحث عن الخونة الذين يسهل إخضاعهم بالجنس وبالمال ، فتطويهم طيًا ، وتزرعهم في جُب الخيانة لخدمة إسرائيل ، وكان « أحمد ضاهر » أحد هؤلاء الذين تصيدتهم بمهارة ، فماذا حدث بعد لقاء فوار أنطلياس ؟.

في ذكرى بيار .. !!

بعد جلسة فوار أنطلياس انطلق أحمد ضاهر بنورما إلى شقتها ، مارا بطريق المرفأ مخترقًا حي المزرعة حتى الأوزاعي على لكورنيش ، وأمرته بالتوقف أمام إحدى البنايات العالية ، وطلبت منه أن يزورها بشقتها في اليوم التالي ، حيث تكون قد أجرت عدة اتصالات بشأنه مع بعض الملحنين .

هكذ أمضى ابن الجنوب ليلته يحلم بالمجد ، وينتظر موعد اللقاء على أحر من الجمر ، في ذات الوقت الذي كانت فيه نورما تضع خططها وتنصب شباكها لاصطياده .. إذ أدركت أنها أمام جنوبي قانط يبحث عن أمل .

وما أن حان موعد زيارته إلا وكانت في أبهى زينتها ، ووقارها .

فتحت له الباب خادمة تضج بالأنوثة وقادته إلى الصالون فانبهر بروعة الأثاث وفخامة الديكور ، وتوقف عند لوحة كبيرة ذات إطار محاط بشريط أسود . كانت اللوحة لشاب يبدو

في عنفوانه علقت حول رقبته عناقيد من الورد ، وأبانت ابتسامته الواسعة المتألقة أثار جرح قديم ممتد لأسفل ذقنه .

– بيار ، زوجي .

انتفض أحمد ضاهر واقفًا وهو يقول :

– الله يقدس روحه .

كانت ترتدى فستانًا طويلاً من الدانتيل الأسود ، وثمة حزن بالغ يجسم على ملامحها برغم ابتسامتها . جلست قبالته فى وقار أجبره على طرد ما فكر فيه بالأمس ، لما غزته الرغبة أمام مفاتنها . واندهش وقد لاحظ أنه يجلس على حافة الكرسى فى أدب جم .

أخبرته بأنها اتصلت بشأنه بالملحن المعروف « طنوس خورى » ، ووعدها بأنه سيستمع إلى صوته بعد عودته من أثينا بعد أسبوعين . وقالت أيضًا أنها اتصلت بالفنان «وديع الصافى» فوجدته يحيى حفلاته بأمريكا . وعندما دخلت الخادمة الفاتنة تدفع أمامها عربة الشاى ، تعمد ألا ينظر إليها ، واتجه ببصره إلى الأرض . فقد كان ثوبها القصير ذى الحمالات مقور الصدر ، يفضح نهدين متوثبين فى انحناءتها الطويلة .

نفرت أعصابه فتصبب منه العرق ، وأخذ يفرك أصابعه كطفل أغر ، ولم يدر لماذا خطرت بباله زوجته رباب فى تلك اللحظة بالذات ، وأجرى مقارنة سريعة وسخر فى نفسه لمجرد أن قارنها بالخادمة .

« رباب .. ؟ .. لا وجه للمقارنة أيها الأبله .. بقرة ضامرة الضرع والجسد وغزال بديع المحيا يتراقص رقصًا فى مشيه .. » .. وأخذ يشدو :

« إن أعصابى انتهت .

لا شيء باق .

فاعشقينى أبد الساعات رقصًا .

واغمسى أظفارك البيضاء فى عمرى .

ففيه تقرع الأجراس .

تحتد الطبول .

آه كم أصبحت مجنونًا ؛

وكم أحتاج أن أبكى على صدر دفئ ؟

يأوينى .. أنا الطفل الخجول .

فصحرائى انشقت .

وماضَى احتضار موحش .

قفر بخيل .

هتفت نورما فى إعجاب :

– صوتك شو كتير حلو .. ليش بدك تبكى على صدر دافىء ؟ افتكرت رباب ها الغبية ؟

– هون ما فى فرح « مشيرًا إلى صدره » .

– إنشا الله حياتك جميلة .

– عيونك بتطق مرار .

امتقع لونها وارتعشت خلجاتها ، وتنهدت فى أسى :

– اليوم مات بيار من تمنتاش سنة .. هالذكرى ما بتموت ، كان يحب لبنان وترابه ، ويحب كل العرب . اتنعصر حالو كتير واتبدل .. وصار يكره اليهود ويشْرُد ونا ويَّاه .

كنا عم نتمشى بالكورنيش طلت دموعه .. سألته شو صار .. ؟ حرقتنى زفراته وبحرقة لكز الأرض وقال :

هناك بفلسطين المدابح .. هناك فيه تقتيل ومعتقلات ومشردين ، وكل العالم طق حنك[1] ما فى .. وهون ، فيه رقص وطرب وسكرانين يدوروا عالبارات . الله يبيد اللى ما يدافع عالعروبة .

(١) الخرس – أو اغلق فمه .

« أجهشت بالبكاء » ..

مرت ليام وما عاد إلو أثر ، فارقنا بيار عالجنوب واندار يضرب مع الفلسطينيين في اليهود ، ولما صار يمرق عالحدود ، فجَّره لغم مزروع ، وما عثر حدا على رجوله « رجليه » ، ومات منزوف .

كان جسدها يهتز في انفعال وتأثر وهي تصف مشهد قتل زوجها . وكيف حملوه إليهابدون أطرافه السفلية .

لقد أجادت دورها ببراعة لا تملكها إلا ممثلة محترفة ، واستطاعت أن تستحوذ على تعاطف ضاهر وإشفاقه . وبلهجة وطنية طلبت منه أن يساعدها لتنتقم من الإسرائيليين . ولما أبدى عدم فهمه لطلبها قالت إنها تجد لذة كبرى وتشعر بسعادة غامرة كلما قرأت أو سمعت عن عمليات الفدائيين عبر الحدود ، ولكم تتشوق لمساندتهم والوقوف إلى جوارهم رغبة في الانتقام، وتعاطفًا مع قضيتهم . وأبدت استعدادها لإمدادهم بالمال ليتواصل جهادهم . ثم أظهرت إعجابها الشديد ببطولاتهم وسألت ضاهر فيما يشبه الانبهار :

كيف يعيش هؤلاء الأبطال ؟

كيف يتحركون ؟

كيف يتدربون ؟

كيف يتجمعون ؟

ما الطرق التي يسلكونها لعبور الحدود ؟

ما الأسلحة التي تنقصهم ؟

و .... إلخ .

الصّدمة

ألهبت حماستها مشاعره فكلمها عما يعرفه ، وفشل في الإجابة عن بقية تساؤلاتها لأنه - كما قال - عاش منكمشًا في بقالته ، لا يحفل بما حوله من تطورات تتصل بالفلسطينيين منذ ترك الجيش اللبناني .

عند ذلك أنهت الحديث عن الجنوب ، وطافت به في رحلة رائعة حول عالم الفن وأحلام الشهرة ، ثم نقدته مائتي ليرة ليقتني ملابس جديدة تليق بمقابلة الفنانين الكبار .

وفي زيارته الثانية لشقتها ، استقبلته خادمتها جورجيت بملابس تظهر أكثر مما تخفي . فمشى وراءها إلى الصالون مشدوهًا بترجرج مفاتنها، وثار بداخله وحش الرغبة يعوى عطشًا . وانبأته بأن سيدتها في زيارة لمخيمات اللاجئين في « صور » وهي على وشك العودة . فلما جاءته بكأس من العصير البارد اعتقد أنه سيخفف لسع النار بداخله ، لكن هيهات أن تخمد رعشة الوطر بكأس بارد .

دق جرس التليفون فنادته ، كان صوتها من بعيد يأتي آمرًا :

- أنا هون بصُورْ .. بتنتظرني .

أحس بلذة تسرى بأوصاله ، فما بين صور وبيروت يربو على الثمانين كيلو مترًا ، مسافة تقطعها السيارة في ساعة ونصف الساعة على الأقل . إنه بلا شك وقت ضئيل سيمر سريعًا على ملهوف مثله ، يجمعه مكان مغلق بأنثى بركانية المفاتن تتبختر جيئة وذهابًا فيلعق الشفاه الظمأى ، وتتصاعد من رأسه أبخرة الجحيم المتلظى .

حاول كثيرًا أن يتماسك أمامها ، أو يتظاهر بالثبات والهدوء ، لكن شيطان الرغبة كان يعض في أعصابه وينهش مقاومته بلا رحمة ، فيستسلم ابن الجنوب لابنة الموساد المدربة الماهرة، وقد تحول بين أحضانها اللافحة إلى طفل مشاغب أغر ، استلذ طعم النشوة ببحرها لا يريد شطا ولا نجاة .

لم يجل بناظريه بعيدًا عنها ، أو يلحظ الكاميرات الدقيقة وأجهزة تلقط الأصوات المبثوثة بالحجرة ، تسجل قمة لحظات ضعفه ، وشذوذه . فظمآن مثله لا يستطيع عقله المغيب ترجمة المعالم حوله . ذلك أن إعصار الرغبة أعماه ، وأغرقه في جاهلية المدارك وأغوار اللاشعور .

كانت نورما قد تغلغلت داخل البيئات الاجتماعية الفلسطينية في لبنان ، بادعائها التعاطف مع قضيتهم ، ودأبت منذ سنوات عملها لصالح الموساد ، على زيارة مخيمات اللاجئين الفلسطينية للوقوف على مشاكل سكانها ، والإنفاق بسخاء على المرضى والأطفال الأيتام ، فحظيت بذلك على حب سكان مخيمات الجنوب لما لمسوه منها من ود وتعاطف .

هكذا كان الأمر في الظاهر . وما لم يعلمه أحد أنها كانت تعد تقارير وافية ، تبعث بها إلى الموساد أولاً بأول ، عن أحوالهم وتوجهاتهم ومعنوياتهم ، مستعينة بشبكة هائلة من العلاقات مع رموز الفلسطينيين واللبنانيين ، تمكنت من خلالهم من الحصول على أسرار دقيقة أفادت مخابرات إسرائيل كثيرًا .

هذا ما حدث أيضًا بعد ذلك في السبعينيات ، عندما أرسلت الموساد الجاسوسة الأردنية « أمينة داود المفتي » لجلب معلومات عن القادة الفلسطينيين ، واستطاعت بسهولة أن تخترق أسرارهم لثقتهم بها كطبيبة عربية . كانت أمينة مدفوعة أيضًا بحب الانتقام من العرب ، الذين أسقطوا طائرة زوجها الحربية فوق الجولان واختفت أخباره . واستغلت الموساد محنتها بمهارة إلى أن تم كشفها ، وتركت لسنوات تواجه السجن والتعذيب المعنوى فى أحد الكهوف بجنوب لبنان .

وهناك أخريات كثيرات بعثن إلى لبنان للامتزاج بالنسيج الاجتماعى الفلسطينى ، بعضهن سقطن وبعضهن هربن . إلا أن نورما عساف كانت هى الأولى – حسب المعلومات المتوافرة – التى سبقت في هذا المجال ، فنجحت في مهمتها خير نجاح بفضل ذكائها ومواهبها ودافعها للثأر .

ولما عادت إلى بيروت بعد رحلة صور ، ابتسمت مرحبة بأحمد ضاهر ، وسألته هل قامت جورجيت بالواجب تجاهه ..؟ فكانت نظرة الرضا على وجهه تفضح جرعة « الواجب » التى حظى بها .

كانت ترتدى ملابس أنيقة محتشمة انتقتها بعناية ، وغلفت رنة حزن صوتها وهى تقول له : « إن أعصابها لم تعد تحتمل ما تراه فى الجنوب » . وانتبه لحديثها وهى تفيض

فى وصف المخيمات ، وحالة البؤس التى عليها سكانها ، ولما تطرقت فى الحديث عن الأطفال اليتامى ، سرحت ببصرها إلى ما وراء الجدران .. وترقرقت دموعها .. ثم طفرت بلا وعى منها .. فاختنق صوتها المتهدج وانتابتها نوبة من نحيب مرير . فقد هجمت غصبًا عنها ذكرى موت طفلها الجنين .. وتذكرت أمومتها المحرومة ولوعتها شوقًا لطفل تلده ، تذكرت أيضًا عمرها الزاحف للخريف وقد تساقطت منه السنون ، وينهش جمالها الزمان لولا المساحيق التى تلطخ بشرة هاجمتها تجاعيد الحزن والغضب .

أذكى شجنها لهيب الحسرة داخلها . فاستسلمت لقبضة الضعف تطبق على ثباتها فتسحقها سحقًا ، لكن ، أى صنف من النساء تلك المرأة ؟ .. لقد توقفت فجأة عن النحيب ، وتبدلت نظراتها الرقيقة الحانية إلى أخرى عنيدة .. شرسة ، ماكرة ، فجففت دموعها ونطقت بقرارها :

– الحين برتب تذكرتين لأتينا ، بدى أملص من هالكرب يومين باليونان . صار لازم ترافقنى .

بدون إرادة ، وجد نفسه إلى جوارها بالطائرة ظهر اليوم التالى .. وكانت خطة تجنيده فى اليونان قد تم وضع آخر فصولها .. مثل عشرات من اللبنانيين قبله رافقوها طواعية إلى « مصيدة العسل » طوال رحلتها المثيرة فى عالم الجاسوسية .

كانت خطة السيطرة والتجنيد تعتمد على أسلوب « الصدمة » الصدمة القوية الفجائية Stroke of Lightning التى تشل وعى الضحية ، وتفقده السيطرة على توازنه العقلى فيستسلم .

هذا الأسلوب ناجح جدًا ، وقد أجادته المخابرات السوفييتية بمهارة عندما كانت قوية ، وترفضه – أحيانًا – أجهزة المخابرات الأخرى معتمدة على نظريات خاصة بها .. إلا أن الموساد خاضت كل الأساليب والنظريات المختلفة ، وطورتها . وكانت نورما قد برعت إلى حد الاحتراف فى أسلوب التجنيد بالصدمة ، وهو أعلى درجات التمكن المهنى التى تتطلب ذكاء خارقًا يفوق الوصف .

مصيدة أوسيانوس

حلقت الطائرة فوق الأكروبول Acropolis [1] فى دائرة كاملة ، ليتمكن المسافرون من تصوير القلعة من كل الزوايا ، وفى ساحة المطار الخارجية كانت تنتظر سيارة ليموزين فخمة بداخلها جلست « أرليت » .. ملكة الإذابة.. رفيقة نورما ومحطة الخداع الأخيرة ، التى ليس لها حل فى جمالها .

صافحت أرليت ضيفها ونظراتها تخترقه ، فألهبته ، وأذابت عقله فى لحظات معدودة ، وفى بهو فندق « سالونيكا » ظهر « غسان » مهندس الإعداد والتنسيق .. فتعارفوا جميعًا على أنهم أصدقاء نورما .

وفى أثينا القديمة – البلاكا – تناولوا العشاء فى أحد المطاعم ، حيث تتصاعد الأنغام الصاخبة ، ويتألق الرقص الفولكلورى مجتذبًا السياح الذين انسجموا مع هذا الجو المرح ، فشاركوا فى الرقص الشعبى على أنغام « البوزوكيا » .

وبينما تصدح الموسيقى وتتعالى الضحكات ، أومأت أرليت إلى ضاهر فقاما إلى الرقص ، قاذفًا بشرقيته وبخجله وطفق يرقص فى نهم بلا كلل . ويمضى الوقت بهما سريعًا فيطل الفجر .. ويترنح ضاهر حتى يصل إلى سريره ، لينام بعد ذلك نومًا ثقيلاً ، استعدادًا لرحلة « أوسيانوس » .

كانت أوسيانوس[2] باخرة ركاب عملاقة ، تحتوى على ٢٣٥ حجرة مكيفة ، وحمام سباحة ، وساحة للاسترخاء ، وصالونات فخمة وبارات ومطعمين .

اجتمع الأصدقاء الأربعة على ظهر الباخرة ، كانت نورما لا تفارق مجلس غسان ، بينما انفرد ضاهر بأرليت كما تمنى . وبعد العشاء على أنغام الموسيقى الحالمة .. اختفيا عن الأنظار فوق السطح حيث أضواء النجوم وآهات العشاق وطرقعات القبل . حدثها كثيرًا عن نفسه فأفردت له مساحة كبيرة من الألفة قربتهما ، ونام يحلم حتى الصباح الباكر بأفروديت التى أيقظته بنقرات رقيقة من أصابعها على بابه :

---

(١) أكروبول : قلعة تقع فوق تل بأثينا .. واستخدم هذا الاسم للقلاع فى المدن الإغريقية الأخرى ومدن المستعمرات الإغريقية .. وتحتوى الأكروبول على بقايا أثرية قديمة أهمها معبد الإلهة أثينا .

(٢) اشتق اسمها من «أوسيانوس » إله البحر الكبير «المحيط» التى زعمت الأساطير الإغريقية أنه يطوف البحر ويحرسه .

– هايدى رحلة ياكسلان ، نحنا عالسطح منشان بنشوف « الميكونوس » الجميلة ..

فرت من أمامه تجرى ضاحكة ، وعلى عجل ارتدى ملابسه وأدركها .. بعد قليل أطلت جزيرة ميكونوس Mykonos بشوارعها الضيقة البراقة ، وبيوتها الكلسية البيضاء . مساحة هذه الجزيرة تبلغ حوالى ٤٠ كيلو مترًا مربعًا . جمالها الأخاذ حمل عددًا من الأدباء والفنانين على اقتناء بيوت لهم فيها[1] .

وعند انتصاف النهار ، ارتدت أرليت البكيني ، وحملق ضاهر يتحسس بعينيه جسدها لا يصدق بأن أفروديت بعثت من جديد . فانبجس منه العرق وقد ثارت رغبته ، وقذف بنفسه خلفها « فى البسين » لعله يطفئ لهيب جسده لكن الماء أزاده نارًا ولفحًا .

وفى اليوم التالى وصلت الباخرة إلى كريت ، فزاروا قصر « كنوسوس » الذى كان مؤلفًا من ١٢٠٠ غرفة ، ثم متحف هيراكليون ، وبعد الظهر أبحرت الباخرة عائدة إلى أثينا .

صعدت أرليت بالبكينى إلى السطح ، وبينما بركان رغباته يصطخب ، كانت الباخرة تمر بالقرب من جزيرة « سانتورين » المشهورة بالبركان الذى يحمل اسمها . إنها مصادفة عجيبة أن يتقابل بركانان .. أحدهما خامد والآخر يفور وينشط ..

كانت أرليت طوال الرحلة تذيب الجمود بينهما تمهيدًا للمعركة القادمة .. لذلك .. لم تتركه يلمس جسدها أو يحاول ، فقط أشعلته وجعلته يرغب ويتمنى ، وينتظر ويتحرق .. فانكبت تقرأ ما بأعماقه فى نظراته الجائعة ، وكان هذا الجوع الذى وصل مداه إلى قمم الخَوَر فألاً حسنًا لما قبل « الصدمة » ..!! .

بالقرب من شارع بيلوبونيزوس Peloponnesus فى أثينا ، يوجد سوق تجارى قديم يموج بالحركة والحياة . بإحدى بناياته المرتفعة نزل ضاهر بالطابق التاسع . كانت الشقة مؤلفة من حجرة نوم واحدة وصالون ، شقة صغيرة تكفى لشخص واحد أو لشخصين . تركت معه نورما بضع دراخمات وسافرت إلى « كاستوريا » فى أقصى الشمال « لزيارة خالتها » ، ووجد

---

(١) ومن أشهر هؤلاء : الكاتبة الفرنسية فرانسواز ساجان ، والأديب الكبير كلانفيل هيكس ، والفنانة جان سبرج وغيرهم .

والمدهش أن هذه الجزيرة الصغيرة فى بحر « إيجة » تحوى ٣٦٥ كنيسة ، زعمت الأقاويل أن المحاربين القدماء كانوا كلما شنوا حربًا قدموا نذرًا ببناء كنيسة إذا ما عادوا منتصرين .

اللبناني نفسه وحيدًا لعدة أيام دون اتصال منها أو من أرليت .. إلى أن نفدت دراهماته وسيطر عليه الخوف والقلق . فهو غريب في بلد غريب لا يعرف لغتها . ولا يملك مالاً يتعيش منه ، أو تذكرة سفر تعيده إلى وطنه .

وبينما هو في سجن مخاوفه وتوتره وجوعه ، كان غسان في الشقة المجاوره ومعه اثنان آخران ، من خلال شاشة صغيرة أمامهم كانوا يلاحظون كل شيء في شقته .

وفي التوقيت المختار والمحدد بدقة ، اتصلت به أرليت ، وذهبت إليه تحمل أكياس الطعام والعصائر ، فملأ معدته الخاوية وخرج معها إلى شوارع أثينا وحدائقها البديعة ، يملؤه الزهو وعيون المارة تحسده على فتاته الحسناء الفاتنة .. وتمنى وقتها لو أنه بقي إلى جوارها لا يفارها أبدًا .. ولأنه يعرف قدر نفسه ، ويخاف أن تصدمه ، سألها عن فرصة عمل فوعدته أن تتكلم مع والدها حيث يمتلك شركة خدمات بحرية كبرى بأثينا .

وبعد سهرة رائعة بأحد البارات صحبته إلى « مصيدة العسل » حيث بدت ثملة عن أخرها ازدادت التصاقًا به خشية السقوط وهو يقودها إلى غرفة النوم ، تفوح من جسدها البض رائحة أريجية ، ترسل دفقًا متواصلاً من الرغبة إلى عقله ، ولما تحررت من بعض ملابسها ثار بركانه .. وانجرف إلى فوهة عميقة يطير تلذذًا .. واندهاشًا ..

و .. بينما هما عاريان في الفراش .. تتصاعد نشوته شيئًا فشيئًا ، فوجيء بنورما فوق رأسه ، ومعها غسان ورفاقه .

انهمدت نشوته على حين فجأة ، وارتجت به الأرض ، فقد كانت نظراتها شعاعات من التوحش ، وبصوتها حشرجة الهلاك .

قالت له في الحال مشيرة إلى أرليت التي انسحبت عارية من الحجرة :

– هايدي إسرائيلية .. من الموساد . كليتنا من الموساد ، وبنريدك تعمل ويانا ..

.. مو .. موساد ؟

– شو صار رأيك ؟

«قذفت إليه بصوره العارية مع جورجيت ولوحت له بعدة شرائط مسجلة» .

– موساد .. ؟

– وقع عالوثيقة نحنو ما بنمزح « أخرجت من جيبها ورقة مطوية وقلمًا ».

– وثيقة ؟ (كان كلما جذب الملاءة ليستر نفسه بها شدها أحدهم فبقى عريانًا) .

صارخة فى شراسة .

– مابدنا تعطيل شوها لفرك ؟ وقع .

إن الشخصية الخائرة « Asthenic » فى نظريات علم المخابرات .. تطلق على الشخص الذى أفقدته الصدمة قدرة التفكير .. ففى ظل الكارثة التى حلت به يصاب العقل بالذهول وتغيم فى الشعور « Stupor » مع غياب الحس وبلادة الإدراك « Sluggish » والانتقال من أحد جوانب الموقف إلى جانب آخر .. وهو ما يطلق عليه فى علم النفس مصطلح « الاتجاه المجرد » « Abstract attitude » .

ومن خلال بطء العملية العقلية .. وعدم القدرة على التصرف ، مع ظهور أمارات اضطرابات آلية ، يسهل السيطرة على الشخص الخائر ، والتحكم فى إرادته المشلولة بنسبة فائقة النجاح . وقد كان هذا بالضبط هو حال ضاهر الذى فاجأته « الصدمة » فعجز عن مجابهتها . واستسلم لمصيره خائرًا .. منهارًا .

ودون أن يدرى ماذا حدث .. كأنه الحلم ، وقَّع أوراقًا لا يدرى بالضبط ماذا كتب بها ، وخرجت نورما تعلو وجهها ابتسامة الظفر ، وعادت أرليت إليه من جديد ، ولم تكن ثملة كما كانت تدعى ، بل كانت تحمل كوبًا من العرق اللبنانى وطبقًا من « المازاوات » .

كان على أرليت أن تبقى إلى جواره ، خلال تلك اللحظات بالذات ، حتى يفيق من ارتجاجة الصدمة . مستغلة هذه المرة أقصى ما عندها من نعومة وحنان ورقة ، ولأنها مارست مهامًا عديدة سابقة كتلك ، فالأمر بالنسبة لها أصبح مألوفًا .. وطبيعيًا . فقد كانت تمتلك خبرات عالية اكتسبتها فى فن معاملة « المصدومين » لتليينهم .. وتمهيد الطريق للخطوات اللاحقة . إنها بحق خطوات شيطانية بدأت فى فوار انطلياس ، ثم بشقة نورما مع جورجيت ، وأخيرًا مع أرليت ذات المهمتين ، التسخين .. والتليين .

ذلك إنه عالم المخابرات والجاسوسية الذى وصفه الكاتب المعروف « هانسون بولدوين » قائلاً :

(إن نظام المخابرات الصحيح عبارة عن منشأة ذات إمكانات هائلة لكل من الخير والشر ، ويجب أن تستخدم الرجال والنساء وكل الوسائل .. فهي رقيقة ، وشرسة ، تتعامل مع الأبطال ، والخونة .. وهي ترشي ، وتفسد ، وتختطف ، وأحيانًا .. تقتل .. إنها تقبض على قوة الحياة والموت .. وتستغل أسمي وأدني العواطف ، وتستخدم في الوقت نفسه الوطنية حتى أعظم معانيها .. والنزوات في أحط مداركها .. !!) .

بهذا قع أحمد ضاهر في الشرك دون أدنى مقاومة .. فقد مورست معه نظريات علم النفس والسيطرة حتى أذعن للأمر .. واستسلم لفريق التدريب صاغرًا ليتمكن من تعليمه .. وتخريجه جاسوسًا للموساد .. كيف بدأت رحلته في عالم التجسس على الفلسطينيين ؟ وكيف جند خونة آخرين لصالح الموساد ؟

العائد الجديد

تعهد به على الفور رجال الموساد في أثينا .. وأخضعوه لدورات تدريبية في فنون التجسس وكيفية الامتزاج بالفلسطينيين ، ولأنه – كطبيعة بشرية – ربما قد يتمرد على واقعة بعدما يفيق من أثر الصدمة ، أفهموه باستحالة الإفلات منهم .. وهددوه بأن عملاءهم في لبنان لا حصر لهم .. ولديهم القدرة على إلحاق الأذى بمن يتمرد أو يرفض الاستمرار معهم .. وقد يصل الأمر إلى حد قتله أو قتل أولاده .

هكذا ألقوا الرعب بقلبه ، ووعدوه بالثراء الفاحش إذا ما أخلص لهم .. وأكدوا له مقدرتهم الكاملة على حمايته وعدم التخلي عنه في أية حال ، وصيَّروه « كالعجينة » في أيديهم يشكلونها كيفما شاءوا ، فتجمد الدم بأوردته وتوحش بداخله الخوف ينهش أعصابه .. وكان كلما هدأ قليلاً ارتعشت أطرافه وخلجاته وغرق في محيط من هموم .

ولما أطلقوا عليه أرليت لتهدئته كانت رغبته قد تكسرت ، وانعقدت إحساساته كرجل أمام أنوثتها المتوقدة ، فلم يعد يثيره ذلك الجسد الأفروديتي الذى حلم باحتوائه ، ودفئه .. ومذاقاته .

بعد ثلاثة أسابيع في أثينا حمل معاناته الثقيلة عائدًا إلى بيروت ، وأسرع إلى منزله في « عيترون » الحدودية يحفه الشوق لأسرته والخوف أيضًا ، وكم كانت دهشته عندما اكتشف أن زوجته رباب لها مذاق جميل مسكر ، مذاق بطعم آخر يحن إليه ويختلف كثيرًا عن مذاق جورجيت وأرليت .

قرأت رباب في عينيه تبدله .. وأحست بأن العائد ليس هو الزوج القديم ، إنما شخص آخر يفيض حبًا ، وحنانًا ، وحزنًا . وحاول بدوره أن يبدو طبيعيًا لكن الحمل الثقيل الذى ينوء به يفصح عن أرقه وكوابيس خوفه ويفضح أسايره، وفشلت رباب في أن تجعله يبوح بما يؤرقه، بحنانها ، عند هدأة نفسه بين أحضانها ، وانهارت محاولات انتشاله من رعب الرؤى التي تؤرق مضجعه .

تزامن وصوله من أثينا بالأموال والهدايا مع وصول صديقه الشاعر كمال المحمودى من باريس مفلسًا ، محطمًا ، فجمعهما لقاء حار خيمت عليه ذكريات الشباب وأحلام الشهرة .. وقص عليه المحمودى حكاياته في باريس وصدمته المرة هناك في العمل والنجاح ، فاللبنانيون الذين قابلهم في باريس لكل منهم حكاية ، فمنهم الفيلسوف الذى لايسكت ، والثرثار الذى يجب أن تضربه ، والبورجوازى الحديث الذى يفرض عليك سماع قصص مغامراته ، والمسكين الحزين الذى يلوى القلب ، أيضًا الرومانسى الحامل فى محفظته صورة جارته المتزوجة ، والوطنى المحاضر في مطعم « رشيد » ، والنازل في أوتيل « جورج سانك » ، ناهيك بالوافد الذى يزور « راوول وكورلى » ويتفرج على فرساى ، ويمارس الجنس بخمس فرنكات فى « بيكال » .

لقد صدم المحمودى في باريس وذاق الجوع والتشرد ، وفشل فى العثور على عمل يعينه على الاستمرار والعيش .. برغم وجود شارعين باريسيين صغيرين متلاحقين فى الدائرة العشرين ، اسم الأول شارع لبنان ، واسم الثاني شارع الموارنة ، حفلا بالمئات من اللبنانيين الذين تجاهلوه ، وعاملوه بقسوة أدمت مشاعره وشاعريته ورقة إحساساته ، فهرب إلى البيت الفرنسي اللبناني المعروف بـ : « الفوابيه فرانكو – ليبانيه » في ١٥ شارع دولم فى باريس الخامسة ، وهو مبنى جديد يتصل بكنيسة « نوتردام دى ليبان » على مدخله ناقوس فينيقى كبير من الفخار، وفى الصالون الكبير صورة ملونة للشاعر جبران خليل جبران يرتدى الأحمر، تذكره بقصيدة للشاعر « موريس عواد » عنوانها « يسوع كلساتو حمر » ، حاول أن يقيم

بالدار لكنهم بأدب أشاروا إلى إطار ذهبى ، بداخله صورة البطريك « مار بطرس بولس المعشوق » ، ففهم على الفور أنه كمسلم لا مكان له بالبيت المخصص للموارنة فقط ، أخيرًا عثر على عمل بمطعم Laurore de lavie بشارع لامارتين ، كخادم وماسح للبلاط الذى يفترشه آخر الليل .. مما أصابه بداء الروماتزم .. فقعد عن العمل وطرد من باريس كلها إلى بيروت .

أما أحمد ضاهر .. فقد اختلق قصة طويلة من الكفاح والمثابرة ، زاعمًا لصديقه أنه برغم نجاحه فى الحصول على المال ، فقد فشل فى حلم حياته أن يصير مطربًا ، ولما شجعه كمال على أن يحاول مرة أخرى بعدما امتلك المال .. ضحك ضاهر فى سخرية وقال له بأن فى ذلك مغامرة خاسرة ، ذلك لأن ضاهر الفنان قد مات واجتثت جذور أحلامه '

يئس صديقه عن فهم ألغازه ، واعتقد فى نفسه بأن صراعه من أجل ... أنهكه كمثله تمامًا ، ولابد أنه سيعود ذات يوم إلى حلمه .

نموت .. ولكن

شهر ونصف وضاهر فى حالة انعدام وزن لا يدرى كيف سيصير به الحال أو إلى أين يقوده مصيره .. فثمة موعد مع نورما بإحدى مقاهى القاسمية شمالى صور ، على أثره ستتحدد أشياء كثيرة . وفى الطريق إلى صور من عيترون ، شاهد سيارات عديدة تقل أفواج الفدائيين الفلسطينيين بزيهم العسكرى تتحرك شمالاً وجنوبًا ، تعلو وجوههم نظرات التحدى والإرادة .. والصمود .

عبرت به السيارة جسر القاسمية – أكبر الجسور وآخرها على نهر الليطانى – وغادرها ضاهر إلى جانب الجسر .. حيث خط حديد الحجاز الذى أقيم عام ١٩٠٨ ، ليصل استانبول بالمدينة المنورة . ولما وصل إلى ملقرب المصب ، حيث يقع المقهى المطل على بساتين الموالح من جهة ، ومصب النهر من جهة أخرى . لم تكن نورما بانتظاره فجلس يطوف بأفكاره غارقًا فى قلقه ، متجاهلاً روعة منظر الماء والأشجار والطيور من حوله ، وانتفض فجأة عندما أخبره الجرسون بأن سيدة تركت له رسالة .. فتناول منه المظروف المغلق ومشى باتجاه الجسر ، وفضه فى الطريق وبدنه يرتجف وقرأ جملة واحدة كتبت بالحبر الأحمر : « أرليت تطلب خطاباتها ، فعجل بإرسالها .. » .

كان الخطاب يحمل أمرًا صريحًا بجمع أكبر قدر من المعلومات عن حركة المقاومة .. واللقاء في اليوم التاسع والعشرين من الشهر « عدد حروف الجملة » الساعة الواحدة ظهرًا « الرقم ٢٩ مقسومًا على ٣ » ، والحبر الأحمر يرشد عن مكان اللقاء في فوار أنطلياس ، ذات المقهى الذى جمع بينهما في أول لقاء تحت الأضواء الخافتة .

بقيت أربعة أيام على الموعد المقرر، وكان عليه أثناءها أن يعد تقاريره ويسجل مشاهداته، واستلزم منه ذلك أن يقوم بعدة تحركات لأصدقائه بالقرى الحدودية ، يستجلب الأخبار ويسمع بنفسه ما يردده الناس عن أبطال المقاومة ، وقام برحلته الأولى للبحث عن صديقه « نايف البدوى » من بلدة « يارين » التى تبعد عن قريته ، عيترون ، سبعة كيلو مترات ، وكيلو مترين ونصف فقط عن الحدود الإسرائيلية .

كان نايف البدوى زميل دراسته الابتدائية ورفيق صباه .. عمل بالتجارة وتزوج من امرأتين أنجبتا له ثمانية أولاد أحدهم معاق وأنفق على علاجه أموالاً طائلة بلا فائدة . ومن ناحية أخرى كان نايف « محبًا » للنساء مباهيًا بمغامراته معهن ومطارداته للحسناوات أينما كن .. فتدهورت لذلك تجارته وانكمش رأسماله شيئًا فشيئًا إلى أن أفلس وباع متجره ، أما وحاله تبدّل هكذا ، فقد هدّه العوز والدين .. ولما زاره ضاهر كانت أحواله السيئة مرسومة على وجهه ، وظاهرة جلية في كل أركان بيته .. فأشفق عليه صديقه ونقده مائة ليرة طالعها نايف ببشاشة وفرح ، ورجاه أن يبحث له عن عمل ينفق منه على الجيش الذى ببيته .

عاد ضاهر إلى منزله منكبًا على تسجيل ما اطلع عليه خلال تحركاته فى أقصى الجنوب ، وبينما تنطلق به السيارة إلى بيروت لمقابلة نورما عساف ، كان صوت المذياع ينطلق مجلجلاً بالنشيد :

فلتسمع كل الدنيا .. فلتسمع
سنجوع ونعرى .. قطعًا نتقطع
ونسف ترابك يا أرضنا .. تتوجع
ونموت .. نموت ولكن .. لن نركع
لن يخضع منا حتى طفل يرضع .. !!

بدت نورما في مقهى فوار أنطلياس ناعمة رقيقة حالمة .. إلا أن منظرها البشع ذا الفحيح المرعب بشقة أثينا لم يكن ليغيب للحظة عن مخيلة ضاهر .. فما أن رآها حتى سرت ببدنه رعشة خائفة وهو بمجلسه قبالتها ، ومشى خلفها إلى سيارتها مضطربًا ، فدارت بها دورتين كاملتين حول المكان ، ثم انطلقت مسرعة إلى الشمال .. فعبرت نهر الكلب بطريق طرابلس – بيروت ، وانحرفت يمينًا باتجاه البساتين الكثيفة والأحراش .. وأمام منزل خشبي ريفي قديم توقفت ، ودفعت إليه بالمفتاح فعالج الباب وسبقها إلى الداخل بيده عود ثقاب مشتعل ، فبدا المكان الموحش المجهول مع وجود نورما كبيت الرعب .

أضاءت مصباحها اليدوى وعلى مقعد متهالك جلست لتقرأ ما جاءها به من تقارير ملأت تسع صفحات .. وما أن انتهت حتى قذفت بها إلى وجهه غاضبة ، فانكمش مذعورًا متوقعًا لكل شيء ، إذ تحول جمالها إلى توحش مخيف ، وانطلقت نظراتها كالسهام الحارقة مع سيل من السباب لجهله بأمور التجسس التي تدرب عليها ، وافتقاده للحس الأمنى في الرصد والتحركات وإدارة الحوار .

رغم ذلك أعطته خمسمائة ليرة ، وأخضعته لدورة تدريبية أخرى أكثر تكثيفًا وحرفية .. وحددت له مهامًا بعينها عليه القيام بها دون غيرها ، وطلبت منه أن يزور صديقه نايف البدوى ويوطد علاقته به نظرًا لموقع قريته الحدودية الهام .

استقر كمال المحمودى ببيروت بعدما عمل بإحدى الصحف ، كانت أشعاره الوطنية تجد مساحة كبيرة على صفحاتها .. وبدأ النحس الذى لازمه لحقبة طويلة من حياته ينحسر ، ويموت يأسًا .. لقد كان شديد الحساسية عندما يتكلم أو يكتب عن القضية الفلسطينية واللاجئين والمقاومة .. فقربته كتاباته من رموز الثورة وكبار رجالها .. وغدت زياراته لمعسكرات التدريب ومشاهداته عن قرب للشباب الفدائى .. بمثابة طلقات رصاص يطلقها قلمه .. فانكب يحارب بالكلمة لا يستقر له بال أو يهنأ بالقرار .

زاره أحمد ضاهر بمسكنه ففرح به ، وسهرا طويلاً يستعرضان معًا حياتيهما في الماضى ، وأحلامهما التى وئدت قهرًا لحين ، ولم تكن الزيارة بريئة هذه المرة ، فالغرض منها معروف .. والمكاسب المادية الثمينة التى سينالها من جراء معلومات المحمودى عن المقاومة أغلى عنده من الصداقة .

كان قد تعلم جيدًا كيف يستخرج الأسرار من عقل محدثه عندما يستثيره ويجادله .. أو يجله ويقدره .. لكن الحال هنا مختلف ، فصديقه ورفيق أحلامه لم يكن ليبخل عليه بأدق المعلومات التى يعرفها عن الثوار والقيادات الفلسطينية .. بما فيها تلك الأسرار المتداولة فى دهاليز مراكز القيادة الحيوية ..

تلك المعلومات كانت سببًا رئيسيًا فى حصوله على آلاف الليرات من خزينة الموساد ، فأغرق صديقه بالهدايا دون أن يدرى بأن حديثه العادى مع رفيق عمره .. ينقل أولاً بأول إلى إسرائيل ، ويخضع لتحليلات خبراء الموساد واهتمامهم البالغ .

ولنرجع إلى قرية يارين فى الجنوب ، حيث يعيش نايف البدوى أسوأ ظروف مادية تعصف به ، استغلها ضاهر جيدًا فى التأثير عليه ، وتطمينه بإمكان حصوله على فرصة عمل ممتازة بإحدى الوكالات العالمية دون أن يبرح قريته .

تملكت نايف الدهشة من العرض المغرى وتساءل عن ظروف العمل ، فأخبره بأن وكالة أنباء عالمية فى نيقوسيا ، تدفع بسخاء لمن يوافونها بأخبار صحيحة ووافية عن حركة المقاومة الفلسطينية فى الجنوب ..

سر نايف المتعسر بهذا الأمر وأبدى بحماس شديد رغبته فى العمل .. فوعده صديقه بأن يسعى لدى مقرهم فى بيروت لقبوله .

مرت بنايف الأيام الطويلة المضنية ، وكلما عصرته الحاجة ونهشه العوز ، أسرع لصاحبه يرجوه بألا يهمل أمره .. فيجيبه ضاهر بأنه تقدم بالفعل بطلب فى شأنه ولم يقرروا بعد . وكان يقصد من التأخير والمماطلة حرق أعصابه .. وإشعاره بأهمية التعاون مع الوكالة للخروج من أزمته ..

إنه أسلوب آخر فى عالم المخابرات الجاسوسية ، يعرف باسم « الاختناق Choked » ، ويعتمد على محاصرة من يراد الإيقاع بهم فى شرك الخيانة بعد دراسة شتى ظروفهم الحياتية ، ومدى معاناتهم النفسية ، وتضييق الخناق عليهم مع إعطائهم ثمة أمل فى مخرج ما لمشاكلهم .. دون وعد قاطع ..

هكذا يظل هؤلاء يحلمون بانفراجة قريبة تبدّل حياتهم .. إلى أن يقعوا يأسًا أو يتغابوا مع علمهم بالجرم .

كان ضاهر قد تسمم دمه بالخيانة .. فلم يعد هو ذلك الإنسان البسيط الحالم العاشق للطرب .. إذ أجاد مهمته بالتدريج فى عالم التجسس .. ومضى بخطىء ثابتة فى بيع عروبته بثمن بخس .

إن ظروف الخائن النفسية وصراعاته الداخلية المعقدة .. تدفعه دائمًا لأن يمقت الأسوياء من حوله .. ويحتقر ذاته كلما جلس إليهم أو جالوا بباله .. ولذلك يسعى فى الغالب للانتقام منهم فى دخيلته ، وقد يتحول هذا المقت إلى محاولة جرهم معه لمستنقع الخيانة .

ويسجل لنا تاريخ الجاسوسية الإسرائيلة فى الوطن العربى ، نماذج متباينة من هؤلاء المرضى بالخيانة ، إنها حالات قليلة جدًا وشاذة[١] .. تلك التى أظهر فيها الخائن بغضه لأقرب الأقربين إليه فلطخهم بعار الخيانة مثله .

ولو عدنا لأحمد ضاهر .. لتبين لنا مدى كراهيته لكمال المحمودى ونايف البدوى – أقرب أصدقائه – وحرصه فى قرارة نفسه ، وبأى ثمن ، على دمجهما فى شبكته .. فتتساوى بذلك الخيانة .

فالأول يمثل لديه رمز الوطنية الصادقة ، والثانى يمثل الصبر وتحدى الظروف والقوة . ولأنه إنسان ضعيف .. مريض .. محتقر من ذاته ، كبر لديه الاعتقاد بأن مسألة إغواء أى مخلوق عملية سهلة إذا ما درس ظروفه النفسية بعناية . من هنا ، نسج خيوط شبكته حول صديقيه ، مبتدئًا بأضعفهما مقاومة – نايف البدوى – مستخدمًا معه أسلوب الاختناق Choked تمهيدًا لشل تفكيره وهرس مقاومته .

---

(١) بين صفحات هذا الكتاب ، توجد نماذج عديدة ، أهمها قصة سمير باسيلى الذى جند والده ، وهبة سليم عامر التى جندت المقدم فاروق الفقى ، وكان يحبها بجنون . هناك أيضًا قصة السيد محمود الذى استغل حاجة أخيه إلى المال وجره معه للعمل لصالح الموساد . وغيرهم توجد حالات مختلفة فى العراق ولبنان والأرض المحتلة ومصر ..!!

التسليم والتسلم

عام ١٩٦٩ وفى النصف الثانى منه بالأخص ، اشتدت ضربات المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل .. ووجد المستوطنون اليهود فى المستعمرات الشمالية .. أنهم هدفًا لضربات ناجحة بدلت أمنهم إلى رعب دائم .. وحدث أن تسلل أربعة شباب من الفدائيين بأسلحتهم وذخيرتهم .. وتمكنوا من الوصول لمستعمرة « زرعيت » فى الجليل الفلسطينى المحتل .. على بعد عشرين كيلو مترًا من الشاطئ .. وقاموا بعملية فدائية خارقة للغاية قتل فيها أحد عشر صهيونيًا ، وأصيب العشرات منهم ، واختفى الأبطال بعيدًا عن المنطقة التى حوصرت .. مجتازين جميع نقاط التفتيش الصارمة فى كل مكان .

هذا الحادث هلل له الفلسطينيون واحتفلوا بأبطاله .. بينما كان العكس فى إسرائيل ، إذ أقيل عدد من الضباط وأخضع آخرون للتحقيق والمجازاة .. واستدعى الأمر حدوث تغييرات فورية فى الخطط الأمنية حول المستعمرات .. والنظر فى تنشيط وفاعلية شبكات الموساد فى لبنان .

من أجل ذلك أوصى تقرير خطير لخبراء الموساد .. بضرورة العمل على تجنيد أكبر عدد ممكن من سكان الجنوب اللبنانى .. ليكونوا عيونًا لإسرائيل ترصد تحركات المقاومة فى مهدها أولاً بأول .. وتخصيص ميزانية خاصة للنشاط الاستخبارى فى لبنان ودعمه بأكفأ الرجال والتقنيات الحديثة .

أحد الذين طالتهم يد التغيير نورما عساف ، حيث جرى سحبها إلى إسرائيل واستبدلت بضابط ماكر خبير بشئون لبنان وبشبكاتهم بها .. فكان عليها أن تجرى مقابلات سريعة بعملائها فيما يعرف باسم « التسليم والتسلم » فى عالم المخابرات ، وفى المقهى المطل على مصب نهر الليطانى بالقرب من جسر القاسمية التقت بأحمد ضاهر الذى تملكته فرحة عارمة عندما أنبأته بانتهاء مهمتها معه .. وأن زميلها « أنطوان شهدا » سيتولى أمره .

تعهد به أنطوان منذ تلك اللحظة .. وبعد مقابلات مطولة بينهما فى المنزل الخشبى ببساتين نهر الكلب ، أصدر له أوامر صريحة بتجنيد نايف البدوى .. بعدما استعرضا معًا كافة جوانب حياته وظروفه .. أما كمال المحمودى فقد رأى أنطوان أن ينتظر عليه قليلاً حتى يدرساه بشكل أفضل .. وتحين الفرصة الملائمة لضمه .

تقارير ضاهر السابقة أكدت بأن المعلومات التي يحصل عليها منهما لا تقدر بثمن .. وكانت رؤية أنطوان خبير الموساد المحنك بالتعجيل في تجنيد نايف .. وتأجيل أمر كمال .. تنم عن فهم وإدراك لحساسية الأمر وخطورته .. وبعد نظره الناشيء عن خبرة طويلة في العمل المخابراتي ، لكن دائمًا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن .

كالحية الرقطاء مبتسمًا تقابل ضاهر ونايف في يارين .. مهنئًا بموافقة وكالة الأنباء على العمل معها ، واختصه وحده بموافاتها بأخبار المقاومة وأسرار تحركاتها .. وبأن الوكالة قررت راتبًا شهريًا له مقداره ثمانمائة ليرة « كان الرقم مغريًا جدًا وقتذاك » وشرع في تلقينه مهام عمله الذي يجب أن يكون سريًا للغاية .. فالوكالة كما أخبره تسعى دائمًا إلى الانفراد بالأخبار .. وتدفع مكافآت تشجيعية كبيرة لمن يوافيها بتحركات رجال المقاومة قبل قيامهم بالعمليات ..

دهش نايف لما يقوله صاحبه .. وعلق على ذلك بقوله إنه سيقوم بعمل الجواسيس إذن .. فما كان من صديقه إلا أن راوغه ، متعللاً بأن المال يصنع كل شيء .. وأنه بالعمل مع الوكالة سيخرج من أزمته المالية بسرعة الصاروخ .. فلكل خبر مهم ثمن .. ولكل تكاسل عقاب بالحرمان من المكافآت التي ستنهال عليه ..

قال ذلك بينما كان يناوله ألف ليرة كمقدم « أتعاب » .. فحملق المحروم في الليرات فرحًا وقال : « نعم .. إن المال يصنع كل شيء ، وأنا بحاجة إلى المال ولو بعت نفسي إلى الشيطان » .

هكذا سقط نايف البدوي .. وتفرغ لعمله السري في البحث عن خبايا المقاومة والمنظمات الفدائية .. التي يجوب أفرادها القرية الحدودية ليل نهار .. وانكب يكتب تقارير يومية تفصيلية عن مشاهداته ومسامراته ويسلمها أولاً بأول لصديقه .. ولما كانت معلوماته تمثل لدى أنطوان درجة عالية من الخطورة .. بادر بضرورة تدريب أحمد ضاهر على استعمال اللاسلكي في الإرسال والاستقبال ، ذلك لأن المعلومات الخطيرة عن الفدائيين ، يجب بثها إلى الموساد قبل اجتيازهم للحدود للقيام بعمليات انتقامية في الداخل .. وكان «البيت الآمن» على نهر الكلب أصلح مكان سري للتدريب .

كلنا جواسيس

لم يكن الأمر شاقًا عليه كثيرًا .. فلسابق خدمته في الجيش اللبناني وحصوله على دورات في « الإشارة » كانت درجة استيعابه لمنظومة الجهاز وتقنياته سريعة .. لكنه عانى بعض الشيء في فهم ألغاز الشفرة وحلها وطرق استبدالها .. وبعد خمسة عشر يومًا فقط كان ضاهر يجيد الأمر برمته .. وعندما اطمأن أنطوان أطلقه بالجهاز إلى الجنوب .. حيث بإمكانه « غربلة » التقارير واختزالها وبثها رأسًا لتل أبيب .

ولأن آلاف الليرات من أموال الموساد اتخمت جيوبه ، فقد فكر أحمد ضاهر في زيادتها بتجنيد كمال المحمودى .. الذى تغلغل عن آخره داخل قلب القيادة الفلسطينية وصفوف المقاومة . لقد كان يريد أن يحمل نبأ تجنيده مفاجأة سارة لأنطوان .. ليؤكد له بالدليل القاطع احترافه للجاسوسية وإخلاصه للموساد .. فيمنحه مكافأة سخية ويحصل على رتبة ضابط بجيش الدفاع الإسرائيلى فيضمن معاشًا عاليًا في إسرائيل في حالة هروبه إليها .

خبأ جهاز اللاسلكى بإحدى فتحات برج الحمام بسطح منزله . وغادر «عيترون » إلى بيروت مارًا بصور وصيدا .. فتقابل وصديقه كمال ودعاه إلى سهرة بمربع الفونتى بكال في جونيه .

اختار المكان بالذات لشيء كان ولازال بداخله .. فذات يوم عمل به كرجل أمن بدلاً من « مطرب » .. وعلى بابه تصيدته نورما ودفعت به إلى بؤرة الخيانة .. وكان في دعوته لصديقه للسهر نوع من إثبات الذات ، وتنفيث عن رغبة ملحة تلاحقه .

وفى « المربع » شربا وأكلا ورقصا ، فمالت الرءوس وتكاسلت الأهداب .. وارتعشت صور الأجساد العارية والضحكات الماجنة .. حتى إذا ما التفت ناحية البار إلا واصطدم نظره بأرليت – ملكة الإذابة – ومنفذة خطة «الصدمة » في مصيدة العسل بأثينا مع نورما» .

كانت أرليت تجاذب أحد الأشخاص الحديث متجاهلة نظراته إليها .. ولما رأته مصرًا على التحدث بها .. رمقته بنظرة حادة سريعة أربكته وأسقطت الكأس من يده .

أحس لحظتئذ بالخوف الشديد ، فقد خرج عن المألوف في عالم الجاسوسية ، متناسيًا الحس الأمنى الذى تدرب عليه كثيرًا من قبل .. على إثر هذا .. قرر الانسحاب من

الفونتريكال على الفور ، إذ خيل إليه بأن المكان مليء عن آخره بعملاء الموساد .. غادر وصديقه المكان يلعن أرليت ويردد حانقا في نفسه : « كلنا جواسيس » .

كان الشتاء في بيروت باردًا ورائعًا .. يذكرني دائمًا بليالي شتاء « تريستا »(١) الجميلة في إيطاليا .. فالشوارع كالمرايا ، تنعكس على أرضها اللامعة أضواء المصابيح ولوحات الإعلانات .. في رقص رجراج كأنه الطرب .. والناس تضحك باسمة تحت المظلات والألبسة الصوفية ، فالمطر عندهم يعني الرواء والنماء والحياة .

استيقظ كمال المحمودي ونفض غطاءه الثقيل مسرعًا إلى الباب .. كانت الطرقات المتتابعة في ذلك الوقت المبكر تثير القلق والتساؤل .. وما أن فتح بابه حتى صعق ، إذ تقدم منه أحدهم وأطلعه على هويته ، وطلب منه أن يرافقه فورًا ..

وفي أحد المباني بحي الأوزاعي الذي يضم مراكز القيادة والمخابرات الفلسطينية .. سألوه عن سبب تواجده بعربع الفونتريكال ، ومن كان رفيقه ؟ . ومن تلك الفتاة الحسناء التي كانت جالسة على البار ؟ أجابهم عما يخص صديقه أحمد ضاهر ابن قريته .. عيترون ، وفشل في الإجابة عن مصدر ثرائه وعمله الحالي ، وأظهر جهله التام بتلك الفتاة التي يقصدونها ، وقال إن البار كان مليئًا بالفتيات الجميلات .

وفي انتقال سريع لعيترون .. فوجئ العميل الإسرائيلي عندما رجع إلى قريته خائبًا بزوجته رباب تبكي بكاء مرًا ، وتسأله عن سر الجهاز الغامض المخبأ ببرج الحمام .. فانخرس لسانه للمفاجأة التي لم يتوقعها ولم ينطق . لطمت رباب خديها وشَقَّتْ جلبابها .. فهجم عليها يضربها بعنف قائلاً إنه ما فعل ذلك إلا لأجلها ولأجل أولادها .

صرخت في وجهه أن يطلقها .. وبينما الأزمة في قمة اشتعالها .. وصل نايف البدوي يحمل تقارير جديدة .. فانفرد به مضطربًا لا يدري كيف يتصرف .. ولاحظ صديقه اضطرابه وارتعاش أطرافه فسأله ماذا حدث ؟ إلا أن دخول رباب تحمل حقيبة سوداء وضعتها أمامهما

---

(١) تريستا – Triesta – تعد من أورع المدن الإيطالية ، تقع بأقصى شمال بحر الإدرياتيك وتطل على خليج البندقية ، وهي آخر مدن إيطاليا على الحدود مع سلوفانيا ، وتشتهر بشوارعها وحدائقها وبيوتها البديعة .. التي تشبه لوحة فنان حرص على انتقاء تفاصيلها .

أخرسه . لحظات ، وسمع صوت الباب الخارجي يغلق بشدة ، فنهض ضاهر مسرعًا للحاق بها ، لكنه انزرع مكانه أمام المنزل ، وبال على نفسه لهول ما رأى .

كانت ثلاث سيارات عسكرية قد أقبلت واتجهت ناحيته مسرعة ، وقفز منها أعداد من البشر لا يعرف عددهم أحاطوا بالمنزل .. ولم يزل هو في مكانه واقفًا لا يجرؤ على الحركة ، بينما خرج نايف مسحوبًا يتلوى بين أيديهم ، ويحمل أحدهم الحقيبة بالجهاز الثمين .

حتى تلك اللحظة لم يكن ضاهر يعلم بالضبط كيف اكتشفوا أمره ؟ ومتى خططوا لاعتقاله ..؟ وأثناء التحقيق سخر كثيرًا من سذاجته ، وضحك في مرارة وشماتة عندما واجهوه بأرليت وأنطوان شهدا .

لقد ظل أحمد ضاهر ينتظر بشغف نبأ إلقاء القبض على الحية الكبرى نورما عساف ، لكن لم يحدث ذلك أبدًا ، لأنها هربت بجلدها مبكرًا جدًا ، وحققت مهامها بنجاح في لبنان ، وحققت أيضًا مطلبها بألا تخلع ثيابها لأى عربى . فأكله الغيظ واستسلم لواقعه المرير ، إلى أن قضت المحكمة بسجنه ثلاث سنوات .. «!!» .

وكان نصيب رفيقة نايف ستة أشهر ، بينما طرد غسان ومن بعده أرليت خارج لبنان . ألم نقل لكم من قبل أن لبنان بلد عجيب .. لا يعاقب فيه الجواسيس بنص القانون ..؟!!

نايف المصطفى .. الذى أعدمه المساجين .. !!



كان يشعر أنه كالموجة ضعيف .. بلا وطن .. ففكر كيف يتمحور .. يتشكل .. ويصطخب على ألا ينكسر .. تمنى أيضًا أن يتوحش .. وتكون له أنياب الأسد .. وأذرع الأخطبوط .. وسم الأفعوان .

كان قزمًا يحلم بأن يتعملق .. كالكيكلوبس .. الذى فرك سفينة أوديسيوس بأصابعه ..!!

القتل فى المهد

الفشل فى الحب مأساة ، قد تدفع بالمحبين إلى قمة النجاح ، أو تهوى بهم إلى حضيض المعاناة والسقوط . ويختلف مسلك المحبين فى مواجهة الحقيقة ، فالبعض إما ينتحر ، أو يجن ، أو ينعزل ، أو يسامح ، أو قد يفكر بالانتقام .

أمراض عديدة متباينة، لكنها طبيعية فى حالات الضعف الإنسانى وخور الإرادة . أما الغير طبيعى ، أن يتحول الفشل فى الحب إلى ثورة من الجنون واليأس ، تدفع إلى تدمير الذات ، واسترخاص بيع الوطن إلى الأعداء . فهذا هو المثير ، والغريب ، والمدهش .

وفى عالم المخابرات والجاسوسية ، هناك حالات عديدة لفاشلين فى الحب ، بسبب العوز المعيشى ، اندفعوا يبحثون عن الثراء ، فباعوا المبادئ والوطن ، انتقامًا من الفقر ، والظروف ، والمعاناة .

إنها حالات مرضية شاذة ، حار علماء النفس فى تفسيرها .. !!



انتهت مأساة سبتمبر ١٩٧٠ الدامية فى الأردن[١] بتصفية المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل ، واستراح الملك الخائف قانعًا بثبات عرشه طالما غادر الفلسطينيون مملكته ، محتفظًا بقنوات اتصالاته السرية بالإسرائيليين ، الذين استراحوا كثيرًا من تهديد الفدائيين فى جبهة حساسة ، تعتبر امتدادًا جغرافيًا للمقاومة فى الضفة الغربية وقطاع غزة . فمن بعدها .. أصبح العمل الفدائى فى الضفة محدودًا وشاقًا ، وكان المكسب ثمينًا لإسرائيل بلا شك ، تقابله خسارة جسيمة للعرب ، وهى تفكيك الجبهة الشرقية ، وتركيز العدو على الجبهتين المصرية والسورية فقط .

(١) أطلق الفلسطينيون على أحداث تلك الفترة « أيلول الأسود » ، وظهرت منظمة ثورية تحمل ذات الاسم ، للانتقام من الأردنيين ، قامت باغتيال رئيس الوزراء الأردنى « وصفى التل » بفندق شيراتون بالقاهرة ، ثم اتجهت بعد ذلك للانتقام من الإسرائيليين ، وأشهر عملياتها كانت مذبحة ميونيخ فى سبتمبر ١٩٧٢ ، ومقتل أحد عشر رياضيًا إسرائيليًا .

ولما انتقلت فصائل المقاومة الفلسطينية إلى لبنان ، اتفق كل من العماد إميل البستاني قائد الجيش اللبناني ، وياسر عرفات ، على تنظيم أسلوب التنسيق والتعاون . بحيث يتمركز رجال المقاومة في منطقة « العرقوب »[1] بالقرب من الحدود السورية – اللبنانية – الإسرائيلية ، ولهم مطلق الحركة في الجنوب اللبناني دون تمركز دائم فيه .

والجنوب اللبناني .. يعتز أهله بإطلاق اسم « جبل عامل »[1] على ديارهم .. كما يعتزون بأنسابهم العربية الأصل ، والتي تنحدر من أنساب قبائل يمنية ارتحلت بطون منها إلى جبال لبنان الجنوبية ، فاستقرت وعمرت وأعمرت . والمعروف أن الصحابي الجليل « أبو ذر الغفاري » كان قد نزل في قرى الجنوب وخاصة ضيعتي « صرفند » و « ميس الجبل » .

ولما اقتلعت الهجمة الاستيطانية الصهيونية الشرسة ، آلاف الفلسطينيين من ديارهم في شمال فلسطين ، لم يجدوا أرحب من قلوب أبناء الجنوب ، فأقاموا بينهم ، واقتسموا وإياهم الخبز الأسود ، ووطأة الاستغلال الطبقي والقهر الاجتماعي والسياسي ، إلى أن وصلت طلائع الفدائيين الفلسطينيين ، فأحدثت تحولات جذرية وعميقة في كل مجريات الحياة في الجنوب .

وكانت فاتحة عهد جديد ، انعقدت فيه عرى علاقة تحالفية لا انفصام فيها بين الفلسطينيين و « العامليين » ، أهل الجنوب . إذ تشكلت على الفور قواعد العمل الثوري ضد العدو ، وأصبح الجنوب وحده قاعدة انطلاق الفدائيين ، وتسللهم لضرب العدو داخل حدوده في تصعيد دائم لا يتوقف ، سبب صداعًا مزمنًا لإسرائيل .

لقد انتشر الفدائيون في كل القارات يضربون مصالح إسرائيل ويتصيدون رجال مخابراتها ، ويخطفون الطائرات المدنية لإنقاذ زملائهم من الأسر ، كما تسابقوا للعمل الفدائي لنسف أحلام العدو في الهيمنة والأمن والاستقرار والتوسع ، فكانت الضربات الفدائية بحق موجعة ومؤثرة ، ضربات متتالية لا تنقطع ولا تخيب ، لفتت انتباه العالم إلى وجود شعب مطارد وأرض مغتصبة ، وجيل من الشباب متعطش للشهادة في سبيل قضيته ، فاندفعت مخابرات إسرائيل تبحث عنهم وتتعقبهم ، وترصد تحركات قادة العمل الثوري في كل مكان . وتضاعفت ميزانية أجهزة المخابرات الإسرائيلية للإنفاق على ضرب المقاومة وإسكاتها

(١) العرقوب : كلمة عربية معناها : « الطريق في الجبل » .

(١) جبل عامل : هو جبل متفاوت العمق والارتفاع .. يتعاظم في أقصى الجنوب الشرقي في لبنان .

فى مهدها ، واستقطاب بعض الخونة ضعاف النفوس من بين أهل الجنوب اللبنانى ، وتداخل صفوف المقاومة نفسها ، والصرف عليهم ببذخ ليكونوا أداة طيعة وعيونًا على الفلسطينيين .. وجرى البحث عن هؤلاء الخونة الذين تراودهم أحلام الثراء ، فيهون عليهم بيع الوطن والشرف .

وكان تحت المجهر « نايف المصطفى » ابن الجنوب .. وهو شاب عضه الفقر ، ومزقه حب بلا أمل ، قادته أحلام الثراء ورغبة الانتقام إلى الوقوع فى شرك الجاسوسية .

البوسطجى العاشق

تتعاقب السنون وتتبدل الوجوه والأحوال ، إلا نايف ، فلم يزل يدفع بدراجته المتهالكة كل صباح عبر التلال والمدقات .. يحمل البريد إلى الضياع والدور المتناثرة فوق السفوح ، وفى المساء يرجع مهدودًا معفرًا يخنقه الزهق .. فينفض عنه وساخاته ويخرج .. تقوده قدماه إلى حيث يرى منزلها من بعيد ، ويتنسم رائحتها عبر الهواء المار بشرفتها ، فيستريح وينام قرير العين ، مطمئن الفؤاد ، يسترجع فى خياله لحظة اللقاء الأول ، ورعشة الحب التى تشبه دبيب نمل بأوصاله .

كان يسلمها رسالة من عمها ، فرآها جميلة أكثر مما رآها من قبل وهتف :

« إلى هذا الحد نضجت الصبية ؟ » .

بالفوران بنت الخامسة عشر التى استغلق عليه الكلام أمامها .

« ستة من السنوات تفصل بيننا ، يا إلهى .. هل تعرف نظرات العشق طفلة ؟ .. » .

ومن يومها .. ظل يمنى النفس بالفوز بها .. ويبحث كل يوم عن خطابات من عمها ليحظى برؤيتها، أو يلمس أناملها الرقيقة الناعمة . وأخيرًا تحين الفرصة عندما استوقفته تسأله عن « بريد » فاندفع إليها ملسوعًا بلهيب الشوق وصارحها بحبه .. ففرت وجلة من أمامه .

لحظتئذ ، زغردت حياته وانتشى عمره :

« هكذا تفعل العذراوات عندما يغزوهن إطراء الحبيب وعبارات الغزل » .

عامان والبوسطجي العاشق يلهث وراء محبوبته ، فما نال منها سوى ابتسامات خجلى ، حيية .. ولملم جرأته أخيرًا .. وقرر زيارة والدها ليخطبها ، وكان اللقاء عجيبًا :

– عمي عدنان ..

– هه

– كرمال قِيمتك يا عمي ..

– خبِّرني عمَّا بتريد

– لا تهيّبني .. الله معك ..

– شو .. الحين لسانك عطلان وبالشارع فلتان ؟

– يا عمي ، بدّي .. أ .. أ ...

– يا أزعر

– معي ألف ليرة .. و ..

فصّين مُخّي ورمانين .. عمي عدنان كِرمَال قيمتك .. لا تهيبني .. معي ألف ليرة .. شو عم تِحْكِي ؟

– إنْشَالله نيتي خير .. بدى .. أ ..

ولشوهالفرك .. ؟ حَكّي .

– أخطب فاطمة

«صارخًا» :

– إنشلح مُخّك يا خرْفَان .. شو عم بِتْنعوص ؟ .. وزّاع البريد يزّوج فاطمة ؟ .. شو يصير حالها .. تاكل مظاريف .. ؟ بيظهر تِركب وراك الدرّاجة المسخسخة تْمرُقُوا عـالبُيُوت .. كرمال قيمتك يا عمي .. (!!) ، تِفو عليك شو نيِّتك عَاطْلة !

– يَلّلى نِيّته عَاطْلة تِقْلب عليه .

صار لازم تفرجنا عرض كتافك يا مسيو .. ألف ليرة (!!!) .

خرج نايف ينزف ألمًا وكراهية لفقرة ، ولوظيفته ، ولوالد فاطمة الذى أهانه وطرده . فالأربعمائة ليرة – راتبه فى مصلحة البريد – لا تكاد تكفى معيشته ، وقد أورثه والده خمسة أفواه تلوك أضعاف راتبه لو شاءت .. ياله من ميراث ثقيل !! .

جرجر معاناته تصحبه أينما حل ، إذ اندثر بداخله أى أمل فى فاطمة ، ولكن برغم إحساسات يأسه فقد ظل حبها يثور كالبركان ، يضرب جذور وعيه بلا رحمة ، ويغوص فى عمق أعماقه ، فيلتهم الصبر منه ويغتال الحبور .

فكر بالسفر إلى الخليج لجلب مهرها ، وداعبته كثيرًا آمال الهجرة إلى وطن آخر ، وكان كالبحر الشاسع موجاته حيرى بلا وطن ، تتكسر على صخور الشط ، لتنقسم رذاذات شتى ، تذوب ، وتنهمد .

وأحس كأنه ضعيف كالموجة ففكر كيف يتمحور، يتشكل، ويصطخب على ألا ينكسر، وتمنى أن يتوحش ، وتكون له أنياب الأسد ، وأذرع الأخطبوط ، وسم الأفعوان .. أو يكون عملاقًا مرعبًا كالكيكلوبس الذى فرك سفينة أوديسيوس بأصابعه[1] .

أحلامه طالت ، وطالت ، وبقى فى النهاية عاجزًا أمام فقره لا حل لدحره .. أو الفكاك من أحلام يقظته . فغاص فى أوهامه مستغرقًا حتى النخاع .



عام ١٩٤٢ ولد نايف حسين المصطفى بقرية البستان على مقربة من الحدود اللبنانية الإسرائيلية ، وكان أبوه بائعًا جائلاً للملبوسات الرخيصة ، يطوف بها عبر القرى المحيطة يصحبه نايف – أكبر أبنائه – أحيانًا كثيرة . ولما فشل فى التعليم بعد الابتدائية ، امتهن نايف العديد من المهن فلم يوفق ، إذ كان طائشًا أهوجًا لا طموح لديه ، همه الأول والأخير ، السينما وأخبار الفن والطرب ، فكان كثير الهرب إلى صور وصيدا لإشباع هوايته[2] . فلما مات والده كان فى الثامنة عشرة من عمره ، وتوسط البعض له للحصول على وظيفة بمصلحة البريد .

(١) الكيكلوبس حيوان خرافى هائل الحجم والقوة ، اعترض سفينة البطل الإغريقى أوديسيوس ، وحطمها ، أثناء رحلة العودة الطويلة من حرب طروادة .. وجاء ذلك فى ملحمة «هوميروس» الرائعة : الأوديسا .

(٢) الملاحظ أن هناك تشابهًا كبيرًا بين نايف العدوى ونايف المصطفى فى الهوايات والأحلام ، وقادهما طموحهما الزائد ، إلى طريق الخيانة والجاسوسية .

وبحكم عمله كموزع للبريد ، حفظ الدروب والمدقات الجبلية الوعرة ، التى تختصر المسافات بين القرى الجبلية فى الجنوب . فلسنوات طويلة اعتاد اختراقها بدراجته ، متجنبًا الأسلاك الحدودية الشائكة ، ويافطات التحذير من الألغام المرشوقة ، تعلن بالعربية وبالعبرية عن الموت الجاثم بالأعماق . وخلال جولاته اليومية .. ونادرًا ما كان يصادف إنسانًا يسلك ذات الدروب .

لكن فى أواخر عام ١٩٧٠ .. تبدلت مشاهداته اليومية ، وأدرك بفطرته أن ثمة مستجدات طرأت ، فقد صادفه ذات صباح بمكان موحش خال فريق من الفدائيين الفلسطينيين ، كانوا يستطلعون تحركات الأعداء على الحدود بنظارات الميدان ، ويرسمون خرائط كروكية لنقاط المراقبة .

لقد أدهشهم مروره الفجائى فاستوقفوه ، وألقوا عليه عشرات الأسئلة عن العدو .. وعن سكان المنطقة ، وأماكن الاختباء المثلى لمراقبة العدو ، وكيفية اجتياز الحدود فى الظلام ، و .. و .. وكانت إجاباته ليست حبلى بما يجهلون ، فموزع البريد لم يعر هذه الأمور انتباهًا منذ وعى . إنه لا يحب السياسة أو الخوض فى أحاديثها . بل يجهل كثيرًا أسباب الخلاف بين العرب وإسرائيل .. لكنه لم ينس يومًا مقولة سمعها من والده وهو طفل أغر : « هذه الأسلاك قاتلة ، فلا تغامر وتقربها » فشب الصبى وقد رسخت بداخله مخاوف الحدود والأسلاك الرصاص .

ويومًا بعد يوم ، اعتاد تواجد الفدائيين الشبان ، الذين يجوبون الجبال قرب الحدود ، يرصدون ويرسمون ويسجلون ، ولا يهدأ بالهم وهم منغرسون فى الحفر بانتظار ستائر الظلام، يلوكون عَلَس الأرض ويلحسون الزلط البارد كى يهدأ الحلقوم المتشقق :

« يالكم من مجانين ، تهجرون الحياة فى أضواء المدن ، إلى الجبال والجوع والعطش والحدود واليهود والرصاص ..؟. ألا أهل لكم وأحلام وحبيبات ؟!!» .

تساءل كثيرًا مع نفسه لكنه لم يفهم .. فكل ما أدركه أن هناك دروبًا ومسالك جبلية لم يكتشفوها بعد .. آثر هو أن يسلكها بعيدًا عنهم ، حتى لا يستوقفوه كعادتهم ليسألوه ذات الأسئلة التى مل تكرارها .

وفى أبريل ١٩٧١ كانت مصادفة عجيبة ، وبداية البحث عن « نايف » الآخر الذى طالما حلم به وتمناه ، بداية البحث عن العملاق الذى نضا جلدة الضعف ، واستوثقت لديه أحلام التوحش ، والكيكلوبس .

كلمة شرف

جاء الربيع مونقًا ، واكتست الجبال ثوبًا من بهاء وجمال ، فتعانقت أشجار « الأرز » والصنوبر والتفاح ، تحوطها أبسطة تزحف فوقها كل الألوان وتتمايل ، فأينما امتد البصر لا يرى سوى لوحة بديعة صاغها خالق الكون في إعجاز وجلال .. ومن بعيد في سهل ضيق اعتاد نايف أن يمر بدراجته ، منشغل عما يؤرقه بالأطيار والأزهار ، يغنى بصوت مبحوح ، جريح ، يائس .

ع كتف هالغيمات ..
ع حدود السما ..
بحبك متل حب الصبا للولدنه ..
أو متل بوسة ناظرة رأس السنة ..
إنت بعمرى عمر خايف ضيعو ..
لو راح مني بروح من كل الدنى ..!

وذات يوم ربيعي ، بينما العاشق المحزون شارد الذهن في ملكوته ، إذا بشخص أمامه لا يعرفه ، ليس في أواسط العمر كشباب الفدائيين الذين اعتادهم ، بوجوههم التى لفحتها الشمس ، والأيدى الخشنة المعروقة ، لكنه قارب الخمسين .

جلسا سويًا يتجاذبان الحديث .. وأخبره « زياد » - وهذا اسمه الذى ادعاه - بأنه تاجر فلسطيني يسعى لبيع البضائع الرخيصة المهربة عبر الحدود ، وفتح حقيبة صغيرة أخرج منها بعض الساعات والولاعات والأقلام . ولاحظ نايف جودتها ورخص سعرها قياسًا بمثيلاتها . ولأنه تاجر قديم ، ومأزوم يبحث عن مخرج ، فقد عرض على زياد مشاركته ، على أن يمنحه مهلة للغد ليأتيه بثمن بضاعته .

لم يجبه « التاجر » فورًا ، بل أخذ يسأله - بشكل بدا عفويًا - عن أحواله المعيشية ، فشرح له تفاصيلها ، وقص عليه مأساة حبه الفاشل ، ورغبته الملحة في أن يزيد دخله لكى

يتجاوز خط الفقر الذى يكبله . وسلمه زياد السلع التى جلبها ، وتواعدا – بكلمة شرف – على اللقاء بعد أسبوعين فى ذات المكان والوقت .

انطلق نايف سعيدًا بالصفقة التي حققها .. فها هو مصدر للكسب جاءه سهلاً مريحًا ، وفي صيدا – حيث السوق الكبير – كاد أن يصرخ من الفرح عندما با ع بضاعته بثمن خيالى فاق حساباته . وما أن حل موعد اللقاء ، إلا وكان سباقًا لملاقاة صاحبه ، يأمل فى ألا يموت هذا الحلم الحقيقى .

وجاء رفيق تجارته يحمل حقيبة أكبر . فتحاسبا ، وانصرف كل لحاله منشرح الصدر بما كسبه .. وقال نايف لنفسه :

– سأطلب من زياد أن نلتقى مرة كل أسبوع بدلاً من أسبوعين :

إنه يكاد يجن .. فقد نفذت بضاعته في وقت محدود . وتجار صيدا ألحوا عليه أن يجيئهم بالمزيد منها . فامتزج بأحلامه من جديد .. وأخذ يحسب أرباحه المستقبلية فى عدة أشهر قادمة . معتقدًا أن بإمكانه الفوز بحبيته بعدما يملك مهرها ، لكن ما كان يخبئه القدر يفوق كل حساباته ، وتوقعاته .. إذ خطبت فاطمة لتاجر ثرى من « الفاقورة » وأعلن فى القرية عن قرب زفافها .

لحظتئذ ، انهارت فرحته واكتأبت بوجهه تغاريد الأمل . ولما تقابل وزياد عابسًا محزونًا ، نصحه بنسيانها وبالاجتهاد فى عمله التجارى معه لكى يثرى ، فيندم حينئذ أبوها على رفضه زوجًا لابنته ، خاصة إذا ما تزوج بمن هي أفضل منها حسبًا ونسبًا .

حاول نايف أن يستوعب نصيحة صاحبه ، وطالبه بأن يلتقيا كل أسبوع ومضاعفة كم البضائع ، وفاجأه زياد باستحالة ذلك فى الوقت الراهن على الأقل ، لأنه فلسطينى من عرب ١٩٤٨ فى إسرائيل .. وأنه يغامر مغامرة حمقاء بعبوره للحدود سعيًا وراء الرزق .

بهت موزع البريد الذى لم يكن يعرف أن صديقه إسرائيلى ، لكنه تدارك الأمر بعد قليل ولم يعره التفاتًا . فما بينهما مجرد تبادل مصالح فقط بعيدًا عن السياسة .. فهو يجلب بضائع زهيدة الثمن من إسرائيل ليبيعها له بثمن أعلى فى لبنان ، ويتقاسمان الربح .. إنها تجارة بلا رأس مال تدر عائدًا مجزيًا . ما الضير فى ذلك ؟ .

تعمد ألا يرتبك فيلحظ زياد ارتباكه ، وبدا كأن الأمر طبيعيًا لا غبار عليه . ولكى لا يثير ظنونه .. أعاد نايف عرض رغبته فى اللقاء كل أسبوع ، وتعهد لزياد بألا يراهما أحد ، حيث بمقدوره أن يرتب مكانًا آخر أكثر أمنًا للقاء ، بعيدًا عن أعين الفدائيين المتربصين الذين يزرعون الجنوب .

ولما اعتذر زياد متحججًا بتشديد المراقبة الإسرائيلية على الشريط الحدودى .. بسبب العمليات الفدائية التى يقوم بها الإرهابيون المتسللون. يسب نايف الفلسطينيين الأوغاد الذين سيدمرون مشروع تجارته .

نريد كل التفاصيل

ذاق أخيرًا طعم المال والثراء ، وكان على استعداد لأن يحارب الدنيا كلها كى لا ينقطع تدفق المال بين يديه . لذلك ، أصيب بتوتر شديد لما انقطعت لقاءاته بزياد ثلاث مرات متتاليات . لقد كان قد أوصاه ألا يتأخر أبدًا عن الموعد المتفق عليه ، حتى ولو لم يجئه ، ومهما طالت مدة غيابه .. وهذه المرة انقضت ستة أسابيع ولم يجئ صديقه الإسرائيلى ، وتساءل نايف فى قلق :

ترى هل يجيء ثانية .. ؟ .

كان يحترق خوفًا من ألا يجئ .. ويزداد ضجره لأنه لا يعرف ما حدث بالضبط .. ووصل به ظنه إلى الفدائيين .. فهم بلا شك أهم أسباب حرمانه من فرصة التجارة المربحة .. ذلك أن عملياتهم الفدائية كانت أخبارها على الألسنة فى كل مكان .. وود عندئذ أن يكفوا عن عملياتهم .. بل إنه تمنى فى داخله أن يرحلوا بعيدًا عن أرض لبنان .

تعلق بصره باتجاه الحدود يحدوه الأمل فى مجيئه ، وأخفى دراجته بين الأعشاب ، واستلقى بجانبها كما أمره زياد من قبل خوفًا من شكوك « الإرهابيين » .. وعلى حين فجأة ، تهللت أساريره من جديد عندما لاح الشبح قادمًا ، وبدا الوافد قلوقًا متعبًا .

وفى سرد طويل ، شرح لرفيقه معاناته فى المرور ببضاعته، ومدى حرصه على ألا يتأخر، إلا أن العمليات الإرهابية كانت السبب فى إعاقته .. وتكثيف نقاط المراقبة .. وسأله : كيف يتحركون فى الجنوب ؟ ، كيف يرصدون الحدود ؟ .

أسئلة كثيرة في تلقائية أجاب عنها نايف بما يعرفه . ووصف لزياد أساليب معيشتهم وأماكن تواجدهم وتجمعاتهم ، حتى الممرات ومدقات الجبال التي يسلكونها رسمها على الورق ؛ بل إنه حدد كروكيًا مواقع الحفر التي يتخذونها مراكز مراقبة طيلة النهار . ثم ينطلقون ليلاً في أواخر الأشهر العربية ، مستغلين الظلام الدامس أو غبش الفجر في قص الأسلاك والتسلل إلى إسرائيل .

حدثه أيضًا عن كيفية استقطاب الأشبال وتجنيدهم ، وتدريبهم عسكريًا على استخدام المدافع الرشاشة والقنابل في معسكرات مغلقة بالبقاع . وسأله زياد عن المصادر التي استقى منها معلوماته ، فأجاب بأنه عرفها من خلال بعض شباب الجنوب الذين انخرطوا في صفوفهم ، تحت إغراء الحافز المالي وشعارات الجهاد .

أخرج زياد حافظة نقوده وسلمه ألف دولار .. وهو مبلغ خيالي في ذلك الوقت .. وقال له بأنه سينقل كل هذه المعلومات إلى الإسرائيليين كي يثقوا به ، فيتركوه ليمر ببضاعته في أي وقت فتزيد أرباحهما معًا .

– ولما سأله نايف :

– ولماذا تمنحني هذا المبلغ الكبير ؟

أجاب :

– يا عزيزي ، ما قلته لي يساوي أكثر

– قطب جبينه في دهشة أكثر وتساءل في سذاجة :

– لست أفهم :

في لؤم شديد مغلف بالإغراء أجابه :

– ما دفعته لك سأسترده .. إنهم في إسرائيل يشترون أقل معلومة بأعلى سعر .. فالمعلومة التافهة في اعتقادك قد تنقذ أرواحًا في إسرائيل .. ألا تحب إسرائيل ؟

– (... !!!!)

ومتقمصًا دور العربي الوطني :

– أنا عربى مثلك[1] ، كنت أكره إسرائيل فى صغرى ، الآن كبرت ، وفهمت لماذا يكره العرب إسرائيل . هم مخطئون لأنهم ينقادون وراء حكامهم ، والحكام مستبدون ، طغاة ، يُسَيِّرُون شعوبهم تبعًا لمشيئتهم . أما فى إسرائيل فالديمقراطية هى التى تحكم ، الشعب يحكم نفسه ، ويملك قراره ومصيره .

– (!!!! ...)

وهو لايزال ينفث سمومه :

– فى إسرائيل حرية لا يعرفها العرب . حرية فى أن تعارض ، تجادل ، تعمل ، تحب ، تمارس حياتك كما أردت أنت . أنا مثلاً ، أعمل موظفًا ببلدية « نهارية » قرب الحدود . اشترى بضائعى من « عكا » وأبيعها معك فى لبنان ، إننى أسعى لزيادة دخلى ، والحرية عندنا لا تمنعنى أن أعيش ميسورًا . ألا تريد أن تعيش ميسورًا ؟ .

– نعم .

– إذن ، فلنتعاون معًا على العمل بإخلاص .. وساعدنى كى أجيئك بالسلع كل يوم وليس كل أسبوعين .

– وماذا بيدى لأساعدك ؟

– بيدك الكثير لتكسب آلاف الليرات ، وبسهولة . أنسيت فاطمة وإهانة أبوها عدنان؟

وقد بدأ نايف يستجيب لسمومه :

– إنى طوع أمرك ، أريد مالاً كثيرًا مقابل أى شىء تطلبه .

– هؤلاء السفلة « يقصد الفدائيين » يُضَيِّقُون علينا ، ويُعَكِّرُون « أمننا »، نريد منعهم .

– كيف ؟

– سأجعلهم يخصصون لك راتبًا شهريًا، ألفى ليرة .. عليك فقط أن تحصى عليهم أنفاسهم، وتعرف بتحركاتهم قبل أن يعبروا الحدود .. « نريد الخطط ، والمواعيد ، والأعداد . نريد كل التفاصيل » . !!

(١) انتحل الضابط الإسرائيلى شخصية الشاب العربى فى البداية لكسب الود وإحلال الثقة ، وهو أسلوب قديم ومعروف .. لذلك ، تحرص المخابرات الإسرائيلية على أن يتعلم عملاؤها اللغة العربية بشتى لهجاتها ...

نايف فى إسرائيل

حاصره زياد ضابط المخابرات الماكر ، ولعب على أوتار فقره وأحلامه فى الثراء . مستغلاً ضعف ثقافته وعروبته ، وكبله بخيوط الخيانة دون أن يقاوم . وما غادر موضع اللقاء إلا وقد انضم لطابور الخونة العرب جاسوس جديد لإسرائيل .

وذات مرة .. انتهز عميل الموساد الفرصة .. ورسم صورة زاهية لحياة نايف .. إذا تعاون معه بإخلاص دون أن يتعرض لمشاكل مع الفلسطينيين . ولكى يكون أكثر كفاءة ومهارة فى عمله الجديد ، كان عليه أن يخضع لتدريب فنى متخصص . وهذا لن يتأتى له فى الجبل .. حيث المخاطر من كل جانب .. وكان أن دعاه لاجتياز الحدود معه ليمكث بإسرائيل عدة أيام حيث سيسرهم هناك أن يروه .

لم يكن الأمر من البساطة بحيث يستوعبه نايف بسهولة .. إذ إن أعصابه ارتجفت بشدة وهو ينصت لزياد .. وغامت الرؤى فى ناظريه رعبًا عندما تخيل نفسه أحد رجال الموساد فى الجنوب . كان الحدث بلا شك أكبر بكثير من حجم مداركه البسيطة وأحلامه الواسعة .. لكن جحيم معاناته النفسية كان كزلزال عاتٍ يخلخل جذوره ، ويقتلع شعيرات مقاومته التى بدت هشة ضعيفة واهنة ، أمام دفقات الخوف والأحلام معًا .

بفكر ضابط متخصص واعٍ .. كان زياد يتفرس صراعات فريسته ، ويراقب عن كثب مراحل الترنح التى تسبق السقوط ، وبانقضاض محموم أشل إرادته وسيطر على عقله .. فالمال له بريق ساحر كالذهب ، يذيب العقول فلا تقوى على مقاومته .. وابن الجنوب كان ضحية الفقر والعجز والمعاناة .. لذلك فما أسهل احتواءه وتصيده بواسطة أصغر متدرب فى أجهزة المخابرات .

لقد كانت طقوس سقوطه بسيطة جدًا وسهلة .. إذ اشترط نايف لكى يتعاون معهم ألا يفضحوه يومًا ما .. ويعلنوا عن اسمه فى سجل الخونة . وكان له شرط آخر يتعلق بالمال ، وهو ألا يبخسوا عليه حقه .(!!) .

أجيب إلى طلبه بالطبع ، فقد أخذ شكل الحوار يتغير من حوارات تجارية ، إلى مساومات وطلبات مكشوفة تتعلق بالتعاون مع الإسرائيليين . ووجدها نايف فرصة ثمينة لا تعوض فى الحصول على المال ، مقابل معلومات تفاهة لا يعرفها الإسرائيليون ، لكنهم كانوا فى واقع

الأمر يعيشون الرعب كل الرعب ، بسبب تلك العمليات الناجحة فى قلب مستوطناتهم الشمالية .

اقتنع نايف بأن أمنه الشخصى مرهون بمدى مهارته وحرفيته .. وآمن بأن التدريب ضرورة ملحة للحفاظ على حياته .. لذلك لم يتوان عن الإسراع بطلب الحصول على أجازة من عمله ، وانطلق بدراجته إلى نقطة حددت له فى الجنوب ، وبقى مختبئًا بين الأعشاب ينتظر ستائر الظلام ، إلى أن لمح الوميض المتقطع المتفق عليه ، فرد بإشارات متقطعة أيضًا ، وهو يتعجب من الارتجافة الهلوعة التى اجتاحت أعماقه .

مشى باتجاه الوميض البعيد يجاهد للتغلب على اضطرابه ، لكن الليل الحالك وصفير الرياح ورهبة الصمت ضاعف من توتره ، وكان رعبه الأكبر من هؤلاء الثعالب المختفين بين الحفر والأعشاب ، ينتظرون إشارة الزحف باتجاه الحدود ، حاملين رشاشاتهم وأرواحهم بين أيديهم .

فرق كبير بين خائن يسعى للثراء ، وثعلب منهم زهد الحياة والمتع وجعل من دمه وعظامه نارًا تؤجج شعلة الجهاد .

وفى غبش الظلام فاجأه شبح ألقى بقلبه الرعب .. وكادت أنفاسه أن تتوقف قبلما يناديه :

– اتبعنى ..

قاده الشبح المجهول إلى الأسلاك والعيون المترقبة ، وكان يتعثر من فيضانات الخوف المهلكة ، الدافقة .. ومرت به لحظات ذاق طعم مرارتها بفمه ، تمنى وقتها لو أنه عاد ثانية إلى بيته ، بلا أحلام ، أو مطامع ، لحظتها فقط اجتاحه إحساس مقيت بالغثيان ، لكن الوقت كان قد فات .. وما عادت أمنيات التراجع تجدى .

انطلقت به كالسهم السيارة العسكرية إلى حيث لا يدرى .. كان يجلس بالخلف وسط أربعة جنود ، نظراتهم الحادة المتفحصة كانت تخيفه وتربكه ، إنهم بلا شك – وهم يتحدثون بالعبرية – يتندرون على ضيفهم الذى بلا انتماء ، الذى جاء متسللاً لينزف عروبته ويبيع وطنه .. وزياد الجالس بجوار السائق لم يكن يكف عن الضحك ..

ياللمفارقات العجيبة ..(!!) .

كانت النقاط الأمنية منتشرة هنا وهناك طوال الطريق .. ورأى رجال الأمن يفتشون السيارات المارة ، إلا سيارته . فقد كان زياد يومئ لهم فقط فيفسحون الطريق في الحال .

– أهلاً بك في حيفا ..

هكذا قابلته الفتاة الحسناء عندما فتحت باب المنزل ، وتركه زياد معها ومضى دون أن يتكلم معه في شيء :

أسلاك الموت

وفي حجرة نومه بكى كطفل خائف في الثلاثين من عمره .. وبقى ينتظر زياد لمدة أسبوع كامل ، لكن زياد لم يجئ ، ولم يهتم به ، إنما تركه برفقة فريق من النفسانيين الذين انكبوا عليه يروضون أحلامه ويحللون أنسجة ضعفه وخذلانه .. ثم تركوه لفريق آخر أخضعه لدورات مكثفة في فن التجسس ، وكيفية تلقط الأخبار ، والتمييز بين الأسلحة .. وأساليب التغلغل داخل التجمعات الفلسطينية في الجنوب واستكشاف نواياها .

يومًا بعد يوم .. وتحول الطفل الخائف الباكي إلى ملك يحظى بالاحترام الشديد ، إذ إنهم أغدقوا عليه هالات من التبجيل أذكت غروره ، وطوف به في سيارة ذات ستائر ليرى إسرائيل ، وليقارن بنفسه بين واحة الجمال والديمقراطية وجيرانها .. وأوحوا إليه بأساليب متعددة بأن أمنهم موكول إليه وإلى إخلاصه في التعاون معهم .. وأغرقوه في محيط لا نهائي من الثقة .. ومن الخطايا .

وعندما نجح بكفاءة في استعمال جهاز اللاسلكي في الإرسال ، كافأوه بداعرة من بنات الموساد ، قذف بنفسه منجرفًا في أتون لهيبها ، وتذوق للمرة الأولى في حياته طعم امرأة أجادت اللعب على أوتاره ، ووعدته بأن تكون له دائمًا خلال زياراته لإسرائيل .

وفي نوفمبر ١٩٧١ ، عندما رجع لي لبنان بعد غياب ٢٥ يومًا ، كانت فاطمة قد زفت إلى عريسها .. وارتحلت .. فحبس آهاته ولوعته .. إلا أن فجيعته كانت أكبر من تحمله .. وحاول جاهدًا نسيانها فكانت مقاومته أضعف مما تكون .. وفي لحظة صدق مع نفسه بكى .. بكى في مرار وأسى .. وانصب فكره في كيفية الانتقام من أبيها .

لكن مع انخراطه في عمله الجديد تاهت رويدًا رويدًا رغبته في الانتقام .. وطمست مع الأيام معالمها ..

كان قد أخبر أهله أنه كسب بعض المال خلال أجازته في بيروت .. وأنه سيتمكن من إعادة بناء المنزل ريثما يجد عروسًا تناسبه . ولما عاد لعمله في البريد ، تعجب لأمره وردد في نفسه :.

« أبعد هذا الثراء أركب دراجتي القديمة من جديد ؟ لا يهم » .

كان قد بدأ ينظر إلى الأمور ببساطة ، طالما سيتيح له ذلك سهولة التنقل في الجنوب قرب الحدود ، يرصد تحركات فرق « الإرهابيين » ويلاطفهم ويرتبط معهم بصداقات ، وعلاقات علموه في إسرائيل كيف ينشئها .

فهم دربوه على كيفية استدراجهم للأحاديث الوطنية ، وإثارة حماسهم فيخرجون ما بداخلهم من أسرار ، هذه الأسرار يجب أن يحفظها جيدًا ويدونها ، وفي البيت والكل نيام كان يخرج نوتة الشفرة السرية ويبث رسائله :

« تصادقت مع فلسطيني فدائي ، دعاني لزيارته في مخيم عين الحلوة ، المخيم به مركز عسكري للتدريب على استعمال السلاح والقنابل وصنع المتفجرات . كان به ثلاثون شابًا ، يمنحونهم مكافآت ومواد غذائية وملبوسات ، هم الآن يجهزون لعملية فدائية ضد مستعمرة « حانيتا » ، سأخبركم بميعاد العملية » .

هكذا كانت تتوالى رسائله إلى الموساد أولاً بأول . كان يبثها في موعد محدد من الليل لأيام متصلة إذا لزم الأمر . وفي الصباح يحمل حقيبة البريد أمامه مربوطة بالمقود ، ويمر بدراجته بين القرى الحدودية ، يتلقط الأخبار ويتلصص ، ويراقب تحركات الفدائيين وأعدادهم وعددهم ، مكثفًا من زياراته لمخيمات الفلسطينيين في الجنوب – « الرشيدية والبرج الشمالي والبص في صور ، وعين الحلوة في صيدا » – ولاحظ عن قرب مظاهر الحياة المعيشية الصعبة بالمخيمات . وكيف يعيشون على الكفاف داخل صناديق من ورق وخشب ، يعانون الزحام والبطالة والمرض ، تحوطهم الأسوار والمأساة ورائحة الموت .

لم تهزه أحزان الطفولة اليتيمة على وجوه مئات الأطفال ، أو تثنيه عن قتل آباء آخرين .. هكذا تحجرت مشاعره ومات بداخله الإنسان ، فكل ما كان يسعى إليه هو الثراء ، الثراء بأية وسيلة حتى ولو ببيع الوطن ، والشرف « من ذا الذي يتجسس للأعداء ويعرف الشرف ؟ » .

نبذته النخوة وسيطر عليه الشيطان فبصق على ذاته واستمر فى طريقه :

« ثلاثة يستعدون للتسلل عبر المنطقة (..) التوقيت المقترح (...) » .

« لنش مطاطى يبحر به أربعة من (...) الهدف – (...) – التوقيت (...) » .

« قبضوا على صديقكم سعدون فى قلعة الشقيف – لازال رهن التحقيق » .

عشرات الرسائل بثها نايف المصطفى إلى الموساد . فأفشل العديد من عمليات الفدائيين سواء بالقبض عليهم ، أو بقتلهم عند اجتياز الحدود .

استحق الإعدام

وفى إحدى زياراته لمدينة صيدا ، فى سبتمبر ١٩٧٢ ، تقابل فى طريق البوليفار الذى يقع إلى البحر مباشرة ، بفتاة فلسطينية عرجاء ، تتسول . سألها عن أبيها فأجابته بأنه فقد بصره وإحدى يديه فى انفجار عبوة كان يعدها ، ولها شقيق تطوع فى صفوف المقاومة اختفت أخباره .

راودها عن نفسها فرفضت وهمت بالانصراف . فعرض عليها مائة ليرة لتخبره بأسماء قادة الفدائيين فى مخيمها « عين الحلوة » .

أحست ابنة الرابعة عشر بأنها تحادث أحد الخونة . وكانت لحظه السيء تملك رغم صغرها حسًا أمنيًا عاليًا ، أورثتها إياه كوارث زلزلت حياتها منذ وعت .

تلفتت الفتاة يمنة ويسرة ولما اقتربت إحدى السيارات العسكرية ، صرخت بكل عزمها : جاسوس ، جاسوس .

انطلق نايف كالسهم هربًا وقد ولت جرأته .. واختبأ لثلاث ساعات بين أنقاض مسرح قديم مهدم . خرج بعدها فى هدوء وكأن شيئًا لم يكن . وفى المنطقة الواقعة بين شركة الداتسون والتيرو بطريق صيدا القديم ، انقض عليه عدة رجال وكبلوه ، وعندما دفعوا به إلى العربة الجيب كانت الفتاة تجلس مزهوة فرحة .

أخذوه إلى معسكر فلسطينى بطريق « دير قانون البحر » وبين طيات ملابسه عثروا على رسوم كروكية لمواقع فلسطينية فى مثلث الراهبات ، وشارع رياض الصلح ، ولأهم المفارق الحيوية بصيدا .

وبالتحقيق معه حاول قدر استطاعته أن يناور .. ويتغابى ، لكنه انهار فى النهاية واعترف بعمالته للموساد ، وأرشد عن الجهاز اللاسلكى الذى عثروا عليه بقاع سحرى بدولاب ملابسه . وعثروا أيضًا على أربعة آلاف دولار ، وستة عشر ألف ليرة لبنانية ثمن خيانته وتجسسه لمدة عام .

وبنفسه كتب اعترافًا كاملاً بظروف حياته ، ومعاناته النفسية التى أثرت على وعيه ، وخطوات تجنيده بداية من زياد ، ثم زيارته لإسرائيل ، حيث سيطروا عليه هناك بالمال والجنس ، وصوروه بإرادته فى أحط الأوضاع وأقذرها مع إسرائيليات ، بدعوى أنهم مضطرون لتصويره لضمان إخلاصه لهم ، ولكى يحافظ على جهاز اللاسلكى الذى يفوق ثمنه مائة ألف دولار .

فى اعترافاته قال أيضًا أنهم وعدوه بثلاثين ألف دولار ، مقابل تجنيد ضابط فلسطينى فى صفوف المقاومة ، وشمل اعترافه قائمة طويلة بأسعار المعلومات المطلوبة ، وجملة ما يخصه من أموال ورواتب متأخرة لدى الموساد .

سلمه الفلسطينيون للسلطات اللبنانية لمحاكمته (ليس لهم الحق فى محاكمة لبنانى أو أجنبى خائن ، ولو كان يتجسس عليهم ، فهم يحاكمون فقط مواطنيهم المتهمين بالخيانة . وغالبًا ما يتم إعدامهم رميًا بالرصاص) .

ومثل الخائن أمام المحكمة العليا ببيروت ، وفى فبراير ١٩٧٣ أدين بالحبس مدة سبع سنوات .

وبعد ثمانية أيام فى السجن عقد له زملاؤه المسجونون محكمة أخرى ، أعضاؤها الخمسة من القتلة واللصوص ، وحكموا عليه إجماعًا بالإعدام شنقًا .

كان يظن طوال الوقت بأن الأمر مجرد هزل مساجين ، لكنهم انقضوا عليه وشنقوه بالفعل بواسطة حبل جدلوه من ملابسهم ، وكان ذلك عشية احتفاله بعيد ميلاده الثلاثين ، واعترفوا بلا أدنى مواربة بأنهم اقتصوا منه وحاكموه بالعدل ، وبقانون العروبة والوطن ، لا بقوانين لبنان .

ألم نقل من قبل أن لبنان بلد العجائب ، وأنه البلد العربى الوحيد الذى لا يعدم فيه الجواسيس بنص القانون ؟!!! .

سعيد العبد الله .. صريع « لغة الجسد » .. !!



« .. إن دور المرأة في عمل المخابرات والجاسوسية لا يمكن إغفاله .. فامرأة جميلة ذكية مدربة - في بلاد يسطير عليها الجوع الجنسي - تكون أفضل من عشرة جواسيس مهرة . فسلاحها هو سحرها .. وجسدها .. وعندما تنصب شباكها .. يأتيها أعتى الرجال طائعًا .. خاضعًا .. ضعيفًا .. !! » .

تاريخ الزعيمة

لم تكن رحلة ترفيهية تلك التى خاضتها « شولا كوهين » من «اليعقوبة» شمالى بغداد ، إلى البصرة فميناء عبادان الإيرانى .. إنما كانت رحلة مأساة عجيبة شاقة ، يخيم عليها القلق والخوف والحذر ، وتحمل مع كل خطوة رائحة العذاب والموت ، سعيًا وراء حلم الوطن الجديد فى إسرائيل .

تحملت شولا ذات السبعة عشر ربيعًا ما يفوق طاقتها ، إلى أن وصلت وعائلتها لميناء حيفا . وما أن استقرت فى تل أبيب حتى صفعتها الكوارث واحدة تلو الأخرى ، دون أن تدرك الصغيرة الجميلة البضة لماذا ؟

فعندما قتل والدها فى انفجار عبوة ناسفة بسوق تل أبيب تأوهت هلعًا لا تصدق .. وازداد صراخها المكتوم وهى ترى أحلامها تتحطم فوق صخرة الوهم شيئًا فشيئًا . فإسرائيل ليست هى الجنة الموعودة ، بل الخدعة الكبرى التى روجوا لها ، ومن أجلها ضحوا بالكثير فى سبيل الهرب من العراق .

مات والدها فلم تقو أمها على تصديق الحقيقة فخرت صريعة المعاناة والمرض ، وألفت شولا صراخ شقيقها الأكبر ، محتجًا على ميراث أبيه من الأبناء الستة والمسئولية التى أثقلت كاهله ، حتى التقت « بعازار » ، ونبض قلبها الصغير بالحب لأول مرة ، وظنت أن ثمة أمل جديد أشرق بحياتها ، بيد أنها فجعت شر فجيعة بقتله هو الآخر فى اشتباك مسلح مع أصحاب الأرض والوطن .

هكذا أسودت الحياة فى وجهها وركنت إلى الصمت والانزواء تفكر فيما أصابها ، وماذا عساها أن تفعل ؟ فتملكتها رغبة الانتقام من العرب ، لكن شغلتها معاناة الحياة اليومية ، والجوع الذى لا يكف صراخه ينهش العقل والبدن ..

وبعد عام قضته مقعدة ماتت أمها ، وطفق شقيقها ينفث غضبه بوجه إخوتها ، فخرجت تسعى للعمل بإحدى العيادات بشارع « تساهالون هاروفيم » ، ووفقت فى الحصول على

وظيفة مؤقتة ، لمؤهلاتها الأنثوية المثيرة الصارخة فأسبغ عليها الراتب الضئيل مسحة من الطمأنينة والثقة بنفسها . وأحست بالعيون الجائعة تعريها كل لحظة وترغبها .

فالجسد الممشوق المتناسق الأعضاء يغرى بالالتهام ، والعيون الناعسة الواسعة ذات الرموش الطويلة الكثيفة ترسم أروع صور العناق ، والفم المبسام الأملود الدقيق يوحى بعذاقات القبل :

وطاردتها العيون والشهقات والهمسات والأيدى الجائعة ، فاستسلمت لجنرال فى الجيش الإسرائيلى من أصل بولندى يجيد العربية ، كان دائم التردد على العيادة ، وبين يديه تكشفت لها خطوط الحقيقة وتفاصيلها ، فقد أدركت لأول مرة أنها تملك سلاحًا فتاكًا تستطيع به أن تقهر أية قوة .. أنوثتها الطاغية .. وكانت تشبه قنبلة ذرية تذيب بلهيبها الأجساد ، وتسيطر بها فى يسر على الأعصاب والعقول .

أغدق عليها الجنرال الإسرائيلى بالمال والهدايا ، فظنت أنها امتلكته، حتى استوعبت الأمر فى النهاية . فالجنرال ما هو إلى ضابط كبير فى جهاز المخابرات ، تقرب إليها مستغلاً ظروفها ، وعلى وعد بتأمين حياتها أغرقها فى محيط الجنس والمال ، ثم كاشفها برغبته فى أن تعمل لصالح الجهاز لتحافظ على أمن إسرائيل من جهة ، ومن جهة أخرى كى تعيش عيشة رغدة لا تحلم بها فتاة فى مثل سنها فى إسرائيل .

لم تكن شولا أمام واقعها المؤلم تستطيع رفض هذا العرض. فهى تحلم بالمجد المفقود الذى كم رنت إليه ، إضافة إلى استيقاظ رغبة الانتقام لديها من العرب الذين قتلوا والدها وحبيبها ، وتسببوا فى موت أمها كمدًا .

لكل لذلك أعلنت موافقتها راضية مقتنعة ، لتبدأ بعدها أغرب مغامراتها فى عالم المخابرات والجاسوسية ، لتستحق عن جدارة لقب « الزعيمة » الذى أطلق عليها فى الموساد ، ذلك لأن ما قامت به لصالح إسرائيل على مدى تسع سنوات متصلة ، مثير جدًا ...وجرئ .. وعجيب كل العجب .. !!

نساء إسرائيل

مهما تطورت أجهزة الاستخبارات فى العالم فلا يمكن إغفال دور المرأة فى ميدان التجسس . فامرأة جميلة .. ذكية .. بمقدورها أن تكون جاسوسة كاملة تفوق الرجل ، إذا استغلت مهاراتها وحدة ذكائها وسلطان سحرها ، خاصة فى بلاد يسيطر عليها « الجوع الجنسى » كبلادنا العربية .

فالجاسوس الرجل .. يعتمد فى الغالب على مهاراته وقوته البدنية ، وشجاعته واندفاعه إلى درجة الإجرام .. وهو عادة يعمل سرًا فى الخفاء .

أما المرأة الجاسوسة .. فسلاحها سحرها وفتنتها وجسدها . ولذلك تظهر فى أكثر الحالات ضمن هالات الأضواء على حلبات المسارح والملاهى ، تعرض فتنتها فتثير النفوس ، وتلقى شباكها ليأتيها من يرغبها طائعًا .. خاضعًا .. ضعيفًا .. وخلال اعتراك لهيب الأجساد العارية ، والقبلات ، ورعشات الرغبة الساحرة ، تنسكب المعلومات بلا ضابط ، وتفشى الأسرار المصفدة بالكتمان وتباح كل المحظورات .

وقد يتساءل البعض :

هل تقبل المرأة فى عالم المخابرات و الجاسوسة ، أن تضحى بشرفها للسيطرة على أعصاب شخص ما ؟ .

وللإجابة نقول :

نعم . فأجهزة المخابرات فى العالم كله تعتبر التضحية بالشرف ، وبكل ما هو ثمين ، أمر جائز فى سبيل الوطن . بل ويعد ذلك أثمن معانى الوطنية .

وعلى ذلك ، يطلب من الجاسوسات أن يستبسلن لشخصيات بعينها ، توصلاً لجمع معلومات سرية تفيد المصلحة العامة . والعنصر النسائى فى المخابرات الإسرائيلية بوجه خاص أمر إجبارى .

فإسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم منذ عام ١٩٤٨ ، التى تفرض التجنيد الإجبارى على النساء وقت « السلم » ، حيث تستخدم النساء والفتيات فى شتى المجالات العسكرية والسرية والجاسوسية ، لتحقيق أهداف إسرائيل فى الأمن والتوسع حتى ولو بالجنس . فالجنس سلاح اليهود منذ القدم ، وقد أجادوا استخدامه وأتقنوه لدرجة الاحتراف وتفوقوا بذلك عن الأمم الأخرى .

ومن النادر جدًا أن تخلو قصة تجنيد جاسوس لإسرائيل من المرأة والجنس . ولم أصادف أبدًا حتى الآن فى عشرات المراجع والملفات التى بين يدى عن الجاسوسية اليهودية ، حالة واحدة لجاسوس جندته إسرائيل خلت من الجنس ، حتى فى حالة الخائنة هبة سليم التى اشتهرت باسم عبلة كامل ، فقد استغلت أنوثتها كجاسوسة إسرائيلية ، وأغرت الضابط المصرى المقدم فاروق الفقي ، وفعلت معه كما تفعل نساء الموساد فى غرف النوم .

وفى حالة الأردنية أمينة داود المفتي ، فأؤكد بأنها لم تتعاون مع الموساد بعد نصب « مصيدة العسل » المعتادة ، لكن ارتباطها جنسيًا بطيار يهودى فى فيينا – وهى المسلمة – ثم زواجهما لأمر بشع ومقيت . هذا ما حدث أيضًا مع انشراح المصرية التى سيطر عليها ضابط الارتباط الإسرائيلي بالجنس في تركيا .

إنه واقع محير وشائك ، رجال أوقعت بهم فتيات ، وفتيات أوقع بهن رجال . عالم عجيب حقًا ، كلما تبصرنا أسراره تملكتنا الدهشة وازددنا اقتناعًا بأن الجنس هو المحرك الأول للجاسوسية ، دستورها المقدس عند اليهود منذ الأزل وحتى اليوم .. أما المال فيأتى فى المرتبة الثانية مهما بدت رغبة الثراء متوحشة ، أثيرة !!

فى بناية الأمبا سادور

التحقت شولا أرازى كوهين بالموساد قانعة ، وخضعت لتدريب مبدئى فى مبنى خاص يقع في « كيريا » بتل أبيب ، وأوكلت لأمهر خبراء الموساد مهمة ترويض تلك المخلوقة العجيبة الجمال ليصنعوا منها جاسوسة ذكية ، مثقفة ، لبقة ، تجيد إدارة الحوار واجتذاب الرجال والسيطرة على أعصابهم .

ونظرًا لكونها شرقية من العراق ولم تحظ بقدر كاف من التعليم .. فقد بعثوا بها إلى لندن لتمتزج بالمجتمع والدنيا هناك وتتعلم التحدث بالإنجليزية .

وعلى مدار عام ونصف العام استطاعوا أن يستخرجوا منها خلاصة مخلوقة ثانية ، مدربة على فنون التجسس والإغواء[1] والسيطرة . وبأوراق ثبوتية مزورة سافرت إلى بيروت في سبتمبر ١٩٥٢ ، لتبدأ من هناك أولى مهامها التجسسية واثقة من قدراتها الفائقة ، لا تحمل أسلحة فتاكة سوى جسدها المثير .

وفي ساحة المطار الخارجية ، تهافت عليها سائقو الأجرة ، وأوصلها أحدهم إلى وسط بيروت حيث نزلت بفندق « الجراند أوتيل » ، وفي المساء غادرت الفندق تملأ مسامعها شهقات الإعجاب طوال تجوالها في شوارع المدينة المكتظة بالجمال .

كان عليها أن تستتر وراء وظيفة ما ، أو مهمة جاءت بها إلى بيروت ، ولم يكن الأمر بحاجة إلى إثباتات . فقد ادعت بأنها مندوبة لإحدى الشركات السياحية الأوربية ، جاءت للبحث عن وكلاء في لبنان . فانفتحت لها بذلك الأبواب المغلقة ، واقتربت كثيرًا من ترسيخ أقدامها تمهيدًا للعمل .. خاصة بعدما تركت الفندق ، وانتقلت إلى إحدى الشقق الفاخرة ببناية « الأمباسادور » الشهيرة .

كانت مهمتها الأولى البحث عن مسئول لبناني له نفوذ قوي في الدوائر الرسمية .. تستطيع من خلاله أن تنفذ إلى ما تصبو إليه .. وأخيرًا عثرت على ضالتها في شخص موظف كبير اسمه « محمود عوض » .. كان يشغل آنذاك أكثر من ست وظائف حكومية .. فذهبت لمقابلته للاستفسار عن إجراءات تمديد إقامتها ، فسقط في شباكها وخر صريع سحرها ، وتعمد تطويل الإجراءات ليراها كثيرًا ، فتركت له جواز سفرها وأخلفت ميعادها معه .. ثم اتصلت هاتفيًا به لتخبره بمرضها وأعطته عنوان شقتها ليرسل به إليها .

وكما توقعت الجاسوسة المدربة . فقد ذهب إليها اللبناني الذائب بنفسه يحمل جواز سفرها وباقة من الورود ، فاستقبلته بملابس شفافة تفضح معالم جسدها ، وكان عطرها الفواح الذكي ينشر جوًا من الأحلام والرغبة والاشتهاء .. ومنحته في النهاية جسدها مقابل خدمته .. فبات منذ تلك اللحظة عبدًا لجمالها تحركه كيفما تشاء ، ولا يرفض لها أمرًا .

---

(١) تخضع المرأة في الموساد لدورات مكثفة على يد خبراء نفسانيين ، حيث يتم إقناعها بأن تضحيتها بجسدها في سبيل إسرائيل أمر واجب لا يمت بصلة إلى الدعارة ، وفي مدرسة خاصة بذلك .. تتدرب النساء على أساليب الإثارة والإغواء .. وكذا كيفية ممارسة الجنس بشكل عملي لا للحصول على اللذة ، إنما بقصد السيطرة على الرجال المطلوب النفاذ إلى عقولهم لإخضاع إرادتهم .

انشغل محمود عوض بمعشوقته وهو المسئول المهم بإحدى الدوائر ، وشهدت شقة الأميا سادور لقاءاتهما المحرمة التي تستغرق معظم وقته . فكان ينزف مع رجولته أسرارًا حيوية للغاية تمس لبنان وأمنه . إذ كان يعوض ضعفه الشديد أمام أنوثتها الفتاكة بسرد تفاصيل عمله . وتتملكه نشوة الانتشاء عندما يجيب باستفاضة عن استفساراتها ويراها منبهرة مشدوهة « متغابية » ، وبعد انصرافه تنكب على أوراقها تكتب كل ما تفوه به ، وتخطط لما سيكون عليه الحال في اللقاء التالي .

الطابور النائم

كانت أوليات مهام شولا كوهين في بيروت ، السيطرة على أكبر عدد من المسئولين الحكوميين بواسطة الجنس ، حتى إذا ما ترقوا في وظائفهم وأصبحوا ذوي شأن في صناعة القرار ، أعيد من جديد إيقاظهم للعمل لصالح إسرائيل . وهؤلاء يطلق عليهم العملاء النائمون . فحينما يتبوءون المناصب العليا ، يسهل إخضاعهم لتمييع المواقف السياسية المستقبلية ضد إسرائيل ، ويشكلون بذلك طابورًا طويلاً من المسئولين يدور في فلك إسرائيل[1] .. وينفذ سياساتها دونما انحراف عن الخط المرسوم .

لذلك ، وسعت شولا من علاقاتها بالمسئولين اللبنانيين ، وكانت الدائرة شيئًا فشيئًا ، تتسع لتشمل موظفين رسميين بشتى الجهات الحكومية ، كلهم سقطوا صرعى الجسد الناعم الملتهب وفورانات الإثارة .

وبالطبع ، لم تكن شولا بقادرة وحدها على إشباع رغبات كل هؤلاء ، إنما عمدت بحاستها المهارية إلى التعرف على فتيات حسناوات ، باحثات عن المال ، جمعتهن حولها وسخرتهن لتوثيق دائرة معارفها . واستلزم منها ذلك تأجير شقة أخرى ، لتخفيف حدة زحام جوعى اللذاذات بشقتها .

(١) ذكرت العديد من المصادر ، أن (أشهر السياسيين اللبنانيين الذين سيطرت عليهم الموساد منذ كانوا صغارًا : كميل شمعون زعيم الميليشيا المسيحية الذي وصل لمنصب رئيس الجمهورية ، والوزير بيار الجميل ، وابنه بشير الجميل الذي أغتيل بعد ٢١ يومًا من انتخابه رئيسًا للجمهورية . وإيلي حبيقة رئيس جهاز المخابرات اللبنانية « الذي اغتيل بيد الموساد مؤخرًا .. » والمئات غيرهم) .

وفي عام ١٩٥٦ كانت تستأجر خمسة منازل في مختلف أحياء بيروت ، مجهزة بأفخر أنواع الأثاث .. ومزودة بكاميرات دقيقة وأجهزة تسجل كل ما يجرى بغرف النوم . وكانت أشهر فتاة لديها ، طفلة أرمينية تدعى « لوسي كوبيليان » عمرها أربعة عشر عامًا تخلب بجمالها الألباب وتذيب العقول .

هذه الطفلة المرأة كانت إحدى نقاط القوة في شبكة شولا .. فقد تهافت عليها الرجال كالذباب ، وسجدوا لجمالها وفتنتها . أما شولا - الزعيمة - فآثرت ألا تمنح جسدها إلا لكبار المسئولين ذوى المراكز الحساسة كى تستخلص بنفسها ما تريده منهم.

ولما تزاحم العمل ، رأت الموساد أن تعضد شولا في مهمتها ، فضمت إليها اليهودية « راشيل رافول » في طرابلس . وبانضمام راشيل ، اتخذت شبكة شولا مسارًا جديدًا لم يكن في الحسبان .. فالعضوة الجديدة مدربة وماهرة جدًا .. ولها خبرة طويلة بأعمال الدعارة في لبنان .

وبالتعاون مع « إدوارد هيس » ضابط الارتباط الإسرائيلي في بيروت ، أمكن القيام بعدة عمليات جريئة لتهريب أموال اليهود اللبنانيين المهاجرين لإسرائيل ، بوسيلة « إشهار الإفلاس » ، التي سهلت عملية « إميل نتشوتو » التاجر اللبناني اليهودي ، الذي هرب لإسرائيل بعدما سرق ملايين الليرات من البنوك والتجار . وكذا عملية « إبراهيم مزراحي » التاجر الطرابلسي الشهير الذي هرب أيضًا بالملايين إلى اليونان ، ثم لإسرائيل ، بينما انخرطت زوجته « ليلى مزراحي » في خدمة الشبكة .. لتسهيل عمليات تهريب أخرى بما لها من علاقات بزوجات أثرياء اليهود .

وبتهريب يهود لبنان بأموالهم المسروقة إلى إسرائيل .. أضير الاقتصاد اللبناني ضررًا بالغًا ، واضطرت بعض المصارف إلى الإستغناء عن خدمات بعض موظفيها المتورطين ، وكاد للعملية كلها أن تنكشف لو لم يكن هناك مسئولون كبار أمكن السيطرة عليهم من قبل .. استطاعوا في الوقت المناسب عمل تغطية للفضيحة وإخمادها إلى حين .

جنت شولا كوهين ثمار عملها ، واستشعرت قيمة مهمتها في بيروت للسيطرة على الكبار بالجنس ، ذلك لأن محمود عوض أول الخاضعين لها لم يتوان عن التستر على نشاطها ، ومساعدتها بما يملك من سلطات في نهب اقتصاد بلده .

هكذا دفع النجاح شولا كوهين لتطور من أسلوب عملها ، وتنتهج مسلكًا أكثر فعالية في العمل .

ابن الجنوب العاشق

بعدما اتسع نطاق شبكة الجاسوسية ، وبالتالى تعددت مصادر التقارير والأسرار ، كانت شولا تعانى من صعوبة نقل المعلومات المتدفقة عليها إلى إسرائيل ، ورأت أن الحل يكمن فى تجنيد أحد اللبنانيين قاطنى الجنوب نظرًا لسهولة تسلله إلى إسرائيل بالمعلومات والتقارير ، دون أن تثير تحركاته أحدًا .

فكرت جديًا بهذه الحيلة ، فى ذات الوقت الذى سعت فيه لإيجاد مركز يجمعها بجواسيسها . وبواسطة كبار المسئولين اللبنانيين ، استأجرت عميلة الموساد إحدى الكافيتريات بشارع « الحمراء » ، وحولتها إلى « بار » يزدان بالديكورات والحسناوات أطلقت عليه اسم بار « الرامبو » .

ومع الخمر والليل وجدت ضالتها المنشودة فى شخص ابن الجنوب الساذج – محمد سعيد العبد الله – الذى حملته ساقاه ذات مساء إلى البار .. فتسمر منبهرًا باللحم الأبيض يتراقص ويتمايع ، معلنًا ويعلن عن مواطن الإثارة في صراحة .. وثقلت عليه رغباته المكبوتة فتاه عقله ، وأحكمت شولا سيطرتها عليه بعدما تأكد لديها أنه سقط لآخره فى براثنها .

وفى ليلة حمراء أريقت فيها الخمور المعتقة ، وذبلت العيون وتراخت الأعصاب فى وهن، فاتحته فى الأمر . وكم كانت واثقة من إجابته ، فإنه على استعداد لأن يفعل كل شيء فى سبيل ألا يخسرها ، أو يضيع لحظة واحدة من أوقات المتعة التى أدمنها . فحملته بالتقارير والمعلومات ، وتسلل بها إلى الجانب الإسرائيلى .. ولم يرجع إليها بأوامر الموساد الجديد فقط، بل اصطحب معه ابن عمه « فايز العبد الله » الشاب المغامر .. الذى يعرف الدروب الجبلية ومواطن الضعف الأمنى بمناطق الحدود الجنوبية .

وعلى انفراد ، أخبر شولا بأن ابن عمه مستعد هو الآخر للانضمام إلى شبكة الجاسوسية مقابل المال . فلم تمنحه شولا المال وحده ، بل وهبته أجمل فتياتها اللاتى ضيعن لبه ، وسحرنه بما لم يألفه من متع النشوة ، ليدور فى النهاية كسابقيه فى فلك الخيانة والتردى .

وأخيرًا جاء لها سعيد بابن العم الثالث « نصرت العبد الله » طائعًا مختارًا هو الآخر . وكأنما عائلة العبد الله قد جبلت كلها على الخيانة واعتادتها ..

وبذلك أمكن لشولا أن تنقل ملفات تقاريرها أولاً بأول عبر هؤلاء الثلاثة إلى قادتها في إسرائيل دونما صعوبة .. أو تشكك من الجهات الأمنية اللبنانية ..

بذلك .. تحول ملهى الرامبو إلى مركز لاصطياد الجواسيس وملتقى لهم في ذات الوقت، وأيضًا ، ليعاين كبار الموظفين اللبنانيين الفتيات المثيرات المختارات فتتضاعف خدماتهم لشبكة شولا .. في وقت لم تكن ظروف الأمن في لبنان مهيأة لتتبع النشاط التجسسي الإسرائيلي في بيروت ، بسبب انشغال الميليشيات الطائفية بتسليح نفسها ، على حساب قوة الجيش والأمن الداخلي .

لقد انقلبت المفاهيم العسكرية في لبنان حتى أن قوى الأمن الداخلي كانت في حالة صراع لا يتوقف مع الجيش . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تبودلت الأدوار أيضًا وتسلمت قوى الجيش حراسة بعض المرافق العامة بدلاً من قوى الأمن الداخلي ، واستعمل الجيش كنقاط أمنية منفردة بعيدًا عن ملاحقة الميليشيات العسكرية ، التي كانت تستولى على آليات الجيش ومدرعاته وأسلحته ، واعتقاد رئيس الجمهورية اللبناني في قصر « بعبدا » أنه هو لبنان ، وهو الشرعية .

وبسيطرة العقلية العائلية[1] على نظام إدارة الحكم والدولة ، كان هناك استرخاء أمني أدى إلى تغلغل الجواسيس وانتشارهم في ربوع لبنان ، حيث لا يوجد جهاز مخابراتي نشط يتعقب الجاسوسية المضادة .. أو يعمل على وقف سيلان المعلومات الحيوية عن الدولة إلى العدو المتربص في أقصى الجنوب .

(١) أو كما يسميها الفرنسيون العقلية الأبوية « Mentalite patriarcale » وكانت تمثلها كلمة لويس الرابع عشر : أنا الدولة .

عزيز الأحدب

تغافل محمود عوض ، المسئول اللبناني الكبير عما تقوم به شولا في لبنان .. مكتفيًا بالليالي الملتهبة بين أحضان الحسان ، ولما أدرك قيمة الخدمات التي يؤديها مقابل الجنس، صارح شولا بأنه الخاسر بلا شك .. وطالبها بمقابل مادي حيث أن هدفه الأسمى في الحياة هو المال والثراء .

انزعجت شولا لطلبه الجديد فهو ثرى في الأصل .. وما كان يطلب منها سوى فتيات صغيرات جميلات يعدن إليه شبابه .

وبرغم سيطرتها عليه بوسائل عدة ، منها تصويره في أوضاع شائنة مع أكثر من تسع فتيات ، إلا أنها نفت فكرة تهديده ، ذلك لأنه يعرف جيدًا كل المتعاملين معها من ذوي المراكز ، وكتبت بذلك إلى رؤسائها فوافقوا على رأيها ، فأغدقت عليه الأموال مقابل تقاريره عن موظفي الدولة والدوائر الرسمية ، التي كان يحملها أبناء العبد الله إلى الإسرائيليين عبر الحدود في أوقات معينة متفق عليها .

وفي مايو ١٩٥٨ ، وصل إلى بيروت ضابط سوري مسئول ، اجتمع من فوره بأحد ضباط الأمن اللبنانيين ، وأبلغه بنشاطات شولا كوهين المشبوهة .. وإحاطتها بأسرار غاية في السرية عن الجيش اللبناني والسوري معًا .. تجلبها من خلال شخصيات على مستوى المسئولية في البلدين على علاقة بها .

كانت خيبة أمل الضابط السوري كبيرة ، عندما أخبره زميله اللبناني بأن شولا بعيدة عن الشبهات . وتم حفظ محضر الاجتماع في الأدراج برغم تأكيدات السوريين .

وفي بداية عام ١٩٦١ وقع محضر الاجتماع تحت يد ضابط لبناني شهم اسمه « عزيز الأحدب »[1] فقرأ ما تحويه السطور .. وبدأ في جمع المعلومات في سرية تامة عن شولا .. وفوجئ بعد عدة أشهر من المراقبات والتحريات بأن الفتاة تدير أكبر شبكة جاسوسية إسرائيلية

(١) عزيز الأحدب .. ضابط لبناني مسلم .. قام بعد ذلك في مارس ١٩٧٦ بحركة انقلاب ضد رئيس الجمهورية « سليمان فرنجية » وعزله من منصبه .. ثم عاد بقواته إلى ثكنات الجيش مرة ثانية .

في لبنان .. امتدت نشاطاتها لتشمل كل مناحي الحياة المدنية والعسكرية ، ليس ذلك فحسب، بل تجمعت لديه أدلة كافية ، بأنها وراء عمليات تهريب اليهود اللبنانيين إلى إسرائيل ، بواسطة « آل العبد الله » الذين يجيدون استخدام الدروب الوعرة في الجنوب .

هكذا ، وبعد تسع سنوات من التجسس ، ألقى عزيز الأحدب القبض على شولا كوهين في أغسطس ١٩٦١ ، واعترفت في الحال على شركائها ، واثقة من أن نجدة ستجيئها حالاً من إسرائيل .

وأمام القضاء العسكري اللبناني تكشفت حقائق مذهلة ، عن تورط شخصيات عديدة مسئولة ، في إمدادها بأدق الأسرار والتقارير التي تمس لبنان وكيانه .

أصدرت المحكمة في ٢٥ يوليو ١٩٦٢ حكمًا بالسجن مدة عشرين عامًا على شولا كوهين ، التي أطلق عليها اليهود لقب « الزعيمة » و ١٥ عامًا على زميلتها راشيل رافول .

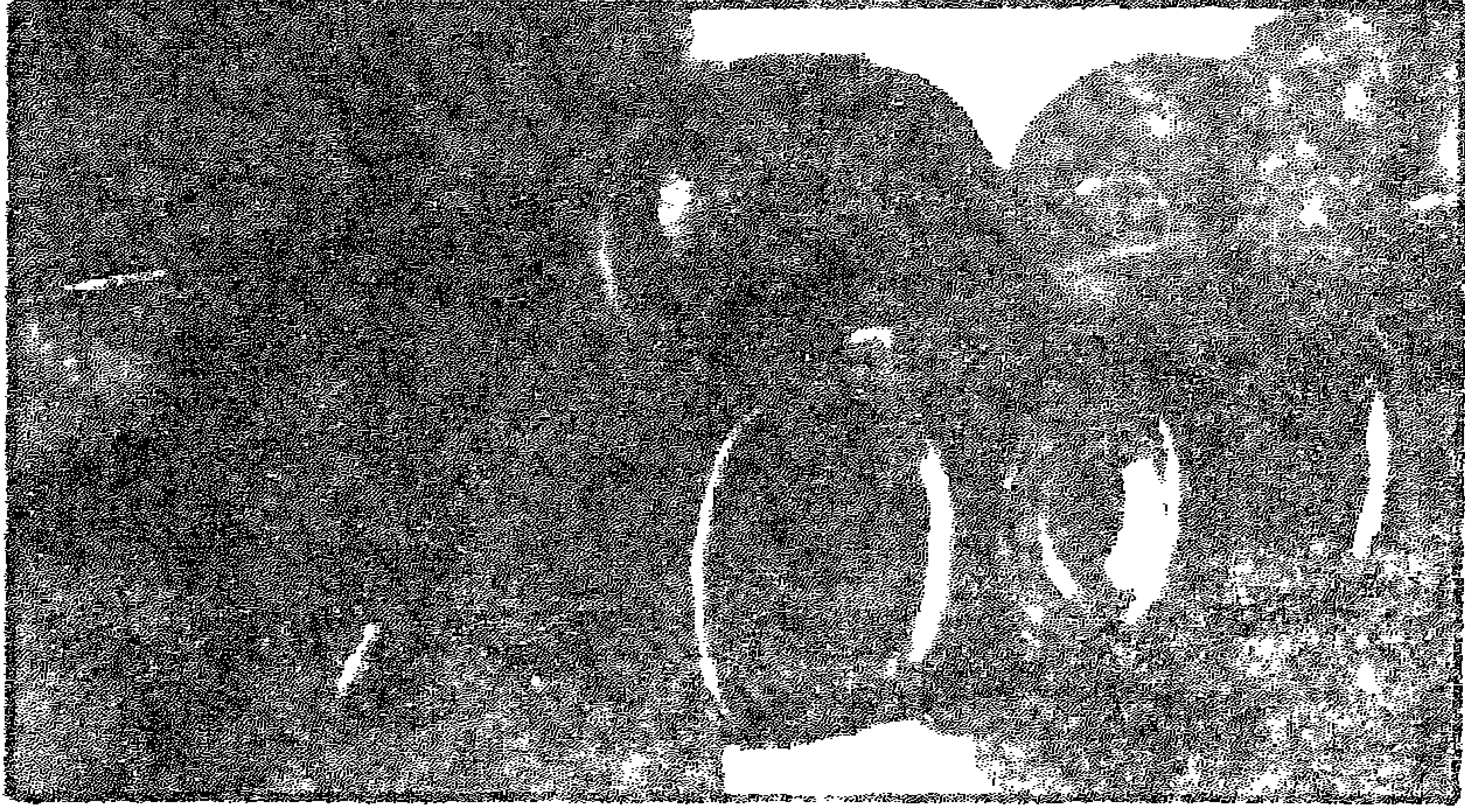
أما محمود عوض فقد قضى نحبه في سجن الرملة في يونيو ١٩٦٢ ، إثر نوبة قلبية فاجأته قبل الحكم عليه ، فلقى جزاء ربه وحكمه العادل .

لكن المثير للدهشة حقًا ، أن يصدر حكمًا بسجن آل العبد الله الثلاثة عشرون شهرًا فقط لكل منهم .. إلى جانب أحكام أخرى بالسجن تقل عن عام على مسئولين لبنانيين ضالعين في الجاسوسية ، بما يؤكد ما ذكرناه آنفًا من ميوعة القوانين الجنائية التي يعمل بها في لبنان ، وكانت سببًا رئيسيًا من أسباب تحول بيروت إلى أشهر عاصمة عربية يأمن فيها الجواسيس على رقابهم ، وساحة تباع فيها الأسرار القومية بأجساد النساء وتشترى ..!!



أشخاص وأدوات التجسس ..!!

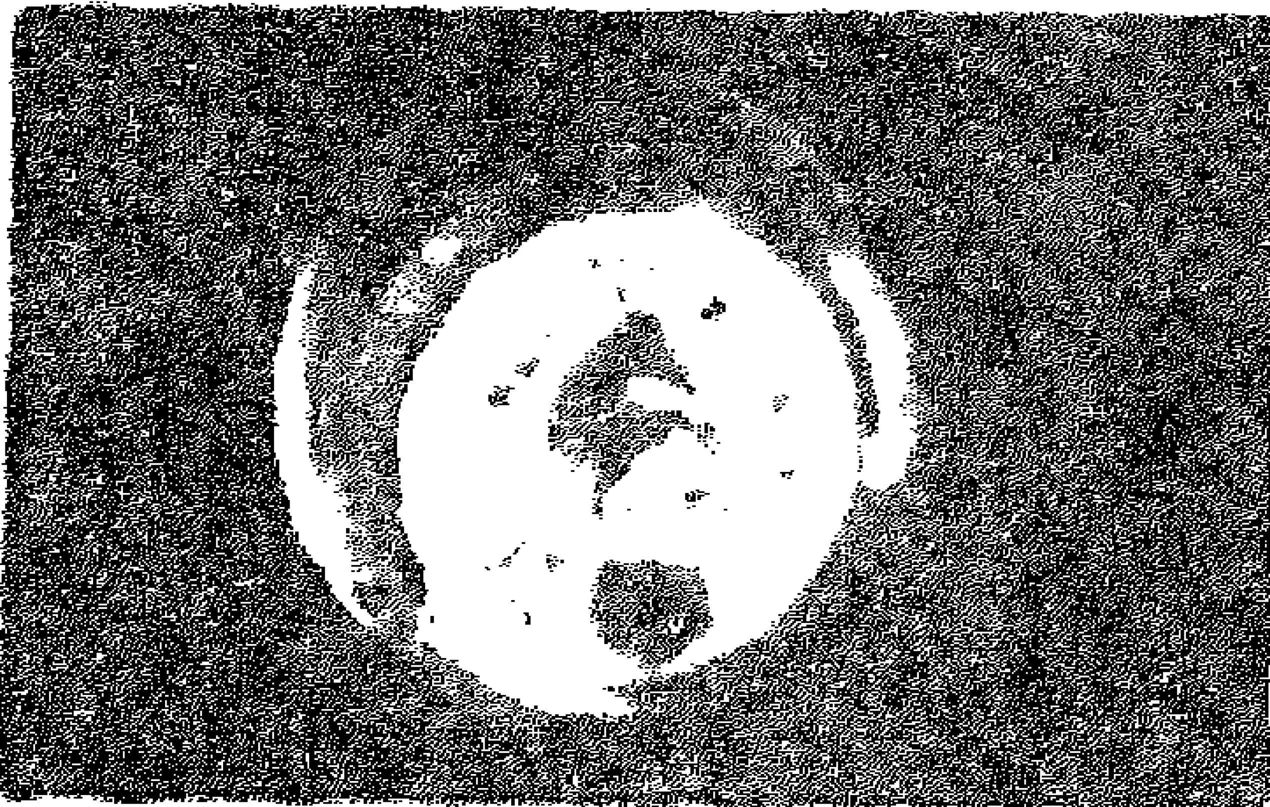
أدوات بريئة فى مظهرها صنعت خصيصًا للجواسيس :



منظار مكبر وكاميرا فى وقت واحد



قلم هو بالأصل كاميرا دقيقة



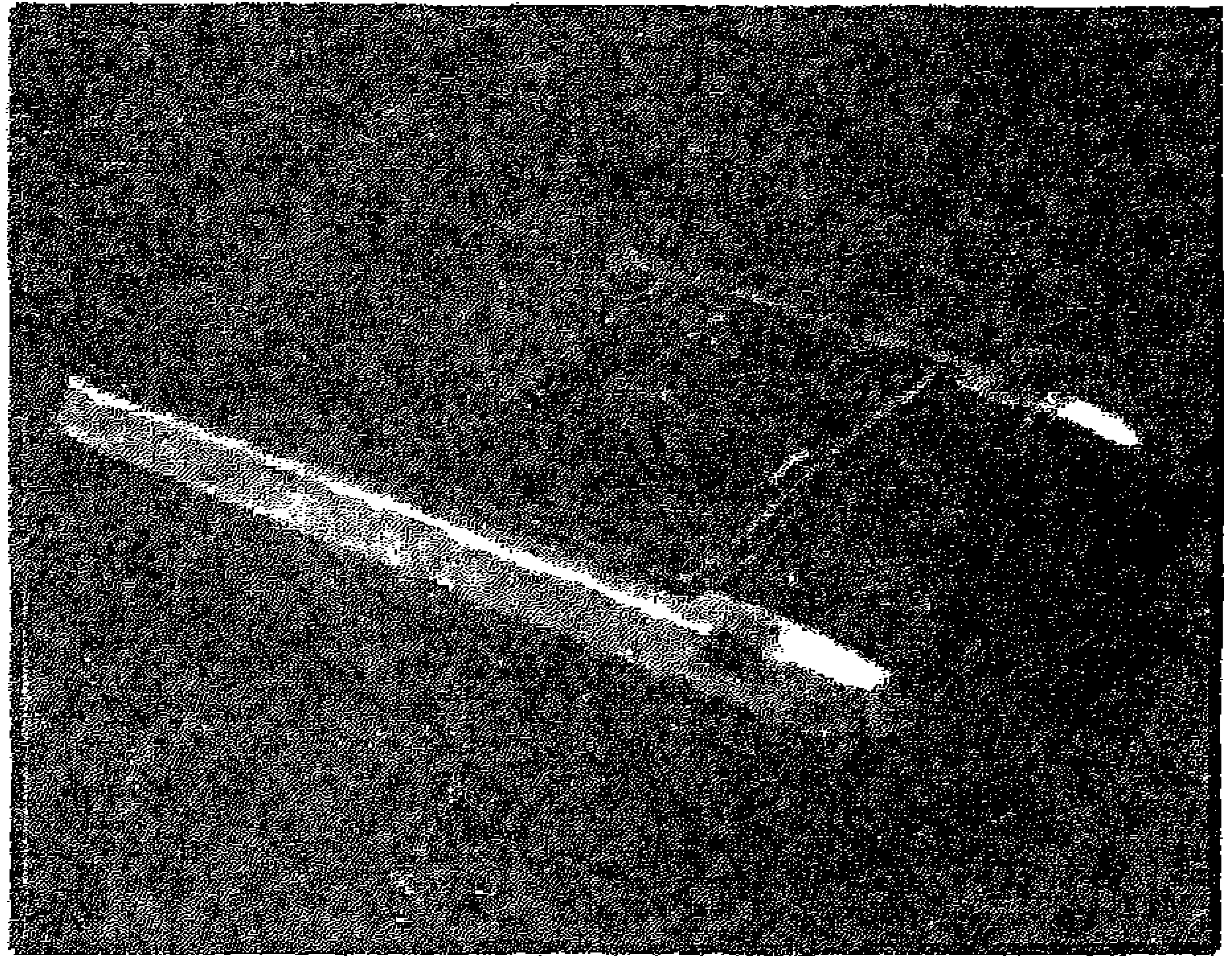


أشكال لساعات مختلفة وكاميرا أيضًا



ولاعة ذات عدسة قوية لكاميرا ثمينة





أجهزة راديو عادية لا تثير شكوك رجال الجمارك والأمن .. لكنها أجهزة استقبال يعتمد عليها الجواسيس في تلقي الرسائل المشفرة عبر المسافات البعيدة



جاسوس الموساد إبراهيم شاهين
آخر ما طلبه قبل إعدامه .. سيجارة



انشراح موسى .. حالة شاذة وغريبة ..
أعتقها السادات فاعتنقت اليهودية فى إسرا



عادل إبراهيم شاهين .. أصغر جاسوس فى العالم .. غير اسمه إلى «رافى» .. وعاش مسجونًا نفسيًا فى إسرائيل



مغيب العقل ..سقط رجب عبد المعطى.. حيث الخمر والنساء وصكوك الخيانة فى أوربا



نايف المصطفى البوسطجى العاشق

الذى شنقه المساجين ..!!



هبة سليم فى المنتصف ترقص مع اليهوديات .. إنها أول جاسوسة عربية للموساد
تم تجنيدها لعوامل أيديولوجية بعيدًا عن المال والجنس



شاكر فاخورى يلبس الطاقية الصوف ويبتسم للوهم اللذيذ .. ووعود الموساد



محمد كامل - ماريو - وقد صعقته المفاجأة وهو يسقط على أيدى رجال المخابرات المصرية

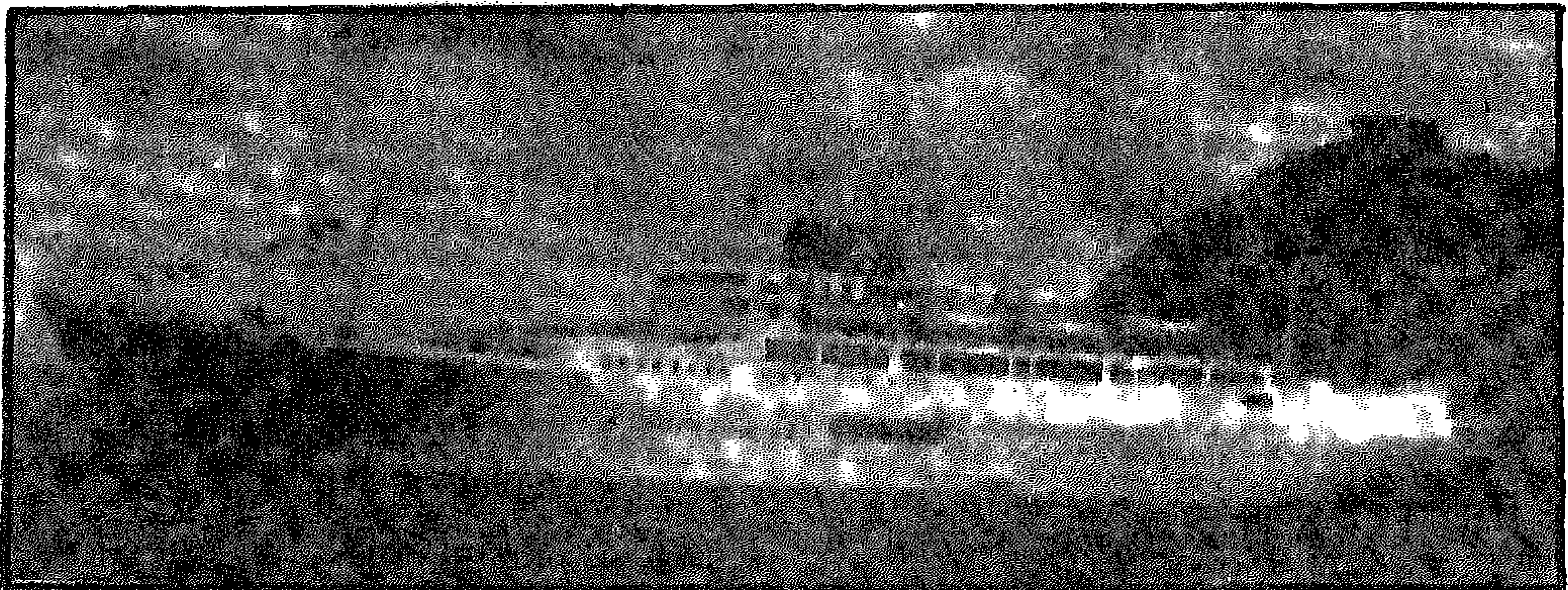


توماس .. زعيم أول شبكة جاسوسية من الشواذ

أحمد ضاهر فى ملهى
الفونتريكال ببيروت حيث
الرقص والمجون ونساء الموساد



الباخرة أوسيانوس فى بحر « إيجة » ..
ورحلة الخيال والجاسوسية





الضابط اللبنانى عزيز الأحدب .. له تاريخ طويل فى الوطنية والفداء ..
ويعزى إليه انكشاف شبكة شولا كوهين فى بيروت.



شولا كوهين فى بيروت قبل إلقاء القبض عليها .. وبرفقتها راشيل رافول
إحدى عضوات شبكتها التجسسية .. وقيل إن شولا تعد من أمهر من عملن فى الموساد لصالح إسرائيل



السلطان عبد الحميد : « إذا تجزأت إمبراطوريتي يومًا ما، فإنكم قد تأخذونها بلا ثمن . أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني ، لأهون علـي من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتي .. وهذا أمر لا يكون »



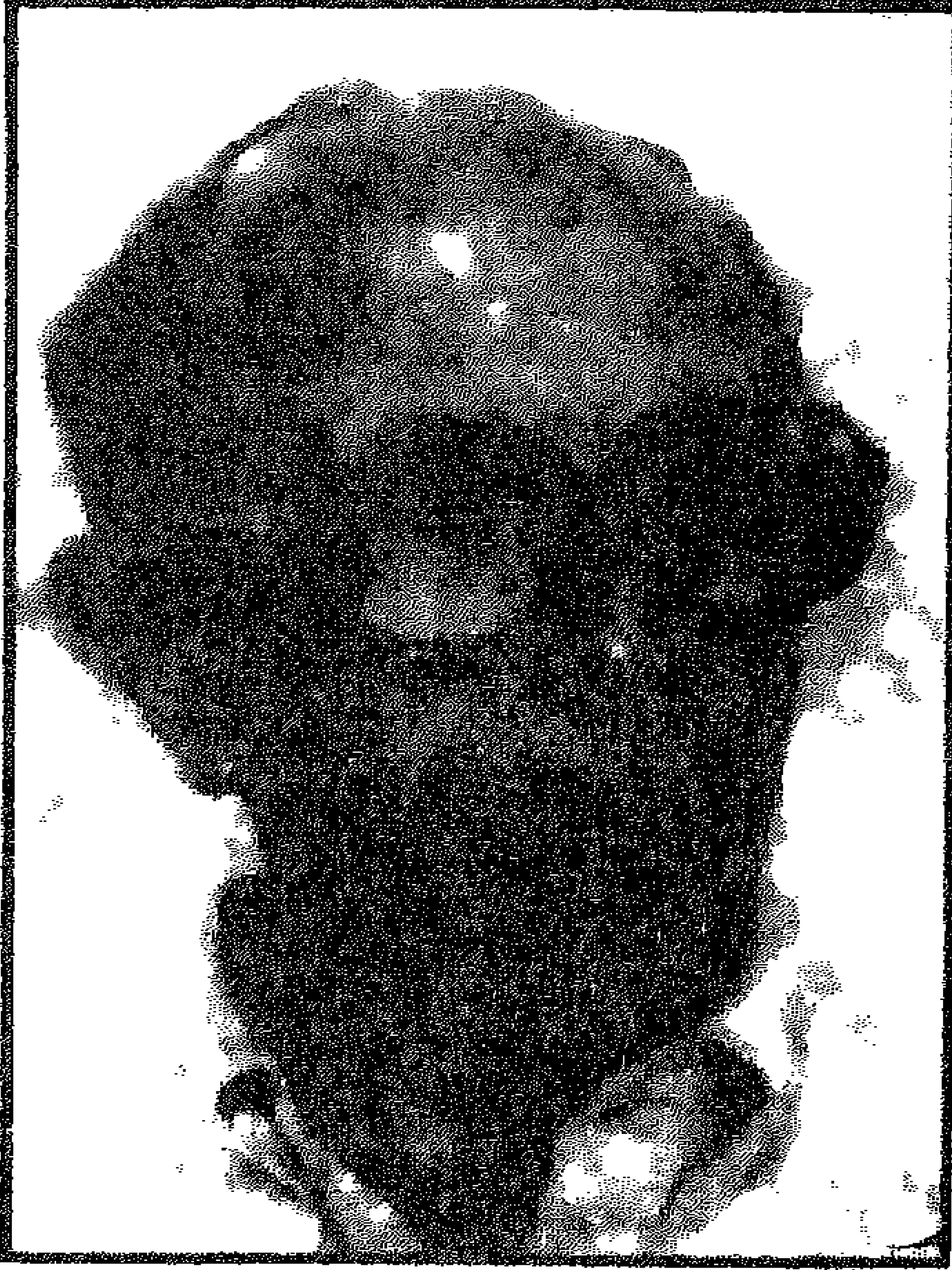
تيودور هرتزل أبو الصهيونية الذى سعى لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .. وكان وراء قيام أول جهاز مخابرات صهيونى فى سويسرا عام ١٨٩٧ مهمته تهجير اليهود إلى فلسطين



ديفيد بن جوريون .. واضع اللبنات الأولى لجهاز الموساد عام ١٩٣٧ .. وأول من نظم أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية وحدد اختصاصاتها



جولدا مائير .. كانت تسخر من الدين .. وتقول « نحن الذين اخترنا الله » .. وحرصت على مقابلة العديد من الخونة العرب .. أشهرهم هبة سليم .. حيث بالغت في الترحيب بها وتكريمها



زيفى زامير رئيس الموساد .. كان له دور بارز فى توطيد العلاقات بجهاز المخابرات الإيرانى (السافاك) وإيجاد قاعدة مخابراتية إسرائيلية فى إيران للتجسس على العراق



الدكتور هويدا رئيس وزراء إيران أيام الشاه ، ورئيس المخابرات الإيرانية الدموى الجنرال نصيرى .. لم تفدهما السلطة أو علاقتهما بإسرائيل .. وذاقا مر العذاب قبل إعدامهما

المصادر والمراجع

إضافة إلى الملفات الأمنية .. ومحاضر المحاكمات .. والوثائق التى نشرت بالصحف فى مصر والعراق ولبنان :

١ – حرب المخابرات – سعيد الجزائرى – دار الجيل بيروت ١٩٨٩

٢ – المخابرات والعالم – سعيد الجزائرى – دار الجيل بيروت ١٩٨٩

٣ – الموساد .. الملفات السرية – رولاند راين – ترجمة طلعت غنيم ، مجدى عبد الكريم – مكتبة رجب ١٩٩٣ .

٤ – المنطقة العربية فى ملف المخابرات الصهيونية – د. صالح زهر الدين – المركز العربى للأبحاث التوثيقية بيروت ١٩٨٥ .

٥ – علم الأمراض النفسية – د. كمال دسوقى – دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٤

٦ – تقنية التجسس – غراهام يوست – ترجمة إلياس فرحات – دار الحرف العربى بيروت ١٩٩٣

٧ – القصة الحقيقية لمنظمة التحرير الفلسطينية – نيل . س. لفنجستون ، دافيد هاليفى – الزهراء للإعلام العربى القاهرة ١٩٩٢ .

٨ – أمراء الموساد – يوسى ميلمان ، دان رافيف – ترجمة محمود برهوم ، حزامة حبايب – المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٩١ .

٩ – الجاسوسية الإسرائيلية تحت المجهر – أيمن العلوى – دار الرافد لندن ١٩٩٣ .

١٠ – وثائق حرب فلسطين – الملفات السرية للجنرالات العرب – د. رفعت سيد أحمد – مكتبة مدبولى القاهرة .

١١ – التوراة .. من آدم حتى سبى بابل – محمد قاسم محمد جامعة قطر ١٩٩٢ .

١٢ – التوراة السامرية – ترجمة الكاهن السامرى أبو الحسن إسحق الصورى – دار الأنصار القاهرة ١٩٧٨ .

١٣ – اليهودية – د. أحمد شلبى . مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٨ .

١٤ – دراسات حول جنوب لبنان – د. محمد أمهز وآخرون . المجلس الثقافى اللبنانى الجنوبى بيروت ١٩٨١ .

١٥ – البلاغ رقم واحد – العميد الركن عزيز الأحدب – دار المعارف بمصر ١٩٧٧ .

١٦ – صلاح نصر : الثورة المخابرات النكسة – عبد الله إمام .

١٧ – حرب الثلاث سنوات – مذكرات الفريق أول محمد فوزى – دار المستقبل العربى ١٩٨٤ .

١٨ – أعداد مجلة الدفاع الجوى من أغسطس ١٩٧١ إلى يناير ١٩٧٥ .

١٩ – أعداد مجلات : العربى « الكويتية » ، الوسط ، الحوادث ، العالم ، النهضة ، الدوحة ، الشاهد ، المشاهد ، الفرسان ، المستقبل ، الشروق ، إقرأ ، الدستور ، الوطن العربى ، الكفاح العربى ، الأهرام العربى ، روز اليوسف ، الحرية « السورية » ، الصياد ، أكتوبر ، المصور .

٢٠ – أعداد من الصحف القاهرية : الأهرام . العربى « الناصرى » . اللواء العربى ، الأخبار ، الميدان ، الأحرار ، الدستور .

٢١ – أعداد من الصحف العربية : السياسة ، اليقظة ، الهدف ، الراية ، الاتحاد ، الخليج ، الملتقى الدولى ، الحياة « اللندنية » ، الشرق الأوسط .

صدر للمؤلف

- أمينة المفتى .. أشهر جاسوسة عربية للموساد .
- العملية 007 .. وهروب أول طائرة حربية عربية لإسرائيل .
- جواسيس الموساد العرب .. أشهر ٢٥ جاسوسًا .

يصدر قريبًا :

- التاريخ الأسود للموساد في عواصم العالم . « تفاصيل عمليات الموساد القذرة ».
- أحمد الحلاق .. أول جاسوس أعدم فى لبنان .
- نساء فى مصيدة الجاسوسية .. بسبب الحب .
- مصيدة العسل .. وكيفية التحكم بأعصاب الجواسيس .
- سيكولوجية الجاسوس .. تشريح مرض الخيانة .

المحتويات

الموضـــــــــوع	الصفحة
تحـــذير	٥
شكر وتقدير	٧
إهـــداء	٩
مقـــدمة	١١
مدخـــل	١٥
الفصل الأول : فى مصر	٢٥
فؤاد حمودة	٢٧
محمد كامل	٥٩
رجب عبد المعطى	٨٧
نبيل النحاس	١١١
شاكر فاخورى	١٢٣
جمال حسنين	١٣٩
السيد محمود	١٥٣
انشراح موسى	١٦٥
هبة سليم	١٩١
توماس المصرى	٢٠٥
عبد الفتاح عوض	٢١٧
سمير باسيلى	٢٣١
بهجت حمدان	٢٤٥
عمر حمودة	٢٦١

الموضـــــــوع	الصفحة
الفصل الثانى : فى العراق	٢٧٧
زكى حبيب	٢٨٧
عيزرا خزام	٢٩٩
ناجى زلخا	٣١٣
يعقوب جاسم	٣٣١
فيكتور مناحيم	٣٤٧
عبد الله الشيعى	٣٦٣
إبراهيم موشيه	٣٧٥
الفصل الثالث : فى لبنـــان	٣٨٩
خميس بيومى	٣٩٧
أحمد ضاهر	٤١١
نايف المصطفى	٤٤٧
سعيد العبد الله	٤٦٧
أشخاص وأدوات التجسس	٤٨١
المصادر والمراجع	٤٩٥
صدر للمؤلف	٤٩٧

جواسيس الموساد العرب

أشهر ٢٥ جاسوساً

• لا ضرورة الآن لعلم « الجاسوسية » والتجسس وتجنيد أشخاص ذوى سمات نفسية ودراية مهنية وعقلية تكنولوچية.. لأن الكمبيوتر أصبح يؤدى دوراً أخطر من ذلك خلال الحرب والسلم . ولذلك حينما نقرأ تلك القصص المستمدة من أدب الجاسوسية السياسى .. نرى أن الكاتب فريد الفالوجى يهدف إلى عرض نماذج .. ودلالات مقتطفة من حياة سياسية التهمت عقولاً .. ومزقت إنسانية الفرد .. وحولته فى معظم الأحيان إلى آلة بلا حس .. بلا صوت .. بلا نبض .

• فالأنظمة السياسية أيًا كانت فى العالم الثالث .. أو الأول .. لم يكن الإنسان فى حد ذاته يشغل اهتمامًا على خارطة التسابق النووى والتسلح المعرفى .. والبحث عن خيوط شبكات التجسس وحماية الأمن القومى لم تكن تتعامل مع صناعة الجاسوس بأنه فى المقام الأول مجرد إنسان .. ولكنها تحشوه بالإمكانيات العلمية والعملية وتقذف به فى أرض الهلاك .

• وهذه الصورة الآن قد بدأت تختلف مع النظام العالمى الجديد ، فربما - فى السنوات القادمة - لن يكون هناك شيء اسمُهُ « سرى جداً » .. فالعولمة بما تحمله من قدرات فائقة ستجعل الكرة الأرضية غرفة واحدة أسرارها مكشوفة ، وأفكارها عارية .

• ويرى الكاتب فريد الفالوجى من خلال هذه القصص التى يقدمها .. أنها تمثل رموزاً معينة لحقبة من تلك الحقب التى عانت فيها الشعوب وعاشت تكافح وتناضل من أجل بلادها .. ولا سيما القصص الخاصة بالتجسس لحساب المخابرات الإسرائيلية .. فقد كانت تشغلنا ، وأعطينا لها اهتماماً بالغاً لأننا كنا ولا نزال فى صراع حربى وتكنولوچى مع إسرائيل .

من المقدمة



فريد الفالوجى

- من مواليد المنصورة ج. م. ع.
- تخرج فى كلية الآداب جامعة عين شمس قسم الدراسات الكلاسيكية ، عام ١٩٨٢ ..
- كاتب صحفى فى أكثر من جريدة مصرية وتخصص منذ سنوات فى مجال قضايا المخابرات والجاسوسية ..
- نشرت له أكثر من مائة حلقة فى الجاسوسية اعتماداً على ملفات الجهات الأمنية فى أكثر من دولة عربية ..
- تميزت معالجته لقضايا الجاسوسية بدراسة سيكولوچية الج... والخونة ..
- يعتبر الجانب الأ... اهتماماته فى ... الجاسوسية فى م... وملاحقة عملاء جها... الإسرائيلى بقصد ك... وفضح أساليبهم .

